المركز القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة

# الكاتدرائية

تأليف: سير هيوج والبول

ترجمة: سمير محفوظ بشير

all shall be well - and all shall be well - and
all manner of thing shall be well

1441

سلسلة الإبداع القصصي

كتب المؤلف سير هيوج والبول رواية "الكاتدرائية" عام 1922، ولأن والده كان يعمل أسقفًا لمدينة أدنبرة بإنجلترا، لذا نقول إن له خبرة كافية فى هذا المجال.

هذه الرواية من كلاسيكيات الأعمال الروائية الإنجليزية التى ظهرت فى بدايات القرن العشرين، فيها يمكن لنا أن نتلمس ذلك الصراع المحتدم بين العاملين فى مجال واحد، الكل يريد أن يكون هو الأول، حتى لو كان مسرح هذا النشاط هو ...الكاتدرائية.

هذه الرواية نشرت عشرات المرات منذ ظهورها الأول، وما زالت تنشر حتى الآن فى إنجلترا وأمريكا، وقد حولها الكاتب إلى مسرحية عام 1937.

هذا المؤلف الروائى، يعتبر من أشهر الكتاب البريطانيين خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، وقد جنى ثروة طائلة من نشاطه هذا، وحصل على درجة فارس عام 1937 على يد الملك جورج الخامس، وهو يصنف فى إنجلترا على أنه فى مستوى الروائيين أنتونى ترولوب، وتوماس هاردى، وهنرى جيمس.

# الكاتدرائية

رواية

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1441
- الكاتدرئية
- سير هيوج والبول
- سمير محفوظ بشير
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة رواية :

The Cathedral

By Hugh Walpole

---

حقوق والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة.

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة.ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦
فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

**Cairo، El Gezira،EL Gabalaya St. Opera House**

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526Fax: 27354554

# الكاتدرائية

(رواية)

تأليف : سير هيوج والبول
ترجمة: سمير محفوظ بشير

2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

والبول، هيوج
الكاتدرائية، تأليف: سير هيوج والبول، ترجمة: سمير محفوظ بشير
ط ١ ، القاهرة، المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠
٥٢٤ ص، ٢٤ سم
١ - القصص الإنجليزية .
(أ) بشير ، سمير محفوظ (مترجم)
(ب) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع: ٢٢٣٥٢/ ٢٠٠٩
الترقيم الدولى: I.S.B.N 978 - 977- 479 - 718 - 6
**طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية**

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

# المحتويات

رقم الصفحة

**الكتاب الأول: المقدمات** ........ 7
الفصل الأول: آل براندون ........ 9
الفصل الثانى: آل روندر ........ 29
الفصل الثالث: يوم من أيام جوان ........ 43
الفصل الرابع: الفيل الوقح ........ 67
الفصل الخامس: فولك بجوار النهر ........ 87
الفصل السادس: ضباب سى تاون وغبار الكاتدرائية ........ 101
الفصل السابع: يوم روندر ........ 125
الفصل الثامن: ابن – أب ........ 149
**الكتاب الثانى: الممر الهامس** ........ 167
الفصل الأول: الساعة الخامسة – السحابة الخضراء ........ 169
الفصل الثانى: أرواح يوم الأحد ........ 177
الفصل الثالث: مقدمات هذا اليوم من شهر مايو ........ 193
الفصل الرابع: القلب الأصيل ........ 209
الفصل الخامس: فولك بجوار النهر ........ 235
الفصل السادس: هروب فولك ........ 259

الفصل السابع: براندون يرتدى دروعه.................. 281

الفصل الثامن: الرياح تهب على المنزل.................. 303

الفصل التاسع: المعركة.................................. 313

**الكتاب الثالث: الاحتفال باليوبيل**.................. 337

الفصل الأول: يوم الخميس، ١٧يونيو: توقعات.............. 339

الفصل الثانى: يوم الجمعة، ١٨يونيو: خيال يقابل خيالا.......... 367

الفصل الثالث: يوم السبت، ١٩يونيو: الحفل الراقص........... 385

الفصل الرابع: يوم الأحد، ٢٠ يونيو: فى غرفة النوم.......... 405

الفصل الخامس: يوم الثلاثاء، ٢٢ يونيو: ١- الكاتدرائية.......... 421

الفصل السادس: يوم الثلاثاء، ٢٢ يونيو: ٢- المعرض............ 435

الفصل السابع: يوم الثلاثاء، ٢٢يونيو: ٣- احتفال المشعلات......... 451

**الكتاب الرابع: الموقف الأخير**........................ 461

الفصل الأول: فى منزل روندر: روندر يتقابل مع القس ويستون..... 463

الفصل الثانى: اثنان فى المنزل......................... 477

الفصل الثالث: مقدمات المعركة.......................... 495

الفصل الرابع: الجولة الأخيرة........................... 507

# الكتاب الأول

# المقدمات

## الفصل الأول

# آل برانـدون

ولد آدم براندون فى ليتل إمبتون الواقعة فى مقاطعة كنت بإنجلترا عام ١٨٣٩، ثم تعلم فى مدرسة كنج، وبعدها التحق بكلية بمبروك، كمبردج، ثم التحق بعد ذلك بالسلك الكهنوتى الخاص بالكنيسة الإنجليزية الأسقفية عام ١٨٦٣، وعين قسا فى كنيسة القديس مارتن، ثم عمل مساعدا لأسقف ورشستر؛ وفى عام ١٨٧٥، رضى أن يعيش فى بلدة بومفريت، واستمر مقامه هناك اثنى عشر عاما، ولم يحضر لبلدتنا إلا فى عام ١٨٨٧. عمل أولا بدرجة "كانون"، ثم رقى إلى درجة "أرشدياكون" بعدها بقليل. بعد معيشته معنا لمدة عشر سنوات، أصبح له نفوذ هائل مع قوة شخصية مذهلة، هذا أكسبه منزلة خاصة بيننا لدرجة أننا كنا نشير إليه قائلين "هوذا ملك بولشستر". كانت قوته ونفوذه بلا حدود، فأسقفنا (الأسقف بورسيل)، كذلك العميد (العميد سامبثون) كانا متقدمين فى العمر، ينشدان الآن حياة الدعة والاستكانة. يعتبر الأسقف "بورسيل" قديسا ورعا وإنسانا فاضلا، لا يضاهيه أحد فى سماته الحسنة، لكن فى عام ١٨٩٩، وقد بلغ من العمر السادسة والثمانين، فضل أن يقضى باقى عمره فى دراساته داخل مكتبته الزاخرة الموجودة فى كاربلدون، كان يفضل ذلك عن مشاركة الآخرين أو الانغماس فى مشاكلهم التى لا تنتهى؛ أما عن العميد سامبثون، فهو إنسان لطيف وجنتلمان، لكن طبيعته لم تهيئه أبدا أن يكون مؤثرا فى الناس. مع ذلك، كان هو من أفضل علماء النبات فى القطر كله، ويعتبر كتابه الموسوعى الذى دبجه عن نبات "سرخس جليبشاير"، كما أعتقد، هو من أهم الكتب فى هذا المجال.

بالطبع، كان البنيان القوى للأرشدياكون براندون يساعده تماما، وكلمة "قوى" لا تعطيه إطلاقا حقه، فهو يبلغ طولا ستة أقدام وبوصتين، بل وربما ثلاث بوصات، له جسم رياضى متناسق، عينان خافتا الزرقة، شعره كما هو عندما بلغ من العمر الثمانية والخمسين، هو شعر كثيف مجعد كأنما هو يزين قمة رأس ولد صغير فى السن. فى الحقيقة، كان براندون يبدو صغيرا فى العمر بشكل مدهش، ونشاطه وحركاته لطيفة وسلسة، وربما ننسبها لشاب فى العشرينيات من عمره، وليس من الصعوبة بمكان أن ندرك مدى التأثير الذى بثه عندما ظهر للمرة الأولى فى مجتمع بولشستر. كثير من السيدات أحسسن أنه يشبه واحد من "آلهة الإغريق"، أما الآنسة دوبل، وهى أفضل قارئه فى بلدتنا، فقد كانت تدعوه باسم "الفايكنج". هذا الوصف التصق به، أنه سهل النطق والكلمة مؤكدة ولها أيضا مدلول ثقافى.

فى الحقيقة لو كان براندون هذا قد حضر إلى بولشستر وهو أعزب، إذن لتسبب فى تحطيم قلوب كثير من العذارى؛ مع ذلك، فى عام ١٨٧٥، تزوج هو من آمى بروتون، التى كانت فى العشرين من عمرها فى ذلك الحين. وقد أنجب منها ابنين، هما "فالكون"، وهو فى الواحدة والعشرين من العمر حاليا، أما ابنته فهى "جوان" وعمرها ثمانية عشر عاما. لذا يمكن لنا القول إن براندون قد نجا وأفلت من العالم النسائى فى بولشستر؛ فمدينتنا مشهورة وسط المدن التى بها كاتدرائيات بالأخلاقيات الرفيعة التى تتميز بها الطبقات العليا.

لم يكن مستحيلا خلال كل هذه الأعوام التى كرت أن يكون براندون غير واع بما يحفره فى القلوب بمظهره وشكله الرائع، هو على علم قاطع بذلك، لكن أى إنسان يمكن أن ينسب إليه الغرور (وكل إنسان له أعداء) إنما يسىء إليه إساءة بالغة. هو ليس مغرورا على الإطلاق- هو بكل بساطة اعتبر نفسه إنسانا له وضع متميز، ولم تشمخ نفسه بهذا التميز أبدا، ولم يجرؤ أن يهنئ نفسه بذلك؛ لقد ارتأى الله سبحانه (ربما فى لحظة سأم، بسبب كل هذه الأشكال السيئة التى يضطر لخلقها) لأن يدفع للعالم، لمرة وحيدة، عينة ممتازة ورائعة من النماذج البشرية،

حسن فى الجسد، حسن فى الروح، فى الذكاء واللماحية أيضا. فى الواقع، ليس لدى براندون إطلاقا ذلك الإحساس المفرط بالذات، مماثلا فى ذلك سير ويلوبى باترن- فهو دائما ما يفكر فى الآخرين، فهو إنسان محب عطوف، وسريعا سوف تدرك أنه لا يتصف أبدا بالأنانية - لكن، كما هو الحال مع سير ويلوبى، هو يعلم تماما أنه خلق من طينة مختلفة عن باقى البشر. لقد شكله الله، ودفع به إلى خضم العالم لكى يحكم ويقود الآخرين- هو بذلك يحقق مجد الله، وبالقليل، ربما ندعى أنه يحقق مجد نفسه أيضا. هو إنسان بسيط للغاية، فى الحقيقة هكذا كان الحال بالنسبة لكل رجال ونساء بولشستر عام ١٨٩٧. انه لا يحلل أبدا دوافع البشر أو الآخرين؛ فهو على وعى بأنه يمتلك بعض "الضعفات" (فغضبه السريع يمثل إزعاجا له- لكن أحيانا أخرى كان يرى أن هذا العيب له لزوم وضرورة قصوى). مع ذلك، وعلى وجه الإجمال، كان راضيا عن نفسه، عن مظهره، قدراته، زوجته، عائلته، وفوق كل شىء، مركزه فى مدينة بولشستر. وهذه الأخيرة لها أهمية عظمى، فمركزه فى الكاتدرائية، فى منطقة الملحقات، فى مجلس الكنيسة، فى المدينة بأثرها، ثابت وراسخ. بالطبع، هو يثق فى الله سبحانه، لكنه أيضًا، كأى إنسان عاقل وحكيم، يثق فى نفسه أيضا.

حدث أنه فى عصر يوم عاصف فى أكتوبر ١٨٩٦، كان براندون ممتلئا بمشاعر دافقة من الابتهاج والمرح، بينما هو واقف، فى لحظة فريدة، عند عتبة منزله الذى يقع فى نطاق ملحقات الكاتدرائية. لكنه قبلما يفكر أن يعبر المنطقة الخضراء متجها ناحية الكاتدرائية، نظر إلى السماء التى اختفت تماما تحت سحب كثيفة راحلة، ثم شعر بالمطر ينهال أمام وجهه واستمع لأشجار الدردار فى الحديقة المجاورة، وهى تئن وتصلصل. أخذ يملى نظره فى أضواء المدينة التى ظهرت وهى تطرف عبر الحائط المنخفض الذى يفصل منطقته عن المدينة، حينئذ امتلأ قلبه بفخار عظيم وسعادة لا توصف، لدرجة أنه أحس كأن قلبه يكاد أن ينفجر ويغادر مكانه. ربما، لم يكن هناك شيئٌ معين هذه اليوم يمكن أن يرفع من

معنوياته؛ فهو قد حقق انتصارا هذا الصباح فى اجتماع رعاة الكنيسة على القس فوستر، وهو القس الوحيد فى بولشستر - الذى، أحيانا، يبدى معارضة غبية لأفكاره واقتراحاته - بعد ذلك، تقابل مع مسز كمبرمير، وقد كان جزلا من انتصار الصباح، لذا عاملها بكل ترفع وإباء؛ أيضا تسلم هذا الصباح دعوة كريمة من السيدة سانت - ليث تدعوه لحضور حفل عشاء أوائل الشهر القادم؛ لكن كل هذه الأحداث عادية ولا تدعو أبدا أن يبتهج بهذا المقدار.

لا، لقد هبطت عليه هذا العصر مشاعر فياضة، مثل تلك التى يمنحها الله للإنسان بين الحين والآخر، لكى تسندهم، ربما، للتلاحم مع معطل ما، أو لكى تشجعه وتمده بقدرات أولمبية، لكى تهيئه لمصارعة عدو قادم.

وقف براندون للحظات، رأسه شامخ، صدره إلى الأمام، روحه تطير، شاعرا بخبطات قطرات المطر وهى تصفع خده؛ ثم، وهو يلتقط أنفاسا ملؤها السعادة والسرور، عبر المنطقة الخضراء حتى وصل إلى الباب الأسود الصغير لكنيسة القديسة مارجريت.

كانت الكاتدرائية الضخمة منتصبة أمامه، بينما هو واقف يبحث فى جيوبه عن المفتاح، بينما تبدو الكاتدرائية كظل أسود عظيم واسع، وقد اندمج شكلها اليوم وتوحد مع السماء الرمادية، وبدا كأن لها دورا فعالا فى قياد هذه العاصفة المتوحشة. انتصب أعلى الباب مزرابان على هيئة تمثالين ينظران شذرا نحو الرجل، كانت الأمطار تتساقط على جسديهما العريانين ثم تجرى على شكل نهير صغير من خلف آذانهما المشرعة، ثم يتوقف الماء قليلا عند شفتيهما القبيحتين قبل أن تتساقط إلى الأرض. كانا يبتسمان للأرشدياكون، وبدا على محياهما سرور بالغ، لأن الرجل يواجه معضلة وهو واقف هكذا تحت الأمطار باحثا عن المفتاح. سمعاه بعد ذلك وهو يقول غاضبا "باه"، ولعله نطق بعبارات أصعب من ذلك كثيرا. أخيرا عثر على المفتاح، ثم اضطر أن يثنى قامته المديدة لكى يعبر الباب القصير. ما أن دلف إلى ركن الكنيسة، ثبت أنظاره على نافذة القديسة مارجريت ذات اللون

الوردى الجميل، والتى انعكست بشكل خافت على صفوف المقاعد ذوات القواعد الخيرزانية، وعلى المقاعد المخملية الحمراء، أيضا على اللوحات النحاسية المعلقة على الحوائط الحجرية. سار حذرا متلمسا طريقه، للحظات ركز نظره على الصحن الواسع للكنيسة بينما الأضواء تتراقص، ثم دار نحو اليسار ودخل غرفة ملابس الكهنة وأغلق الباب وراءه. حتى وهو يرد الباب، كان بمقدوره أن يستمع للصوت العالى للأجراس التى تدعو لحضور خدمة المساء.

فى تلك الغرفة، وجد بداخلها كلاً من القس دوبل والقس روجرز. دوبل هو القس الأحدث، وهو الذى يرتل فى الخدمة. كان هذا القس قصير القامة، مستديرا، لحيما، يبلغ الثامنة والثلاثين عمرا، كل ما يرغبه فى الحياة هو أن يقضى وقتا لطيفا وسهلا بلا مشاكل، لذا نجد متوافقا مع الجميع. هو يعيش مع أخت له فى منزل صغير داخل نطاق ملحقات الكاتدرائية، وكثيرا ما كان يدعو زملاءه لتناول أفضل عشاء عندهم. أما القس روجرز، فهو رفيع القوام، حواجبه كثة سوداء، محنى قليلا، بشعر بنى خفيف، وهو دائما ما يتعامل مع الحياة بكل جدية. هو إنسان غبى لكنه عنيد، متمسك بآرائه إلى أقصى حد، يميل كثيرا إلى لوم زملائه بسبب أى أمر كان، يكره التجديدات والابتكارات، مماثلا فى ذلك الأرشدياكون، لكن وهو متمسك بالعادات القديمة بقوة، لا يشعر أبدا بمشاعر السمو والرفعة. إنه إنسان بارد الأعصاب، بالرغم من أن عناده يشير إلى شخصية مغرقة فى التعصب والتشدد، لكنه على أية حال، لا يماثل أبدا ذلك البغل الذى يزرع أقدامه فى الأرض ولا يتحرك من مكانه أبدا، ولن تستطيع أية قوة أو تهديد أو ترغيب أن تحركه قيد أنملة؛ كان ممكنا لهذا الرجل أن يعيش متوحدا، إذا كان يتمتع بقدر من الزهد والشفافية، لكن هذا الانسحاب عن العالم ربما يعنى أنه ينتمى ويخلص لعقيدة ما، لدين ما، أو حتى لنوع من الطموح، وهذه كلها ليست فيه. هو يقضى أيامه يفعل ما هو مطلوب منه بالضبط، ليس لأنه يحب عمله، لكن لأنه إنسان عنيد. بصراحة نقول هنا إن براندون كان حقا يكرهه.

فى الغرفة الأبعد، كان المرتلون من الأولاد واقفين فى أماكنهم المخصصة، يتهامسون ويكركرون، فجأة دقت الأجراس، حينئذ وقف القس روجرز ويداه مضمومتان، بلا حركة، يحملق أمامه، أما دوبل فإنه ابتسم فظهرت غمازتان فى كلا خديه، ثم همس لبراندون:

-سوف يأتى روندر اليوم، أليس كذلك؟

- روندر؟

أخذ براندون يكرر تلك الكلمة، وقد فارقته حالة الوجد الغارق فى لجتها.

- نعم... أنت تعلم أنه سوف يكون بديلا عن القس هارت سميث.

- آه نعم...أعتقد ذلك.

ظهر بعد ذلك "كابوت" على باب غرفة القسس ممسكا بعصاه المذهبة. هو رجل طويل القامة وأنيق، يخدم فى الكاتدرائية منذ أن كان ولدا صغيرا ثم شابا لمدة خمسين عاما، هو له تطلعاته الخاصة، أهمها أن يتعجل الموت ويكنس ماسك الصولجان الرئيسى وهو "لورنس"، ذلك العجوز الغبى، هذا بالطبع سوف يتيح له أن يحل بدلا منه، هناك أيضا أمل عزيز يداعبه، هو أن يقتصد قدرا كافيا من المال يجعله قادرا أن يشترى ثلاثة أكواخ على شاطئ البحر، يضمها إلى الستة أكواخ التى يمتلكها بالفعل. لكن لا أحد يستطيع أن يخمن مدى قوة أطماعه هذه ( كان معروفا عنه ذلك على طول مدة خدمته الكنسية فى جليبشاير)، لم يظن أحد أنه مشغول بأكثر من مهامه الكنسية المقدسة. ما أن ظهر، حتى صدحت موسيقى الأرغن بشكل تلقائى، وتسللت تلك الألحان خلال هذه الجدران الحجرية الكثيفة، واقتحمت مسلكا متجاوزة تلك الأعمدة السميكة، التى كانت تنصت بسكون أبدى لتلك النغمات الرائعة. وقف الأرشدياكون وصلى، بعدها أجابه مجموع الخورس بآمين طويلة، ثم انتظم موكب الأولاد بوجوههم التى يبدو عليها مسحة التقى والفطنة، بينما سار خلفهم خورس الرجال بلا مبالاة، عيونهم تمسح مكانا طالما

عرفوه وحفظوه. تقدم بعد ذلك روجرز، كأنما هو واحد من الشهداء، وبعده أتى دوبل مبتسما كأنه قد استمع لنكتة ألقاها هو؛ أخرهم سار براندون، عظيما فى بزته، مهيبا فى معرفته لأهمية هذا الموكب.

ولأن هذا اليوم هو بكل بساطة، عصر يوم عادى، لذا فيه يتم إنشاد التراتيل العادية، كذلك تكون خدمة القداس عادية، لذلك أيضا يكون عدد الحضور من المصلين قليلا. أقفلت الستارة خلف جماعة الخورس بصوت، بينما صحن الكنيسة بلونه الرمادى الأرجوانى تحت تلك الأضواء الخافتة للشموع، تنيره بقايا ضوء ما قبل حلول المساء. فوق المقاعد العالية خلف وأمام الخورس، جلس جموع المصلين، منهم الآنسة دوبل، التى لا تفوت أبدا أية خدمة يكون فيها أخيها هو المرتل، بوجهها الأبيض المسحوب وقبعتها المضحكة قديمة الطراز، جلست وقد اختفت تقريبا وسط جانبى مقعدها الضخم. هناك أيضا مسز كمبرمير وبرفقتها صديقة للعائلة، متصلبة وذات مهابة وشأن؛ هناك أيضا مسز كول وزوجة أخيها آمى كول؛ بالإضافة إلى بعض السائحين، أيضا هناك رجل أو اثنان من الأهالى، مثل الميجور دريك، الذى يحب أن يشارك فى قراءة المزامير بصوته المجلجل، وكان هناك أيضا مستر تومبسون، وهو واحد من نظار المدرسة، يحب الاستماع إلى الموسيقى الشجية ودائما ما يحضر تراتيل المساء، إذا كان وقته يسمح بذلك.

إذن هكذا تجمع المصلون؛ بينما يرمقهم براندون من فوق مقعده العالى، مفكرا فى أنهم ليسوا إلا جماعة من البؤساء. هو بالطبع لا يكن أبدا أى نوع من الاحتقار لهم؛ بل يحس بعطف بالغ تجاههم ولا يفكر إطلاقا أن يسىء لواحد منهم، لكن هو يعلم الكثير عن خفاياهم - مسز كمبرمير، الآنسة دوبل، مسز كول، دريك، تومبسون، هم جميعا مجرد أشباح أمامه، إذا ركز نظره جيدا عليهم، فإنهم سوف يختفون حالا من أمامه...

هذا الوجد الذى شمل كل كيانه عندما وقف خارج باب منزله، كانت تزداد درجته فى كل دقيقة تمر عليه. شىء غريب فعلا. هو لم يحس بمثل هذه المشاعر

العميقة من السعادة كما يشعر بها فى هذه الساعة، كان مسوقا لأن ينغمس بكليته فى خضم هذه المشاعر بطريقة لم يألفها من قبل، لكن لمَ كسته تلك المشاعر وسيطرت عليه؟ لماذا يدق قلبه بهذه الدرجة من العنفوان؟ لما توهجت خداه بحرارة دافقة؟ هل لأنه أدرك هذا اليوم بالذات أن كل الأمور تسير سيرا حسنا معه، لكن لمَ لا يستطيع أن يتكهن بذلك؟ نظر نحو السقف المقوس بعمق، ثم أرسل بتحياته إلى الإله العظيم، وحياه تحية الأصدقاء، وأجزل له الشكر، لأنه طالما سانده ووقف معه خلال حياة صعبة متربة.

شكره من أجل صحته، من أجل قوته البدنية ونشاطه، من أجل وسامته وعقله الراجح، من أجل حياته الزوجية المستقرة، من أجل زوجته "المسكينة آمى"، من أجل منزله والأثاث الفاخر الذى يزينه، من أجل حديقته ومرج التنس، من أجل عربته التى تجرها الجياد المطهمة، من أجل ابنه فالكون، من اجل مركزه فى المدينة ومدى سيطرته وسطوته على مجلس الكنيسة، كذلك من أجل نفوذه على مجلس المدرسة، وأهميته البالغة فى كل مكان يقصده فى كل أرجاء المنطقة...من أجل كل هذا، تقدم بالشكر العميق لله، رافعا يديه إلى العلا حامدا شاكرا.

صرخت روحه فى عمق أعماقه "كلانا لدينا سلطان بشكل ما، أحبك يا إلهى! كنت نعم المعين والسند لى، كل ما تطلبه منى سوف ألبيه على الفور مهما كلفنى من جهد ونصب..."

حان الوقت لأن يقرأ الدرس الأول، عبر بتؤدة حتى منبر القراءة، كان واعيا أن السائحين يتهامسون بشأنه. قرأ بصوت عال، بصوته الرخيم، شيئا عن المعارك والانتقام، عن الوباء والعقاب، عن غضب الله على الإسرائيليين المرتعدين. بدا وكأنه هو ذلك المنتقم الجبار، كان وهو يقرأ تحتد فيه مشاعره محلقة فى العلا، تحيطها أمجاد القوة الوجد التى تدرك مدى فاعليته وسلطانه...

عاد إلى مقعده، وبينما بدأت صلوات التمجيد، وقعت أنظاره على تابوت الأسقف الأسود. عندما تتصفح كتاب تاريخ لبولشستر الذى ألفه شايمس، نجد فى الفصل الخاص بالكاتدرائية (الطبعة الرابعة، ١٩١٠) صفحة ٥٢، سوف تقرأ وصفا تفصيليا لتابوت الأسقف الأسود "هو موضوع بين الأعمدة، فى الجانب الشرقى البعيد للخورس، على بعد ثمانى خطوات من الستارة. أما الحاجز الحجرى الذى يحيط بالتابوت فهو مصنوع ومحفور بمهارة فائقة، وإذا استخدمت نوعا معينا من الإضاءة تتخيل أنك تشاهد نوعًا من الدانتلا الرقيقة. غطاء التابوت له قبة ترتفع فوق مستوى مقاعد الخورس، أما التابوت نفسه، فقد صنع من كتلة صلدة من حجر لونه أزرق غامق، أما شكل الأسقف، فهو محفور من رخام اسود، يبدو راقدا ويداه مضمومتين على صدره، مرتديا ملابس الأسقف والتاج فوق رأسه، وكل هذه محفورة فى الرخام، ويستقر عند قدميه شكل ملاكين، وفى إصبع يده اليمنى وضع خاتم من الحجر الأخضر. رأسه مرفوعة قليلا، وخلف أقدامه أربعة فرسان بحجم دقيق بكامل أسلحتهم ودروعهم. هناك أيضا عقد صغير يدور حول التابوت كله محزم بسلسة منتظمة من الدعامات مسجل عليها الشعار المحبب لهذا الأسقف وهو "يهبنا الله القوة من عنده"، وعلى التابوت ذاته نقشت تلك العبارات التى تترجم هكذا:

"هنا، وقد سلم وديعته لخالقه، يرقد هنرى أوف أردن. حياته، التى كان ديدنها هو التقى والورع والكرم البالغ، وسمتها هو النبل الخالص. ذاك الذى سلبت حياته بشكل قاس وعنيف تحت قبة هذه الكاتدرائية ذاتها بواسطة حفنة من الأشرار الذين لا يخافون عقاب البشر، أو انتقام الإله الجبار... مات وهو يدافع عن بيت الصلاة المقدس هذا، وهو الآن يرفل فى سعادة أبدية وقد وفى بكل العهود التى يقطعها الخادم الأمين، وقدم ذاته ذبيحة مرضية أمام الله".

لاحظ كثير من رواد هذه الكاتدرائية، كيف أن هذا التابوت يجمع إليه أضواء غريبة تتجمع حوله من كل جانب من هذا البناء، لكن هذا بلا شك راجع إلى حقيقة

أن الحجر الأزرق الذى يدخل فى معظم مكوناته، يجتذب إليه الأضواء البنفسجية والأرجوانية التى تسقط من النافذة الشرقية الكبرى. فى أيام الصيف، يبدو التابوت الأزرق معتما نوعا ما، كما لو أنه صنع من زجاج أزرق، بينما يلمع الذهب الذى يغطى الحاجز كأنما هو شعلة من نار.

شعر براندون اليوم، وهو ما زال فى عقال حالته الغريبة تلك، التى قوامها شعور بابتهاج غامض، أحس كما لو أنه ليس إلا بعث جديد لهذا الأسقف العظيم.

بينما صلوات التمجيد مستمرة، شعر كأنما هو قد اقتحم هذا التابوت وتشارك مع الأسقف ترابه، وربما صرخ قائلا "اننى واقف بجوارك"، فعندما صمدت أنت فى تلك اللحظات المرعبة، تواجههم ببسالة أمام نفس عتبات الهيكل هذه، واستطعت أن تصرع اثنين من المجرمين بقبضة يدك، ثم أخيرا سقطت مثخنا بمئات الجروح وينبثق منك الدم الثمين، لكنك كنت تصرخ فى لحظاتك الأخيرة "إلهى عن يمينى، فلا أخاف شرا".

بينما هو يحملق عبر التابوت، تراءى له ذلك القديس الجبار وهو مهجور من كل تابعيه المرتعبين، راقدا يتخبط فى دمائه داخل الكاتدرائية المهجورة، ثم شاهد الشفق الأحمر وهو يزحف حثيثا ثم يغطيه. بعد ذلك بفترة، ومع قدوم الليل، تسلل اثنان من الخدم وحملا جسده ليحفظاه فى مكان آمن، إلى أن يأتى يومه مرة أخرى.

ولد هنرى أوف أردن عام ١١٠٠، وكان هو أول أسقف يعطى بولشستر الكرامة والتقدير. وكما كانت هناك أهمية كبرى لوليم أوف ويكهام، كذلك كانت هناك أهمية كبرى لهنرى بالنسبة لأبرشية بولشستر. وخلال كل تلك الأيام الموحشة التى نشبت فيها المعارك ما بين ستيفن وماتيلدا، وقف هو شامخا، لكنه استسلم أخيرا بسبب الهجمات الشنيعة التى شنها عليه الأعداء، وهؤلاء كانوا كثر. قيل عنه إنه "أكثر الأساقفة فخرا واعتزازا بنفسه على الأرض كلها". ربما يكون

الفخر هو عنوانه، لكن هو فى الواقع أحب رعيته، وفى أيامه تم بناء كنيسة القديسة مارجريت، كذلك ارتفعت المنارتان الغربيتان، وبسببه أمكن لبولشستر أن تفخر بأنها تحتوى على أغنى كاتدرائية دخلا فى كل أوربا.

يدعى بعض الناس أنه قد غش، أنه قد سرق الأرض من الضعفاء، أنه كان يجهز للقيام بغزوات يشنها على القرى القريبة، بل وعلى بعض القلاع، لكنه إن كان قد فعل ذلك، فهو صنعه لرفعة مجد الله. لقد كانت تلك الأيام مفعمة بأنواع مختلفة من المتاعب والمآسى، وكان وقتها، كل إنسان يهتم بما لنفسه...

ظل محضرة مؤثرا فى بولشستر حتى يومنا هذا، بطلعته الضخمة، وذقنه الكثة الكثيفة الشعر، وقوته البدنية العجيبة، فقد كان معتادا أن يخبروا فى أيامه، انه فى مقدوره أن يصرع ثورا بقبضة يده.

ما أن انتهى التمجيد، حتى تحرك براندون واتخذ مكانه على منبر القراءة، وقرأ موضوع طرد المسيح لباعة الحمام والصرافين من أروقة هيكل أورشليم.

اهتز صوته فخارا وتيها، لدرجة أن "كابوت"، الذى نمى فى نفسه عادة النوم أثناء قراءة الإصحاحات وعيناه مفتوحتان، صحى فجأة متعجبا عما يمكن أن يكون قد حدث.

إحساسات براندون الخاصة لم تغادره، حتى وهو جالس فى غرفة الاستقبال بمنزله، بل وزاد تأثيرها بفضل الهدوء والأمان الذى يعهده فى بيته. استلقى فوق مقعده المفضل بمسانده الوثيرة أمام المدفأة، ثم مد ساقيه الطويلتين أمامه. كان فى مقدوره أن يستمع إلى طرقات المطر وهو تقرع إفريز نافذته، فى الخلف استطاع أن يميز صدى صوت خافت للأرغن (كان "بروكت"عازف الأرغن فى الكاتدرائية يتدرب كثيرا بعد انتهاء كل خدمة مسائية).

غرفة الاستقبال هذه طويلة وضيقة، مجهزة بالعديد من النوافذ ومفروشة بأفضل الرياش. أما السجادة والستائر وأغطية المقاعد، فإنها كانت ناحلة نوعًا ما،

لكن هذا أعطاها قدرا إضافيا من الوقار والراحة. على الحائط، علقت صورتان مرسومتان له هو وزوجته وقت زواجهما، وهناك أيضا بعض رفوف الكتب المنخفضة، كذلك نسخة ضخمة من كتاب "المسيح فى الهيكل"، مع كثير من الفراغات، ورود، ضوء...

فى ذلك الوقت، كانت السيدة براندون فى الثانية والأربعين من العمر، لكنها تبدو أقل من ذلك كثيرا. هى ضئيلة الحجم، سمراء نوعا، وليست مؤثرة - عيناها رماديتان، تنظر بهما إلى الأرض عندما تخاطبها فى شأن ما. هى تعتبر إنسانة خجولة نوعا، وسلبية فى كل الأمور وتوافق على أى شىء يقال أمامها، ويبدو أنه لا رأى لها فى أى شىء. هى بكل بساطة "زوجة الأرشدياكون". كانت المسز كمبرمير تدعوها باسم "الست الطيبة الغلبانة". هى ليس لديها أصدقاء معينين فى بولشستر، ولا يهتم أحد بوجودها أو عدم وجودها فى أى مكان- لم يعرف عنها أنها فقدت أعصابها علنا إلا مرة واحدة- مرة عندما شاهدت مزارعا يضرب حصانه فوق وجهه. بكل بساطة تقدمت نحوه وضربته. بعد ذلك اعترفت أنها لا تحتمل أبدا أن تشاهد حيوانا يعامل بشكل عنيف. اعتذر الأرشدياكون نيابة عنها، ولم يطرق هذا الموضوع بعد ذلك أبدا، أما هذا الفلاح فإنه صرح بأنه لا يحمل لها أية ضغينة.

هى تجلس الآن حول مائدة الشاى الصغيرة وقد زرت عينيها منشغلة بمسألة عويصة، هى: كيف يمكن لها أن تقدم الشاى لحضرة الأرشدياكون بالأسلوب الذى يفضله؟ كان كل ذهنها مشغولا بهذه المسألة. لم يهتم الأرشدياكون هذا اليوم بسبب أنها لا تجيب على أسئلته أو تعضد تعليقاته، هو فى الواقع كان سعيدا للغاية وكل كيانه يرقص داخليا، فهو آمن، ناجح، يرفل فى فخر برىء.

دخلت الابنة "جوان" براندون. فى مظهرها، تشبه ما وصفته به مسز سامبثون، بأنها "غير جذابة". فأنت لا يمكن لك أن تنظر إليها مرتين، مماثلة فى ذلك أمها. هى رفيعة القوام وساقاها (كانت ترتدى جونلات طويلة للمرة الأولى هذا

العام) طويلتان للغاية، شعرها لونه بنى غامق، عيناها لونهما بنى غامق أيضا، لها خدان متوردان، لكن بها بعض النمش. كانت كثيرة الابتسام والضحك عندما تكون فى صحبة، أكثر مما هو مألوف أو لائق. كثيرًا ما كنا نسمع أحدهم يقول إنها "فتاة مسترجلة"، لكن هى فى الحقيقة لم تكن مسترجلة، فهى دائما ما تسير بهدوء، ودائما ما تكون غرفتها مهندمة مرتبة- هى قليلا ما كانت تحصل على نقود للجيب أو ملابس جديدة، ليس لأن الأرشدياكون إنسان بخيل، لكن بسبب أنهم كثيرا ما ينسون الابنة جوان ولا يعملون لها حسابا فى مشروعاتهم. شىء مدهش أن الفتاة الوحيدة فى المنزل تصبح متروكة ومهملة بهذا الشكل. لكن بصراحة، الأرشدياكون لا يهتم كثيرا بشئون الفتيات، أما مسز براندون فهى لا تهتم بأحد سوى زوجها. أما الابن "فولك" الذى يدرس حاليا فى أكسفورد، فإنه ما يخطو داخل المنزل، حتى يثير اهتماما بالغا يفوق كثيرا ما يخصص للابنة. لقد التحقت هى بمدرسة بولشستر الثانوية عندما بلغت الثانية عشر من عمرها، هناك استطاعت أن تنال قدرا من الشعبية، وكان بإمكانها أن تحوز على عدد كبير من الأصدقاء لو أتيح لها أن تدعو زميلاتها إلى منزلها، لكن والدها يكره "الإزعاج داخل المنزل". هى كانت تعتبر رئيسة فريق الهوكى بالمدرسة؛ وكل الفتيات الصغيرات كن يعشقنها. لكنها تركت المدرسة لفترة ست شهور وعادت لتستقر فى منزلها بحجة أنها تود أن "تساعد ماما". فى الحقيقة، هى حصلت على ستة شهور من الوحدة القاتلة، التى لا يعلم احد بذلك سواها. فى الواقع، أمها ليست فى حاجة لمساعدتها، لذا لم يعد هناك شيئ يمكن أن تؤديه فى المنزل، أيضا شعرت جوان إنها أصغر من أن تصاحب الفتيات الأكبر سنا، لذا بدأت تشعر بالحنين لمدرستها الثانوية. فجأة فى صباح يوم ما، بدون سبب واضح، داخلتها نظرة مخالفة للحياة. كل شىء بدا أمامها مبهجا بل ومثيرا أيضا، وكل الأشياء العادية التى عرفتها حتى يومنا هذا، المدرسة الثانوية، غرفة نومها المرتبة دوما، ادخار مصروفها الشهرى الضئيل، الكاتدرائية، النهر، فى لحظة شعرت أن كل هذه الأمور أصبحت محببة لها، خالطها شعور دامغ أن

هناك شيئًا غير عادى ورائعًا سوف يحدث لشخص عادى مثلها، ولم يغادرها هذا الشعور أو أن يرحل.

اليوم، كما هى العادة عندما يكون والدها فى المنزل، تأتى هى بكل هدوء وتجلس بجوار أمها، مراعية أن لا تحدث أى نوع من الإزعاج لأبيها أثناء تدفقه فى الحديث. أدركت على الفور أنه فى مزاج حسن هذا اليوم، وأبهجها هذا كثيرا لأنه سوف يبعث بسرورًا بالغًا فى قلب أمها، وهى نفسها أبدت اهتماما بما كان ينطق به. هو فى نظرها إنسان عظيم، وبشكل سرى كانت تشعر بالفخار يسرى فى كل كيانها؛ لأنها هى ابنته. لا يزعجها أبدا أنه لا يبدى أى قدر من الاهتمام بها. ولماذا يفعل ذلك؟ بل ولم تشعر يوما بالغيرة من أخيها فولك، المفضل عند أبيها. هذا بدا طبيعى للغاية من وجهة نظرها. كانت تدرك الفكرة العامة السائدة، وهى واضحة وجلية الآن تماما ومنتشرة بشكل فاضح فى كل بولشستر، هذه الحقيقة هى أن النساء أقل كثيرا من الرجال فى كل شىء. هى لم تقرأ بعد الروايات التقدمية التى دبجها قلم الروائية مدام سارة جراند، أو مسز لين لنتن، وأنا أشعر بإحراج بالغ عندما أخبركم أن المؤلفين المفضلين عندها هن الآنسة ألكوت والآنسة شارلوت مارى يونج. أكثر من ذلك، هى كانت معجبة للغاية بأخيها ذلك، هو بطل فى نظرها، ودائما على صواب فى كل ما يفعله ويصنعه.

استمر والدها فى الحديث، وخلف نبرات صوته العميق، كان صوت الأرغن الخافت يأتى إليها كأنما هو صدى صوت بعيد:

"حانت لحظات، كنت أظن أن فوستر سوف يتدخل، كنت أنا معارضا منذ البداية فى موضوع شراء ماكينة تمهيد أرض حديثة- فهم لديهم واحدة قديمة، فما الحاجة إلى أخرى؟، هو على كل حال، يظن أننى أتدخل فى شئون المدرسة أكثر من اللازم، ومن يفكر أن يتدخل فى شئون المدرسة؟ أنا أعتقد أنها كلها أمور مزعجة، لكن يجب أن يتصرف أحد ويبت فى الأمور، وإلا تعرض المكان كله

للدمار وتحول إلى حطام، وإذا تركوا لى الأمر فإننى سوف أجد صعوبة بالغة فى رفض ذلك، هل استطيع؟ هه؟"

"بالطبع لا يا عزيزى"

"هل فهمت ما أقصده؟"

"نعم يا عزيزى"

"حسنا، إذن (بدا الأمر كأن مسز براندون قد هزمت فى نقاش أبدت فيه أكبر قدر من المعارضة) سوف يكون الأمر فيه قدر كبير من التواضع إذا أنكرنا حقيقة أننى وضعت كل مجلس الكنيسة فى جيبى. لكن لماذا لا أفعل ذلك؟ هل هناك واحد فيهم عمل بجد واجتهاد فى سبيل هذا المكان مثلى؟"

"لا يا عزيزى"

"حسنا إذن...هوذا سوف يحضر إلينا قس جديد، اسمه روندر...لا أعلم الكثير عنه، لكنى أتوقع أن لا يسبب إزعاجا كثيرا- إزعاجا يتبدى فى قيامه بتعطيل عملنا هنا، كما أقصد. كل ما نتمناه هو أن يتم العمل هنا بكل بكفاءة. لقد تمكنت أخيرا أن اجعل المجلس يتحرك، وعشر سنوات من العمل المتواصل تستأهل ترقية أو قدرًا من الثناء أو شيئًا ما، أليس كذلك؟"

"بالطبع يا عزيزى...أنا متأكدة من ذلك"

أطلق الأرشدياكون واحدة من ضحكاته المجلجلة المعروفة- هى ضحكة مشهورة على مستوى القطر كله. ضحكة يصفها المعجبين به بأنها "لطيفة"، أما أعداؤه فيصفونها بالقول إنها "خارقة لطبلة الأذن". مع ذلك، مع وجود أعداء أو لا وجود لهم، هناك شىء يدعو للتعاطف مع هذه الضحكة الصافية، حيث فيها نبرة طفولية، بسيطة وأمينة.

فجأة، وضع نفسه قائما، بأن دفع ساقيه الطويلتين حتى وصلتا إلى حدود صدره وقام.

"ألم تصل خطابات اليوم من ابننا فولك؟"

"لا يا عزيزى"

"هممم...مرت ثلاث أسابيع ولم نسمع منه شيئا، أرجو أن لا يكون هناك ما يسيء"

"ما الذى يمكن أن يسيء يا عزيزى؟"

"لا شيء بالطبع...ما الذى كنت تصنعينه طوال يومك يا جوان؟"

فقط فى اللحظات التى يشعر فيها الأرشدياكون بالسعادة والمرح، أن يتوجه بخطابه إلى جوان. فى الماضى، كانت تلك المناقشات تسبب لها ذعرا ورعبا، لكن منذ هذا الصباح، عندما استيقظت من نومها أدركت تواجد إمكانات مدهشة فى الحياة، غادرها حالا هذا الرعب، فهناك أناس آخرون فى العالم بجوار أبيها...

مع ذلك، إلى حد ما، كانت خشيتها ما زالت ملازمة لها، نظرت نحوه مبتسمة

"أوه...لا أعلم يا والدى...ذهبت هذا الصباح إلى المكتبة العامة لكى أغير كتب والدتى..."

"روايات كما أعتقد، لا أحد يقرأ مثل هذه التفاهات هذه الأيام"

"ماما لا تحصل أبدا على روايات بعينها تطلبها، فأمينة المكتبة الآنسة ملتون تجلس فوق الروايات الحديثة لتحجزها لمسز سامبثون ومسز كمبرمير"

"تجلس فوق الروايات؟ "

"نعم، هى فى الحقيقة تجلس فوقها، رأيتها مرة تخرج رواية من تحت قميصها عندما طلبتها مسز سامبثون، وهى رواية طالما طلبتها ماما لتقرأها"

أحس الأرشدياكون بالغضب يتملكه ويسيطر عليه:

"أنا لم اسمع أبدا بمثل هذه الفضائح. سوف ابحث هذا الأمر، إذن ما الفائدة أن أكون ضمن مجلس إدارة المكتبة ولا أفعل شيئا عندما تحدث مثل هذه الأمور؟ هذه المرأة يجب أن ترحل.

"لا يا أبى.. أرجوك لا"

"بالطبع يجب أن ترحل، لم أسمع فى حياتى مثل هذا العمل الوضيع الذى تفعله..."

تذكرت جوان هذا الحديث القصير حتى نهاية حياتها، ولها حق فى ذلك.

فتح الباب على مصراعيه، وقدم أحدهم مندفعا، وبمشاعر متدفقة، شملهم جميعا بناظريه، إنه الابن "فولك".

فولك هذا شاب وسيم – شعر مسترسل ناعم، عينان خفيفتا الزرقة، مماثلتان لعينى والده، نحيف القوام معتدل. هو إنسان مقدام، وكانت فضيلة الشجاعة التى يتصف بها هى التى تدهش كل من يصادفه؛ دائما ما يبدو عليه أنه لا يخشى أحدا أو شيئا، بل ووصل إلى عتبات أعلى من ذلك، هى أنه كان يقضى كل حياته يعارض كل بشر وكل شىء، كأنما هو لاعب محترف يصارع الجميع حتى يكون هو فى القمة دوما. مرة قالت مسز سامبثون "أنا لا أحب براندون الصغير، إنه دائما ما يرمق الآخرين بنظرة احتقار...".

هو فى الواحدة والعشرين من العمر، بدا كما لو أنه كان معاشرهم فى المنزل كل الأسابيع الماضية، بالرغم من أنه فى الحقيقة، قدم مسافرا من رحلة متعبة شاقة داخل عربة قديمة والمطر ينهال قذفا عليها. حدق الأرشدياكون فى ابنه

باندهاش، كأنما هو، ذاك المتشكك، قد صادف رؤية شبح فى منتصف النهار. لذا أسرع بالقول:

"ما الموضوع، لما حضرت إلى هنا؟."

"لقد طردونى من الكلية"

من المعهود فى العلاقات العائلية لآل براندون، أنه عندما تصدر جملة مثل هذه، فإن مسز براندان كذلك جوان ينظران ناحية الأرشدياكون وليس ناحية فولك.

"طردوك؟"

"نعم، بسبب الهيجان! كانوا يودون أن يفعلوا ذلك منذ نهاية الفصل الدراسى"

"طردوك!"

وقف الأرشدياكون على قدميه؛ ثم ارتفع صوته زاعقا:

"ووجدت فى نفسك الجرأة أن تأتى إلى هنا وتخبرنا بهذه المصيبة! تدخل علينا كأن لا شىء حدث بتاتا! تدخل علينا..."

"أنت غاضب الآن"، قالها فولك وهو يبتسم "بالطبع أنا أعلم أنك هكذا، لكن المفروض أن تستمع لى أولا، لكنى لن أخبرك بشىء قبل أن أخرج ملابسى من الشنط وتهدأ أعصابك قليلا. أريد أن أشرب كوبًا من الشاى، لكن اعتقد أن هذا يمكن أن ينتظر قليلا. فقط أرجوك يا والدى أن تستمع لى، وسوف تدرك أن الموضوع ليس بهذا القدر من السوء. جامعة أكسفورد هذه عفنة ومقيتة بالنسبة لأى شخص يود أن يستقل بنفسه. على أية حال، لن تكون مضطرا بعد ذلك أن تدفع فواتيرى."

التفت فولك نحو الباب، وخرج.

وقف الأرشدياكون فى مكانه شاعرًا بألم غامض يكسى كيانه كله، كما لو أن هناك عدوا كان يحتقره إلى التمام، فجأة وجد هذا العدو فرجة فى مفصلات دروعه الواقية وغرز سلاحه بقوة.

* * *

## الفصل الثانى

# آل روندر

نفس القطار الذى أحضر "فولك" إلى بولشستر، أتى قادما وبداخله آل روندر أيضا - وهو القس الجديد فردريك روندر المعين للخدمة فى مدينة بولشستر، وبرفقته عمته الآنسة العجوز أليس روندر. وقد رحبت بهم سحب متكاثفة، سوداء وقذرة فوق المحطة، تنير بأضواء البرق، وتهتز بأصوات الرعد، بالإضافة إلى الدمدمة من جراء اصطدام عربة بأخرى على الطرق المرصوفة بالأحجار خارجا. صادفهم اليوم خرير متدفق للمطر الذى كان يضرب بقوة فوق الأسطح والأرض. وقف آل روندر، ليس فى مظهرهما أى نوع من الحيرة، فذلك ليس من طباعهم، لكن كانا يفكران فى أفضل السبل للخروج سالمين من المحطة. هذا القس الجديد كان رجلا مستديرا، كتفاه مستديرتان، وجهه مستدير، ساقاه مستديرتان، كتفه مستديرة، وجهه مستدير وكذلك كرشه وساقاه. طوله متوسط، شكله ليس مبعثا للضحك، لكنه يبدو كما لو أنك بطحته على الأرض فإنه سوف يتدحرج من تلقاء نفسه حتى يصل إلى نهاية رصيف المحطة، ولا تفارقه أبدا ابتسامته الخالدة. هو يضع فوق عينيه نظارة مستديرة كبيرة، ومعطفه الكهنوتى، كذلك بنطلونه وقبعته جميعها نظيف بشكل لا غبار عليه، وتفصيلها كلها متقن وحسن، إنه لا يقصد أن يكون متأنقا، لكنه أيضا يرفض أن يكون مهرجلا. انه يبتسم كثيرا، ليس بطريقة مفتعلة واضطرارية كما يفترض أن يبتسم، وليس بإفراط، لكن بطريقة طبيعية بسيطة. تعتبر عمته عكسه تماما، هى رفيعة القوام، مستقيمة البنيان، ياقة بيضاء منشاة، ترتدى معطفا يشبه معاطف الرجال، جونلة ليس بها أى قدر من السخافات التى تشاهد فى جونلات النسوة الأخريات، ولن تجد أبدا أى شىء ملفتا للنظر فى

ملابسها أو مظهرها. هى إنسانة لا يمكن أن تتهم بأنها جامدة العواطف، لكنها عملية إلى أقصى حد، وعندها الجد يأتى فى المقام الأول.

سأل هو: "حسنا، ما الخطوة التالية؟"

"أولا نجمع حقائبنا ثم نبحث عن عربة تقلنا" هكذا أجابت سريعا.

عثرا على الحقائب، وكان هناك الكثير منها؛ وقد راقبت الآنسة روندر إنزال الحقائب، وتأكدت أن الحمال لن يسبب لهما أى إزعاج. ثم تحركت هى أولا يتبعها ابن أخيها وخرجا من المحطة إلى الميدان، حيث انتشرت روائح التبن والمطر. لقد هدأ فيضان المطر تدريجيا، والآن تهمس القطرات نقطة تلو الأخرى. حطت حمامة فوق الأرض المرصوفة وأخذت تنقر بين فواصل الأحجار.

حضر "فوست" العجوز بنفسه يقود عربته لكى يصطحبهما إلى البيت المؤجر. لماذا اعتبر فوست أن تلك فرصة لا تعوض، لا أحد يعلم لماذا سوى الله وحده. فمجرد حضور قس جديد إلى البلدة ليس بالحدث الجلل أو يمكن أن يهتم له أحد، فهو قد بلغ الثمانين من العمر، ويعانى من "سخونة" غريبة مستقرة فى أذنه اليمنى. لقد ادخر نقودا كثيرة، وكثيرا ما كان ينهمك فى عدها بجوار المدفأة، لكى يتأكد أن زوجته العجوز لم تختصر منها شيئا، وبنوع من التطير الغامض، بأسلوب منطقة جليبشاير، كان لديه شكوك تقريبية من أن زوجته قد ساقت عليه لعنة خاصة تسببت فى "سخونة" أذنه اليمنى.

لما إذن حضر هو بالذات ليصطحب القس الجديد؟ هو لا يعرف. هل سوف يكون لهذا القس شأن بارز فى هذا المكان؟ فهو آت من لندن، وكل من يأتى من لندن الكبيرة تكون جيوبه حافلة بالنقود. أخذ يمصمص شفتيه البارزتين الورديتين، وقد سيطرت عليه حاسة الطمع وهو يتملى فى طلعة هذا الرجل الكريم. نعم، هو يبدو عليه الكرم واللطف أيضًا.

٥

صعدوا إلى عربته الركيكة، وسارت بهم وهى تدق فوق أحجار رصف الطريق.

قالت الآنسة روندر وهى تتململ بصدرها النحيف داخل معطفها "أتمنى أن تكون مسز كلاى قد استلمت بالفعل التلغراف الذى أرسلته لها- أنت لن تسامحنى أبدا إذا لم تبدُ كل الأمور كما عهدتها"

الآنسة روندر هى الآن فى الستين من عمرها، لكنها تمتاز بنشاط ابنة الأربعين، نظر نحوها روندر وأغرق فى الضحك:

"لن أسامحك أبدا! ما هذا الكلمات ! هل سبق وأن سببت لك أى نوع من الإزعاج؟ لم يحدث أبدا.. لكن أنا على أية حال أفضل أن اشعر بالراحة والدعة فى أى مكان يخصص لى"

"حسنا، كل الأمور تجرى بشكل طبيعى منذ أسبوع مضى، لقد عملت هنا كالعبيد. وكما تعلم، فإن المسز كلاى هى عبارة عن جوهرة ثمينة- لكن هى دائما ما تشكو من خادمات بولشستر- تقول أنه من النادر أن يحصل الإنسان على خادمة جيدة. أوه، كم أود الآن أن أحصل على كوب من الشاى !"

سارت بهم العربة ودلفت إلى الشارع الرئيسى، فأخذ روندر يتصفح المكان بشغف. قال: "المكان عموما جميل، أعتقد أننى سوف أشعر بالراحة فى هذه البلدة"

أجابت بحدة "بالطبع إذا لم تحس بالراحة، يمكنك حينئذ أن ترحل من هنا "

أجاب ضاحكا "إذن، **يجب** أن أكون مستريحا"

انه يضحك كثيرا، لكنه يفعل هكذا بشكل تلقائى وبدون وعى منه، يفعل ذلك بينما أفكاره تجول فى مكان آخر. سوف يكون الأمر مثيرا لاهتمام أحد الدارسين لطبائع البشر أن يأتى إلى هنا ويراقبه وهو يسند ظهره على ظهر العربة، وهو ينظر خلال النافذة. فى الحقيقة، هو لا يرى شيئا، بدا عليه وهو يحملق من خلال

نظارته المستديرة كأنه مصاب بقصر النظر، بينما يداه السمينتان تقبضان بقوة على ركبتيه السمينتين.

سوف يهتم الدارس المتخصص عندما يدرك أن روندر قد أحاط بكل شيء يمر أمامه، كما لو انه قد برع فى استخدام حاسة جديدة يستطيع بها أن يجبر مخه على تشغيل وظيفة جديدة ليس مهيئا فى الأصل لها، فهذه الجبهة الواسعة، تحت القبعة الكهنوتية الرقيقة، كانت ناعمة، ليس بها أثر للتجاعيد، لطيفة هادئة...لقد دربها أن تكون هكذا.

هذا الشارع الرئيسى بدا كأي شارع رئيسى آخر فى مدينة صغيرة بها كاتدرائية. فى تلك الأمسية، كانت الأرصفة زلقة ولامعة بعد المطر؛ يسير الناس وقد بدا على ملامحهم أنهم مسرورون بتواجدهم على قيد الحياة، فهكذا الحال مع الملامح البشرية عندما تهدأ العاصفة وتبدو السماء آمنة بألوان رائعة. كانت هناك أنوار مضاءة خلف الزجاج الوقور لمحل "بنيت" بائع الكتب، ذلك المحل الرائع القديم الذى شاهد صاحبه الأول كل من السير والتر سكوت فى لندن وتحدث مع الشاعر بيرون. فى نافذته رصت صفوف من الروايات والكتب الكلاسيكية والطبعات الأولى من مؤلفات "سورتير". فى قمة الشارع الرئيسى انتصب محل "ميلوك" للحلويات والفطائر، وهو يفخر بالغاز الذى يعمل به، وهو مشهور بعمل الكعك السفرونى وكعك الجنزبيل، والأكثر شهرة هو البسكويت بالليمون، وحتى قبلما تتوقف عربة روندر للحظات قبل أن تستدير وتدلف عبر قنطرة أردن المظلمة لكى يصلوا مقصدهم، ظهرت مسز ميلوك بشحمها ولحمها ووقفت على باب المحل تستجلى أحوال الطقس. ثم عدى عليهم ولد مراسلة وهو يصفر لحنا هابطا التل، بينما هناك رجل مظهره عسكرى بشوارب بيضاء، صعد بكل وقار عتبات نادى المحافظين. عبروا بعد ذلك القنطرة المظلمة وهم يستمعون إلى طرقعة العجلات على أحجار الرصف، ثم فجأة اختفى الصوت، فقد سارت العربة فوق الإسفلت الخاص بمنطقة ملحقات الكاتدرائية. كان براندون هو الذى أصر على ضرورة

وصف المنطقة كلها بالأسفلت. وقد اشتكى قدامى السكان لأن نزع أحجار الرصف سوف ينزع من المنطقة واحدة من مميزاتها الخالدة.

رد عليهم الأرشدياكون قائلا "لا تهمنى أبدا موضوع المميزات، ما يهمنى فقط هو أن أنام ليلا بدون إزعاج". كان الهدوء هنا مدهشا، حيث انتصبت الكاتدرائية العظيمة فوق الممرات المؤدية إليها، ولا إنسان يمكن أن تشاهده هنا الآن.

توقفت العربة بهزة أمام المنزل رقم ثمانية، نزل فوست العجوز وقرع الجرس وهو واقف فوق العتبة العليا ناظرا نحو روندر متفكرا عن المبلغ الذى سوف يطلبه منه. يجب أن يطلب منه مبلغا كبيرا، فربما لا يحدث أن تعامل بينهما فى المستقبل. أكثر من ذلك، بالرغم أن هذا الرجل سمينا ويرتدى نظارة، فإنه لا يبدو أنه مغفل.

...فوست لم يستطع أن يتبين، لكن هناك شيء ما...

أتت مسز كلاى إلى الباب مبتسمة، بينما تأمر فتاة مذعورة أن تسرع. اختفت الآنسة روندر داخل المنزل ووقف روندر للحظات ينظر حوله كما لو كان هو جاسوس يستطلع أرض الأعداء، لذا لا يجب أن يفوته شيء.

سأل فوست "من ذاك الذى يمتلك هذا المنزل الضخم". أشار إلى منزل يقف وحيدا فى أبعد مكان من الملحقات.

"هذا منزل الأرشدياكون براندون يا سيدى"

"أوه...". صعد روندر السلم "تصبح على خير" قال هذا موجها حديثه إلى فوست.

"من فضلك يا مسز كلاى، ادفعى أجرة صاحب العربة". ثم دلف داخل المنزل.

قام آل روندر باستئجار هذا المنزل منذ شهر مضى، ولمدة شهرين سابقين، كان هذا المنزل مهجورا بينما قطع الورق والتبن تسرح وتلعب داخله، أما يافطة "للإيجار"، فكانت تضرب وتصرخ فى الهواء الخارجى مع كل هبة ريح. عاشت هنا السيدة بنتكوست العجوز لسنوات عديدة، ثم توفيت فجأة أثناء ما كانت تلعب لعبة الصبر، وقد بيع عفشها بعد ذلك بالمزاد العلنى. ظل البيت خاليا، لا يقبل أحد على تأجيره، فقد ادعى بعضهم أن شبح قطة مسز بنتكوست (وهى قطة فارسية مشهورة) كانت تسير ليلا فى أرجاء المنزل. آل روندر لا يهمهم أبدا موضوع الأشباح، فهذا المنزل بالذات هو بغيتهم. هو يتكون من غرفتين مكسوتين ودولابين وحديقة خلفية مسورة بها بعض أشجار الفاكهة.

ما فعلته الآنسة روندر فى شهر واحد كان معجزة، فقد هان عليها أن تهجر ميدان إيتون وعملت فى منزل بولشستر كأنما هى من العبيد، ثم عادت مرة أخرى إلى ميدان ايتون وتركت مسز كلاى مساعدتها لتستكمل ما بقى من مهام. كانت هذه السيدة الأخيرة بارعة فى عملها، فهى لن تكون جديرة بأن تخدم آل روندر خمسة عشر عاماإذا لم تكن بهذا القدر من الكفاءة.

اغتسل روندر وأصلح شعره ونزل ليشرب الشاى، ثم تفحص المكان بعينيه ووجد أن كل شىء على ما يرام.

"أنت إنسانة عظيمة يا عمتى..رائعة"

احمر وجه الآنسة روندر قليلا وهى تقول:

"ما زال هناك الكثير مطلوب عمله"، لكنها فى قرارة نفسها كانت سعيدة بهذا التقريظ.

غرفة الاستقبال كانت جميلة، الحوائط مكسوة، مقاعد ذات وسائد وثيرة، غطاء ملون جميل فوق المائدة، الستائر ذات اللون الأزرق تكسو كل النوافذ، وكل ما هو بالغرفة، إذا لم يكن لونه أزرق فهو أبيض، أما الخشب فهو بلونه الطبيعى.

كانت الكتب حول الغرفة كلها موضوعة فى حوافظ خاصة، وفى ركن من الغرفة، وضع كتاب "هرمز" فوق قاعدة لها جناحان ممتدان. كانت توجد صورة واحدة معلقة، هى نسخة طبق الأصل من لوحة "والدة رامبرانت". أما النوافذ فهى تطل على الحديقة، تلك التى صاحبها ظلام الليل الداخل. تم وضع الشاى على مائدة صغيرة مجاورة للمدفأة، بينما هناك ساعة نحاسية دقت موعد النصف ساعة مع دخول روندر المنزل

قال روندر، "اعتقد أن ايلين سوف تحضر اليوم، أليس كذلك؟"

شرب هو كل تفاصيل الغرفة ببهجة حسية بالغة، تقدم نحو كتاب "هرمز" وحمله بين يديه السمينتين. "أنت الجمال كله" قالها وهو يهمس بصوت عال، ثم التفت نحو عمته وكرر القول:

"بالطبع سوف تحضر ألين اليوم"؟

"بالطبع سوف تحضر"

التقط هو الكتب التى وضعت فوق المائدة– عناوينها: "تومى العاطفى" تأليف ج. بارى، كذلك رواية "سير جورج تريسادى" تأليف مسز هنرى وارد، أيضا رواية " أسطورة بالين" لمسز سوينبورن، كذلك "أعمال ماكس بيربوم" وآخرها كان كتاب "الحقوق والواجبات الاجتماعية" تأليف ليزلى ستيفنس.

أخذ يتصفحهم جميعا بأغلفتهم ذات اللون الأصفر الباهت، ثم بكل تؤدة وحرص وضعهم مرة أخرى فوق المائدة. هو دائما ما يتناول الكتب كأنما هى من لحم ودم، ثم اقترب وجلس بجوار النار:

" لن أحاول أن أستطلع المكان كله إلا فى صباح الغد، ما الذى فعلتِه بباقى الكتب؟"

"كلها داخل الحوافظ وموجودة هنا، تلك هى أفضل غرفة فى المنزل، فهى تطل على النهر وتحوز على أفضل إضاءة، والكتب كما رتبتها أنت، أنا لا أجرؤ أن ألمسها بيد. فى الواقع، أنا تركت لك هذه الغرفة بأكملها لكى ترتبها بمعرفتك كما تشاء"

"حسنا، إذا كنت قد أعددت كل الغرف بهذا الشكل، فأنا سعيد بذلك، يبدو أننى سوف أحب هذه البلدة"

"وأنت الذى كرهت الفكرة منذ بدايتها"

"أنا كرهت مسالة الإزعاج المرتبطة بما سوف يحدث معنا قبل الاستقرار، لكن الاستقرار حدث بطريقة أسهل كثيرا عما أتصور، إلا أننا لا نعلم كل الظروف هنا، وهذا ما سوف تخبرنا به ألين"

استمر الصمت بينهما لفترة، ثم حدجها بنظرة فيها نوع من الحيرة، نصف متهكمة، نصف هزلية، قال:

"الموضوع كله كان صدمة بالنسبة لك يا عمتى، ها أنت مضطرة أن تدفنى نفسك هنا. لندن هى تنفسك الطبيعى، لكن لماذا حضرت معى؟ هل بسبب انك مغرمة بى؟"

"ليس هو الحب بالضبط، ربما هو الفضول. كنت أود أن أرى بعينى ما الذى سوف تفعله هنا، فأنت أكثر الناس إثارة للاهتمام عرفته فى حياتى، وهذا ليس تعصبا لك، فالعمات على وجه العموم ليسوا كذلك، إنهن لا يمدحن أبناء الأخ. لكن ما الذى دعاك أنت أن تحضر إلى هنا؟ أؤكد لك أننى لا أعرف أسبابك على الإطلاق".

فتحت مسز كلاى قائلة:

"مس ستايلز موجودة هنا"

مس ستايلز هذه، لم تكن سيدة مهندمة، كانت ضخمة الجثة سمينة، لها وجه مستدير كأنما هو الشمس، ترتدى ملابس فاتحة لا تناسب سيدة فى حجمها، هى تمتاز بصوت ناعم رقيق كأنما هو خوار البقرة. هى لم تكن سيئة، لكنها جبلت على أن تشعر بتعاسة بالغة إذا صادف أحدهم نجاحا فى شأن ما أو توفيقا فى حياته. إذا كنت أنت بائسا، إذن هى تحبك، وترعاك، ولا تهجرك أبدا، وسوف تقتسم معك آخر بنس، ويمكن أن تجرى حتى نهاية العالم من أجلك، وتدافع عنك أمام الإنسانية كلها، لكن إذا كنت أنت فى صحة جيدة، فإنها فى الحال سوف تهمس فى آذان الآخرين قائلة أنك ربما تكون مصابا بالسرطان؛ إذا كنت محبوبا من الجميع، فهذا سوف يقلقها للغاية، وسوف تكشف ألف عيب فى أخلاقك وطباعك؛ إما إذا كنت ناجحا فى عملك، فإنها تصلى بحرارة حتى تفشل وتقع حتى لا يصيبك الغرور. هى تثرثر بلا توقف، ودائما لكى تستعيد الاتزان العاقل للعالم فإنها تسعى لكى تنزع العظيم من كرسيه العالى، ثم تقوم برفع المتواضع مكانه، لكن هذا الأخير مصيره أن يقع فى النهاية. هى تعزف ببراعة على البيانو، وتقضى يومها تجرى من منزل إلى آخر.

هذه السيدة لها دخل خاص، وتعيش أربعة شهور فى بولشستر (هى ولدت هنا وعائلتها معروفة منذ أجيال طويلة)، وأربعة شهور فى لندن، أما باقى العام فتقضيه فى الخارج، وكانت قد تعرفت على أليس روندر فى لندن والتصقت بها. هى تحب آل روندر، لأنهم لا يتفاخرون أبدا بنجاحاتهم، ولأن قلب أليس المسكينة ضعيف. لكن لأن القس روندر يعرف أخلاقها وطبيعته جيدا، لذا وهو نصف مستمتع، حاول بقدر الإمكان أن يخبئ مواهبه عنها، وهى مواهب يعلم جيدا أنها ليست دنيئة إطلاقا. هذه السيدة تسبب إزعاجا للآنسة روندر، لكن القس وجد أنها ذات فائدة عظمى، فهى تخبره بالكثير مما يود معرفته من معلومات، و، بالرغم أن معلوماتها ليست دقيقة دائما، لكن هو باستطاعته أن يفصل ما بين القمح والتبن. هى ليست سوى صانعة - مآس متحركة على قدمين، لكن هى لا تتمنى أن تسبب

ضررا لأحد، وتفتخر بأنها إنسانة أمينة ومخلصة عندما تخبر أحدا بما تظنه فعلا. بالنسبة لخدمها، هى العطف والحنان مجسما، وهم جميعا يعشقونها، كذلك يفعل حمالو القطارات، سائقى العربات، موزعو الصحف، هى دائما ما تقدم الإكراميات فى أى مكان تقصده؛ لأنها "لا تحتمل أن لا يحبها أحد". تعتبر هذه السيدة فى مجتمعنا ببلدة بولشستر عامل مهم، هى الأولى التى تسمع الأخبار المهمة فى بلدتنا، ثم هى الوحيدة التى تعطيها التفسير الخطأ بقدر ما أوتيت من جهد وقوة.

هى مسرورة للغاية برؤية آل روندر، وأخبرتهم بذلك على أشكال متنوعة، لكنها أحست بقليل من الضيق عندما شاهدت الغرفة مرتبة ومنسقة. كانت تفضل بالأكثر أن يكونوا فى "حالة من الفوضى والارتباك" وأن يكونوا فى حاجة ماسة للمساعدة:

"يا عزيزتى أليس، لقد كنت متعجلة للغاية! كم أنت بارعة ! فى نفس الوقت أنك سوف تكتشفين أن هناك الكثير ما يزال فى حاجة للتنظيم والترتيب. كل فتيات بولشستر يتميزن بالبطء فى العمل وتكسير الأشياء. أعتقد أن لا شىء قد تحطم أثناء العزال- وأرجو أن لا تكون قيمته كبيرة"

ضحك روندر"نعم، أشياء كثيرة يا ألين، لقد قضينا أسوأ وقت، كنا بالفعل فى حاجة ماسة لمساعداتك. ولا توجد سوى تلك الغرفة التى استطاعت العمة أن ترتبها- فقط لكى نستقبلك فيها. أما عن رحلتنا ! لا أستطيع أن أصف لك كل المتاعب التى صادفتنا، المكان بالكاد استطعنا أن نلتقط فيه أنفاسنا، ثم ما أن حضرنا إلى هنا حتى استقبلتنا تلك الأمطار الغزيرة"

"أوه، يا لكم من مساكين! ويا له من استقبال تهيئه لكم بولشستر! أعتقد أنك كرهت حتى منظر المكان. يا لها من بداية محبطة، إن كل شىء يبدو بهذا الشكل الموحش المقيت. أعتقد أنك تمنيت أن تغادر سريعا، ولن اندهش إذا أحسست بالانقباض. أرجو يا حبيبتى أليس أن لا يكون قلبك قد تأثر بكل هذه المصاعب"

اعترفت أليس "حسنا، فعلا أجهدت نفسى، لذا سوف أذهب مبكرا إلى سريرى"

"يا حبيبتى ! كنت أخشى عليك وأن لا تتحملى كل هذه المجهودات، أنت لست فى حاجة لأن تستيقظى مبكرا، دعينى أنا أقوم بكل مشترياتك. أنا أصر أن أفعل ذلك. كيف حال مسز كلاى؟"

قال روندر "هى أيضا أحست بتعب شديد من الجهد الذى بذلته، لكنى أعتقد أنها سوف تتغلب على هذه الحالة"

قالت مس ستايلز بنوع من الرضى "أخشى أنها أحيانا تتعصب، أعتقد أننى عندما حضرت وجدت أنها ليست على طبيعتها، فالمشاكل لا تأتى أبدا فرادى"

كل الأمور تسير على ما يرام طالما أن مس ستايلز راضية، لذا أبدت إعجابها بالغرفة وبكتاب هرمز وتنبأت أنه بعد أسبوع أو اثنين لن تكون الأمور بهذا القدر من السوء. شربت هى عدة أقداح من الشاى وابتدأت تثرثر. كان واضحا أنها تكاد أن تنفجر بما لديها من أنباء.

قال لها روندر مستمتعا بملاحظتها "ألاحظ يا ألين أنك سوف تخبريننا بنبأ جديد"

"فعلا، هو موضوع مثير للاهتمام. ماذا تظن؟ لقد تم طرد فولك براندون من جامعة أكسفورد، وهو فى منزله الآن بسبب سوء السلوك."

"ومن هو فولك براندون؟ "

"هو ابن الأرشدياكون الوحيد، لقد أخبرتك بالكثير عن الأرشدياكون. هو يظن أنه يدير هذه البلدة بأسرها، إنه يتعالى على كل إنسان، وهذا الموضوع الجديد سوف يهزه قليلا. وأنا مضطرة للقول، ولا أريد أبدا أن أكون قاسية فى أحكامى، لكنى بصراحة سعيدة بما حدث. فالطريقة التى يتصرف بها فى شئون بلدتنا سخيفة

للغاية، ومعظم القسس تعدوا سن التسعين، لذا هم مضطرون أن يتركوه يفعل ما يشاء"

"متى حدث هذا؟ "

"أوه...حدث حالا. لقد وصل فولك فى نفس القطار الذى أنت وصلت به. أنا قابلت جورج لاسلز وأنا قادمة إليكم، وهو قابله فى المحطة- أعنى قابل فولك- وهذا الشاب لم يحاول أبدا أن يخفى شيئا. قال له جورج "هالو فولك، ماذا تعمل هنا؟" فأجاب الولد "أوه..لقد طردونى من الكلية" هو لم يحاول أبدا أن يخفى شيئا، هو دائما ما يبدو هكذا، سليطا. إنه سوف يسبب لوالده الكثير من المتاعب"

قال روندر ضاحكا "ليس بالأمر الجلل أن يطرد من أكسفورد، أنا أعرف عددا كبيرا من الشباب الذين حصل معهم مثل هذا"

بدا الضيق على الآنسة ستايلز "أوه، لكن أنت لا تعرف كل شىء، هذا الموضوع يعتبر كارثة بالنسبة لوالده، إنه أكثر الناس شعورا بالفخر فى كل انجلترا، بعض الناس يدعون ذلك أنه الغرور، لكن، مهما كان الأمر، هو يظن أنه لا توجد عائلة يمكن أن تضاهى عائلته. حتى مسز براندون، هو كثيرا ما يتفاخر بها عندما لا تكون حاضرة. سوف يكون هذا الموضوع قاصما لظهره إذا عرفه الجميع"

لم ينطق روندر بشىء. قالت مس ستايلز وقد شعرت أن أخبارها لم تحدث أثرا قويا:

"عليك يا عزيزى أن تناضل ضد هذا الرجل ولا تستسلم له بسهولة، وليس هناك مسلك آخر. أتمنى أن تقف حازما فى وجهه"

"أنا؟ لماذا؟ أنا أحارب أى إنسان. أنا إنسان كسول للغاية"

"إذن أنت لن تهنأ بالراحة هنا، هذا كل ما فى الأمر. إنه لا يتحمل أبدا أن يغضبه أحد، وله طريق مخصوص لا يحب أن يشاركه فيه أحد، طالما أن أسقفنا طاعن فى السن والعميد إنسان غبى. نحن نريد قليل من الحياة أن تنضح وتتفجر فى هذا المكان"

"ليس عليك أن تنظرى إلينا لنحقق آمالك، لقد حضرنا إلى هنا فقط لنستريح ونستمتع بالسلام، السلام الكامل"

رفعت الآنسة ستايلز رأسها عاليا "أنا لا أصدقك، وسوف اشعر بخيبة أمل قاصمة إذا كانت هذه هى الحقيقة،

نظرت أليس روندر نظرة استطلاعية إلى ابن أخيها، نصفها استمتاع ونصفها الآخر توقع، قالت "هذه هى الحقيقة يا ألين. الآن وقد فرغت من احتساء الشاى، تعالى معى لكى تنظرى باقى البيت.

* * *

### الفصل الثالث

## يوم من أيام جوان

استطيع أن اكتشف الآن كيف أن الحياة فى بولشستر كانت مختلفة تماما عن بقية العالم. وحتى الآن، بعد قيام الحرب التى هزت كيان كل قرية فى إنجلترا، إلا أن بولشستر احتفظت لنفسها بسمت غريب من التفرد- لماذا إذن، ظلت كأنما هى قلعة من قلاع القرون الوسطى وهى تحاول أن تتواصل مع العالم الخارجى!

هذه العزلة كانت تحدث بشكل مقصود، بالطبع لا اقصد أن مسز كمبرمير، براندون، والعجوز بنتك - ميجور ومسز سامبثون قالوا بلهجات مختلفة "سوف نحتفظ بأحوالنا وحالنا لأنفسنا، وندافع بضراوة ضد أى غاز جديد يود أن يغرس فى بلدتنا فكرًا جديدا، أو عادة أو اتجاهات مبتكرة، نحن على استعداد أن يضحى بنا على أن نسمح لعادة قديمة أو شكل أو اعتقاد نتمسك به أن يختفى أو يذوب؛ بالطبع لم تكن الأمور بهذا القدر من الوضوح، لكن تلك هى خلاصة الأفكار السارية. وقد ساعدتهم الظروف على تحقيق أمانيهم. حقيقة أن الخط الحديدى يمر على بولشستر آت من درايماوث، لكن الركاب غالبا تكون وجهتهم الجنوب، ولا ينزل إلى بلدتنا سوى بعض السياح الأمريكيين وبعض العاطفيين الذين يرغبون فى تفقد الكاتدرائية، ومن يبقى منهم ويجد أنه لا يتلقى الترحيب الواجب، يرحل ولا يعود أبدا بعد ذلك. حقيقى أنه حتى فى وقتنا السالف عام ١٨٩٧، كان هناك قدر من الحركة والنشاط لبعض من رجال الأعمال، أمثال كروسبى وفريد بارنستابل، محاولين أن يجعلوا للمكان شهرة خاصة، ويكون جذابا من الناحية التجارية، لذا نجد أنه قد تم إنشاء ميدان للعب الجولف، وبناء فندق سانت ليث على تلة بول فى وقت متأخر. كذلك تم تجربة أمور أخرى، مثل تسيير سفن تجارية تجوب نهر بول

لمدة ثلاثة شهور، لكن كل هذه الجهود فشلت، فالكاتدرائية كانت أقوى منهم جميعا، وفوق الكل كان هناك قوة وتصميم براندون ومسز كمبرمير الذين لم يشجعا أبدا قدوم الغرباء، وقد كان كل رجال مجلس المدينة، مشابهين للقسس، كبارًا فى السن ومحافظين. صحيح أنه فى عام ١٨٩٧ تم انتخاب بارنستابل عمدة للمدينة، لكن بدون معونة روندر ما كان فى استطاعته أن يحقق شيئا.

لذا يمكن القول بأن المدينة فى ذلك الحين كانت تدور حول محورها؛ تدور حول الحدثين المهمين الذين تجرى وقائعهما مرة واحدة فى العام. المعرض السنوى لبولشستر، كذلك الحفلة الراقصة للمقاطعة التى تقام فى الشتاء. هذان الحدثان كانا دائما ما يداران بنفس الأسلوب الذى جرى عليه العمل منذ مائة عام. أجد الأمر غريبا أن أكتب من زاوية أيامنا الحالية لكى أعطى تصورا لزمن قصير، عندما كان كل شيء يجرى فى انجلترا ويحدث بنفس الأسلوب المغرق فى التحفظ. أنا عن نفسى كنت فى الثالثة عشر من عمرى عندما أتى إلى بلدتنا روندر، وكنت فى ذلك الحين أنظر للبالغين وأصبغهم بألوان مبالغ فيها، مع خشية غريبة أصبحت ملازمة لى طوال فترة صباى. بالنسبة لزملائى، أمثال جيرمى كول الصغير، لم يكن عندهم أى نوع من الألوان، لكن من وجهة نظرهم، كان الكبار لهم شكل غريب، عظيم وأسطورى. وبالنسبة لعينى الصغيرة فى ذلك الحين، كان كل من مسز كمبرمير، العميد، الأرشدياكون، القس روندر، جميعهم كانوا يتحركون فى المدينة مثل الآلهة، ولم يحن الوقت إلا بعد عودتى إلى بولشستر بعد قضاء عامى الأول فى جامعة كمبردج، أن أدركت أن مدينتنا صغيرة للغاية، وأن أشخاصها المهمين أصبحوا صغارا فى نظرى.

كانت جوان براندون تظن أن والدها هو إنسان رائع، كما قلت سابقا، لكن كثيرا ما كانت تشاهده وهو فى قمة ثورته، أو وهو يزدرى بأمها، وكثيرا من كان يغضب بسبب تفصيلات تافهة للغاية. أما أخوها فولك، فهو فى نظرها هو الإنسان الرومانتيكى، ولم تتعرف عليه جيدا - كما فعلت مع والدها - لفترة بعد رجوع

فولك من الكلية، لم يحدث شيء ذو بال، ولم تعرف جوان ما الذى يمكن أن تتوقع حدوثه، لكن كان يتملكها شعور قلق مدركة أن هناك ما يحدث فى الخفاء وأكثر مما يصل إلى علمها.

الأرشدياكون لا يخاطب ابنه أبدا إلا إذا كان مضطرا لذلك، أما فولك فهو لا يهتم بذلك إطلاقا، فوجهه الوسيم المليء بالتحدى كان ينطق بمراسم الاحتقار للجميع. هو دائما خارج المنزل معظم النهار، ينزل للإفطار بعد انتهاء الباقين من إفطارهم، وكثيرا ما لا يكون موجودا معهم على مائدة العشاء. هذا وقد شدد الأرشدياكون بأن ترفع مائدة الإفطار بعد انتهائهم، لكن مع ذلك، كان فولك يجد إفطاره جاهزا فى كل الأحوال، مهما كان متأخرا، فالطباخ وكذلك الخدم يحبونه، وأعتقد أن سبب ذلك هو أنه لا يقيم وزنا للفوارق الطبقية، فهو يضحك ويتبادل النكت مع أى شخص طالما أنه فى مزاج حسن. فى كل هذه الأيام الأولى، ندر أن يتوجه بحديث إلى أخته، بدا الأمر كأن كل أفراد العائلة قد وضعوا فى قائمته السوداء بسبب آثامهم، فهم الملومون وليس هو.

كانت جوان تلوم نفسها لأنها كانت تشعر بالمرح أثناء نشوب تلك الأزمة العائلية، لكن هى لم تستطع أن تمنع ذلك. منذ فترة قصيرة، زاد يقينها من أن هناك معركة محتدمة تجرى فصولها داخل قلب العائلة، وكان من المفترض أن يسبب لها هذا إزعاجا لا حدود له، لكن لا، كل الأمور بدت كأنما تحدث خارج حدود وجودها، وليس لها هى أية صلة بما يحدث، كما لو أن حياتها تخصها بمفردها وليس مسموحا لأحد أن يخترق أسوارها، بدا الأمر كأنما شجاعتها تتنامى وتتضاعف كل نصف ساعة من وجودها على قيد الحياة.

عبرت شهور، وفى صباح يوم دخلت هى غرفة الاستقبال لتجد والدتها فى حالة انزعاج وحيرة بالغة. سمعت الأم تكاد أن تبكى تقول:

"يا عزيزتى..لا أعلم كيف أتصرف أبدا فى هذا الموضوع"

من النادر أن كانت الأم توجه الحديث لابنتها، لذا زادت دقات قلب جوان فخرا وتيها

"ما الموضوع يا والدتى؟ " نطقت بذلك متظاهرة أنها غير مهتمة

نظرت نحوها مسز براندون وفى عينيها نظرة ملؤها الخوف، كما لو أنها كانت تخاطب نفسها ولم تشأ أن يسمعها أحد.

"أوه..جوان! أنا لم أكن أعلم إنك أنت هنا !"

"ما الموضوع؟ هل يمكن لى أن أساعدك؟"

"لا يا عزيزتى، لا شىء...فى الحقيقة أنا لم أكن أعلم أنك أنت هنا"

"لا، لكن يجب أن تسمحى أن أساعدك"، هنأت جوان نفسها بسبب شجاعتها.

"هو أمر لا يمكن لك أن تفعلى فيه شيئا"

"لكن بالتأكيد هناك ما يمكن أن أفعله، هل تعلمين أننى هنا منذ شهور فى هذا المنزل بغرض أن أساعدك، وللأسف لم يسمح لى أبدا أن أفعل شيئا له قيمة"

"صحيح يا جوان، لا أعتقد أن أسلوبك مهذب وأنت تتحدثين"

"لا يا أمى، هذه هى الحقيقة، أنا أريد أن أساعدك بالفعل. لقد كبرت. وقريبا سوف أذهب لأتناول عشائى فى القلعة. من الضرورى أن تسمحى لى أن أساعدك، وإلا رحلت بعيدا لأتكسب عيشى بنفسى !"

كانت هذه الجملة الأخيرة مدهشة وصادمة، لدرجة أن كل من جوان وأمها أخذا يحدقان فى بعضهما بنوع من الدهشة المرتعبة.

قالت جوان بسرعة وهى تتماسك "لا، أنا لا أعنى ما قلت بالضبط، لكن يجب أن يكون لى عمل أؤديه فى هذا البيت"

"أنا لا أعلم ما الذى سوف يقوله والدك" نطقت مسز براندون بهذا وما زالت الحيرة تتملكها

قالت جوان بسرعة "أوه... لا تهتمى بما يقوله والدى، هذا الموضوع بينى وبينك. أنا هنا لكى أساعدك، يجب أن تدعينى افعل شيئا، ما مشكلة اليوم؟"

"لا أعلم يا عزيزى، هى ليست مشكلة محددة، كل الأمور صعبة أمامى، فى الواقع أنا وعدت أن اذهب إلى حفلة شاى مس بورنت بعد ظهر اليوم، لكن والدك يريدنى أن أذهب معه إلى دار العميد. شىء محير، فلو قابلتنى مس بورنت فى الطريق، فما هو العذر المقبول الذى يمكن أن أقدمه لها؟"

"إذن دعينى أذهب أنا إلى حفل شاى مس بورنت بدلا منك، فقد حان الوقت أن أحل بدلا منك فى بعض المهام. أنا لم أشاهد مستر موريس، وقد علمت انه إنسان لطيف"

"حسنا يا عزيزتى " قالتها مسز براندون وقد اكتشفت فجأة، كما هو الحال عندما تواجه بنوع من المعارضة، من أن تذعن سريعا "اعتقد أنه من المناسب أن تذهبى أنت، وهذا فضل منك، ويمكن أيضا أن تأخذى معك هذه الكتب لتستبدليها من المكتبة العامة. لكن اليوم هو يوم السوق، هل أنت متأكدة أنك لن تنزعجى بسبب الأبقار والجياد والكلاب؟"

ضحكت جوان "أظن أنك ما زلت تنظرين نحوى كأننى ما زلت فى الخامسة من العمر. شىء عظيم، سوف أبدأ بعد الغداء مباشرة"

صعدت جوان إلى غرفتها ومعنوياتها مرتفعة للغاية. فى الحقيقة، ما فعلته يعتبر خطوة إلى الأمام. بعد تفكير عميق، أدركت أن هناك أمورا تجرى فى الخفاء جعلت أمها تذعن هكذا سريعا. ثم جلست فوق مقعدها القديم ويداها معقودتان خلف رأسها تفكر، يا ترى ما شكل آل موريس هؤلاء. أدركت الآن أن الخوف بدأ يتسلل إلى قلبها، فمستر موريس هو القس الجديد المعين للخدمة فى كنيسة سانت جيمس،

وهى الكنيسة الصغيرة المجاورة للسوق. هو قد حضر إلى بولشستر من عهد قريب ويقال إنه إنسان حيى وخجول، لكنه واعظ بارع. هو أرمل، ومن يدير شئون منزله هى أخت المرحومة زوجته. أخذت جوان تفكر مليا فى تلك المهام الجديدة، إنها سوف تحدث فرقا هائلا فى كل شىء. يلزمها الآن أن تفكر فى حياة خاصة بها، وأن تتهيأ لأن تخوض مغامرات الحياة والوقوع فى حبائل الحب. هى الآن فى قمة السعادة، لذا انتفضت واقفة وأخذت تتراقص فى غرفتها، شكل يشبه رقصة البولكا، ثم بلغ بها الحماس لدرجة أن المقاعد والمنضدة كانت تهتز معها.

قالت لنفسها "سوف أكون تلك الشابة الناضجة عندما أذهب لبيت آل موريس بعد الظهر، لدرجة أنهم سوف يظنون أننى معتادة على ذلك"

كانت فى حاجة ماسة إلى كل شجاعتها وإقبالها على الحياة أثناء فترة الغداء مع عائلتها، فهو دائما ما يكون موحشا ومقفرا، جلست بجوار والدها ووالدتها ولم يتم تبادل ولو كلمة واحدة.

بعد الغذاء صعدت إلى أعلى وارتدت معطفها وقبعتها والتقطت الكتب الثلاثة المعادة وخرجت. اليوم كان مشمسا، مع خيالات تسابق بعضها البعض وترسم نفسها فوق الخضرة المؤدية إلى الكاتدرائية، كان ينتشر فى الجو رائحة البحر مع الهواء البارد المنعش. توقفت قليلا وأخذت تملى النظر فى الكاتدرائية، هى لم تحب شكلها على الإطلاق، ودائما ما كانت تفضل أن تذهب يوم الأحد إلى كنيسة صغيرة مثل سانت جيمس. طوال حياتها التى تدركها، كانت تشعر كأن الكاتدرائية هى التى توجه لها الأوامر، لأن تكون مرحة أو سعيدة أو مهملة. اليوم بالذات، رجع إليها هذا الإحساس "هذا المكان سوف يسبب لنا مآسي عظمى، أنا أكرهه". للحظات شعرت بالانقباض وعدم الارتياح؛ لكن ما أن عبرت قنطرة أردن وخرجت إلى الشارع الرئيسى وشاهدت مدرستها الثانوية وهى تلمع فى الضياء، عاد إليها الشعور المرح، وهناك حدث معها ثانى مناسبة مفرحة. فما إن هبطت التل حتى تقابلت مع مسز سامبثون، وهى زوجة أحد العمداء السابقين الذى استقال فى وقت

مبكر. كان ما يدعو للعجب فى هذه المقابلة هو إدراكها أنها لم تعد ترتعب من مقابلة مسز سامبثون- هو رعب كان يشلها ويجعلها تشعر كأن هناك شوكة غرزت فجأة فى جسدها- هذا الشعور الآن اختفى تماما، كأنما هناك تعويذة أطلقت فوق مسز سامبثون فتحولت هذه إلى أرنب. لم يكن الخطأ أبدا واردا من تجاه هذه السيدة لكى تسبب هذه النوعية من الرعب لتلك الفتاة الصغيرة، فهى سيدة فاضلة، خجولة، دائما ما تشكو من صداع مؤلم يكاد أن يفتك برأسها.

هذا الصداع كان أحد الملامح المهمة فى حياة بولشستر، وكل كبير فى السن كان يشفق على هذه السيدة ويقدم لها مجموعة من العلاجات المجربة، لكن الصغار لم يدركوا أو يصدقوا أن هناك عيبا خطيرًا جال فى جسد هذه السيدة، إلا أن تلك الحدة التى لازمت السيدة سامبثون وجعلتها تنطق بكلمات مثل "نعم" و "لا" بهذا الشكل الفجائى، كذلك آرائها المتزمتة الخاصة بالعادات والمحاذير الصحية، دعت الصغار أن يتجنبوها جميعا. قبل هذا اليوم، ربما كانت جوان ترحب أن تسير ميلا أبعد عن أن تتقابل مع مسز سامبثون، إما اليوم وهى تتقابل مع تلك السيدة الضئيلة الحجم، شاحبة الوجه، فهى لا تشعر نحوها سوى بالأسى والأسف.

"صباح الخير يا مسز سامبثون"

"صباح الخير يا جوان"

"أليس اليوم رائع"

"أعتقد أن الدنيا برد قليلا، ما حال والدتك؟ "

"فى أحسن حال، أشكرك"

"بلغيها تحياتى"

"سوف يحدث يا مسز سامبثون"

"مع السلامة"

"مع السلامة"

اهتز أنف مسز سامبثون وهو ذاك الذى يتحول إلى اللون الأزرق فى الأيام الباردة، ثم أطبقت شفتيها الرفيعتين بقوة، وانطلقت بعد ذلك فى طريقها مسرعة.

"لكن أنا لم أشعر أبدا بالخوف منها! ". كانت تقريبا فى ذعر بالغ بسبب هذه الروح الجديدة التى دبت فى أعماقها، وبينما يسيطر عليها خشية أن تعاقب على مثل هذه المشاعر، صعدت سلم المكتبة العامة.

جرت العادة فى تلك الأيام، أنه بعيدا عن رفوف المكتبة المتربة، تنتصب منضدة عريضة فى الوسط يوضع فوقها كل الأعمال الجديدة، سواء الروايات الحديثة بأغلفتها الجذابة، كذلك الكتب المدون فيها الأشعار والمذكرات الشخصية. قريب من هذه المنضدة، جلست مس ميلتون، وقد ارتدت، حتى فى الأيام الحارة، شالا كثيفا وهى منهمكة كالمعتاد فى حياكة جوارب لا تنتهى. هذه السيدة تكره الأولاد، كانت تكرهنى أنا على وجه الخصوص، أيضا هى بارعة فى مجال التملق و"المحلسة"، ودائما ما تجثو فى كل صلاة تحمد الله؛ لأنه ساق لها مسز كمبرمير، كذا مسز سانت–ليث، أيضا مسز سامبثون اللواتى استطاعن بنفوذهمن أن يثبتوها فى العمل داخل هذه المكتبة.

أما جوان، فهى ما زالت فى نظرها طفلة، لذا هى لا تنظر نحوها جديا، فالمعروف للجميع أن والدها أيضا لا يضعها أبدا فى حسبانه، لذا كانت دائمة، فى الأوقات النادرة التى تدخل فيها المكتبة، أن تنظر إليها مس ميلتون بازدراء. يجب أن نعترف أنه بالرغم من نجاحها مع مسز سامبثون فإنها كانت مرتبكة نوعا، كانت مرتبكة جزئيا وهى تثبت أنظارها نحو مس ملتون بنظارتها الحمراء، ولا تود أن تركز النظر نحوها إذا كان هذا ممكنا، لكن السبب الرئيسى الذى كان يشغلها هو أن والدتها أصرت أن تعيد الكتب الثلاثة بأسرع مما هو متوقع، كذلك لأن والدتها أصرت على أن تسأل عن كتاب "تومى العاطفى" تأليف بارنى، كذلك

كتاب "الباذرون" تأليف سيتون ميريمان، وهما الكتابان اللذان طلبتهما تكرارا منذ عدة أسابيع ولم تحصل عليهما أبدا.

تعلم جوان ما الذى سوف تنطق به مس ملتون، سوف تقول بالطبع "ربما يعود هذان الكتابان الأسبوع القادم، لكن هذا ليس مؤكدا"، لذا هل تظن جوان أنها فى قمة شجاعتها بحيث تطالب بهما بقلب من حديد؟ هى لا تعرف.

تقدمت إلى المنضدة وكلها ابتسام. مس ملتون لم ترفع ناظريها لكنها استمرت فى حياكة جوربها الذى لا يود أن ينتهى أبدا.

"صباح الخير يا آنسة ملتون، لقد أعادت والدتى الكتب الثلاث، حيث إنها ليست من النوعية التى تفضلها"

"أنا آسفة لذلك" تناولت مس ملتون الكتب بيديها الحانيتين مضيفة "يجب أن أقول إن الموضوع فى غاية الصعوبة أن أعرف ما الذى تفضله والدتك"

"حسنا، هناك مثلا كتاب - تومى العاطفى- "

لكن مس ميلتون كانت وما زالت هى الجنرال العجوز.

"أوه... أخشى القول إنه ما زال فى الخارج، الآن أمامك رواية "زوجة روجر فانيروف" وهى رواية..."

"لكن ألا توجد أيضا رواية (الباذرون)" اضطرت مجبرة أن تحدق فى نظارة مس ملتون البغيضة.

"أوه... أخشى القول إن هذه الرواية أيضا فى الخارج، هناك العديد من الكتب هنا..."

"لقد وعدت والدتى أن تحصل على تومى العاطفى هذه الأسبوع، بل وعدتِها منذ شهر مضى. آن الأوان أن تحصل ماما على كتب تتشوق لقراءتها"

"فى الحقيقة، يبدو انك توجهين لى تهمة إخفاء الكتاب عنكم، إذا كان لديكم أية شكوى، أمامكم لجنة إدارة المكتبة يمكن أن تتقدموا بشكواكم إليها، فأنا مسئولة أمامهم. عندما ترد هذه الكتب من باقى المستعيرين سوف أعطيها لكم، لا أستطيع أن أعد بأكثر من ذلك. أنا مجرد إنسانة"

"لقد أخبرتنا بنفس هذا الحديث على مدى ثلاث شهور" اندهشت جوان من هذا الغضب الذى حل عليها "وبالطبع لم تستمر هذه الكتب عند آخر مستعير لمدة ثلاثة شهور، فأنا أعلم أن من حق المستعير أن يستبقى الكتاب عنده أسبوعًا واحدًا فقط"

تحول لون مس ميلتون من اللون الأحمر إلى اللون القرمزى الغامق.

"الكتاب فى الخارج. كلا الكتابين فى الخارج. الطلب عليهما شديد، وليس لدى ما أضيفه"

فتح باب المكتبة، ودلف شاب صغير. تعتبر جوان من الصغر ولا تود بالطبع أن تشترك فى عرض عام، عليها إذن أن تؤجل معركتها الآن. لكن ما أن رأت من دخل المكتبة، حتى تلون خداها، انه لورد سانت- ليث الصغير- جونى، كما يطلق عليه أهله، هذه العائلة متشعبة وأحوالها متباينة. كرهت جوان نفسها لأنه بدا عليها بعض مظاهر الخجل، لا سيما وهى تقف الآن أمام مس ميلتون البغيضة، لكن كان هناك سبب آخر. فى يوم من أيام شهر أكتوبر الماضى، وبعد قداس يوم الأحد فى الكاتدرائية، وقفت جوان مع أمها فى البهو انتظارا لتوقف هطول الأمطار الشديدة. كان هناك أيضا سانت- ليث الصغير الذى تقدم نحوهما وجاذبهما أطراف الحديث. لم يكن هذا الأمر مزعجا للغاية، لكن ما إن هدأت الأمطار وتقدمت مسز براندون تسير على الممر الأخضر، حتى تقدم سانت - ليث من جوان وبطريقة لطيفة مرتبكة سأل جوان عما إذا كان ممكنا أن يتلاقيا فى يوم آخر. نظر نحوها

بنظرة عميقة فى عينيها، كان راغبا أن يضيف شيئا، لكنه لم ينجح. ثم استدار وغادر المكان.

لم يطلب شاب من قبل أن يتقابل مجددا مع جوان، أخبرت هى نفسها أن هذه الحادثة لا تعنى شيئا، ولعلها مظهر من مظاهر الأدب والذوق، لكن مع ذلك، ظلت تلك النظرة التى حدجها بها عالقة فى ذهنها.

الآن وهى تراه يتقدم نحوها داخل المكتبة، عاد إليها الفكر السابق، لكن لمَ يحدث لها هذا فى نفس اليوم الذى اكتسبت فيه تلك الشجاعة والثقة الجديدة فى نفسها؟ هذه الفكرة التى طرأت على ذهنها، اعتبرتها نوعًا من السخف، لذا التفتت ناحية مس ميلتون، لكن حمرة الخدين لم تفارقها.

جونى هذا كان حجمه صغير، وجهه أحمر به بعض البثور، فم واسع، وبصحبته كان هناك كلب من نوع "بول- تارير". جونى هذا من نوعية الموغلين فى التحفظ من البريطانيين، لكنه استطاع أن ينفذ من حالة التزمت الانجليزى، فهو مغرم بإخوته البنات الثلاث، ودائما ما يصر على أن يرى الأشياء على حقيقتها، أيضا هو يمتاز بحسه المرهف وتذوقه للفكاهة، ودائما ما يظهر فى المكان غير المتوقع. بالرغم من أنه توجد يافطة على باب المكتبة مذكور فيها أنه ممنوع دخول الكلاب، إلا أن هذا الكلب تقدم بجسارة وأخذ يتشمم ويتلاعب بصندل مس ميلتون.

زعق فيه جونى "تعالَ هنا يا اندرو، هنا...هنا"، لكن الكلب ظن أن تلك موافقة ضمنية، وكاد أن يستمر فى مداعبته للآنسة ميلتون، لكن جونى قبض عليه من طوقه وجعل وجهه معلقا فى الهواء، بينما تبدو على ملامح الكلب الاندهاش والاعتراض.

ضحك جونى، بينما مس ميلتون ترتعش خوفا وتملقا، لدرجة أنها أسقطت شغل الإبرة إلى الأرض. استطاع أندرو أن يفلت من يد صاحبه ودفع بشغل الإبرة إلى نهاية المكتبة واخذ يتلاعب به. اعتذر جونى، فأجابت مس ميلتون:

"أوه... ولا يهمك يا سيادة اللورد، يا له من حيوان لطيف"

"نعم هو كذلك " ثم تقدم وأنقذ شغل الإبرة "انه قوى كأنه الشيطان، اترك هذا يا أندرو، سوف أكسر عظامك عندما نعود للمنزل"

أثناء هذا العرض المدهش، كان جونى يبتسم، وكان أسلوبه لطيفًا مما دعا جوان أن تبادله الابتسامات.

"كيف حالك يا مس براندون؟ ". استطاع هو الآن أن يسيطر على أندرو، وبدأ الكلب فى القفز على ساقيه "يوم لطيف، أليس كذلك؟"

"عندك حق" قالتها جوان وهى فى قمة الارتباك، شاعرة أنه واجب عليها أن تغادر، لكن كيف. هو أيضا كان مرتبكا، لذا التفت سريعا ناحية مس ملتون قائلا:

"أنا أقول..أخبرتنى أمى أن أحضر إلى هنا لأطلب الكتاب الذى وعدتها به، ما عنوان هذا الشيء؟ انه مكتوب فى جيبى"

أخذ يبحث فى جيوبه ثم اخرج ورقة صغيرة.

"آه.. هو كتاب "تومى العاطفى" ومؤلفه رجل اسمه بارى. اسم سخيف، لكن والدتى مصرة أن تقرأ كل ما هو سخيف"

التفتت جوان إلى مس ميلتون قائلة:

"يا لها من صدفة ! هو نفس الكتاب الذى طلبته أمى، انه فى الخارج"

احمر وجه مس ملتون أكثر

قال جونى "حسنا، شيء غريب بالفعل، لقد أخبرتنى والدتى أنك أرسلت لها تقولى أن الكتاب جاهز لتستعيره"

قالت جوان "هذا الكتاب فى استعارة خارجية منذ ثلاث شهور" ثم نظرت بشكل مباشر فى عين مس ملتون الغاضبة.

"أنا كنت احتفظ...." قالتها مس ملتون محرجة "بنسخة خاصة..."

تساءل جونى "هذا الكتاب، هل هو هنا أم أنه فى الخارج ؟"

"هناك نسخة مخصوصة يا سيادة اللورد..." وبأصابع مرتبكة أخذت تبحث فى درج وأخرجت الكتاب، فاندفعت جوان بغضب متناسية تماما تواجد سانت-ليث وأى شيء آخر فى العالم:

"لقد أخبرتنى أنه لن يتوافر نسخة من هذا الكتاب إلا بعد أسابيع، لكن لو كنت قد أبلغتنى أنك تحتفظى بنسخة لسانت- ليث فهذا شأن أخر. لما كذبت على؟"

فتح جونى عينيه حتى آخرهما "هل تقصدين القول أنك رفضتِ أن تعطى هذه النسخة لمس براندون؟"

"بالتأكيد" قالتها مس ملتون وهى تلتقط أنفاسها بصعوبة، كأنما هى كانت تجرى فى سباق عام "كنت أحتفظ تلك النسخة لوالدتك".

"حسنا يا للعنة، أنا اعتذر لك يا آنسة براندون..لكن أنا لم أسمع بمثل هذه الترهات من قبل، هل والدتى يا مس ملتون تدفع اشتراكا أكبر من غيرها؟"

"بالطبع لا"

"إذن لما أخبرتِ مس براندون بهذه الكذبة؟ "

مس ميلتون التى تدربت كثيرا على هذه النوعية من الحروب المرتبطة باستعارة الكتب، بدا عليها أن دمعتها تكاد أن تفر- كذلك بدا على وجهها مظاهر الإجرام، ودت فى لحظتها أن تمزق قلب جوان بخنجر حاد، إذا كان السلاح فى متناول يدها. تراءى لها الآن هذه الوظيفة اللطيفة السهلة وهى تتسلل من بين يديها، ثم تخيلت نفسها متروكة ومهجورة وهى "تشحت" اللقمة فى شوارع بولشستر، رأت...لكن دعنا الآن من هذه التخيلات، كلها مريعة، لذا وجدت نفسها مضطرة أن تلجأ للدفاع الوحيد المتبقى، قالت بصوت مرتعد:

"إذا كنت أنا لم أؤدِ وظيفتى كما يجب، فعندكم لجنة المكتبة"

قالت جوان وقد اختفى غضبها الآن "لا عليك، سوف نحصل على هذا الكتاب بعد سانت - ليث"

"بالطبع لا " أمسك جونى بالكتاب ووضعه غصبا بين يدى جوان "أمى من الممكن أن تنتظر، أنا لم أسمع من قبل بمثل هذا" ثم التفت غاضبا نحو مس ميلتون "سوف تعلم والدتى ما الذى حدث بالضبط. أنا واثق بأنها سوف تنزعج عندما تعلم انك تحتفظين بالكتب عن باقى المشتركين لكى تقرأها هى... مساء الخير"

توجه إلى باب الخروج ثم توقف قليلا.

"هل ممكن... هل بإمكاننا... هل سوف تسيرين فى الشارع الرئيسى يا مس براندون؟"

"نعم" خرجا سويا ونزلا سلم المكتب سويا.

توقفا فى الشارع المشمس، بينما العناكب السوداء الخاصة بالمكتبة تتعلق خلف ضمير جوان، مثل الكسر المفاجئ الذى يلحق برقية مؤذية.

كانت فى قمة السعادة لدرجة أنها كانت مستعدة أن تعانق الكلب أندرو، مع ذلك، فإن الكلب كان مشغولا فى ذلك الحين بالتحديق فى كلبة أخرى من نوع البودل على الجانب الآخر من الطريق.

كان جونى ما زال سادرا فى غيظه السابق، لذا أسرع هابطا التل تتبعه جوان وهى بالكاد تلتقط أنفاسها.

قال جونى "هل سمعت من قبل بمثل هذه الفعال المخزية ! هذه السيدة يجب أن تسمم، لكن التسميم هو أمر سهل بالنسبة لها، الأفضل أن تشنق، يتم إغراقها فى النهر، وتقسم إلى أربعة أجزاء. هذا هو المفروض أن يحدث لها. سوف تعانى بسبب ما فعلته هذا"

"أوه..لا، من فضلك يا لورد، أرجوك انسَ الموضوع، هى تقضى وقتا صعبا فى عملها، فكل شخص يحتاج لنفس الكتاب، والوعد هو الوعد"

"لكن هى وعدت والدتك؟"

"لا، لـــم تفعل ذلك أبدا. كانت تقول دائما أن الكتاب سوف يصلها بعد يوم أو اثنين. هى لم تعدنا بشىء، كنا نتوقع دائما أن نحصل عليه المرة القادمة"

"المنافقة.. المنافقة الشريرة!". توقف جونى رافعا عصاه فى الهواء "أننى اكره النسوة اللاتى بهذا الشكل. لا، إنها لا تؤدى عملها كما يجب، لا يجب أن تستمر فى عملها هذا"

كان هبوطها التل سريعا، لذا وصلا مكان السوق فى لحظات.

اليوم هو يوم السوق، لذا كان المكان غرقا فى الصخب والضوضاء والارتباك - عربات تدخل وتغادر، بقر وغنم هنا وهناك، الأكشاك اللامعة تزدان بالورود والخضروات المختلفة، والمحلات التى تزاحمت خلف الميدان وازدحمت بكل ما هو غريب وعجيب. لم يستطيعا أن يتبادلا الحديث وسط هذا الصخب، لذلك سرت جوان لذلك، كانت فى حالة من الإثارة منعتها من تبادل الحديث.

فى لحظة معينة، أمسك جونى ذراعها لكى يقودها وسط الجماهير الحاشدة والماشية المذعورة، بينما فلاحو جليبشاير منهمكون كالمعتاد فى مناقشات مختلفة. نساء تجعدت بشرتهن، فلاحون بوجوه حمراء سمينة، أولاد وبنات، الكل يصيح، فوق المشهد كانت السحب الخفيفة الراحلة ترسم على الأرض ظلالها المتحركة، كأنما هناك مكوك للغزل يتحرك تحت الشمس.

"أوه.. دعنا نتوقف للحظات" قالت جوان ذلك وهى تنعم النظر داخل أحد المحلات "طالما أحببت هذه طوال حياتى، لم أستطع أبدا أن أقاوم أشكالها"

كانت هذه هى ألعاب الأركيد، وأخشى القول بأن هذه أيضا قد اختفت من الوجود مثل الكثير من الأشياء الرومانتيكية. لقد كانت بالنسبة لنا جميعا أعظم مكان فى بولشستر منذ أيام موغلة فى القدم، هنا يمكن أن نعثر على كل أنواع الألعاب- عرائس، جنود، جياد، ألعاب، كلاب، أفيال- لكن كان هناك أيضا حلويات مختلفة- شيكلوتات وكرملة وأعظم حلوى فى العالم، هى عين الثور البولشسترى.

تقدما سويا نحو مسز ماجنت، وهى عند الله الآن، تلك السيدة العجوز التى دائما ما ترتدى قبعة عريضة مزينة بعدد من الورود الخضراء، كانت تبتسم وتتمايل هنا وهناك، بينما ألوان الألعاب المتراصة فى خلفية الجدار المظلم تبرق كأنما هى الأشكال اللطيفة التى تشاهدها مرسومة على سجادة فارسية.

قال جونى "ما الذى تقولينه يا مس براندون لو أهديتك عروسة، هل تفعلين مثلى؟"

"نعم"، قالتها جوان وهى خائفة قليلا من العين الثاقبة السوداء لمسز ماجنت.

"أرجوكِ لا تحاولى أن تنظرى ما سوف اختاره لك... أديرى ظهرك للحظات"

استدارت جوان، أثناء انتظارها كانت تستمع إلى "هاى.. هاى ! هووو" وهى صيحات البائعين فى السوق، مع ثغاء الماشية وخوار البقر.

"إتفضلى عروستك". أدارت جوان رأسها، فقدم لها عروسة يابانية، شكلها لطيف بفستانها القطنى ووسطها محزم بشال لونه ذهبى.

"الآن دورك، أدر ظهرك"

بنوع من اليأس، أمسكت بشكل رجل زنجى له خدود حمراء، يرتدى جاكت أبيض وبنطلون قرمزى.

قامت مسز ماجنت بلف العروستين ودفعا ثمنهما وسارا سويا مرة أخرى تحت الشمس.

قال جونى "سوف احتفظ بهذه العروسة، طالما احتفظت أنت بعروستك"

قالت جوان بتعجل "مع السلامة، على أن أزور منزل فى الجانب الآخر من السوق.. سلام"

أحست بضغط يده على يدها، ثم، وهى قابضة على عروستها، أسرعت، بل جرت مخترقة محلات وأكشاك السوق، ولم تنظر أبدا للخلف. ما أن عبرت الميدان ودخلت شارع جانبى، حتى استدارت تنظر نحوه.

يعتبر تخطيط مدينة بولشستر بسيطًا للغاية، هى كلها تنبسط فوق صخرة كبرى تسير متدرجة فى النهاية لتنتهى بقمة مسطحة بنيت فوقها الكاتدرائية. على جانب من هذه الصخرة توجد مسطحات واسعة، على واحدة منها بنيت منشئات السوق. أسفل هذه الصخرة توجد عدة أكواخ تسمى خطأ باسم "سى تاون"، وحول الصخرة يجرى نهر بول الذى ينتهى به الحال إلى داخل غابة ووديان ومرتفعات حتى يصل إلى البحر. فى فترة الصيف تمثل تلك فسحة محببة للنفس، لهذا السبب، ربما تكون تسمية "سى تاون" لها مبرر لهذه التسمية، فالبحارة يتجمعون فيها، كذلك يتكاثرون فى حانة "الكلب والسمكة" وهو مكان ديموقراطى، كان يملكه فى عام ١٨٩٧ مستر صامويل هوج. معروف أن كثيرًا من الزائرين كانوا يعلنون أن سى تاون هذه هى "أجمل مكان" وأنها "سوف يكون المكان كله ذا منظر غبى إذا تم إزالة هذه الأكواخ". لكن هذه المجموعة من الأكواخ كانت أسوأ مكان من الناحية الصحية مقامة فى منطقة جنوب انجلترا. كان الأمر مدهشا بالنسبة لى أن مجلس مدينة بولشستر سمح ببقائها طوال هذا الزمن. لكن فى عام ١٩٠٢، كما يعلم أهل جليبشاير، حدثت المعركة الكبرى التى نشبت فى "سى تاون" وانتهت بتدمير كل هذه الأكواخ، لكن فى عام ١٨٩٧، كانت هذه الأماكن ترفل فى قمة فسادها، وكان

معروفا أن مرض التيفود ينتشر بين حين وآخر وسط القاطنين فيها. أحيانا، كان يزورنا بعض السادة المحترمين آتين من جهات مختلفة يقومون بزيارات رسمية غامضة، لكن نحن لنا ظروفنا الخاصة، فى زماننا الماضى للتعامل مع هؤلاء المستفسرين الآتين من العالم الخارجى.

نظرا لأن مكان السوق يقع فى منتصف المسافة الهابطة من الصخرة، ونظرا لأن كنيسة سانت - جيمس كانت فى مستوى أدنى من السوق، لذا فنوافذها العليا تطل على منظر رائع يشتمل على التل، الشارع الرئيسى وفوقه الكاتدرائية؛ كذلك "سى تاون" والنهر والغابة أسفل. يقال إنه فى ذلك الشارع الصخرى الذى يبدأ من النهر ويخترق السوق ثم يصعد حتى يلتحم مع الشارع الرئيسى، أن أعداء الأسقف الأسود المدججين بالسلاح شقوا طريقهم متجهين إلى الكاتدرائية فى ذلك اليوم العظيم الذى فيه تقابل الأسقف مع خالقه. هناك أيضا صخرة معينة يساق إليها الزائرون الأبرياء ويقال لهم إن بعض من أعداء الأسقف، وهم فى كامل أسلحتهم، تم إلقاؤهم من فوقها حتى تدحرجوا وسقطوا فى نهر بول.

كثيرا ما تمنت جوان أن تطل على المنظر العام من نوافذ كنيسة سانت-جيمس، لكن هى لم تكن على معرفة وثيقة بالدكتور بوروف، القس الأسبق، وهو رجل غضوب مصاب بالنقرس والروماتزم.

سارت هى مسافة قصيرة، أخيرا وصلت إلى آخر منزل من مجموعة تتكون من ثلاث منازل متلاصقة على حافة التل. أخر المكان كانت تقع الكنيسة تقف بشكلها المربع صامدة أمام رياح السماء، وتخيلت جوان الحال عندما تزمجر رياح الشتاء. دخلت المنزل وفى غرفة الاستقبال صافحت مس بورنت، وهى أخت المرحومة زوجة مستر موريس، وهى التى تدير منزله.

هذه السيدة كانت ضخمة الجثة، كل ما يشغل فكرها هو إدارة شئون المنزل، أسعار الطعام، سفالة ونذالة الخدم، خداع البائعين وهكذا. هذا المنزل، بالرغم من

جهودها الحثيثة، لم يكن مرتبا أو نظيفا. لم تكن مس بورنت بطبيعتها مغرمة بالنظام والنظافة، أيضا هى لم تتلق أى نوع من التعليم. منذ ولادتها قيل لها إنها غبية، وبعد صراع بسيط، تقبلت هذا الحكم. كانت تعلم أن أختها الصغرى، التى أصبحت فيما بعد زوجة مستر موريس، جميلة وكاملة، وإنها لن تحوز أبدا على هذه الصفات، لكن هى لم تشعر أبدا بالغيرة أو الغضب من أختها، فالمعتاد فى طباعها هو الإذعان، لذا عندما توفيت أختها بسبب الالتهاب البلورى، كان الوضع الطبيعى لها أن تأتى لكى تدير منزل هذا الأرمل. وإذا كان مستر موريس قد ندم على قراره هذا، فهو لم يصرح بذلك أبدا.

طريقة مس بورنت فى الحديث هو أن تذكر شيئا عن الجو، ثم تغرق فى حالة من الاندهاش والإحراج. وإذا نطق زائرها بجملة ما، فإنها تضيف على الفور "حسنا، فهذا بالضبط ما كنت أود أن أنطق به"

عندما تتحدث مس بورنت، فإن أنفها يلتوى ثم تنفتح فتحتا أنفها بشكل مدهش. كثير من زوارها كانوا يتأملون فى هذه الظاهرة الغريبة المدهشة، ثم يدركون فجأة، بارتباك بالغ، أنهم يتأملون هذه السيدة بطريقة غير مؤدبة. لكن جوان لم يكن لها احتكاك كبير بالعالم، وأن تكون قادرة على مداراة المواقف المحرجة بالحديث المنمق. وجدت نفسها تحدق فى أنف مس بورنت وتود أن تقول شيئا بشأنه، مثلا "يا له من أنف غريب تمتلكين يا مس بورنت- أنظرى كيف يتفتح! " أو "لو سمحت يا مس بورنت، دعينى أدرس حركة انفك للحظات". عندما أدركت هذه الرغبات المجنونة، احمر وجهها، ووجهت أنظارها نحو غرفة الاستقبال غير المرتبة هذه بنوع من اليأس الكامل. لم تجد شيئا فى الغرفة يمكن أن ينقذها، كادت أن تقوم لتغادر، بالرغم أنها لم تستقر سوى منذ خمس دقائق، هنا دخل مستر موريس.

أدركت جوان على الفور أن هذا الرجل يختلف عن أى إنسان شاهدته من قبل، شكله يعتبر غريبا عن مجتمع بولشستر، سواء من الناحية الجسدية أو النفسية

أو الروحية، كما لو أنه حضر من قطر بعيد وقد تحطمت سفينته على شط موحش. كان رد فعل جوان وإحساسها غريبا لدرجة أنها اندهشت؛ لأنها لم تسمعه يتحدث بلكنة أجنبية، كان فكرها التالى "أوه.. إنه شاعر! "، ليس فقط لأنه يرتدى ملابس غريبة أو أن شعره الطويل. هى لا تدرى متى داهمها هذا الفكر، لكنه ربما وقع بسبب عيونه الزرقاء المتوحشة. نعم هو كذلك! ففى كل حركة يقوم بها بجسده النحيف المستقيم، والطريقة التى بها يزيح شعره الناعم الطويل من فوق جبهته، بدا كأنه شخص قائم من نومه توا، رجل فى حاجة لمن يرعاه ويحميه، لأنه بكل بساطة لن يكون قادرا على الاعتناء بنفسه. كان هذا الشعور مسيطرا عليها بطريقة غريبة، لدرجة أنها كادت أن تصرخ فيه "خذ بالك !" عندما تحرك إلى الأمام، كما لو أنه سوف يصطدم لا محالة بمقعد أو منضدة.

فكرت "شيء غريب أن يتعايش هذا الرجل مع مس بورنت! ما الذى يظنه فيها؟ كانت منفعلة بسبب اكتشافها لهذا الرجل، لكن هذا لا يعنى شيئا، فقد أصبحت الاستثارة مصاحبة معها اليوم بسبب أى شيء تقابله فى طريقها. اكتشفت أن الحديث مع هذا الرجل هو أسهل مهمة فى العالم، انه لا ينطق بالكثير ويبتسم كثيرا. عندما استيقظت مس بورنت من سباتها قالت "تشربين شايا يا مس براندون؟"، أما هو فقد ابتسم وكرر الدعوة.

"أشكركم، نعم ". شيء غريب هذا الذى يحدث معها، لذا أضافت قائلة "شيء عجيب أنكم بالرغم من قربكم للسوق، لكن لا صوت يصلكم".

فعلا كان هذا غريبا! كما لو أن هذا منزل مسحور، وإنه ما أن دلفت إليه جوان حتى جمع حوله غابة سحرية سوداء تحميه.

قال مستر موريس "نعم، فعلا نحن اعتقدنا أن هذا بالفعل شأن غريب، لكن السبب هو أن منزلنا يقع آخر المنازل الثلاثة، والمنازل الأخرى تقوم بعمل حاجز بيننا وبين الضوضاء. مع ذلك نحن نتلقى الرياح والأمطار العاتية، ويجب أن

تسمعى ما يحدث لمنزلنا أثناء العاصفة. لكن هو منزل متين البنيان، ولا يمكن لك أن تسمعى صوت أى لوح خشبى يصدر صوتا فى أشد العواصف، لكن النوافذ تترجرج والرياح تزمجر وهى هابطة من المداخن.

سألت جوان "ما هذه المدة التى قضيتموها هنا ؟"

"حوالى العام - وما زلنا نظن أننا غرباء هنا، كنا لمدة اثنى عشر عاما بجوار اشفورد فى كنت، وناس جليبشاير هنا مختلفون تماما"

"حسنا " قالت جوان ذلك، وقد توترت قليلاِ لأنها شعرت أن فى صوته نبرة حزن "اعتقد أنك سوف تحب بولشستر، أنا **متأكدة** من ذلك. وها أنت قد حضرت فى سنة مباركة أيضا، فهناك الكثير الذى سوف يحدث بسبب احتفالات نهاية القرن".

لم يظهر على مستر موريس علامات الاهتمام الكبير بموضوع نهاية القرن، لذا أضافت جوان: "شىء مبهج أن تحدث تلك الاحتفالات مع معرض بولشستر، حيث سوف نشاهد الاحتفالات الثقافية كذلك سوف ينعقد الحفل الراقص السنوى وكل هذه الأمور، وهذه سوف تكون أول حفلة راقصة أحضرها"، ثم ضحكت "وسوف تبدأ الاحتفالات رسميا بوصول ماركيز"

"ماركيز؟"، كرر مستر موريس هذا الاسم بكل أدب.

"أوه... ألا تعلم ما هو ماركيز؟ هو أعظم سيرك فى انجلترا. هو يأتى بولشستر كل عام ويقومون بعمل جولة فى المدينة كلها- أفيال وجمال، وبريتانيا فى عربتها المزينة، وأحيانا نشاهد الأقفاص الحديدية بداخلها الأسود والنمور. السنة الماضية كان معهم أصغر أنواع الجياد فى العالم - كانوا أربعة، هناك أيضا المهرجون والفرقة الموسيقية".

فجأة خشيت أن تكون قد تحدثت طويلا- وبشكل سخيف بأسلوبها الصبيانى المتحمس. تذكرت أنها قد أتت نائبة عن أمها، التى لن تذكر بالطبع شيئا عن السيرك. لحسن الحظ أتى الشاى فى تلك اللحظة، كان محمولا على يد فتاة يبدو الغضب على وجهها ووضعته فوق المنضدة بصوت، ثم رفعت رأسهاكأنما هى تحتقرهم جميعا ثم دفعت الباب بقوة خلفها.

ظهرت علامات الضيق على وجه مس بورنت والتوى أنفها أكثر من اللازم، ولاحظت جوان أن يد مس بورنت كانت ترتعش وهى تصب الشاى، لذا رثت لها.

تحدث مستر موريس عن كنت ولندن، وتم احتساء الشاى وأكل الكعك. أدركت جوان أن الوقت قد حان للرحيل، فى النهاية التفتت إلى مستر موريس قائلة:

"هل أحببت الكاتدرائية ؟"

"إنها رائعة، يجب أن تشاهديها من نافذتنا العلوية"

"أوه..أنى أكرهها "

"لماذا؟ "

كان هناك نوع من التحدى فى صوته وكل منهما يواجه الآخر. قالت هى:

"أعتقد أن هذا شيء سخيف أذكره، فأنت لا تعيش قريبا للغاية من الكاتدرائية، أنها تبدو كأنها معلقة فوق رأسى، لا تتغير أبدا، وأكره أن تستمر هكذا، حتى تنقضى آجالنا"

"هل شاهدت منظرها من غرفة نافذتنا؟ "

"لا أبدا، أنا لم ادخل هذا المنزل من قبل"

"إذن اصعدى معى وانظرى"

قالت مس بورنت بتثاقل "أنا متأكدة أن مس براندون لا تود أن تنشغل بهذا الموضوع، لا سيما وهى طوال عمرها ترى الكاتدرائية عن قرب بكل ضخامتها"

"بالطبع أود مشاهدتها "، قالت جوان ذلك وهى تضحك "ولكى أكون محقة معكم، هذا ما تمنيته، كنت أفكر فى هذا الموضوع عندما كان هنا القس بوروف، وكنت أظن أنه منظر يستحق المشاهدة".

ثم ودعت مس بورنت قائلة، "والدتى ترغب أن تزورينا يوما"

قال مستر موريس "لقد تقابلت مع مسز براندون للحظات عند مسز كمبرمير، سوف نكون فى غاية السرور عندما نحضر ونزوركم"

صعدت معه جوان، قال موريس:

"إنهما دوران فقط إلى أعلى، أرجو أن لا تمانعى من الصعود"

"لا أبدا"

صعدا إلى الدور الثانى، وفى نهاية الممر كان هناك نافذة. ألوان السماء كانت رمادية مع همسات بسيطة من اللون الأزرق، لكن السماء البيضاء استقبلت أبراج الكاتدرائية ذات اللون الأسود، الآن أصبحت ذوات حواف حادة، فى الحقيقة كان المنظر رائعا!

كانت النافذة فى موضع بحيث يمكن للمرء أن يحدق فى أسطح المنازل المجاورة، وأسطح منازل الشارع الرئيسى الملتوى حتى يصل المنظر صاعدا إلى حدود الكاتدرائية. عندما تملى ناظريك من هذا البناء العملاق، يخيل لك أنه معلق فى الهواء وهناك خطورة أن تزيحه بإصبعك فيسقط فى الفضاء الشاسع. لم تشاهده جوان من قبل هكذا مسيطرا متوحشا فى احتقاره لكل المنشآت الضئيلة إلى تراصت تحته، يبدو قريبا من النجوم، له جلال عظيم وتفرد عجيب.

"نعم هو بالفعل منظر رائع"

"أوه... كان مفروضا أن تشاهديه فى وقت أفضل من ذلك..اليوم السماء شكلها رمادى، وليس هناك غروب مرئى للشمس - لكن عندما يشتعل نور الغروب الأحمر، تبدو كل نوافذ الكاتدرائية وهى تبرق فى ضياء الشمس، أو عندما تظهر كل النجوم والقمر الكامل، حينئذ يبدو كأنه سفينة جبارة، أحيانا يظهر كأنه سحابة ضخمة، وفى مرة أخرى يظهر وكأنه قصر مسحور. أحيانا عندما ينتشر الضباب، لا تشاهدى سوى قمم الأبراج وهى معلقة فى الهواء..."

"أنا لا أحبها"، قالت جوان هكذا وهى تستدير "إنها لا تهتم أبدا بما يحدث لنا"

"ولماذا تهتم؟ فكرى فى كل الأمور التى شاهدتها الكاتدرائية وعاصرتها- المعارك والخناقات والسلب والنهب، هى بالطبع لا تهتم أبدا بذلك، ويمكن لنا أن نفعل نحن ما نشاء.. وهى سوف تظل كما هى دوما".

"يستطيع الناس أن يأتوا ويهدموها"

"أعتقد أنها سوف تظل فى مكانها إذا فعلوا ذلك، سوف تظل الصخرة مكانها، كذلك روح الكاتدرائية، ما الذى يمكن أن يهتم به الإنسان بجوار هذا؟ لماذا، نحن لسنا سوى جماعة من النمل...". توقف عن الحديث فجأة قائلا:

"ربما تظنين أننى سخيف يا آنسة براندون، فأنت على معرفة وثيقة بالكاتدرائية أفضل منى كثيرا...أعتقد أننى أتفهم أسباب خوفك منها...."

مشى معها إلى الباب، ثم قال لها مبتسما:

"مع السلامة، من فضلك احضرى مرة أخرى"

فكرت، "إنها معجبة به". يا له من يوم عظيم قضته.

***

## الفصل الرابع

# الفيل الوقح

استطاع الأرشدياكون براندون أن يتغلب على ما حدث بسبب عودة فولك غير المتوقعة، وتلقى مساعدة كبرى فى هذا الشأن، أولا: بسبب إيمانه المخلص القوى بالله الذى يضعه بين عينيه، ولا يمكن أبدا أن يسمح بوقوع أى ضرر له. وكما أن الله سبحانه قد سمح بهجر فولك جامعة أكسفورد، لذلك من السخف أن يتناقش ويحاجج فى هذا الموضوع باعتبار أن ذلك هو الأفضل لمستقبل الولد. ثانيا: حصل على مساعدة قوية من واقع حبه البالغ لابنه وفخره به، وتلك الروح الاستقلالية وكمية الاحتقار التى يكنها هذا الابن، وهى فى الواقع محببة للأب. هو يستطيع أن يعارض هذه الطباع، يحاول أن يشذبها (وكثيرا ما نجح فى هذا الشأن)، لكن دائما ما يكمن خلف ذلك نوع من التقدير والاستحسان من جانب الأب، فهو الطريق المناسب الذى يجب أن ينتهجه أبناؤنا لكى ينشبوا أظافرهم فى عنق العالم، وتلك هى أفضل معاملة له، فالعالم القديم الطيب هو عالم غبى ودائما هو هكذا. ثالثا: كان يساعده فى هذا الشأن مقدار الفخار الذى جبلت عليه عائلته، لقد استغرق منه الأمر ليلة بحالها أخذ يفكر فيها بعمق شديد، أخيرا توصل إلى قناعة مؤداها أن الحق كله يقف فى صف فولك، بينما تقف جامعة أكسفورد فى الجانب الخطأ.

بعد يومين من عودة فولك، كتب هو (بدون علم فولك) خطابا قويا إلى المشرف على فولك فى الجامعة، ذاكرا فيه أنه متأكد من أن المشرف هذا يتفق معه على انه إذا كانت قد استخدمت نوعية معينة من التكتيك والدبلوماسية، ربما أمكن لها أن تمنع وقوع هذا الحدث المأساوى. وليس هو، براندون، أن يذكر سلطات أكسفورد أنها ربما لم تكن مواكبة لمتطلبات الزمن الحالى، وغير ملازمة لعادات

وقوانين العالم الحديث. مع ذلك، أعتقد أن البقاء فترة طويلة داخل أسوار أكسفورد استطاعت أن تعوق هذه السلطات فى تلمس الاتجاهات السائدة فى هذه الأيام، مثل تقدير الروح الاستقلالية للشباب التى بزغت فى قلوب أجيالنا الأصغر سنا. لقد وضح له تماما،الأرشدياكون براندون، أنه من الصعوبة بمكان أن نعامل أولاد فى سن فولك كأنهم مجرد أولاد صغار، وإنه بالرغم من ثقته الكاملة من أن سلطات أكسفورد قد فعلت ما فى وسعها، فإنه كان يأمل أن تكون تلك الحادثة المؤسفة قد مكنتهم من أن يدركوا أننا لا نعيش الآن فى عصور القرون الوسطى، بل نحن ندرج فى بدايات القرن العشرين. ربما بدا الأمر مستغربا أن يكتب الأرشدياكون، الذى يعتبر أكثر المحافظين تشددا، خطابا إلى أكثر المعاهد تحفظا فى بريطانيا، لكن حتى قبل تواجد أكسفورد ذاتها، كان آل براندون.

لكن ماذا كان رد المشرف عندما قرأ هذا الخطاب، هذا ليس معروفا لنا، ولم يذكر الأرشدياكون شيئا عن هذا لفولك.

فى الحقيقة، بعد الأسابيع الأولى لعودة فولك، احتفظ هو لنفسه ستارا من الصمت الكامل الموجع. فقبل كل شيء، يجب أن يتعلم الولد أن السلطة هى السلطة، وهو يهنئ نفسه لأنه يعلم أفضل من أى مسئول فى أكسفورد، كيف يمكن له أن يعلم ويدرب الشباب. مع ذلك، فقد استطاعت أشعة النور أن تخترق دياجير الظلام. كانت بعض نكات وفكاهات فولك حسنة وجيدة، لدرجة أن والده، الذى يمتلك إحساسا بتذوق المرح، لكنه قليل التذوق العام للفكاهة، كان مضطرا أن يضحك. بعد وقت قصير، استأنف الوالد والابن علاقتهم القديمة التى قوامها الانفعالات الفجائية والإعجاب المتبادل ونوع غريب من الحب، للأسف لا أعتقد أنه يمكن أو يوصف بأنه حب حقيقى، أنه بكل بساطة، وبالنسبة لكل من الطرفين، هو فى أساسه، نوع من الأنانية المفرطة.

لكن هناك سبب رابع جعلت عودة فولك تثير القليل من الزوابع، السبب هو أن الأرشدياكون يجرب ويدرب عضلاته حتى يدخل غمار واحدة من حملاته

الشهيرة. لقد كانت هناك حملات عديدة فى الماضى، هى فى الحقيقة تعتبر حملات كأنما هى الأنفاس التى تتردد دخولا وخروجا خلال أنف الأرشدياكون، مشابهة فى ذلك تلك التى كان ينفثها العظيم نابليون- فى كل واحدة منها، كان الأرشدياكون هو الفائز المنتصر.

هذه المرة سوف تكون هى أعظم انتصارات الأرشدياكون، وسوف تختم بالضبة والمفتاح على كل ما أنجزه من أعمال.

فقد حدث أنه يقع على بعد ثلاثة كيلومترات من بولشستر، قرية جميلة تدعى باسم "بايبس سانت أنتونى"، وهى قرية رائعة مليئة بالحدائق وجداول المياه وأكواخها على النمط القديم وأيضا بها كنيسة نورمندية جميلة، لكن هى ليست مشهورة فقط بحدائقها أو كنيستها، لكن أيضا هى أنها الأكثر أهمية فى كل أبرشية بولشستر. فقد كانت العادة المتبعة هى أن الرجل الذى يرسل إلى قرية بايبس، يجد العالم كله وقد انفتح أمامه. كل قس كان مؤهلا لترقية دائما ما ينظر نحو هذه القرية، وليس هناك سوى السماء التى يمكن لها أن تعرف عدد القسس والأرشدياكونات الذين خطوا خطواتهم الأولى من هناك إلى العالم الرحب لجليبشاير، هناك على الأقل ثلاثة عمداء وأسقف وردوا على فترات مختلفة من هذه القرية وتبوءوا مراكزهم العالية تلك. ومن يعمل راعيا لهذه البيعة فى وقتنا الحالى هو القس موريسون، وهو الأقل ذكاء فيمن وردوا مقارنة بسابقيه، هو إنسان محترم. لكن ما أن استقر به المقام فى هذه القرية لفترة ثلاث سنوات، إلا وداهمه مرض السرطان فى الحلق. هذا وقد أجريت له عملية جراحية فى لندن، وبدا أولا أنه سوف يشفى، لكن بعد فترة ظهرت علامات المرض عليه مرة أخرى. [illegible] رغب هذا الرجل المسكين أن يستسلم ويستقيل، لكن كان هناك بعض الآمال، [illegible] قرر مجلس الأسقفية أن يستمر فى مركزه.

لكن منذ أسبوع مضى، حدثت له انتكاسة، وخشى أنه فى لحظة الآن [illegible] يتوفى، هذا ويشعر الأرشدياكون بمزيد الأسف من أجل هذا الرجل. إنه يحبه، وقد

استمر حتى الآن بسبب المأساة التى تعرض لها؛ لكن مع ذلك، على الإنسان أن يواجه الحقائق؛ فمن المحتمل أن يقرر المجلس تعيين بديلا عنه.

لقد كان واعيا – على الأقل لم يشأ أن يخدع نفسه بشأن ذلك– من أن إعادة التعيين هى أمر لازم الآن وضرورى. هناك شاب معين، هو القس ركس فورسايث، الذى يعتقد جازما أنه أفضل إنسان يمكن أن يحل بدلا عن المسكين موريسون. هذا الشاب، فورسايث، فى الوقت الحالى يعمل مساعدا لأسقف سانت مينورث، وهذه الأسقفية صغيرة للغاية، وبصراحة لا يمكن القول أن يكون له شأن كبير داخل إطار هذه الأسقفية. لكن ليس الأمر راجعا إلى فكر الأرشدياكون بأن هذه الشاب قادر على أن ينجز أعمالا عظيمة، إذا تم نقله ليعمل قسا فى قرية بايبس، فهذا لم يخطر على بال الأرشدياكون إطلاقا؛ فالأرشدياكون، فى عمق أعماق قلبه، لا يثق بأن هذا الشاب من النوع العملى المتقن لمهامه– فهو مغرم بالقيام بمغامرات متعددة فى الصيد وألعاب الورق وقربعة زجاجات النبيذ...هو من هذه النوعية من الرجال.

إذن، أين تقع مؤهلاته التى تجعله جديرا بأن يخلف المسكين موريسون؛ حسنا، بصراحة – الأرشدياكون وهو أكثر الناس صراحة وإحقاقا للحق – يؤمن بأن مؤهلات هذا الشاب تعود إلى أسلافه أكثر منه شخصيا. يرى الأرشدياكون أنه قد عبر على بيعة بايبس عديد من الرجال النشطاء، وحان الوقت لأن يرقى عليه شخص **عادى**، موريسون نفسه يعتبر عاديا، وفورسايث أيضا شخص عادى.

هو فى الحقيقة، ابن عم الشاب جونى– سانت ليث، لذا يمكن القول إنه يعتبر قريبا للكونتيسة ذاتها. والده هو الابن الرابع لايرل ترويسن، و، كما نعلم، عائلة ترويسن وسانت ليث، لأسباب عملية، يعتبرا نفس العائلة، وهما يقتسمان كل منطقة جليبشاير بينهما. لا أحد يعلم لماذا اختار فورسايث مهنة الكهنوت، البعض يقول إنه فعل ذلك على إثر رهان؛ لكن مهما كانت هذه الحقيقة، فهو ليس سعيدا بالعمل مع الأسقف كليماتيس، ومؤهل الآن لأن يحصل على ترقية.

الآن لا يمكن اعتبار الأرشدياكون متملقا! فهو يؤمن إيمانا مطلقا بأحقية الرجال والنساء الذين ينتمون إلى العائلات العريقة فى الترقى ورفعة الشأن، فقط لأنه يؤمن بدور المؤسسات، لأنه كان أمامه حقيقة مفادها أنه كلما ازداد الوقت الذى يستغرقه شخص ما، أو شيء ما، فى مكانه المعتاد، إذن يترتب على ذلك أن يتم إنجاز أى عمل بنفس الطريقة المعتادة. هو لا يؤمن أبدا أنها مجرد كونها كونتيسة، أو أن ينظر للكونتيسة سانت - ليث العجوز كإنسانة رائعة - ليست رائعة بالطبع بسبب مظهرها - ولا يستطيع أحد أن يدعى أنها سيدة جميلة - ليست رائعة بسبب ذكائها الخارق، فقد كان الأرشدياكون مضطرا أن يعترف لنفسه أن هذه السيدة تقع ضمن زمرة الأغبياء - لكنها بارعة ومعتبرة بسبب قدرتها الفائقة على البقاء فى مكانها كأنما، هى الصخرة الجامدة التى لا يمكن لأى قوة فى الوجود أن تزحزحها من مكانها. فى هذه الأيام الخطيرة - ويا لها من أيام! - فإن أمان الدولة بأثرها يعتمد على القليل من الناس أمثال الكونتيسة، وكذلك تعتبر الملكة فيكتوريا واحدة منهم، ولها يكن الأرشدياكون إخلاصا لا حدود له. حمدا لله حيث إنه سوف يكون قادرا أن يظهر القليل من هذه الخصائص عندما يحين وقت قيامه بذلك الدور الخالد الذى ينتوى أن يلعبه فى احتفالات بولشستر مع قدوم القرن الجديد !

كل إنسان يدرك أن تعيين الشاب فورسايث ليكون قسا فى قرية بايبس سانت انتونى هو أفضل ما يمكن أن يقدم لبولشستر. كل من الكونتيسة سانت-ليث، مسز كمبرمير، مسز سامبثون، جميعهم يوافقونه الرأى، يشاركهم فى ذلك الشاب فورسايث بالطبع.

لقد فشل الأرشدياكون تماما أن يتفهم كيف يمكن أن يعترض أحدا على هذا التعيين. لكن مع ذلك، كان يخشى دائما من تواجد واحد أو اثنين يمكن أن يعترضا على ذلك فى بولشستر...البعض يقول أن فورسايث هذا إنسان غبى ! ربما لا يكون هذا الشاب فى قمة الذكاء؛ وهذا فى المصلحة حيث يمكن دائما إرشاده لكى

يسلك المسلك الصحيح، وتوجيه ملكاته إلى الوجهة السليمة. يدعى آخرون أن هذا الشاب مهتم بالأكثر برحلات الصيد ولعب الورق عن عمله. حسنا، هو شاب، وعلى أية حال، لا يمكن الادعاء بأنه إنسان منافق، فأكثر الرزايا التى يكرهها ويمجها الأرشدياكون هو النفاق والمداهنة!

بين الحين والآخر، كانت تبرز علامات ومؤشرات يقودها عدد من المهووسين الشياطين، الذين جابوا شوارع بولشستر ينشرون ادعاءاتهم البغيضة وأكاذيبهم السافلة وأفكارهم الغبية. لقد وقر عزم الأرشدياكون أن يحارب هؤلاء حتى النفس الأخير، حتى ولو اقتضى منه الأمر أن يفعل مثل الأسقف الأسود عندما واجه أعداءه، والأرشدياكون على ثقة كاملة بأنه هو من الغالبين.

تعيين ركس فورسايث قسا على كنيسة بايبس سوف تمثل خطوة إلى الأمام، حيث أن تعيين واحد آخر غيره من هؤلاء الأغبياء، سوف يؤدى ذلك إلى حدوث أضرار جسيمة لا يمكن حصرها. لا، يجب إنقاذ بولشستر، فليتدمر العالم كله، لكن يجب أن نحافظ على بلدتنا بولشستر.

لا يمكن لنا تعداد عدد المرات التى قاد فيها الأرشدياكون بفطنته كل المجلس لأن يوفق على اقتراحاته. انه يعرفهم جميعا ! أولهم هو العميد، وهو إنسان مؤدب ولطيف، عقله وفكره مشغول دائما بحديقته بأزهارها الجميلة وفراشاتها اللطيفة. هو إنسان يسهل التعامل معه للغاية. ثم هناك الأرشدياكون وسرام، وهو إنسان ذو ضمير حى ملتزم، ودائما ما ينتهج السلوك الجدى فى العمل المحببة للنفس، لكنه غالبا ما يغرق نفسه فى بحث التفصيلات، ولا يهتم كثيرا بالمسائل الكبرى فى أساسياتها. يأتى بعده بنتك - ميجور، ويفتخر الأرشدياكون بأنه يعرف هذه الرجل قلبا وقالبا- يعرف تملقه، غروره، فرحه الطفولى بمركزه وطباخه وإعجابه بمظهره الجذاب؛ من الصعوبة بمكان أن يجد الأرشدياكون تعبيرا يمثل مدى احتقاره لهذا الرجل الضئيل الحجم. يأتى بعده رايل، قائد المرتلين، وهو على حد ما يعتبر كمية غير مفهومة. أهم خصائصه هى أنه إنسان لا يحب الخصام

والنزاع، فهو لا يقول قولا أو يصنع فعلا يمكن أن يجره للاشتباك فى معركة ما، شعاره المفضل هو "السلام بأى شكل من الأشكال"، هذه بالطبع له شأن كبير فى وصمه بأنه إنسان غير مخلص وليس عنده خاصية حسم الأمور. يعلم الأرشدياكون أنه لا يمكن الاعتماد عليه، لكن انتهاج سياسة الإرهاب والتخويف دائما ما كانت هى الفاصلة والناجحة. فى الواقع، رايل هذا يخاف من الأرشدياكون، وهذا شىء رائع بالطبع ! لكن هل سوف يستمر هكذا دوما !. آخرهم هو فوستر، ودعنا نقول بكل وضوح وبلا مواربة أن الأرشدياكون يكره فوستر هذا. هذا الرجل يمثل شوكة فى جنب الأرشدياكون منذ وصوله إلى بولشستر- هو شخص نحيف، متثاقل الخطى، وجهه باهت. يكره الأرشدياكون كل ما يمثله هذا الرجل - شعره الرمادى، أذناه البارزتان، الفسفوسة التى فى مقدمة أنفه، الركب المنتفخة فى بنطلونه، يده الثقيلة التى تبدو وكأنها لم تعرف الغسيل منذ دهور. مع ذلك، بالرغم من الكراهية التى نشبت فى قلب الأرشدياكون بخصوص هذا الرجل، فإنه يكن له قدرًا من الإعجاب، فالرجل لا يخشى أحدا، بل هو يمكن أن يظهر تعصبا لا حدود له، لكن هو إنسان مخلص لعقيدته، مؤمن بها إيمان مطلق لا يمكن أن يهتز أو يتخلخل. هو إنسان قدير، ويعتبر أفضل واعظ فى كل الأبرشية، وأكثر الناس اطلاعا فى الأمور اللاهوتية فى كل أنحاء جليبشاير، لكن أفكاره الحديثة المتفتحة الخاصة بالدراسات الدينية تجعل الأرشدياكون ينظر إليه نظرة ملؤها الشك وعدم الثقة، فليس هناك رأى مهما كانت درجة الهرطقة التى فيها يمكن أن تهز فوستر هذا، انه يرحب تماما بالأفكار الجديدة، بل وقد ألف كتابا بعنوان "المسيح والأناجيل" الذى أحدث دويا بسبب الأفكار والتحليلات الجديدة التى جاءت به. هو عبارة عن كلب لئيم، لا يضحك أبدا، ولا حتى تبدر من فمه ابتسامة، يعيش بمفرده مكتفيا بذاته. فى الماضى، طالما عارض كل فكرة أو رأى تقدم به الأرشدياكون، ويعارضها بحرارة، لكن على كل الأحوال، وشكرا للأرشدياكون، دائما ما يكون فى جانب الأقلية، أما باقى القسس فإنهم لا يحبونه كثيرا؛ أما عن الأسقف العجوز، الذى يرقد الآن فى قصره المهيب بكاربلدون، فهو الوحيد الذى يعتبر صديقا لفوستر فى بولشستر.

لكن هناك عنصر جديد انضم للمجلس- هو روندر، ومركز هذا الرجل حاليا له أهمية قصوى، فهو المسئول عن مالية الأبرشية، وقد كان من سبقه فى هذا العمل، وهو هارى سميث، قد رقى عميدا لثوروتش، وهو كان رجلا قديرا، لكنه من المدرسة القديمة، كان أيضا صديقا حميما لبراندون، ودائما ما كان يوافقه على كل ما يشير به. لذا نقول أنه كان لبراندون رأى قوى فيما يختص مسائل التصرف فى مالية الكاتدرائية، لذا كان رحيل هارت سميث ضربة موجعة لبراندون. علما بأن تعيين القس الجديد لإدارة الشئون المالية هو من اختصاص التاج، لذا بالطبع، لم يكن لبراندون رأى فى ذلك. مع ذلك، كان هو قد لمح روندر للحظات - فى منزل العميد بعد وصول روندر بأيام - وقد أقنعته هذه النظرة المتعجلة بأمور كثيرة، فهو بالتأكيد رجل ليس ما يدعو للخشية من وجوده، هو إنسان له طبع حسن، بالرغم أن شكله يوحى بأنه غبى. كان براندون يتمنى بقوة أن يستعيد سيطرته السابقة على مالية الأبرشية.

كل هذا لم يكن بالشكل الذى يستطيع بها الأرشدياكون أن يحقق بها طموحاته وأحلامه، هو - نعم - سعيد بمكانته فى بولشستر، وعلى استعداد أن يعيش فيها حتى يحين أجله ويدفن هنا أيضا باحتفال مهيب، وحتى يحين موعد رحيله عن الدنيا، هو مستعد أن يفنى روحه فى سبيل الكاتدرائية، وإذا كان هو العامل الرئيسى فى تقدمها ونشاطها وحسن فعالها، فهذا كله إنما يفعله ويصنعه بحماس ووجد يصدر من السماء ذاتها- ليس هناك شىء ما يمكن أن ينسبه لنفسه، فالفضل كله لله الذى خلقه على ما هو عليه وسلمه تلك الأمانة لكى يحدو عليها ويرعاها.

ربما كان خطأه الوحيد هو أنه دائما ما ينظر لكل الأمور ببساطة متناهية، ودائما ما ينظر لهؤلاء الأشخاص الآخرين فى بولشستر كما يراهم بعينيه، ولا يمكن لهم أبدا أن يكونوا على شاكلة أخرى، وكما خلق الله العالم، كذلك خلق براندون بولشستر على شكله ومثاله - وكل الرجاء من الله أن يظل الحال على ما هو عليه دوما !

كانت تلك الحملة التى يعد لها هى مشغوليته الكبرى الآن، لذا فكر أن يزور العميد لكى يتقبل الفكرة، بالرغم أنه فى الحقيقة، كان يتعامل فى تخطيطاته ببساطة كاملة، كأنما هو ولد صغير يبنى قصرا بالمكعبات.

فى الساعة الثالثة من عصر يوم معين، فكر أن يخرج لكى يتمم مقصده. كان منزل العميد على الجانب الآخر من الكاتدرائية، لذا كان عليه أن يقطع الشارع الرئيسى ثم يدلف إلى شارع أورانج حتى يصل إلى منزل العميد، وهو مشوار مزعج له.

كان منظره جميلا بقبعته العالية اللامعة، وياقته العالية البيضاء، وملابسه السوداء النظيفة الأنيقة، وحذائه اللامع (أعتقد أنه هو وبنتك- ميجور الوحيدان بين القسس الذين كانا يحتفظان بقوالب خالصة توضع فيها الأحذية)، لكن أناقته المفرطة لم تكن لتزيد من قدره، فهو حتى لو ارتدى الأسمال فإنه سوف يظل بنفس العظمة والتألق. قالت مس دوبل يوما "كثيرا ما أتخيله كأنه مراكبى فى جندول بفينيسيا، يا له من منظر!).

مهما كان الحال، مما لا شك فيه أن تلك الملابس السخيفة التى خصصتها الكنيسة الإنجليزية لرعاتها، لم تجعله أبدا أقل أناقة، بالرغم أنه لا يبالغ فى ملابسه مثلما يفعل بنتك-ميجور.

مراكبى الجندول الذى استغرق فكر مس دوبل، كان فى تلك اللحظة فى أطيب مزاج، لذا عندما تقابل مع ابنته جوان، أحس أنه منجذب إليها. ولقد لاحظت جوان قبل عدة أيام أن الأزمة العائلية تكاد أن تصبح فى حكم الماضى، لذا قدمت شكرا عظيما لله.

كان لها، فى ذلك الوقت بالذات، أحلامها السعيدة، لذا ما أن تقابل الأب مع ابنته حتى تبادلا القبلات:

"يا عزيزتى جوان، ما الذى سوف تفعلينه هذه العصرية؟"

"سوف نذهب أنا ووالدتى لنزور مس روندر، أعتقد أن الوقت حان لنفعل ذلك"

"أعتقد ذلك يا عزيزتى" ثم ربت على خدها "افعلى ما تشائين"

"شكرا يا والدى"

غادر المنزل وهو يدندن لحنا. توقف على الدرج الثانى كما هى عادته، وأخذ يستعرض منطقة الجوار- المنازل بمطارقها اللامعة، النوافذ العتيقة المقوسة، مداخل المنازل المعلقة، المنطقة الخضراء التى تحيط بالكاتدرائية، ومقدمة أبراجها. كان، للحظات، فى حالة من الوجد الإلهى. إنه يحب هذا المكان ويؤمن ويثق به كما لو أن كل هذه التحف من عمل يديه. أثناء توجهه ليعبر قنطرة أردن، صادف القس العجوز مورفيو، ذاك الذى من وجهة نظره، كان جديرا أن يكون منذ زمن راقدا فى التراب ميتا، لكن وهو لم توافه المنية بعد، شعر الأرشدياكون بالعطف البالغ نحوه، وفكر إنه إذا تحدث معه فإنه بذلك يسدى له معروفا يمكن أن يدفئ قلب هذا الرجل العجوز.

"حسنا يا مورفيو.. أتستمتع بالشمس؟"

هذا القس دائما ما يجفل عندما يفاجئه أحد بالحديث، فأنت دائما ما تجده سادرا فى أحلام اليقظة، هى أحلام ترعرعت ونشأت فى قلب منزله القذر، حيث تجمعت الكتب حتى بلغت السقف، بينما الورق يتطاير فى كل أرجاء الغرفة.

"مساء الخير...مساء الخير يا أرشدياكون، أرجوك سامحنى، لقد فاجأتنى"

حاول براندون أن يبطئ من خطاه حتى يمشى مجاورا له.

"أرجو أن لا يكون الروماتزم قد هاجمك مجددا"

"روماتزم؟..أوه، هناك بعض المتاعب منه..قليل من المتاعب..هو مرتبط بالطبع مع السن المتقدم كما تعلم"

"لا تقل هذا! " ضحك براندون ضحكته المشهورة "أنت ما زال أمامك العمر الطويل"

"لا، ليس لى...أنت بالطبع لا تقصد هذا يا أرشدياكون..ربما يتبقى لى عدة شهور، ثم تحدث النهاية، لكن هناك عمل لم يتم...عمل..."

ثم أخذ يتمتم بكلمات غير مفهومة، فجأة ما أن وصلا إلى قنطرة أردن، حتى بدا أنه قد صحا من غفوته، وأصبح صوته واضحا، وعيناه متعبتين وترمشان كالمعتاد، قال:

"نحن كلنا نسير قدما نحو النهاية، نعم. هذا ما يحدث بالفعل، ويحدث حتى لأكثرنا قوة. إنك ما زلت فى شرخ الشباب يا أرشدياكون، وأتمنى أن تعيش طويلا حتى تحقق كل عملك الصالح، لكن تأكد انك سوف تصبح يوما عجوزا مثلى، لا أحد يفلت من ذلك أبدا..لا أحد"

قال براندون مسرعا "حسنا، يوم طيب لك، أرجو أن يستمر هذا الجو الحسن". ثم هبط التل سريعا تاركا مورفيو يتلمس طريقه بنفسه.

استرد براندون قوته ونشاطه، ثم وجد نفسه وسط حشد من الناس. نظر نحو الشارع الرئيسى ولاحظ أن الأرصفة على الجانبين سوداء بسبب ازدحام الناس. هو من الناس الذين يكرهون الزحام، لذا توقف عن المسير فوجد أن من يقف مجاورا له هو صامويل هوج، صاحب حانة "الكلب والسمكة" بمنطقة سى تاون وبصحبته ابنته الجميلة آنى. قريبًا منهما وقف اثنان من مستشارى البلدية، وهم جميعا لا يرحب الأرشدياكون أبدا أن يجرى معهم حوارا.

لكن مع ذلك، كان من الصعوبة بمكان أن يعرف ما الذى يمكن أن يفعله، فرصيف الشارع الرئيسى كان ضيقا والزحام فى ازدياد، وكان هناك الكثير من الدفع والضحكات المتبادلة. فكران يرجع إلى منزله، لكن هذه أيضا كانت مهمة مستحيلة، لذا قرر أن يشبع فضوله ويسترد كرامته وأن يظهر رضاه حيثما وقف.

"مساء الخير يا هوج، لكن ما سبب هذا الازدحام؟ "

"انه سيرك ماركيز" ثم رفع هوج وجهه الذى يشبه الشمس المستديرة "بالطبع سمعت عنه يا أرشدياكون؟ "

"حسنا، أنا لم أعلم أن العرض سوف يكون اليوم، يا له من غباء"

أخذ يوزع عليهم الابتسامات جميعا بطريقة طبيعية، كلهم بادلوه الابتسام. إنه شخصية مشهورة فى المدينة؛ كانوا يشعرون أن مظهره الحسن ووجوده بينهم هو فى صالح مدينتهم، أيضا هو كان يعلم مركزه تماما، فهو لم يكن جبانا"

أخذ يومئ إلى عضوى البلدية، ثم يحدق أمامه وقد رسم ابتسامة مطبوعة على وجهه. شكله كان رائعا تحت الشمس، وبدا عليه أنه يستمتع بما يرى، فهو يسعد وينشرح قلبه إذا شاهد إخوته فى الإنسانية هكذا منشرحين، لكن هو فى الحقيقة كان متعجبا، كيف أمكن له أن ينسى موضوع سيرك ماركيز هذا؟ لماذا لم تخطره جوان بهذا الموضوع؟ هذا إهمال شنيع من جهتها، كيف لها أن تضعه فى هذا الموقف السخيف؟

أخذ يتصفح الوجوه، لكنه لم يجد ولا واحدًا من رجال الكنيسة- يا له من موقف غبى! أكثر من ذلك، كلما حان وقت قدوم العرض، كلما ازداد عدد المتفرجين، لذا وجد نفسه مضغوطا وسط الآخرين. فجأة شعر بخبطة فى معدته، التفت، فوجد خلفه الوجه الضئيل لصامويل بوند، كاتب الأبرشية. كان صراع بوند هذا لكى يحصل على هذه الوظيفة المحترمة رهيبا ومليئا بالصعوبات والعقبات، ولم يفلح فى الحصول عليها إلا بعدما قدم مئات من أفعال الإذعان والتزلف، وتعرض لمئات من أشكال التحقير والتصغير، لذا اضطر أن يشق طريقة مستخدما كل معارف التملق والمداهنة، تلك التى كانت من الممكن أن تثبط همة من هو أقل منه تصميما، لكنه أخيرا نجح فى الحصول على وظيفته هذه. خلفه وقفت مسز بوند زوجته وبرفقتها أولادها الأربعة، كانت تهمزهم حتى يتقدموا إلى الأمام.

هذا الرجل مغرم بعائلته، من أقواله الشهيرة "أنا لست إلا رجل عائلة"، لهذا السبب كان متأكدا أن أسلوب المداهنة يمكن أن يغفر له بسبب ذلك. مع ذلك، كان مضطرا أن يداهن الأرشدياكون بصفة مستمرة، لذا أصابه الرعب عندما وجده أمامه. هو كثيرا ما كان يستيقظ فى منتصف الليل مفكرا فيه، ثم يرتعد، بعدها يختبئ بين أحضان زوجته طالبا الحماية والأمان حتى يأتيه النوم ويتم إنقاذه مؤقتا.

لذا فمن الطبيعى، إذا كان هناك عدد كبير من الناس يحتقرهم الأرشدياكون، فإنه كان يحتقر بوند الضئيل أكثر من الجميع، وها هو بوند ملتصق به من جانب، ومن الجانب الآخر يزحمه الجسد الضخم لمستر هوج الضاحك، بينما يقف على بعد قليل عضوا مجلس البلدية ينظران، يا له من موقف مريع !

"آه..حضرة الأرشدياكون! حقيقة أنا لم أشاهدك"، كان هذا الصوت المقطوع الأنفاس لمستر بوند، والذى يشبه صوت صفارات الأولاد "، تصور سيادتك! أن أقابلك هنا ! الدنيا حر، أليس كذلك، بالرغم أننا فى شهر فبراير. نعم... حر، لم أكن أعلم انك تهتم بتلك المواكب يا حضرة الأرشدياكون"

"أنا بالفعل لا أهتم بها، لم أكن أعرف إنه موكب السيرك، بكل غباء نسيت موعد هذه المناسبة....."

"حسنا..حسنا" كان هذا هو الصوت المرح لمستر هوج "هذا لن يضر يا حضرة الأرشدياكون..لا يضر أبدا. نسيت أن أقدم لك ابنتى آنى، هذه هى آنى، أتت معى لكى تشاهد موكب السيرك مع والدها".

اضطر الأرشدياكون أن يصافح، فعل ذلك بكل تواضع، هى فى الواقع فتاة لطيفة، طويلة وقوية، صدرها ناضج، وجهها أسمر وشعرها أسود. الشىء الغريب أن عينيها واسعتان لامعتان، هى تحدق فيك لكن أنظارها تتجه بعيدا عنك، كما لو أنك لا تستحق اهتمامها.

حملقت فى الأرشدياكون ولم تنطق بكلمة، فأى كلام ممنوع طالما أن الموكب قارب على الوصول إلى حيث وقفوا. بالنسبة للجيل الحالى، لا أعتقد أن موكب سيرك ماركيز يمكن أن يجذب الانتباه ويعتبر مبهرا، لكن بالنسبة لنا، منذ ثلاثين عاما خلت، ظهر أمامنا كأنه هو التعبير الخالص للعظمة والمتعة الكاملة.

حدثت همهمات وصيحات "ها هم قادمون.." الجميع بدأوا فى الضغط إلى الأمام، كاد مستر بوند أن يقع على الأرض لولا أنه استطاع بعد جهد أن يمسك بذيل الأرشدياكون لكي ينقذ نفسه، ولم يتبق فى المكان سوى عين آنى هوج التى لم تبد اهتماما كبيرا بما يحدث أمامها. لقد بدأ العرض من أمام المرج الذى يقع أمام الكاتدرائية، وبعدما استطاع أن يتجنب منطقة الملحقات، وتمكن بعد ذلك أن يسلك الشارع الرئيسى، ثم عبر منطقة السوق واختفى فى شارع أورانج، وهو نفس المكان الذى كان ينتوى أن يقصده الأرشدياكون.

كان بالإمكان الاستماع إلى صوت الموسيقى وهى تصدح، لذا حدث صمت رهيب (وكل من وقف فى الشارع الرئيسى حبس أنفاسه)، بعد ذلك ظهر أمامهم المنادى، وهو شخص رث الثياب وقد لون نفسه بالألوان الحمراء والذهبية، لكنه كان يسير بثقة بالغة حاملا فى يده هراوة طويلة مربوط فى مقدمتها أوراقا ذهبية تدور حول رأسه. بعد ذلك، ظهر أفراد الفرقة، هم أيضا بملابس رثة مموهة باللون الذهبى وبدا عليهم للوهلة الأولى أنهم غير مرتاحين بمنظرهم هذا، لكن ما أنقذهم من الإحراج انهماكهم فى عزف الألحان الموسيقية. بعد ذلك، ظهر أربعة فرسان بملابسهم الغريبة، ثم أتت مجموعة أخرى ترتدى ملابس متقنة تشبه ملابس الملك تشارلز الثانى، ومع إعجاب الجماهير وهمسهم غير المصدق، ظهرت بريتانيا فوق عربة النصر، وهى عربة يجرها فيل، بعجلات مذهبة مرسوم عليها أشكال غريبة، دلافين والأب نبتون- فى وسط العربة، استقر مقعد عال داخل صندوق ويجلس فوق العرش بريتانيا ذاتها- وهى امرأة ضخمة الجثة، ذات صدر ممتلئ وشعر كتانى، ترتدى فستانا متطايرا وعلى وجهها تعبير قلق، كما لو أن

المسكينة كانت تمثل دورا حقيقيا، فقد كانت العربة تهتز بشدة، فيترجرج الصندوق وهى بداخله، لذا بدا الأمر كأنها سوف تتطاير فى أى لحظة وسط الجماهير. كان الشارع يسير منحدرا، لكن هذا لم يضف أبدا لمدى ارتياحها. وراءها، سار عدد من الرجال الضخام الجثة، العرق ينضح من جباههم، يجاهدون للتحكم فى بعض الجياد الصغيرة الحجم، وقد ارتدوا بعض الملابس الكلاسيكية تحولت إلى شكل باكوس البائس، وهذا لم يجعلهم أقل تباينا.

مع ذلك، ومع ما كل ما تواجهه بريتانيا من أخطار، لكن هذا كان مصيره النسيان بسبب تلك الإثارة البالغة التى صاحبتهم. ظهر بعد ذلك جملان متعبان بلون ترابى بمظهرهما الذى يبدو كأنهما يصدقان ما يبدو عليهما من عظمة لا مبالية التى طالما ميزت جنسهم، ثم قدم فيلان وعدد من المهرجين. فى النهاية، وهى أعظم خاتمة، سارت عربة بداخلها قفص حديدى بداخله أسد ولبؤة يتحركان بلا أمل من جانب إلى آخر، لكن الخجل يتملكهما ولا يستطيعان سوى أن ينظرا للجماهير بعيون يطق منها الشرر. أخيرا ظهر رجل يحمل يافطة مكتوب فوقها "سيرك ماركيز" – أعظم سيرك فى العالم – معروف فى كل أوروبا – احضر إلى مرج الكنيسة وشاهد المتعة – وهكذا....

بينما هذا الموكب العظيم يهبط الشارع الرئيسى، كان الجمهور يعبر عن إعجابه بهمس صامت. لم يكن هناك تصفيق حاد؛ مع ذلك، إذا كان السيد ماركيز حاضرا، فإنه سوف يدرك أن الجو كان محملا بتقدير بالغ لجهوده. جرى همس بين الجمهور من أن بريتانيا هى نفسها مدام ماركيز، و، إذا كان هذا صحيحا، فقد أعطت لزوجها بعد ذلك، فى خلوتهما، وهى فرحة، عرضا مفصلا عن استقبالها المدهش.

ما أن مرت الفرقة الموسيقية مسافة بسيطة فى الشارع، حتى بدأت الموسيقى الصاخبة تخفت بسبب بعد المسافة، ثم ظهرت الشمس بمجدها العظيم، كأنما ودت أن تستحوذ على الاستحسان أيضا بسبب ما تقدمه من عروض، لذا

لمعت كل الملابس والدهانات الذهبية، أما مقعد بريتانيا فكان يهتز بعنف كأنما هو سوف ينفجر فخرا. صاحب ذلك دقات أجراس الكاتدرائية، كأنما هى أيضا شاءت أن تمنح بركاتها لهذا الموكب العظيم، عندما حان وقت تراتيل المساء. ربما لو تواجد هناك إنسان عاطفى، إذا لذكر أن هذه المدينة القديمة سعيدة لأنها وجدت سببا جديدا لأن تتمتع قليلا، وأن تتأنق وتظهر فى أفضل ألوانها، وربما تعجب ما إذا كان هؤلاء المواطنون المسرورون أبناء الوقت الحالى، ألا يرغبون أن يعودوا إلى الأزمنة القديمة التى كان فيها الناس أسعد حالا. يا لها من ضوضاء، حيث اختلط تبادل الحديث مع قرع الطبول، مع الضحك والمرح، حتى الأرشدياكون، نسى ابتسامته الرسمية تماما وأخذ يكركر كأنما هو ولد صغير.

فى تلك اللحظة بالذات، حدثت المأساة!

فى مكان معين من الجزء الأدنى من الشارع الرئيسى، توقف طابور العرض، لذا تراجعت عربة بريتانيا، وتوقف أفراد فرقة العزف عن العمل، أصبح فى إمكانهم للحظات أن يلتقطوا أنفاسهم ويجففوا عرقهم الذى سال على وجوههم، بينما رياح فبراير تهب هنا وهناك.

الآن، يقف الفيلان فى مواجهة المكان الذى يقف فيه الأرشدياكون وسط الزحام، وقد فوجئوا بهذا التوقف المفاجئ. خلفهم كان قفص الأسدين، وهما الآن، وقد توقف الطابور، استطاعا أن يستردا بعضًا من كرامتهما المهدرة، لذا أخذا يزأران قليلا باحتجاج غاضب. لكن ربما شعر الفيلان بنوع من المهانة التى كانا يتعرضان لها، تلك التى ذاقا مرارتها لسنوات وهما فى الأسر. ربما يكون الأمر، هو أن منظر هذه الجمهور المتكاثف الجاهل، كذلك الاندفاع والتدافع الذى شمل كل الشارع الرئيسى، وذلك الضحك الماجن الماسخ، أيضا الصليل المتواصل لأجراس الكاتدرائية، كل هذه حشرت فى الأدمغة الكثيفة بطيئة الفهم لهذه الحيوانات، مناظر معينة تم نسيانها منذ زمن بعيد، لكنها جميعا صحت وانتبهت فى لحظة، غاباتهم الخضراء الكثيفة، شمسهم الحارة، قوتهم وجبروتهم التليد، ربما أدركا لوهلة أنهما

إذا رفعا قدما واحدة، لأمكن لهما أن يدمرا هؤلاء الأقزام جميعا، ويعيدوهم لبابا فى مكمنهم الأصلى، لذا يستطيعان أن يستردا حريتهما ويجوبا الشوارع والطرقات كما يشاءان. فجأة رفع الفيل الأكبر فيهما رأسه وخرطومه إلى أعلى، وبنظرة خاطفة من عينه الكليلة وقع بصره على قبعة الأرشدياكون السوداء اللامعة، التى تعتبر شعارا لجلال وعظمة هذه المدينة، كانت تلمع فى ضياء الشمس، وهذا ما كرهه الفيل. أخذ أولا يلوح بخرطومه هنا وهناك، ثم بحركة خادعة بطيئة تحرك نحو الرصيف، وبعين كلها وحشية وخرطوم مشرع، تقدم نحو الأعداء.

تراجع الناس مذعورين وفى خوف مرتبك. الأرشدياكون وقد أخذ على حين غرة، بالكاد أدرك ما يحدث أمامه، وقد أعمته الشمس قليلا فوقف مكانه صامدا، فى اللحظة التالية، كانت قبعته العالية قد خطفت من فوق رأسه وطارت فى الهواء. شعر بأنفاس الحيوان الثقيلة فوق وجهه، وسمع الصياح والصراخ حوله، وبخوف غريزى، تراجع خلفا محاولا الإمساك بأى شىء يمكن أن ينقذه (استقر فى الحضن الدافئ لمستر صامويل هوج)، خيل له أنه يرى وجوها متطايرة، شموسا متنوعة وأسطحا متفرقة، أخيرا أحس بالرياح الشديدة وهى تصطدم برأسه العارية.

فى اللحظة التالية، انتهى المشهد كله، فقد تدافع الرجال الذين كانوا يرتدون ملابس تشارلز الثانى وجذبوا الفيل بعنف ودفعوه بخشونة ورفس حتى يعود إلى مكانه فى الطابور. بالنسبة للفيل، أصبح تعبيره عن مدى قوته وجبروته قد تحقق وانتهى بالانتصار، لذا لم يهتم كثيرا أن يعود مرة أخرى ذلك السجين المحكوم عليه، أن يعود مرة أخرى ليكون أسيرا تحت قيود الحضارة الحديثة. أما القبعة المسكينة، فقد استقرت مهدرة ممزقة فى طريق الموكب.

ما أن تحقق الجمهور من أن الخطر قد زال، حتى تزلزل المكان بضحك داعر وصل إلى عنان السماء، وتشابكت الصيحات والتعليقات. حاول الأرشدياكون أن يبتسم، لكن فى ارتباكه استمع لضحكات صامويل هوج، وتعليقات عضوى مجلس البلدية والباقين.

بفكر وحيد سيطر عليه، أيقن الأرشدياكون أنه يجب عليه أن يختبئ سريعا من هذا العار والإهانة والدهشة التى لحقت به، لذا تراجع خطوات، استدار، بل تقريبا جرى، اكتشف فجأة الملجأ الأمين، وهى مكتبة بينيت. كم هو رائع هذا الملجأ شبه المظلم! فهذه المكتبة دائما ما تكون منخفضة الإضاءة الغازية معظم النهار، لكن هذه الإضاءة كانت كافية لأن تلقى ضوء كافيا على صفوف الكتب والمراجع، وعلى الأغلفة المراكشية أو المصنوعة من الجلد أو القماش، بينما جلس على مقعد عال مستر بينيت العجوز، وهو ابن ذلك الرجل الشهير الذى شاهد وتحادث مع سكوت وبيرون، كانت لحيته البيضاء تمثل تضادا مع سلاسل الكتب الحديثة التى رصت أمامه على منضدة واسعة.

إلى داخل هذا المعبد الرائع للأدب والفكر، التجأ الأرشدياكون وهو قاطع النفس، حائرا مهرولا، ولم يتحقق عما هو أمامه إلا القليل. لاحظ أن صاحب المكتبة فزع من كرسيه صائحا، ثم أدرك أن هناك اثنين من العملاء كانا بداخل المكتبة! هما ليسا سوى العميد وبرفقته القس الجديد روندر، وهو آخر شخص كان يتمنى أن يراه فى هذا المكان.

صاح العميد "أرشدياكون!"

"نعم... هم... شيء غريب قد حدث... أنا فى الواقع... أوه... أشكرك يا مستر ويلتون"

فقد قدم له مساعد المكتبة مقعدا ليجلس عليه.

"أنت... بالكاد تستطيع أن تخيل ما حدث... فى الحقيقة... حتى أنا لا اصدق ما حدث" حاول أن يضحك "فى الحقيقة...أنا كنت آت لأقابلك... فى طريقى... وبعدها الفيل..."

"الفيل؟ " قالها العميد وهو يحك قدما فى أخرى.

"نعم.. نعم... أنا مفكك من بعضى...، أرجوك سامحنى.. بالكاد استطيع أن ألتقط أنفاسى..شيء سخيف حدث... أعداد غفيرة من الناس".

قاطعه الشاب ميلتون، الذى كان به حول بسيط، ما يجعله يعطى إحساسا أنه يفحص المكان كله ليكتشف أى إنسان يحاول أن يختلس كتابا "هل تفضل أن تحتسى كوبا من الماء؟"

"لا أشكرك يا ميلتون.. أشكرك.. شيء لطيف منك، فى الحقيقة كان موضوعا مريعا. كنت آت لمقابلتك أيها العميد، ونسيت كل ما يختص بهذا الموكب الغبى، وقد حجزنى تجمهر الناس بالقرب من هذه المكتبة، ثم فجأة، بينما كانت الحيوانات تمر، تقدم نحوى فيل، أنا لا أبالغ... أمسك بقبعتى... وطار بها !"

يتمتع الأرشدياكون، كما قلت سابقا، بقدر من استيعاب النكتة، لذا أدرك للمرة الأولى الجانب الفكاهى من المسألة، فابتدأ يضحك؛ وارتفعت أصوات قهقهاته، وسيطر عليه ذلك، جلس هناك واضعا يديه فوق ركبتيه مغرقا فى الضحك حتى سالت الدموع من عينيه وأغرقت خديه.

"يا الله.. قبعتى.. فيل... هل عمرك سمعت..؟ أفضل قبعة عندى !"

بالرغم أن العميد هو إنسان خجول حيى، لذا لم تصدر مشاركاته فى الضحك من القلب، أيضا ضحك الشاب ميلتون، لكن بطريقة معينة ندرك منها أنه يعلم مركزه تماما، بحيث يمكن أن يعود إليه المظهر الجدى فور رغبة رؤسائه فى ذلك، حتى صاحب المكتبة بنيت العجوز شاركهم الضحك البعيد المتحفظ بشكل منضبط يناسب عمره المتقدم.

كان براندون واعيا أن روندر متواجدا معهم، هو فى الواقع كان مدركا لذلك منذ قدومه أولا. هوذا يفضح نفسه أمام هذا القس الجديد، كان يشعر بأن هذا القس الذى كان يشاركهم الابتسام ووقف خلفا بتواضع، بدا فى الواقع متعاظما ومتعاليا.

قام الأرشدياكون مندفعا، فهذا الموضوع هو فى حقيقته ليس نكتة، فقد شاهده جمع كبير من الناس وهو فى أسخف وأسوأ منظر، شاهدوه وهو يتراجع إلى

الخلف مرعوبا أمام فيل أليف، لاحظوه وقد تملكه الخوف والرعب، لا، ليس هناك ما يستلزم هذا القدر من الضحك.

كرر العميد وهو ما زال يصدر منه ضحكا خفيفا "فيل" ؟

أجاب براندون مغيظا "نعم..فيل"كفى ما حدث "حسنا، يجب أن أعود للمنزل، أراك غدا أيها العميد"

"هل هناك شيء هام أردت أن تقابلنى من أجله" قالها العميد مدركا أنه قد ضحك فترة أطول من اللازم.

"لا.. لا.. لا شيء، فقط هو موضوع موريسون المسكين..هو بصحة متدهورة، قالوا إنه ربما لا تزيد مدته عن أسبوع...و"

"يا سلام.. هكذا الأمر، يا له من إنسان مسكين، مسكين !"

كان براندون فى تلك اللحظة مركزا على روندر، يا ترى لماذا لا ينطق هذا الشخص بشيء، بدلا من وقوفه هكذا صامتا بينما تلمع عيناه تحت نظارته بهذه العظمة المفتعلة؟ فى الأوقات العادية، ربما كان بإمكانه أن يحييه بطريقة كلها حب وود ورعاية، الآن بدأت عليه مظاهر القلق والتوتر. شيء بغيض وصفة أن يهان بهذه الطريقة الغريبة. نهض سريعا وأدار ظهره له، كان متأكدا أن هذه الرجل يضحك عليه فى سره.

"حسنا.. مع السلامة"، أثناء تقدمه نحو الباب، نظر إلى الشارع مذعورا، لاحظ سخف موقفه إذا خرج إلى الشارع عارى الرأس بدون قبعة.

عليك اللعنة يا روندر!

لكن لا أحد هناك، كان الشارع كله مهجورا، أخذ يلتفت هنا وهناك.

فى منصف الطريق، كان هناك شيء ما لونه أسود وليس له قوام محدد،.......... إنها القبعة المسكينة !

* * *

### الفصل الخامس

## مسز براندون تحضر حفلا للشاى

مسز براندون تكره زوجها، ليس أحد فى بولشستر عنده ذرة شك فى ذلك، وأقلهم علما بهذا هو زوجها. لقد أدركت هى هذه الحقيقة ظهر يوم صيفى قبل خمس أو ست سنوات عندما أخبرها بألطف أسلوب من أنها لا تفقه شيئا عن أزهار الربيع. كانا سويا يحضران حفلا بمنزل العميد، وكما هى العادة، جرت عدة مناقشات تختص بالأزهار والورود. كانت مسز براندون مستعدة تماما أن تعترف بأنها لا تفقه شيئا فيما يختص بأزهار الربيع، فكل ما تعرفه عن الورود هو أن لونها أصفر، ثم باقى الأزهار، هذا كل شىء. سابقا، كثيرا ما كان الأرشدياكون يخبرها بأنها جاهلة، وكانت توافق على ذلك بدون أن تنبس بحرف، لكن فى فترة عصر هذا اليوم المشهود، بينما كانت مسز سامبثون تسألها عن مقدار السكر الذى تضعه فى فنجانها، عادت إليها الذكريات، وهذا المنظر أصبح حيا فى ذاكرتها فيما بعد - الأرشدياكون وقد مد ساقيه حتى آخرهما أمام المدفأة؛ بينما مسز دوبل تحاول أن تتظاهر بالحكمة والفهم، والعميد يجعلها تنظر وتفحص مجموعة من الأقاحى، بينما الشمس تفرش الحديقة بأكملها خلف النافذة، ومجموعة من الغربان فوق قمة شجرة دردار منهمكة فى إعداد أعشاشها؛ ودفء شهر مايو يحاول أن يزيح عنه الهواء المشبع بالضباب، كل شىء طبع فى مخيلتها بعد ذلك.

"يا عزيزتى، يجب أن تعرفى أنك لا تفقهين شيئا فيما يختص بزهور الربيع"

"لا، أخشى ذلك، فعلا أنا لا أعرف - أشكرك يا مسز سامبثون، ضعى لى فى الشاى قالب سكر واحدًا من فضلك"

كان مقدرا لها أن تصل إلى تلك المرحلة بالذات، بل وكان مقدرا أن يحدث ذلك قبل أمد طويل - منذ عهد بعيد للغاية، وهى الآن ذكريات لا تصدق. دار فى ذهنها ذكرى تلك الأيام التى أحبت وأغرمت فيه بهذا الرجل، لدرجة أنها كانت تموت من القلق إذا تركها ولو ليوم واحد، ربما كانت فى تلك الأيام عاطفية بشكل غير معقول، لكن هو نفسه لم يكن قادرا أن يعبر عن حب أو عاطفة، وعلى كل حال، كان راضيا بأن لا يكون مبالغا فى غرامه بها، فهو دائما ما يهتم بأمور أكثر أهمية - فى نظره - وعمله، وعقيدته، وأريحيته، وصحته ونشاطه. كان حبه لابنه هو أكبر ما يشغله عاطفيا، وفى هذا المجال بالذات، هما يتفقان لو تصورها ككائن عاطفى يشعر ويحس، فجهلها بالحياة كان شاملا عندما قابلها للمرة الأولى- وهذه الحالة لم تقل درجتها مع كر الأيام معه. لقد عرفت الآن - بعد مرور كل هذه الأعوام - القليل من متاعب الحياة وعن الرعب أو البركات التى تحملها الأيام فى طياتها، لكنها كانت على وعى كامل أن لا شىء استطاع أن يحقق لها الرضى الكامل. لقد فهمت الآن ما الذى بإمكانها أن تحققه، وربما كان هذا، هو ما يفكر فيه ويظنه بشأنها، كل هذا منعها من استكمال كل خبراتها فى الحياة، ما جعلها، أكثر من أى شىء آخر، تزداد كراهية له.

بسرعة أدركت أنه قد تزوجها لكى يحقق احتياجاته الخاصة- أن يكون له أطفال، أن يحصل على رفيق فى الحياة. ثم أدرك بعد لأى أن الهدف الأخير لن يتحقق، فهى لا تشتمل على المميزات التى يحتاجها فى الرفيق، لذا هو بكل عطف بالغ وأخلاق طيبة، توقف تماما أن يجعل لها أى اعتبار. كان واجبا أن يتزوج إنسانة شجاعة متطلعة تشتاق وتجاهد لكى تحصل على ما يشتاق هو إليه ويرغبه - امرأة فيها من طباع ابنه فولك. فى اللحظات النادرة التى كان فيها يحلل موقفه، يدرك هو هذه الحقيقة. لم يحاول أبدا وبأى أسلوب أن يظهر مدى خيبة أمله فيها - كانت خيبة مقبولة نوعا، لذا درج أن يعاملها بكل أدب وذوق، إلا فى لحظات فورة غضبه العارم وفقده لأعصابه. هو كان يمنحها كل ما تريد، لكنه على كل حال، هو

يكن احتقارا رهيبا لجنس النساء عموما، إلا فى أحوال معينة، مثل موقفه من مسز كمبرمير وأمثالها، اللاتى هن فى الواقع لسن إلا نوعية خاصة من صنف الرجال.

كان أكثر ما يشعرها بالإهانة والتحقير بالنسبة لعلاقتهما، أن لا شيء كان يشغله بشأن ذلك، فهو فى شعور كامل بأن كل الأمور بينهما تسير على ما يرام، ويظن أنها تبادله نفس المشاعر. فى نفس الوقت، حياتها الحقيقية لم تمت ولم تفنَ، هى فقط فى حالة من السبات. منذ عدة سنوات، حاولت أن تغير هذا الموقف؛ كانت تتقدم نحوه بكل خجل وتردد لتجعله فى حاجة إليها، بل وفى يوم، اقترحت عليه أن يستقل كل منهما بغرفة نومه. ذكرى هذه الحادثة بالذات تسبب لها رعبا لا مثيل له، فاستنكاره لهذا الاقتراح كان مساويا لغضبه الجامح، بدا الأمر أمامه كأن هناك من يريد أن يمنعه من دخول الحمام صباحا ليؤدى واجباته اليومية.

حينئذ، عندما أدركت أن أسلوبها لم يحقق نجاحا، ركزت كل جهودها على أبنائها، لا سيما على فولك. لفترة ظنت أنها فى حالة من الرضى الكامل. فجأة، وكان الاكتشاف صادما للغاية، أدركت أن عواطف ابنها تتركز وتنصب على والده أكثر منها بمراحل. ابنها أيضا يكن لها احتقارا وتصغيرا مماثلا لوالده، لكن حبها لابنها لم ينقطع أو يفتر، إلا أنها توقفت أن تأمل أى شيء منه، هذه الخسارة الجديدة أضافتها إلى حساب زوجها، الثقيل أصلا.

بعد فترة قصيرة من هذا الاكتشاف حدثت موقعة زهور الربيع.

كثير من النساء يظهرن فى مواقف مثل هذه قدرًا كبيرًا من الغضب والاستهجان، فهذا ما خلقن عليه من طباع، لكن هى من النوع الذى لا يظهر عليه شيئ، هى حتى لم تعترف لنفسها بما يؤلمها، لكن كراهيتها له تأصلت وتعمقت، فطبيعتها لا تعثر بسهولة عن وسيلة مناسبة للتعبير عن الذات. هى الآن تسجل عليه نقاطًا صغيرة تضيفها إلى سجله المتخم.

لم تعترف لنفسها أبدا أن وقت الانتقام قد حان موعده، ولم تفكر أبدا أن تتنهج وتسلك موقفا ميلودراميا، لم تتوقع أى شىء ايجابيًا يمكن أن يحدث لها فى المستقبل- لكن السجل كان مفتوحا على الدوام.

تطور الموضوع بالأكثر مع عودة فولك من أكسفورد. عندما كان ابنها غائبا، كان حبها له هو عالمها الوحيد البسيط، هو من النادر ما كان يكتب لها، لكن هى جعلت من خطاباتها له التى تكتبها له كل يوم أحد، هو أهم الأحداث الأسبوعية التى تنجزها. كانت تكتب له كما لو أنه ابن يكن كل الحب والتقدير لأمه. لقد تركت نفسها لتنحاز إلى خداع النفس هذا، فهو المنفذ الوحيد لعواطفها المحتدمة.

لكن ما أن عاد فولك، أصبح الأمر صعبا من أن تواصل خداعها لنفسها. أدركت للتو أن هناك شيئا ما يدور فى مجال فكره، وأنه يسعى وراء هدف أو فكرة يريد أن يحتفظ بها لنفسه. اكتشفت، أيضا، إنها هى من يخشاها. كانت هذه هى الحقيقة، فالأرشدياكون لا يستطيع أن يسبر غور أى إنسان آخر، لأنه مشغول بالكامل بتحقيق أهدافه الخاصة. لذا أصبحت خشية فولك من أمه، سببا فى تشكيل موقف جديد بينهما. إنه ليس غافلاً عن تواجدها، كما كان موقفه السابق. حاول أن يكتشف ما إذا كانت تعرف شيئا عنه، اكتشفت هى أنه كثيرا ما كان يلاحظها بشىء من الخوف والقلق، والاستهانة فى نفس الوقت.

كانت فكرة أنه ربما يكون مشغولا بمشروع معين تستطيع هى أن يكون لها فيه دور، هذا مدها بفيض جديد تعيش له. لم تهتم أبدا بمحتوى خطته، مهما كانت خطورتها أو سفالتها، فهى جديرة أن تقف بجواره وتساعده بكل جوارحها. قوام أخلاقها القديم لم يكن عميقا كما يجب؛ فكل مفردات أخلاقها ترتبط بعلاقتها مع الأفراد؛ وبالنسبة لكل فرد هى تحبه، من أجله، من الممكن أن تقترف القتل، السرقة أو إنكار الإيمان، وهى ليس لديها سوى فولك لتحبه.

زادت معدلات كراهيتها للأرشدياكون بسبب أنه فشل أن يتصور أو يكتشف شيئا بما يجرى داخل منزله، فتحت قمة أنفه كان تدور أحداث، بينما هو فى بلهنية كاملة. كم كرهت حالة الرضى التى استقر فى لبابها، وكم احتقرته من أجل ذلك!

بعد أسبوع من حادثة الفيل، دعتها مسز كمبرمير لأن تتفضل وتحضر حفلا للشاى. إنها تكره مسز كمبرمير؛ لكنها ذهبت لأن هذا أسهل من أن ترفض الدعوة. هى لا تحب مسز كمبرمير لأنه فى ذات منزلها هذا كانت تستمع إلى عبارات التقريظ والمدح السخيف عن زوجها. مع ذلك، كان يسرها أن تتصور مدى الدهشة التى سوف تحل على الجميع عندما تنفجر وتخبرهم عما تظنه حقيقة فى هذا الأرشدياكون. كانت الكلمات والعبارات التى سوف تنطق بها مختمرة ومنمقة تماما فى تلافيف ذاكرتها. إلا أنها بالطبع لن تفعل ذلك.

تعيش مسز كمبرمير فى منطقة الملحقات، لذا فإن مشوار مسز براندون لن يكون طويلا. قبل وصولها جرت محادثة اشترك فيها كل من صاحبة الدار، مس ستايلز، مس دوبل ومعهم دكتور بوديفوت. البعض كان يصف صاحبة الدار، مسز كمبرمير، بأنها "قدت من الصخر"؛ وهذا الوصف ينطبق عليها فى الحقيقة.

هى سيدة قوية، لا يمكن هزيمتها بسهولة أو التلاعب بها. ترتدى دائما ياقات منشاة بيضاء مثل الرجال، وتنتعل أحذية برقبة وجونلات قصيرة وحزام يلتف حول خصرها، تمشط شعرها الأسود إلى الخلف مستقيما، لها عين صغيرة بنية اللون، انف كبير وفم واسع، وصوتها عميق أجش. لديها بعض الشعر فوق شفتها العليا السميكة ويد قوية بيضاء. هى تحب أن تسير فى الشارع الرئيسى ممسكة بيدها عصا ذات مقبض فضى، بينما يتبعها عدد من الكلاب الكبيرة النابحة، فوق رأسها قبعة مشبوكة بدبابيس كبيرة بارزة من جانب رأسها، هى لها ضحكة تصدر من القلب، مماثلة فى ذلك الأرشدياكون. أما عن الدكتور بوديفوت، فهو طبيبنا منذ عدة سنوات، على يديه، قدم إلى عالمنا كثير من أفراد جيلى. هو رجل طويل القامة، عريض المنكبين، يرتدى دائما سترات من التويد فاتحة اللون.

لا تهتم مسز كمبرمير كثيرا بمن يجاورها من سكان، دائما منزلها غير مرتب أو منظم. هى كثيرا ما تعنف خدمها، لكن جميعهم يحبونها لأنها تمنحهم أجرا محترما ودائما ما تحقق ما وعدت به. هى السيدة الوحيدة فى بولشستر التى تدخن السجائر، بل قيل أيضا أنها تشرب السيجار، لكننى أعتقد أن لا أحد شاهدها تفعل هكذا.

فى تلك العصرية، تعرضت مس ستايلز إلى تدقيق شديد، فقد أولمت مس ستايلز الليلة الماضية حفل عشاء صغير، ولا يستطيع أحد فى بولشستر أن يفعل ذلك دون أن يقدم تقريرا وافيا عن وقائع الحفل لمسز كمبرمير. تجمعوا كلهم حول النار، لأن اليوم كان شديد البرودة. جلست مسز كمبرمير على مقعد ظهره مستقيم، وقد أمالته قليلا إلى الأمام، بينما انزاحت جونلتها قليلا حتى وصلت إلى ركبتيها، بينما تظهر جواربها الملونة السميكة وحذائها الكبير لكى يشاهد العالم كله ما يشاء:

"حسنا يا ايلين، من دعوت لحفل العشاء هذا؟"

"دعوت كل من القس روندر وعمته، كذلك عائلة القس بنتك-ميجور، أيضا شارلوت رايل والميجور دريك.

"آسفة لأننى لم أتمكن من تلبية دعوتك، لكن ماذا قدمت لهم فى العشاء؟"

"شوربة، وسمك، وسلطة، وشرائح لحم مشوية، وسردين، وشيكولاته سوفليه"

"وماذا كانت المشروبات الروحية؟"

"شيرى، وكلاريت، وليمونادة لشارلوت، ووسكى"

"حدثت أى مفارقات؟"

"لا، لا أظن. بعد العشاء غنت لنا بنتك - ميجور"

"هممم- لست آسفة لأننى فوت ذلك، متى انتهى الحفل؟"

"حوالى الحادية عشر"

رفعت مسز كمبرمير قدمها ودفعت بها قطعة فحم مشتعلة قائلة:

"سوف يقدم لكم الشاى حالا..الآن سوف أخبرك بشىء لمصلحتك يا إلين، أنا بصراحة لا أحب أل روندر هؤلاء"

ضحكت ستايلز بحرارة "أوه، لا داعى لأن تذكرينى يا آجى، لكن لماذا لا تحبينهم؟"

"أولا، لأنهم يبدو أنه هو إنسان غبى"

ضحكت ستايلر مرة أخرى "أنت مخطئة تماما، كنت أظن أنك أذكى من ذلك"

حكت مسز كمبرمير ركبتها "ربما أكون مخطئة، وكثيرا ما يحدث هذا معى، أنا دائما ما انحاز، وهذا ما أعرفه عن نفسى. ثانيا، هو سمين وطرى"

"هذه كلها افتراضات، لكن كملى"

"ثالثا، سمعت أنه يوافق على أى شىء ينطق به الإنسان "

"أنت سمعت؟ إذن، أنت لم تتحاورى معه بعد؟"

رفعت مسز كمبرمير رأسها بينما يدخل الشاى إليهم.

"لا، أنا فقط رأيته فى الكاتدرائية، لكنى قمت بدعوته بالفعل وسوف يحضر إلينا اليوم "

ابتسمت مس ستايلز بطريقتها الغامضة السوداء "حسنا يا آجى، يا عزيزتى، سوف أترك لك الموقف لكى تحكمى بنفسك...وأنا سوف أحتفظ بأسرارى"

"إذا فعلت ذلك" قالت مسز كمبرمير ذلك وهى تتقدم نحو المائدة التى وضع عليها الشاى "فهذه أول مرة تفعلين فيها ذلك، لكن يا إلين، هناك شوكة تقف فى زورى، من فضلك توقفى عن الاستهزاء بعزيزنا الأرشدياكون"

"أهزأ بعزيزك؟ " كان صوت مس ستايلز أبطأ وأنعم من بقرة تتألم.

"نعم. سمعت أنك أغرقت فى الضحك بسبب حادثة الفيل. هذا موضوع يمكن أن يحدث مع أى إنسان"

ضحك الدكتور بوديفوت "مع ذلك، المهم فى الموضوع، هى أنها حدثت مع براندون بالذات. هذه هى النكتة، وبعد ذلك، ما ضاع هى قبعته العالية الجديدة"

"حسنا، أنا لا أتحمل أبدا الحديث فى هذا الموضوع يا دكتور. أنا ومس دوبل نتفق من أن الحديث فى هذا الموضوع بالذات شىء لا يدعو للفخار"

مس دوبل، التى تشبه واحدة من تلك المظلات الحريرية الأنيقة، فوق قمتها رأس ببغاء كبيرة، صوتها كأنه جدول المياه الجارى، فجأة احمر وجهها وتلجلجت ثم اعترفت أخيرا أن الأرشدياكون، من وجهة نظرها، هو بطل من الأبطال.

جاوبتها مس ستايلز "يا عزيزتى مارى، ليس هذا بالضبط خلاصة الموضوع، النقطة هنا هى أن هناك فيل قادم مباشرة من الصحراء، أكل أحسن قبعة للأرشدياكون فى الشارع الرئيسى. يجب أن تعترفى بأن هذه الظروف تدعو حقا للضحك فى العهد الستينى لملكتنا المحبوبة. أنا، عن نفسى، أنتوى أن أغرق فى الضحك الآن."

"لا يا إلين، لا تفعلى ذلك. وهذا ينطبق على الجميع"، قالت مسز كمبرمير ذلك بكل جدية "أنا أعنى ما أقول، لا أهزل. ربما يكون لبراندون أخطاؤه وغلطاته، لكن كل أمر جليل حدث فى تلك المدينة، كان هو مصدره. أبعديه عن بلدتنا هذه، وكل شىء يتحول إلى حطام. أعتقد انك تحاولين أن تقدمى لنا أصدقاءك الجدد، آل روندر كمنافس لعزيزنا، لكن نحن نفضل أن تظل أمورنا كما هى عليه، بلا تغيير، وشكرا لك ألف مرة".

الآن، أصبح لون مس ستايلز الفاتح أكثر سطوعا، فهى تعلم جيدا من هى آجى كمبرمير، لكن هى أيضا لا تحبذ أن تعنف فى حضرة الدكتور، لذا قالت:

"إذا كان هو فعلا مقامه عاليا هنا، لماذا إذن لا يأخذ باله من تصرفات ابنه؟"

تساءلت مسز كمبرمير "تصرفات ابنه؟ ما الذى تعنينه بذلك؟"

نظرت مس ستايلز إلى الدكتور ومس دوبل طلبا للعون "أوه..الجميع يعلم أن براندون الصغير يقضى جل وقته فى منطقة سى تاون، وأن الآنسة آنى هوج ليست بالكامل بلا صلة بذلك"

"الحق يا إلين"، قالتها مسز كمبرمير وهى تخبط كفها بقوة على المائدة "أنت سيدة مقرفة، نعم أنت كذلك، ولن أتراجع عن كلمتى هذه مهما طلبتِ. كل الفضائح فى بلدتنا هذه أنت مصدرها، بفضلك أصبحنا مقصد الروائيين الذين يفضلون الكتابة عن المدن التى بها كاتدرائيات. لكن أحذرك وأنت تتحدثين هكذا عن براندون. ابنه ليس إلا ولدًا صغيرًا، وهو أكثر الشباب وسامة فى بولشستر، بالطبع من المتوقع أن يميل الكثيرون إلى مصاحبته، انه لم يحضر إلا منذ بضعة شهور، وها أنت تطاردينه بقصصك واختراعاتك. أنا لا أتحمل..."

وقفت مس ستايلز على حيلها، أصابعها ترتجف وهى تسحب قفازها:

"حسنا، لن أظل هنا حتى أهان بهذا الشكل. على أية حال، أنت تعرفيننى منذ عدة سنوات يا آجى، لكن هذا لا يسمح لك أن تفعلى معى هكذا، كل مسألتى هى أن ما فى قلبى هو على لسانى. أظن أنك أنت التى فتحت الموضوع بأن شتمت أصدقائى"

"اجلسى يا إلين، لا تكونى سخيفة. من يشتم أصدقاءك؟ أنت التى تشتمين، وإذا استطاع أصدقاءك الجدد هؤلاء أن يحققوا ولو قدرًا ضئيلاً من النجاح، إذن أقول لك هنيئا بروندر هذا"

فتح الباب، أعلنت الوصيفة "القس روندر".

الجميع كان مدركا لنوعية الدراما التى تحدث الآن أمامهم، وأكثرهم اهتماما كانت مسز كمبرمير. مع ذلك، دخل روندر الغرفة لا يدرى شيئا، سوى أنه فى حالة طيبة متوقعا أن يستمتع بصحبة طيبة من معارفه الجدد، لذا هوذا الآن يقدم لهم نفسه على شاكلة الراعى السعيد الذى ربما يفوت حضور وليمة كبرى، بينما يرحب بحضور حفل شاى بسيط. بدا عليه الآن أنه أصبح أكثر سمنة بالمقارنة بأيام حضوره للمرة الأول لبولشستر، وطرفا نظارته مستديران كأنهما قمران صغيران.

"كيف حالك يا مسز كمبرمير؟ أرجو أن تعذرى عمتى، فقد أصيبت فجأة بصداع عنيف، لقد اكتشفت فعلا أن بولشستر مدينة مريحة وطيبة"

لم تقم مسز كمبرمير من مكانها، لكنها حملقت فيه عبر طاولة الشاى. هذه الحملقة بالذات طالما بثت الرعب فى قلوب الكثيرين من قبل، أما اليوم فإنها تحمل معانى قوية للتحدى، لقد تضايقت كثيرا من مس ستايلز، وها هنا يقف أمامها سبب هذا الضيق الذى حل بها، لذا واجها بعضهما البعض، والحضور فى الغرفة خلفهما كانوا على وعى كامل بان مسز كمبرمير قد أعلنت فعلا النضال، لكن لا أحد كان يعلم ما الذى كان يدور فى خلد روندر فى تلك اللحظة.

"كيف حالك يا قس روندر؟ أنا مسرورة للغاية؛ لأنك شرفت منزلى المتواضع. سمعت أنك رجل مشهور، أنا فخورة لأنك استطعت أن تقتطع من وقتك نصف ساعة"

تركته واقفا هناك، ربما كانت تأمل أن يشعر بالإحراج والارتباك، لكن هو كان على راحته تماما.

"لا أبدا، لست مشغولا لهذه الدرجة. فقط أنا إنسان كسول". نظر نحوها مبتسما، كان واضحا للجميع أنه ليس مهتما بأحد غيرها فى الغرفة "أنا أحاول قدر

جهدى أن أصلح من حالى، لكن يبدو أننى قد كبرت فى السن ويصعب بالفعل إصلاحى"

"نحن هنا فى شغل دائم يا قس روندر، لكنى أخشى أنك وصفت نفسك بشكل مزيف، لقد سمعت عنك الكثير"

"أرجو أن يكون ما سمعته كلامًا طيبًا وفى مصلحتى"

"حسنا، لا أعرف. هذا يعتمد على ظروف متعددة، أتوقع منك أن تهزنا جميعا وتعلمنا كيف نحسن أحوالنا ونوعية طباعنا"

"يا الله، لا بالطبع! أنا حضرت إلى هنا لأتلقى تعليماتكم، لا أحمل أى فكر خاص فى دماغى"

"التواضع الجم هو طريق خطير، ليس هناك إنسان متواضع فى بولشستر"

"إذن سوف أكون أنا أول متواضع فى بولشستر، لكنى أنا أيضا ليس ذلك المتواضع، أنا فقط أنطق بالصراحة بكل بساطة"

ابتسمت مسز كمبرمير بنوع من الغموض "هنا أيضا، سوف تكون أنت الاستثناء، فنحن هنا، لا أحد يتكلم بصراحة"

"حقا يا مسز كمبرمير، أنت ترسمين لبولشستر صورة فظيعة"، ضحك لكنه لم يحول ناظريه عنها "أعتقد أنك فى هذه المدينة منذ أمد طويل، لدرجة أنك نسيت شكل المكان. اننى أؤمن بالانطباعات الأولى".

"تعتقد أن هذا يحدث معى؟"، قالت ذلك وهى عابسة.

"حسنا، على مدى عام من الآن، سوف ندرك من المخطئ فينا، أنا على استعداد تام لأن أعترف بهزيمتى مقدما"

"أوه... بعد مرور عام! "، ضحكت بسرور "الكثير من الممكن أن يحدث خلال عام، ربما تصبح أنت الأسقف بعد عام، يا قس روندر"

"آه... هذا سوف يكون أكثر مما أستحق"، كان على وجهه مظاهر الجد بأجلى صورها.

حاولت أن تنهى هذه الصدام، لذا التفتت وقدمته إلى مس دوبل والدكتور بوديفوت، هو كان قد قابلهما من قبل، ثم جلس منشرحا بجوار المدفأة يستمع إلى مس دوبل وهى تعلق على مدى إعجابها ببراوننج. أصبح النقاش عاما، كان معظمه عن الاحتفالات التى سوف تقام بمناسبة اليوبيل الماسى لانقضاء ستين عاما من حكم الملكة فيكتوريا، ثم تطرقوا إلى الأحوال السائدة الآن فى جنوب أفريقيا، وعن غرام السيدات الآن بركوب الدرجات، كل واحد منهم كان له رأى خاص فى هذا الموضوع الأخير وعن الملابس الغريبة التى ترتديها النسوة، كما أخبرت به الصحف وهن يتنزهن فى متنزه باترسى عندما يخرجن فى نزهة الصباح.

قالت مس دوبل: "هناك شىء شنيع ومعيب"، لكن إجابة مسز كمبرمير فقد كانت "كلام فارغ! كما لو أن لا أحد يدرى أن للنساء سيقان !"

فى الحقيقة، كل شىء سار على ما يرام، بالرغم أن مس ستايلز لاحظت بنفسها أن مضيفتهم لم تكن على طبيعتها وأن هناك شيئا ما يكدرها.

ثم حضر ضيفان جديدان، الأول كان هو مستر موريس، بعده مباشرة حضرت مسز براندون. وضح على الفور أن القادمين الجدد لن يستطيعا أن يغيرا من الأجواء السائدة فى الغرفة. لا أحد فى بولشستر كان يهتم أو يقدر مسز براندون، أيضا بالرغم أن القس موريس له وقت أطول فى بولشستر، لكن هو إنسان خجول متحفظ، حتى الآن، لم يشعر به أحد أو يتأثر به. كانت مسز كمبرمير مشغولة بأفكارها الخاصة، والباقين كانوا يتحاورون بانسجام وسعادة وهم متجمعون حول المدفأة، لذا حدث أن جلس كل من مستر موريس ومسز براندون بمفردهما بجوار النافذة.

هنا حدث الكشف الخطير..ربما تكون هذه كلمة صعبة وغير معبرة تماما، لكن كيف يمكن للمرء أن يدعوها بغير ذلك؟ بالطبع إنه نوع من الابتذال إذا قلنا إنه يحدث لشخص حى أن يتذكر أنه فى مناسبة معينة، أن حدث اتصال معين مع شخص آخر، ربما كان هذا الشخص الآخر جميلا، مؤثرا، أو له سحر غامض يفوق إخوانه من البشر، بذلك يحدث هذا الكشف أو الإلهام، وهو التعبير المناسب لتلك الحالة. لكن ما أن تلعب التحليلات فى المسألة، ربما يتحدث الفرد عن الانجذاب الشخصى، عن المشارب الثقافية المشتركة، عن الروابط الروحية، عن أى شىء آخر تود التعبير عنه، لكن الإنسان يعجز عن التعبير عن أفكاره بدقة عما حدث فى هذا اللقاء أو تلك الصدفة.

ربما نكتفى بالقول أن ما يتصف به مستر موريس ومسز براندون، هو أن كليهما يحس بوحدة قاتلة. ربما نقول أيضا، أن كليهما لديه مشاعر مكبوتة، قوامها هو أن ينالا حماية ورعاية شخص آخر. فكل من زوجها أو فولك أو جوان، ليس واحد منهم فى حاجة إلى مسز براندون - والأرشدياكون لا يرحب أبدا بوجود كلاب فى منزله - أو ربما تقول، إذا شئت، أن كل منهما أحب شكل الآخر، ودع الأمور عند هذا الوضع. لكن الكشف ما زال يسرى، وكل ما يحتويه هذا الكشف عن مرارة وتراجيديا وتعاسة ما زال قائما.

هذه بالطبع، لم تكن هى المرة الأولى يتقابلان فيها. ففى منزل كمبرمير فى مناسبة سابقة، تم تقديمهما لبعض وتحدثا للحظات؛ لكن فى تلك المرة السابقة لم يحدث هذا الكشف.

إنهما لا يتحدثان كثيرا هذه المرة. سألت مسز براندون عما إذا كان قد أعجب ببولشستر، فأجابها بنعم. ثم تحدثا عن الكاتدرائية والاحتفال القادم باليوبيل. قال موريس أنه قد قابل فولك. تلون وجه مسز براندون وسألته، ألا يرى أن فولك ابنها شاب وسيم؟ قالت هى إنه ولد ممتاز، مغرم بالاستقلالية، لذلك لم يتحمل استكمال دراسته فى أكسفورد... ثم توقفت عن استكمال هذا الحديث فجأة.

بدون أن تنظر إليه، قالت إن الإنسان يشعر أحيانا بالوحدة، بالرغم من وجود الكثير لأن يفعله فى بلد مثل بولشستر. أجاب موريس بنعم، هو يعلم ذلك. كانت هناك وقفات طويلة فى حديثهما، وقفات تشبه تلك الدقات التى نسمعها على خشبة المسرح قبل انفراج الستارة.

أخبرته مسز براندون أنه سوف تكون مسرورة أذا تفضل وزارهم، فأخبرها أنه سوف يفعل ذلك، ثم تلامست أيديهما، فشعر كليهما أن الغرفة قد اقتصرت عليهما فقط وأصبحت معتمة وقد زال من الوجود كل الباقين.

قامت مسز براندون تود أن تعود لمنزلها. بعد ذلك، استعرضت فى ذهنها منظر الخروج، تذكرت أنها ركزت عينيها خاصة على القس روندر وهى تقول وداعا.

قررت بينها وبين نفسها، أنها تكره هذا الرجل، ثم خرجت. فشعرت مسز كمبرمير بالسعادة لرحيلها هذا

فمن أكثر النسوة بلادة وثقل دم......

* * *

## الفصل السادس

# ضباب سى تاون وغبار الكاتدرائية

كان فواك براندون يدرك تماما أن والدته ترقبه.

حقيقة غريبة، هى أنه منذ عودته من أكسفورد، لم يأخذ فى اعتباره أمه أبدا، لم يكن هذا لأنه نشأ على أن يهملها، كما يفعل كثير من الأبناء، بسبب تكرار مشاهداتهم اليومية لهن. هو أيضا لا يحتقرها، لأنه يبدو عليه أنه أكثر علما بالعالم عنها. لم يكن أبدا قاسيا عليها، أو حاميا أو مستهينا بها، إنه بكل بساطة، لا يضعها فى حسبانه. هو بصفة مستمرة تجده مشغولا بأسراره، لدرجة أنه لم يشك للحظة أن أحدا يمكن أن يخمن نوعيتها. لقد أدرك فى التو واللحظة أن والده متأكدا من أخلاق ومشارب ابنه، أما أخته، فهى البراءة مجسمة ويتعذر عليها أن تخمن شيئا. لكن الآن، وهو الذى لا ينظر إليه على أنه من النوع البارع فى التخيل والحدس، وبالرغم من كل شىء، هو يعرف القليل عن العالم، ويغلفه قدرًا كبيرًا من الثقة فى النفس مماثلا لوالده فى هذا الشأن. مع ذلك، وبما يحوزه من القليل من ملكات التصور والتخيل، أدرك أن والدته مشغولة به، ترقبه، منتظرة ما يمكن أن يبدر منه من فعال....

بكل بساطة، سره ينحصر فى أنه، منذ العام الماضى، كان متيما بالآنسة آنى هوج، ابنة صاحب حانة "الكلب والسمكة". كلمة متيم هى الكلمة المناسبة، وليس صحيحا أن نقول إنه يحبها، أو، أنه يكن لها عاطفة مدروسة، هو يفكر فيها بشكل متواصل، ولا يستطيع أبدا أن يبتعد عنها، ويأمل منها أكثر من ممارسة الحب والعشق....

ما يرغبه ويريده هو لا يدركه ولا يستطيع أن يسبر غوره. هو لا يستطيع أن يفارقها لحظة. لكنه ما أن يتواجد بجانبها، فإنه لا يحدث شيء ما. كان واضحا أنها لا تهتم به بشكل خاص؛ هو أيضا لم يكن متأكدا من ضرورة أن تهتم به. فى التيرم الأخير وهو فى أكسفورد، كان يفكر فيها- بشكل مستمر ومتصل، بينما هناك الم ممض ينخر فى قلبه.

إنه لم يسع لذاك الضيق والمصيبة التى حلت به والتى جذبته إلى أسفل، لكنه رحب بحدوث ذلك.

كل يوم كان يذهب إلى حانة "الكلب والسمكة"، يحتسى القليل من المشروبات ثم لا يتحدث مع أحد. فقط يسند ظهره إلى الحائط ناظرا نحوها- أحيانا يتبادل معها كلمة أو اثنتين - كان يعلم أن الجميع يتحدثون عن حالته تلك، بل ربما كانت المدينة بأثرها على علم بحالته تلك. هو لا يستطيع أن يشغل فكره بذلك، ليس لديه خطط محددة أو تصميم جازم - فقط هو يشعر بتعاسة بالغة تخرط فؤاده.

فى رحاب هذا الارتباك الغريب، هذا جعله يفكر فى والدته. منذ البداية كان واعيا بدور أمه فى أزمته تلك. هو بطريقته الأنانية يحب والده ويقدره ويشاركه فى إحساساته البالغة بالافتخار والاكتفاء الذاتى. انه فخور بما بلغه والده من مجد وسؤدد، وبما يستغرق والده من مشاعر الاحتقار والتقليل من شأن الآخرين، بهيئته الوسيمة ومدى سيطرته على مقادير المدينة بأسرها. إنه يتفهم الضرورات التى ساهمت فى تشكيل والده، ويعتبره مخلصا أنه رجل رائع وأفضل إنسان فى البلدة - لكن هذا لا يعنى أنه كان يستمع لأى شيء ينطق به والده - إنه يعرب عن سروره بما يفعله والده، بل وأحيانا يغرق فى الضحك عندما تتبدى بعض ثورات والده الغاضبة.

لقد أدرك منذ البداية أن علاقته بالآنسة آنى سوف تحدث ضررا بليغا بأبيه، هو بالطبع لا يود أبدا أن يحدث ذلك. لذا أصبح التفكير فى الرجل العجوز، كما

كان يدعو والده، يضيف الكثير إلى مدى تعاسته وضيقه. أنه يقدر تماما الطريقة التى عالج بها والده موضوع رجوعه من أكسفورد. فالرجل العجوز هو رياضى الخلقة. شىء محزن أن يسبب لوالده حزنا بالغا بسبب هذه المسألة الجديدة، لكن هذا ما حدث، ومن الصعوبة بمكان أن يغير الإنسان ما وقع بالفعل.

لذا فإن هذه الفلسفة القدرية هى التى استطاعت أن تتحكم فى كل أموره "دع ما حدث يأخذ مجراه". وإذا ساءت أحواله، فهو لديه معين وافر من شجاعته، أيضا هو يتلقى مساعدة لا يستهان بها من مدى احتقاره للعالم وما فيه....

انه يعرف والده جيدا، لكنه أدرك الآن أنه لا يعرف الكثير عن والدته "ما الذى يشغل فكرها بشأنى؟" هذا ما كان يدور فى خلده.

فى عصرية يوم، كان يستعد كالمعتاد أن يتوجه إلى سى تاون. فى الممر خارج غرفته، تقابل مع والدته. توقف كلاهما كأنما هناك ما يريدان أن يخبرا به. هو لا يبدو أبدا أنه ابنها، شكله جميل، وسيم، طويل، أيضا هو متباعد، كأنما حتى وهو فى بيته، يجب عليه أن يكون حذرا مترقبا، مستعدا أن يتحدى أى إنسان يمكن أن يهدد خططه الخاصة.

خطر فى فكره أنها تشبه "الفأر الصغير"، بدا عليه كأنه يشاهدها للمرة الأولى "تكاد أن تختفى فى كسوة الجدار". كان واعيا، أيضا، لملامح خجلها وتحفظها البالغين- كليهما كان ينظر للآخر كأنما يشاهدها للمرة الأولى، ينظر إليها كأنما هى تختفى وراء غرض معين أو سر دفين، ربما يكون مماثلا لنوعية أسراره.

"أوه... فولك"، توقفت عن الحديث فجأة، ثم سألت السؤال الخالد "هل تود أو ترغب أن أفعل أى شىء من أجلك؟"

"آه...نعم "، ما زالت واقفة أمامه محرجة أن تنظر إليه.

"كنت أتساءل...هل أنت ذاهب إلى قلب المدينة؟ "

"نعم يا ماما...هل هناك ما يمكننى أن اصنعه من أجلك؟"

"لا...شكرا"، لكنها لم تتحرك من مكانها.

"جوان فى الخارج"، ثم واصلت بسرعة "أتمنى أن تخبرنى عما إذا كان هناك أى شيء يمكننى أن...."

ضحك "ما الذى تعنينه بالضبط؟"

"لا شيء يا عزيزى، فقط أريد أن اعرف ما هى خططك المستقبلية"

"خطط؟ ليس لدي أى خطط"

"لا، لكنى دائما ما أفكر بأنك ربما سوف تختفى عنا فجأة. ربما أستطيع أن أعاونك فى شيء. أعلم أن إمكانياتى لن تحقق لك الكثير، لكن أى شيء سوف تخبرنى به، أعتقد أنه من الممكن أن أساعد فيه...أرغب بالفعل أن أقدم لك يد المساعدة"

أدرك أنها مصممة منذ وقت مضى أن تتحدث معه، وأن هذه المحادثة كانت نتيجة لتصميم يائس، لذا تأثر قليلا.

"كل شيء على ما يرام يا والدتى، أعتقد أنك أنت ووالدى تفكران مليا بشأنى، من أنه واجبا أن أظل هكذا، لا أفعل شيئا"

"أوه، والدك لا يخبرنى بأى شيء فيما يختص بك، ولا أعلم ما الذى يفكر فيه. لكنى سوف اشتاق إليك إذا ذهبت وبعدت عنا. شيء رائع أن تظل وسطنا، بالرغم أن كل الأمور هنا تحدث بشكل بطيء"

استند إلى الحائط، عابرا بنظراته مستطلعا المنظر عبر النافذة حيث تكمن سماء رمادية ويوم يلفه ضباب قاتم.

"حسنا، حقا من الضرورى أن استقر هنا وأحاول أن أجد ما أشغل به وقتى، لا يمكن بالطبع أن أظل بالبيت هكذا إلى الأبد، لكن هناك رجل فى لندن يطلبنى لأشاركه فى عمل ما"

"أى نوع من الأعمال يا عزيزى؟"

"هو أمر يتصل بالاستيراد والتصدير، فيه سفريات متعددة. وأنا أحب ذلك.بالطبع يلزمنى أن أضع قدرًا من المال فى هذا المشروع، وأرجو من الحاكم والدى أن يسمح لى بشيء...تصورى، هو يريدنى أن التحق بالبرلمان!"

"البرلمان؟"

"نعم" ضحك فولك "هذا آخر مكان أفكر فيه. كان هو يتحدث عن هذا الموضوع الليلة الماضية. بالطبع هذا نوع من الجنون، فهو ليس بالخط المناسب معى، وهذا ما أخبرته به"

"أنا لا أود أبدا أن تغادرنا يا فولك، هذا سوف يعنى الكثير بالنسبة لى"

"هل هذا حقيقى ؟". كان هناك حافز قوى يدعوه لأن يخبرها بموضوع آنى هوج، لكن فكرة اجتماع كل من والدته مع آنى، جعله يتأكد أنها فكرة مستحيلة. هما من عالمين مختلفين. شعر بالغضب يتملكه فجأة بسبب كل هذه العقبات التى يضعها العالم أمام تحقيق أمنياته "أوه..سوف أظل هنا لفترة يا والدتى. حسنا، أعتقد انه لازما أن أخرج الآن، عندى موعد مع صديق"

ابتسمت هى ثم اختفت فى غرفتها.

طوال مشواره حتى منطقة سى تاون، كان متوترا وحائرا بسبب تلك المحادثة الصغيرة. يبدو أنه من الصعوبة بمكان أن لا تضع الآخرين فى حسبانك بمجرد أن تقرر أنت ذلك، فورائك وهم قوى، يستلزم تحديد المواقف. الإنسان ليس سوى عسكرى فى لوحة للشطرنج...نعم، عسكرى شطرنج.

لكن ما الذى تفكر فيه والدته؟ هل تحدث معها أحد؟ ربما تكون بالفعل قد عرفت بموضوع آنى. لكن ما الذى يمكن أن تعرفه؟ فالفتيات من أمثال آنى هن بعيدات عن نوعيتها، وما الذى تعرفه والدته عن الحياة أصلا؟ لم يسعفه ما تبقى من اليوم ما يرضى فضوله واستفساراته لنفسه. الضباب لم يغط كل المدينة، لكنها تغطت بنذير من ضباب البحر الرطب ما جعل الجو عامة مقبضا ساحبا معه أى قدر من الجمال، كذلك لم يترك أيضا أى قبح مثير فى مكانه المعتاد.

فى أفضل الأيام طقسا، لا تبدو منطقة سى تاون جميلة أو نظيفة. لقد قرأت الكثير من الكتب التى تصف الجمال الرومانتيكى لكهوف جليبشاير، ومدن جليبشاير وفنادقها اللطيفة، كذلك شواطئها المكسوة بالرمال الناعمة وصائدى الأسماك وقد زينوا آذانهم بالأقراط الذهبية، بينما تصدر من أفواههم أغرب اللعنات. فى كتاب منها، شاهدت صورا مدهشة للمكان، فتيات يرقصن، رجالا متقدمين فى العمر يروون قصصا خرافية عن الأشباح والمردة. بالطبع، استقر هناك بعيدا أحدهم وهو ينشد ويغنى منشرحا، والقمر يشرف بحنانه على الأرض. فى كل مكان، تتجلى واحدة من معالم جمال جليبشاير. كل مكان هنا يتصف بالروعة والجمال، لكن سى تاون لا يمكن لها أن تدعى بذلك.

ربما فى وقت سابق، عندما لم يكن هناك سوى الكاتدرائية، والقلعة، والصخرة وبعض الأكواخ بجوار النهر، وربما عندما يحدث المد الليلى، تحضر بعض السفن الأجنبية قادمة من البحر، عندما كانت مجموعات الأشجار المتفرقة عبارة عن غابة كثيفة، كان لمنطقة "سى تاون" سحرها الخاص، لكن كل هذا حدث فى الماضى. لقد أصبحت هذه المنطقة فى أيامنا هذه عبارة عن مكان تتجمع فيه أسوأ تصريفات للمجارى، وتشغل بأسوأ أنواع السكارى، وتحفل بأسوأ معيشة وميتة. الناس الذين يزرعون شوارعها، ليسوا سوى جماعة من المتسكعين المتبطلين الهاربين من وجه العدالة. أما معظم نسائها، فهن لسن أفضل النماذج بالطبع. تجد الأولاد أيضا يحفلون بالقذارة وتنقصهم التربية السليمة بالمقارنة بأى

مكان آخر فى جليبشاير. لذا تجدنا نجزى رعاتنا كذا مستشارى المدينة ومعهم أصحاب المزارع الأغنياء، بأقل قدر من التقدير، بسبب ما لاقته هذه المنطقة من الإهمال الغريب. لكن عندما نستمع لدفاعاتهم، نسمعهم يقولون أن تلك المنطقة فى حاجة إلى راع شجاع يستطيع أن يواجه مستشارى المدينة بقوة لكى ينفض الغبار الذى تراكم فى هذا العش الصغير، وقد حل بالفعل أوان ذلك...

حتى منظر نهر بول، وهو نهر ظريف يجرى خلف المدينة ثم يختفى فى أحضان الغابة، لا يمثل الآن منظرا يستحق بالأخص عندما ينخفض المد، حينذاك لا يتاح لك إلا أن تشاهد مجرى مائيا رفيعًا بليدًا لونه رماديًا يسير متثاقلا وسط شاطئين طينيين حتى يصل إلى البحر. لكنه فى المد العالى، نجد هذا النهر يتدافع صادما السد الصخرى الذى يحيط بشارع "بنيسنت"، وعلى الجانب الآخر تستقر مزارع خضراء شاسعة، وتل ناهض معظمه مغطى بأشجار تصنع شكل التاج فوقه. من ناحية النهر، تبدو منطقة سى تاون بارزة بأكواخها المتناثرة المرصوصة فى ارتباك على ذيل الصخرة الكبرى، بينما تطل عليها الكاتدرائية والقلعة من بعد، هذا المنظر بالذات، هو أفضل ما يميز هذه المنطقة.

اليوم، فى ظل هذا الضباب المتكاثف، كان المكان كله مقبضا. اندفع فولك سائرا فى شارع القنطرة كما لو كان يشق طريقه داخل بئر محتشد بالرطوبة. هنا كانت تتواجد يوما منازل فاخرة حسنة المنظر، لها شرفات واسعة وأبواب صلدة ونوافذ مقوسة، ويمكنك أن تدعى أن هذه المنازل لها صلة قرابة بعيدة بالمنازل التى بنيت على النظام الجورجى التى تجد مثيلا لها فى شارع أورانج، أما هذا الشارع الذى يسير منحدرا تجاه النهر، فهو الآن ملىء بالأقذار والمخلفات، كثير من النوافذ كانت مهشمة وفتحاتها محشوة بالأوراق، بينما الملابس المغسولة منشورة من بيت للآخر، أما النوافذ السليمة، فإنها كانت مسدودة بإحكام وعلى أطرافها وضعت أوان للزرع شكلها كئيب، هنا وهناك يمكن أن تشاهد صورا فوتوغرافية لبحار أو لزوجين مبتسمين أو سيدة ترتدى ملابس ثقيلة تواجه الشارع.

التحم شارع القنطرة بشارع "بنيسنت"، وهذا الأخير هو الشارع الرئيسى لمنطقة سى تاون، ولعله أيضا كان يوما شارعا محترما مرصوفا بالأحجار يسير بجوار النهر، منازله أكثر لياقة من منازل شارع القنطرة، بمداخلها العالية وطوبها الأحمر الخابى، ما يوضح أنها كانت يوما ملكا لأناس محترمين، ملحقا بها حدائق صغيرة تسير حتى حافة النهر، بينما فى المنظر الخلفى شكل خلاب للمراعى والغابة.

اليوم، كان كل شيء ضائعا وسط هذا الضباب الكثيف غير الثابت فى مكان، يبدو كأنه كائن حيّ يتحرك حثيثا، يبدى هنا شكل نافذة، وهناك باب، الآن عمود مدخنة، ومرة أخرى درجات سلم تنتهى فى الهواء. أما النهر، وهو الآن فى قمة المد، يصده الحاجز الحجرى ويصدر صوتا متهجدا كأنما هو صوت سكران حائر.

غمغم فولك لنفسه "نحن لسنا سوى عساكر شطرنج". بدا الأمر كأن ذلك هو المنطلق النهائى لسلسلة الأفكار التى كانت تشغله، كأنما هى مجموعة من الذباب تشاغله. أثناء سيره، وهو يبحث عن مكان الحانة، مال عليه أحدهم، فأحس بغضب عارم يتملكه. كان هذا الظهور فجائيا لدرجة أنه شعر بالخوف، كأنما شاهد صورة وجهه فى مرآة، لكنه لم ينطق بشيء. قال الآخر "متأسف" ثم اختفى وسط الظلال.

أخيرا ووسط الضباب، عثر على حانة "الكلب والسمكة، خلفها كان النهر وقد صادفه جندل حجرى موقعه منتصف التيار. فى المد العالى، يستطيع النهر أن يتجاوز هذا العائق بغرغرة وطرطشة كلها دهشة، وحتى عندما يكون النهر فى أقل ارتفاع له، يحدث نضال مسموع فى تلك المنطقة بالذات، ودائما ما كان فولك يربط ما بين هذه الضوضاء مع الحانة بما تثيره فى نفسه من اشتياقات وقوة جذب غريبة - هو "فرح أسود" - وسوف يكون مقررا عليه أن يستمع لهذه الضوضاء حتى وقت وفاته.

اندفع إلى الممر ثم التفت يمينا. فى يوم رطب كهذا، تنتعش فيه تجارة صامويل هوج تماما. كان الغاز ينير المكان، ويصدر فحيحا فوق الرؤوس كأنما هى أصوات تسخر من بلاهة وعبط الناس الذين استقروا تحته. كانت الغرفة مليئة بالرواد، معظمهم رجال بحارة ومتسكعون مع رجل أو اثنين قادمين من الأرياف وقد تزاحموا حول البار. عبر فولك إلى ركن الغرفة بجوار النافذة وجلس، فهذا هو موقعه المعتاد. لا أحد التفت نحوه أو اهتم به. لا أحد أيضا يمكن أن يشاهد صامويل هوج ثائرا فى يوم، أبدا لم يحدث هذا، حتى وهو يتعارك مع الزبائن ويكون مضطرا أن يطرد واحدا أو اثنين إلى الشارع أو النافذة مستخدما قوة ذراعيه الجبارتين. لكن هذه المعارك كانت قليلة، فالناس يخافون هذا الرجل، بالرغم أنه يبدو عليه أنه إنسان رضى ومهذب.

هو دائما لديه كلمة طيبة يزجيها لكل فرد، ولا تستطيع أية جريمة أو أخلاق متدنية أن تهز فؤاده. إنه يضحك على كل شيء. مع ذلك، كل الناس يخشونه، فأسوأ الخطاة لديه قدر كاف ليفرق ما بين الصواب والخطأ. هو عن نفسه، ربما لا يلتزم كثيرا بانتهاج المسلك الحسن، لكنه يفضل باستمرار أن يحدث استقرارا كاملا فى محل عمله. كان حكم أهالى سى تاون هو أن هوج هذا هو "رجل عميق الغور"، ومن المؤكد أن المرحومة زوجته لم تهنأ معه يوما، بالرغم من أخلاقه اللطيفة.

تقدم هوج نحو فولك، متسائلا عما إذا كان يود أن يشرب شيئا، قائلا "يوم سيء". طلب فولك شرابه، وبشكل خافت، سمع صوت الكاتدرائية تعلن دقات الساعة. شيء مدهش أنه من الممكن أن تسمع تلك الدقات فى كل ركن من أركان بولشستر.

قال هوج وهو متجه نحو البار "من المحتمل أن تمطر الليلة"

جلس فولك مراقبا. هناك بعض الحضور يعرفهم بالاسم، أما الباقون فهم جدد بالنسبة إليه، لكن اليوم بالذات، بدوا كلهم أشباح فى ناظريه. فمنذ أن عبر باب الحانة، كسته حرارة قوية وتوقع عجيب وإثارة غريبة، سيطرت على جسده وروحه. جلس هناك غارقا فى لجة هذه الحالة، لا يحول ناظريه، عيناه ثابتتين، نحو الباب. حوله قدر هائل من الضوضاء، الضحك، الشتائم، أصوات تنخفض وترتفع، مكونة شكل خطوط السماء، فوق هذه جميعا صوت يحكى قصة لا تود أن تنتهى.

ظهرت آنى هوج، فى الحال شعر فولك بغصة فى حلقه، ودق قلبه دقات مزعجة أحس بها فى ساعديه. تحركت هى هنا وهناك، تتحدث مع الرجال، تجلب المشروبات، غير مهتمة به كالمعتاد، هو ينظر نحوها فى تلك القاعة الضبابية برائحتها المنفرة الشيطانية، لم يبد عليها أنها من النوع الذى يستحق الاهتمام. بدت قوية، متماسكة، تعى ما تقول أو تفعل، أحيانا هى تبدو جميلة، لكن ليس الآن على وجه الخصوص. هى امرأة يرحب أى إنسان أن ينظر إليها مرتين، تعبيراتها لا تتبدى فيها أبدا مظاهر المغضب أو أى نوع من الازدراء، ربما، فى هذا الشأن، يظهر سلوكها الحسن، فهنا حياة لها شكلها الخاص، فى عينيها استقلالية مدهشة، يستنتجها الإنسان من حركات رأسها.

لم يحرك فولك عينيه عن متابعتها، أما عنها فهى منذ أن دخلت الغرفة، كانت على وعى كامل بتواجده. لكنها لم تتقدم نحوه، بل وقفت تتحدث مع هذا وذاك. أخيرا حضرت إليه ووقفت بجوار مائدته تنظر عبر النافذة التى جلس بجوارها.

"طقس سيء يا مستر براندون" صوتها كان خفيضا لطيفا، تتحدث ببطء كأنما هى تنتقى كلماتها.

"نعم، أعتقد أن هذا مفيد للغاية لتجارتكم"

"الطقس السيء دائما ما يجلب لنا الزبائن"

لم ينظر إليها "يبدو أنك مشغولة اليوم"

"لا يوجد الكثير الذى يمكن أن يشغلنى اليوم. كنت فى زيارة لعمتى فى يورهيدون خلال اليومين السابقين"

"نعم، أنا لم أشاهدك خلال هذا الفترة، هل استمتعت بزيارتك؟"

"إلى حد ما...لقد أصيبت عمتى بالتهاب رئوى، يا لها من مسكينة، هذا المرض سوف يقضى عليها يوما كما أظن"

"كيف قضيت وقتك فى يورهيدون؟"

"لم أفعل الكثير، كما تعلم، لكنى بالطبع أرحب بالحصول على بعض الهدوء ليوم أو اثنين، لكن ما أحوالك أنت؟"

"أوه..فى أفضل حال، سوف أرحل إلى لندن لأبحث عن عمل فى يوم من الأيام"

نظر إليها بتركيز، كأنما يود أن يسيطر على كل اهتمامها، لكنها لم تبد أى قدر من الاهتمام. قالت:

"حسنا، أعتقد أن الحياة هنا تسير بشكل بطئ بالنسبة لك، بينما هناك الكثير الذى يمكن أن تجده فى لندن، كما اعتقد"

"نعم، هل فكرت يوما أن ترحلى إلى لندن؟"

"أظن أن ذلك سوف يحدث يوما. لا أحد يدرك أن يكمن حظك، لكنى الآن لست مهتمة تماما...حسنا، اعتقد أننى سوف أتركك الآن"

أمسك بعينيها واستبقاها قليلا.

"احضرى نحوى بعد قليل عندما تشعرين بأنك أقل مشغولية، لدي ما أود أن أخبرك به"

بشكل بطيء تلونت وجنتيها.

"حسنا"

عندما ابتعدت، جذب نفسا عميقة، كأنما استطاع أن يعبر خطرا داهما فجائيا. شعر أنه إذا كانت قد رفضت طلبه، فربما قام وهشم كل ما فى المكان. الآن وقد اطمأن قلبه من جهتها، أخذ يجول بناظريه فى الغرفة كلها. على الفور، انشغل برجل يجلس فى الركن البعيد، وظهره للحائط مقابلا له.

هذا الرجل مشهور ومعروف بنحافته غير العادية، وبخصلة شعره الهابطة على جبهته تكاد أن تخفى عينيه، ويمكن تمييزه دائما بملابسه الغريبة الرثة. فولك يعرفه معرفة سطحية. اسمه هو ادموند دافرى، وهو يعيش فى بولشستر منذ بضعة سنوات. هو فنان، حضر إلى هذه المدينة بعد رحلة قضاها سائرا عبر مدن جليبشاير. استطاع أن يلفت الأنظار بسبب نوعية رسوماته سلاطة لسانه، وبما يحيط به من أجواء، توحى بأن له قدرًا وقيمة. الاسم الشائع له هو "فرنش"، لكن لا أحد يعرف عنه الكثير. هناك شيء ما جذب انتباهه لبولشستر لذا ظل بها واستقر فيها. صرح يوما أن ما يجذبه إلى هذه المدينة هى الكاتدرائية التى سحرت لبه، لذا انهمك فى رسم صورا مدهشة لصحن الكنيسة ومكان الخورس ومعبد القديسة مارجريت كذلك تابوت الأسقف الأسود. هو يمتلك "معرضا" فى لندن، ومن المفترض أنه يكتسب منه الكثير. لقد اختفى لفترة، لكنه ظهر مرة أجرى، ودائما ما تجده داخل الكاتدرائية معظم أيام الأسبوع.

فى البداية كان له أستديو صغير فى شارع أورنج. فى ذلك الوقت أصبحت له شهرة فى كل أنحاء بولشستر. لقد قبلته مسز كمبرمير واعتبرته إنسانًا جريئًا ومسليًا. اسمه الفرنسى أعطى له نوعًا من الفتنة التى لازمت جرأته؛ هو شخص

غير عادى ومدهش. من الأهمية بمكان أن يكون لبولشستر فنان يستقر فى وسطها كإعلان عن مدى رفعة ذوقها وثقافتها. مع ذلك، حالا ما بدأ فى رحلة الانحدار. تطايرت همسات تقول إنه يسكر وأن شعاره فى الحياة "ما الذى يمكن أن نتوقعه من فنان؟". هو فى الحقيقة "مجنون بالكاتدرائية". يوما، اخبر مس دوبل أن ما تعرفه عن الأدب يمكن أن تحويه حبة باذلاء صغيرة ! هو بالتأكيد "يتأثر كثيرا بسبب ما يحتسيه من خمور". حدث هذا فى حفلة شاى أقامتها مسز كمبرمير. مع ذلك، هو لم يتح لهم الفرصة لأن يستبعدوه من حساباتهم، لذا هجر مرسمه فى شارع أورنج، وعاش، لا أحد يعرف أين، وأهمل شكله ومنظره وأسرف فى الشرف، طالما هذا متاحا له. لقد قاطع الجميع حتى لا يبادروا بمقاطعته.

هو بصفة مستمرة تجده متواجدا فى رحاب الكاتدرائية، وقد حاول حاملا الصولجان، وهما لورنس وكابوت، أن يجدا عذرا مقبولا لكى يطردوه، لكن هو كان حريصا وهو داخل الكاتدرائية أن لا يقف فى طريق أحد. أخيرا نظر إليه الجميع باعتباره "مجنونا رسميا"، وقد شاهدوه كثيرا وهو يتحدث إلى نفسه وهو يسير فى الشوارع. تقول مس دوبل "أنه مثال سيىء للموهبة الفنية، تلك العطية العظمى، عندما تخطئ الهدف والطريق".

رآه فولك كثيرا فى حانة "الكلب والسمكة"، وظن أولا أن آنى هوج هى التى كانت تجذب إليها هذا المجنون. مع ذلك، كان واضحا أن هذه ليست هى الحقيقة. هو لا يوجه نظره أبدا نحو الفتاة، بل ولا على أى أحد آخر داخل الحانة. هو بكل بساطة يجلس فى مكانه ناظرا أمامه يحتسى الخمر.

هذا اليوم بالذات، يبدو أن فولك قد استرعى انتباهه، لذا حدجه عبر الغرفة بنظرة مليئة بالاحتقار، مماثلة لنظرة فولك إليه. مرة وضح أنه يفكر أن يترك مكانه ليتحدث مع فولك.

قام نصف قيام، ثم سقط فى كرسيه مرة أخرى، لكن عيناه كانتا تدوران هنا وهناك ثم تستقران حيث جلس فولك.

سمع فولك الصوت الخافت لساعة الكاتدرائية تدق مرتين قبل أن تعود آنى، تقدمت نحوه متسائلة"

"ما الذى تريده منى؟"

"أخرجى خارجا حتى نتحدث سويا"

"لا، لا استطيع أن أفعل ذلك، والدى يراقب"

"حسنا، هل يمكن أن تقابلينى فى أمسية ما بحيث نستطيع أن نتحدث براحتنا؟"

"عن ماذا؟"

"أشياء متعددة"

"هذا غير معقول يا مستر براندون، فما الذى يريده سيد مثلك من امرأة مثلى؟"

"كل ما أبغيه هو أن نبتعد قليلا عن هذه الضوضاء وتلك القذارة"

فجأة ابتسمت "حسنا، ليس هناك مانع. بعد العشاء سوف يكون الجو مناسبا، فوالدى دائما ما يذهب إلى المدينة ليلعب البلياردو بعد الساعة الثامنة"

"متى؟"

"ما رأيك أن يكون هذا فى أمسية الغد؟"

"حسنا، أين؟"

"بجوار الطاحونة، على بعد خمس دقائق من هنا"

"سوف أكون هناك"

"لا تدع والدى يحس بشيء، هذا كل ما فى الأمر"، ثم ابتسمت له "أنت أكيد مجنون يا مستر براندون أن تهتم بواحدة مثلى".

لم يرد عليها، لذا غادرت. بعد لحظة، ترك دافرى مكانه واتجه حيث يجلس فولك. كان واضحا إنه شرب خمرا حتى الثمالة، كان يترنح فى مسيرته. قال:

"أنت براندون الصغير، أليس كذلك؟". فى الأحوال العادية، كان رد فولك على أمثاله "اذهب إلى الجحيم"، وربما تحدث معركة. لكن فى يومه هذا كان مشغولا تماما بشئونه الخاصة، لدرجة أنه يمكن لأى إنسان أن يتحدث معه، وأى إنسان أن يضحك عليه وأن يشتمه، ولن يهتم إطلاقا. لقد كان مشغولا منذ أسبوع مضى فى تخطيطه للخطوة التى نفذها تواً؛ ودائما عندما يستغرق إنسان فى تخطيطه لمغامرة سوف يقوم بها، تتحول تلك إلى تشعبات لا نهائية. لكن هوذا قد حقق ما صبا إليه؛ فبهذه الجملة البسيطة التى بها طلب أن تقابله وتتحدث معه، والتى ظن أولا أنها خطوة مستحيلة التحقيق ونتائجها غير مضمونة،الآن،وفى لحظة، تم عبور القناة...بمنتهى السهولة، وبسلاسة منقطعة النظير...

من مسافة بعيدة وردت إليه عبارات دافرى، وفى الحوار التالى كان يتحدث كأنما هو يسير نائما:

"نعم، اسمى فولك براندون"

"أنا اعلم بالطبع، لقد شاهدتك من قبل"، كان يتحدث بانسياب غريب، الكلمات تتدحرج من فيه وراء بعضها بنوع من الاستهانة والشموخ، لذا أضاف:

"المكان هنا ليس سوى حلقة لصوص، أليس كذلك؟ أتعجب لماذا يضطر الواحد أن يأتى إلى هنا. يجب عمل شيء لهذه المدينة القذرة. لقد شربت هنا أسوأ أنواع البيرة، ما رأيك أن نخرج من هنا سويا؟"

نظر نحوه فولك صامتا، ثم تساءل:

"ما الذى تقوله؟"

"دعنا نترك هذا المكان، إذا اتجهت أنت ناحية منزلك، سوف أصاحبك فى السير"

لم يكن فولك منتبها لهذا الرجل، لكن هو فى الحقيقة كان فى شوق بالغ أن يترك هذا المكان، طالما أن المهمة التى أتى من أجلها قد قضيت، لذا قام يتبعه دافرى بدون أن ينطق بحرف. عند الباب استوقفه هوج:

"ستغادرنا يا مستر براندون؟ أتود أن تسدد الحساب الآن، أم نؤجل ذلك ليوم آخر؟"

"ماذا؟". توقف فولك مكانه شاعرا بأن أحدهم يلمس كتفه، كان باستطاعته أن يتحقق من هذا الوجه الباسم، وقد وضحت خطوطه الخارجية وسط جدار ضبابى. قال هوج:

"تدفع الآن أم فى وقت آخر..كما تشاء يا مستر براندون"

"أوه..ادفع !"، ثم اخذ يبحث فى جيوبه وأبرز نصف كراون دفعه إلى هوج بدون أن ينظر إليه ثم خرج يتبعه دافرى الذى اخترق الغرفة والممر بخطوة فيها كثير من الحرص المغرور، وهو الذى يميز السكارى أمثاله.

فى الخارج، وهما ينحدران فى الشارع التى اختفت معالمها بسبب ذلك الضباب الكثيف الرطب. صدرت من دافرى عدة كلمات، كان يبدو واضحا أن لا يتوقع أن يحصل على إجابة:

"آمل أن لا تهتم لأننى أتحدث معك بهذا الشكل- بدون تكليف. لكنى أقول لك الصراحة، أنا أحيانا أحس بالوحدة، لكن إذا أردت الحق ولا شىء غير الحق، أنا سكران فعلا. هذا الهواء يجعل المرء فى حالة غريبة بعد الخروج من هذه

الحفرة اللعينة، أليس كذلك؟ لقد شاهدتك كثيرا مؤخرا وفكرت أن أتحدث معك، فأنت الوحيد الذى يبدو من شكله انه إنسان مهذب فى كل المدينة، إذا غفرت لى قولى هذا. أليست هذه مدينة قذرة؟ إعتقد أن هذا شعورك أنت أيضا. أستطيع أن ألمح هذا فى قسمات وجهك. أعتقد انك تحضر إلى هذا الماخور من أجل هذه الفتاة. رأيتك تتحدث معها. حسنا، كل إنسان وله ذوقه الخاص. وأنا لا أتدخل أبدا فى أمزجة الناس. أنا عن نفسى لا أحب صنف النساء، وهكذا كان هو حالى على الدوام. إنهن لا يرقن لى إطلاقا. فى باريس، كنت أسعى وراء طموحاتى. شىء مضحك فعلا، كنت أظن أننى سوف أصبح رساما عالميا يوما. شىء عجيب عندما يخدع الإنسان نفسه ويصدق أوهامه، لكن ربما كان قد تحقق كل ما تمنيته لو لم أحضر إلى هذه المدينة المتوحشة. أرجو أن لا تشعر بالملل من حديثى هذا..."

توقف عن السير عندما أدرك أن زميله لم ينطق بحرف، كانا يسيران صاعدين التل الذى يؤدى إلى ساحة السوق، كان الضباب كثيفا لدرجة أنه تعذر على كل منهما أن يتحقق من ملامح الآخر. كان فولك مشغولا بأفكاره "صباح الغد...يا ترى ما الذى أريده؟ ما الذى سوف يحدث؟ ما هى رغباتى الحقيقية؟

هذا الصمت المفاجئ جعله يدرك أن هناك رفيقا معه، لذا تساءل:

"ما الذى قلته؟"

"آمل أن لا أكون قد سببت لك إزعاجا"

"لا..لا شىء، أين نحن؟"

"سوف ندخل منطقة السوق"

"أوه...نعم"

"إذا كان حديثى طويلا، فهذا لأننى لم أجد أحدا يمكن أن أتحدث معه منذ أسابيع، ليس لأننى أريد أن أتحدث مع أحد. أننى احتقرهم جميعا. فهم جميعا عبارة

عن ببغاوات مغرورة جاهلة...كل المكان هنا تتحكم فيه النساء، إذن ما الذى تتوقعه؟ إنك لن تظل طويلا هنا، كما أعتقد، سمعت أنك قد مللت أكسفورد، ولا أتعجب من ذلك أبدا، فهو ليس المكان المناسب للرجل، هو مكان عجيب، لكنه فسد بسبب الناس، فليسقط الناس جميعا- هم جميعا يأتون ليدمروا أى مكان جميل. الآن هوذا الكاتدرائية، أجمل مكان فى انجلترا كلها، لكن هل يدرى أحد بذلك؟ لا، ولا واحد منهم يعلم ذلك. ربما تعتقد أن الكاتدرائية مدينة لهم بشىء ما- أن تبدو جميلة فى أعينهم كأنما هى صرصور".

كانا يعبران الآن الشارع الرئيسى ولم يصادفا أحدا فى طريقهما. إنها ليست سوى مدينة للأشباح. عند قنطرة آردن، تحقق فولك أين هم بالضبط، لذا توقف عن المسير:

"هالو..إننا نقترب من منزلى...حسنا، مع السلامة يا مستر دافرى"

"تعالى معى إلى الكاتدرائية للحظات"، بدا على دافرى أنه مهتم بدعوته تلك "هل صعدت يوما إلى برج الملك هنرى؟ أنا متأكد انك لم تفعل".

"برج الملك هنرى...؟"، أخذ فولك يحدق فى وجه الرجل، ما الذى يريده هذا منه؟ يذهب معه إلى الكاتدرائية؟ حسنا، لما لا؟ شىء سخيف أن يعود إلى المنزل الآن- ليس هناك ما يفعله هناك سوى أن يستغرق فى التفكير، وسوف يقاطعه الناس... التفكير الجيد يكون أفضل حالا وهو فى الخارج. لكن، ما الذى يمكن أن يفكر فيه وهو ذاهب إلى هناك؟ كان منهمكا فى التفكير، يدور ثم يدور، لكن مع ذلك، من هذا الملتصق به الآن؟ قال:

"كما تشاء"

عبرا منطقة الملحقات ودلفا من الباب الغربى إلى داخل الكاتدرائية، كان الصحن غارقا فى أضواء الغسق وساكنًا تماما. تلألأت الشموع خلف ستار الخورس، بينما هناك لمبات تلمع فوق الباب الغربى. ما أن شاهد فولك المنظر فى

شبه الإظلام السائد، حتى أدرك أن بولشستر تمتلك بالفعل أعظم كاتدرائية فى شمال أوروبا، وحقيقى تماما أنه لا يوجد بناء آخر فى انجلترا يمكن أن يعطيك هذا الإحساس العجيب بالطول والاتساع.

فى ضوء النهار الساطع، ربما يوحى لك الصحن، كما هو الحال فى كل الكاتدرائيات الإنجليزية، إحساسا قويا بأن المبنى ينقصه قدر كبير من الألوان ويبدو المكان باردا مهجورا. لكن فى ظلام أمسية هذا اليوم الربيعى، بدا المكان مليئا بالغموض، حيث ترتفع الأعمدة العشرة التى تحمل الصحن، تبدو تلك وقد شقت الهواء، بشكل خلاب حتى تلتحم بالسقف، كأنما هناك مخلوقات غير بشرية قد أصعدت هذه الأعمدة.

كانت الألوان تشع من التوابيت والفضيات بسبب الضياء الصادر من النافذة الغربية الدائرية الملونة، تلك التى كانت ترسل ضوء شاحبا ينعكس على الأعلام والأعمدة القائمة. أمسك كل من الشابين أنفاسهما أمام هذا الجلال الرائع لهذا المكان- هذا جعل فولك ينسحب من موكب أفكاره المتزاحمة.

انه لم ينظر أبدا للكاتدرائية إلا أنها المكان الذى كان يسحب إليه سحبا لكى يقوم بطقوس لا يرغب فى إتمامها، لكن الليلة، ولعل هذا حدث بسبب ما تعرض له من أزمة، بدا الأمر أمامه كأنه يشاهد الكاتدرائية للمرة الأولى. أيضا انتبه للمرة الأولى لرفيقه هذا، أصبح على وعى كامل أنه لا يحبه، ود أن يتمكن من التخلص منه- رفيقه هذا ليس سوى "لزقة ذات منظر شنيع، بشعره الطويل المدهون ووجه المسحوب وساقيه الطويلتين".

قال دافرى "الآن سوف نصعد إلى برج الملك هنرى". لكن فى تلك اللحظة ظهر لورنس العجوز يحجل نحوهما. لورنس هذا فى السبعينيات من عمره، شعره كثيف أبيض، كرشه ضخم، قضى معظم عمره فى خدمة الكاتدرائية. كان يختال

فى لباسه الأرجوانى، كتفاه عريضان، شعر ذقنه كثيف وكله أبيض، وتلك علامة مؤكده لمركزه السامى.

لكن هو أكثر حاملى الصولجانات استبدادا، وقد سمح له ولسنوات عدة أن يفعل ما يشاء، لكن أكبر شوكة فى جنبه كانت هى زميله الشاب كابوت. هو متأكد أن زميله هذا يتمنى موته حتى يتسلم مركزه. كثيرا ما كان يخبر زوجته الضئيلة الحجم أن "هذا الرجل سوف يضع السم فى طعامى فى يوم من الأيام". لقد نمت معه خاصية الاستبداد مع ارتفاع قامته وتدرج بياض لحيته، وكثرت منه الشكاوى، هو إنسان وقح مع الغرباء، متزلفا إلى الارستقراطيين، يطمع فى الحصول على أكبر الهبات، مغرور وعديم الذوق. لكن مع ذلك، له بعض الحسنات. فهو يحب الأطفال الصغار ويسمح لهم أن يتسابقوا فى الحدائق المحيطة بالكاتدرائية، إلا إذا تم زجره. هو أيضا يشعر بفخار لا حدود له بالكاتدرائية ومستعد أن يضحى بكل غال أو نفيس من أجلها.

كان من الطبيعى أن يكره مجرد النظر إلى دافرى، وعندما ظهر هذا، اختبأ فى الخلف آملا أن يضبطه وهو يرتكب جريمة. فى البداية ظن أنه بمفرده. قال دافرى:

"أوه، حامل الصولجان "، خاطبه كأنما هو يتحدث مع متسول يطلب حسنة "تريد أن نصعد إلى برج الملك هنرى. أعتقد أن المفاتيح معك".

أجاب لورنس وكله رضى "آسف يا سيدى، لا تستطيع ذلك، لقد تعدى الوقت اللازم لفعل ذلك"، ثم شاهد فولك:

"أوه... سيد براندون، أعذرنى، هل تود يا سيدى أن تصعد إلى برج الملك هنرى؟"

"نعم..اذا كان هذا ممكنا"

"طبعا مسموح لك، فأنت وضع مختلف، فالغرباء عليهم أن يلتزموا بالمواعيد. اتبعنى يا سيدى".

سارا وراء هذا الرجل السمين العجوز عبر الصحن إلى الجناح الأعلى متجاوزين التوابيت و"الفرسان المذهبين"، حتى وصلوا إلى بيعة الملك هنرى- هذه تقع على يمين الخورس وقبل انستار الذى يفصلها عن باقى الكنيسة، كان هناك إعلانًا معلقا يقول بأن هذه البيعة قد وضعت جانبا لتخصص للصلوات الخاصة والتأملات، ويتمنى الإعلان أن لا يحدث أحدا ضوضاء أو جلبة، فربما يكون أحدهم جالسا هنا يصلى أو يتأمل. هذا المكان الصغير كان هادئا بشكل مدهش يوحى بجو من السلام والطمأنينة والجمال، كأنما استطاع حجم الصلوات والتأملات التى مورست هنا أن تضفى على المكان جوا من القداسة والورع. قام لورنس بدفع باب الستار وعبروا جميعا وساروا فوق الأرض المرصوفة بالبلاط. فجأة، فى قلب هذا الصمت الشامل، فاجأتهم دقات أجراس الكاتدرائية، كأنما هى فوق رؤوسهم تماما، محدثة صوتا انفجاريا له صدى مريع، ثم انتهى الصوت بلحن موسيقى ظل معلقا فى جب الصمت. فى ركن من هذه البيعة كان هناك بابًا خشبيًا فتحه لورنس بمفتاحه ودفعه، ثم خاطب فولك، كأنما ليس هناك وجود لدافرى "أرجوك، خذ بالك وأنت تصعد يا سيدى، هناك صعوبة وأنت تدور مع السلالم".

صعد الشابان متلمسين طريقهما إلى أعلى فى ظلام دامس، مخلفين ورائهما الإضاءة الخافتة. صعد دافرى فى المقدمة يتبعه فولك متلمسا جدران سوداء على الجانبين، بينما يخبط بقدميه على العتبات الصاعدة. فجأة انتبهت أحاسيسه، وداهمه فكر ضاحك، لعل دافرى هذا يلتفت إليه ويدفعه فيقع على السلالم، أو أن يغرز سكينا فى جسده، كانت هذه بالطبع المخاوف الملازمة للظلام. ثم فكر فى نفسه "يا ترى ما الذى أفعله مع هذا الزميل؟ أنا لا أعرفه، لا أحبه، ولا أود أن أكون ملازما له". ثم سمع دافرى يقول:

"هذا أفضل كثيرا". ظهرت لمحة من الضوء، ثم ظلال لونها رمادى، أخيرا وقفا فى المكان المدعو باسم "الممر الهامس"، وهو عبارة عن منصة ضيقة متدرجة تسير على طول المعبد حتى تصل إلى البرج المقابل. لم يتوقفا هنا، صعدا مرة أخرى سلالم ملتفة، وحل عليهما الظلام مرة أخرى، ثم حدثت إنارة جيدة حيث مرة بنافذة، بعدها حل الظلام، وأخيرا وبعد لأى وقفا فى غرفة صغيرة خالية أرضيتها خشبية. أحد جوانب هذه الغرفة كان مفتوحا متدرجا، عندما تنظر إلى أسفل، تلاحظ أن أرضية الصحن تقع على بعد مسافة خيالية أسفل، تبدو وأنت واقف هناك كأنك تطير فى أجواء من المجد والسمو. تنظر إلى الضوء الخافت للشموع التى بالكاد تستطيع أن تلمس الأعماق الضبابية بلون ذهبى باهت. فوقهما كان ينتصب سقف محكم الإغلاق كله وعيد، وتشاهد الأعمدة والدعامات معلقة فى فضاء لا متناه. تبدو الأمور هنا كأنما هندسة البناء قد عثرت على مملكتها الحقيقية، يا له من عمق وارتفاع وعظمة. الجدران والسقف والأعمدة جميعها، تشعرك بدفق الحياة وعظمتها عندما تبدى احتقارا لا حد له لكل الصغار من الرجال بأهوائهم وأهدافهم التافهة. هنا تجد أن الصمت ملئ بالحركة والنشاط وله شأن عظيم.

استند الشابان على الدرابزين وحملقا إلى أسفل، لاحظا اللون الأبيض للهيكل، اللون النحاسى لتابوت الأسقف الأسود، ستار القديسة مارجريت، كلها على شكل نقاط ذهبية تتلألأ وورائها سماء مقلوبة لونها رمادى.

التفت دافرى فجأة نحو زميله "هناك بعض الناس مثل والدك، يظنون أن هذا المكان هو ملكًا خالصًا لهم... يدعون ملكيته! يا لها من ادعاءات غبية! لكن هذا المكان سوف يحطم أعناقهم يوما، وهو مكان يستطيع أن ينتظر وقته الملائم، وما أن تظن أنك قد ملكته حتى يستدير ويدفع بك إلى الهاوية".

لم ينطق فولك- شعر دافرى بالتوتر بسبب هذا الصمت، لذا كرر القول:

"انتظر وسوف ترى، أشعر بالبهجة الغامرة وأنا أشهد حاكمك يسير فى الخورس أيام الآحاد كأنما هو يمتلك المكان كله، نعم يمتلكه! لماذا؟ ليس له أى حق أن يطالب بشيء منه ولو طوبة واحدة، وكل هذا سوف يعود عليه، وهذا ما حدث مع أمثاله من السابقين، فقد ارتد كل تخطيط رسموه على نحرهم".

"اسمع يا هذا، ليس مسموحا لك أبدا أن تنطق بكلمة واحدة ضد والدى- هذا ليس من شأنك. إنه دائما ما يسلك الصواب. أنا لا أعلم أى شيطان دفعنى أن آت إلى هنا معك بينما أنا مشغول بهمومى الخاصة"

أيضا كان دافرى مهموما بأفكاره الخاصة، لذا همس:

"أنت أيها المكان الجميل، المكان الخالد! لقد استطعت أن تدمرنى، لكن لا تهتم بذلك. افعل ما شئت. أنت العجب العجاب! أنت فخر الدهور!"

حدجه فولك بنظرة غريبة. هذا الرجل مجنون بالتأكيد، وها هوذا قد استند بقوة على الدرابزين يحملق فى الفضاء...

"انظر، ليس مأمونا أن تستند هكذا على السور، سوف تقع وتتكسر رقبتك إذا لم تأخذ حذرك"

دافرى لم يسمعه، كان غائبا فى مجاهيل أحلامه الخاصة. يحتقر فولك كل من ينهمك فى أحلام اليقظة، بالرغم أنه كان الآن أسيرا لواحد منها، أيضا هذا الرجل سكران....

داهمه فجأة نوع من الاشمئزاز وسيطر عليه، قال: "حسنا، يجب أن أعود للمنزل الآن"

تردد قليلا، هل من الصواب أن يترك هذا الرجل فى وضعه الخطر هذا، لكن عندما لم يجبه دافرى، تركه وابتدأ فى رحلة النزول.

ما أن وصل إلى معبد الملك هنرى، نظر إلى أعلى، لكنه لم ير أحدا، ولم يسمع أى صوت.

* * *

## الفصل السابع

# يوم روندر

قضى روندر الآن عدة أشهر فى بولشستر واستطاع أن يكون فكرة عامة عنها، الفكرة التى توصل إليها هى أنه يمكن له أن يشعر براحة عميقة فيها. لقد اندهشت عمته، التى كانت بالرغم من حدتها، لم تكن متأكدة تماما من مشاعره الحقيقية عندما أخبرها بذلك. لم تكن أبدا متأكدة من أسباب هذه القناعة التى جعلته فى حالة مستمرة من الرضى والارتياح التى تعتبر محورا هاما فى حياته. كان يتوجب عليها الآن أن تدرك سره، وتكتشف مصادره التى منها ينبع هذا الدفق الدائم من الشعور بالسعادة والحبور، هذا السر ينحصر فى أمرين يتمسك بهما دوما: أن تتوافر له كل أسباب الراحة والرفاهية، كذلك قدرته العجيبة على تغيير وترتيب ما لا يعجبه.

لا تبدو بولشستر لأى ملاحظ عادى مدينة يتوافر فيها كل وسائل الراحة، لكن هى فى نظر روندر يكتمل فيها عنصرا الجمال والغموض اللذان تتوافقان مع أحاسيسه المرهفة.

أنه لم يحلل موقفه منها بكل هذه الدقة المتشددة، لكنه كان متيقنا أن كل احتياجاته تتوافر فيها؛ وليس عليه أن يدقق فى ذلك إلا عندما يرغب فعلا فى صنع ذلك.

بتلك الطريقة السلسة التى طوع بها ملامحه الباسمة، واكتسبها منذ أيامه الأولى، كسبيل مضمون يستطيع به يحقق كل آماله وطموحاته، حاول أن يرتب وينظم كل ما يحيط به هنا فى بولشستر، لكى يؤكد حصوله على ما يبتغى ويرضى

به. لكنه لم يدقق بعد فى كل الأمور؛ وربما هذا يستلزم منه جهدا تنظيميا قد يستغرق منه ستة أشهر، وربما عامًا أو عامين...لكنه يعلم يقينا أن ذلك سوف يتحقق لا محالة.

كان العامل الثانى الذى يحقق له راحته ورضاه، وهو حبه للترتيب والتنظيم وحبك الخطط المتقنة لتحقيق ذلك، من الأمور التى يعتز بها ويخلص لها، لأنه بكل بساطة، لا يمكن أبدا أن تجد كل شىء وقد استقر فى مكانه المضبوط وكما هو يرغب، ولعله يحس بالغضب يتملكه إذا وجد شيئا فى مكانه المضبوط. هو يحب أن يحرك الأشياء، أن يعدل فى الأماكن، أن ينظم. هو عندما يدخل إلى أية غرفة، وإذا أتيح له، فإنه على التو ينهمك فى تغيير وضع المقاعد والمساند، لذا فالترتيب الأخير هو دافعه لأن ينمى فى نفسه هذه الخاصية. ما أن تستقر الأمور وتنتظم طبقا لفكره وخياله، حينئذ تجده وقد جلس منجعصا ينظر إلى فعاله بكل الرضى والسعادة والإعجاب. بعد فترة، ربما يمل من هذا الشكل، ويسعى لأن يغيره ويقهر تخلفه.

انه لا يتذكر زمنا لم ينهمك فى تغيير أشياء لكى يشعر بالراحة. انه ليس أنانيا أبدا فى هذا الشأن، يرغب دائما أن يشاركه كل الناس نفس المشاعر، انه يلاحظهم جميعا بأريحية كاملة ويتعجب لماذا لا يفعلون مثله. عندما كان ولدا صغيرا فى "هارو"، كان، بابتسامة واثقة مغرقة فى المرح، بالرغم من انه كان سمينا منذ الصغر، وإحساس يسيطر عليه بأنه "تختوخ"، تلك التى دعمت شعبيته، كان دائما ما يسعى لتحقيق راحته.

لقد حصل على كل مشتهياته فى المدرسة، بأن أصبح "الألفة" فى كل سنوات دراسته، والمشرف على بيت الطلبة، ثم المشرف على المدرسة كلها، وهذا أتاح له أن يحقق ما يريده من أى شخص آخر.

كان يحرص على انتهاج أسلوب المصارحة الكاملة، والحرص على تحقيق العدالة للجميع، بدون أن يضطر لأن يتزلف لأحد أو يمثل عليه. هو كان دائما، وما يزال، قادرا على إضفاء جو من المرح للمكتئب، أن يكون حذرا مع الشرير، طيبا مع الطيبين، ومعزيا لمن صادفه حظ عثر.

انه أصيل فى كل ما يفعله، يهتم بإنسانية الإنسان، ليس لمصلحة هذا الإنسان، لكن فى المقام الأول أن يحقق مصلحته هو. إنه لا يحمل أى مشاعر عدائية لأحد، لكن إذا وقف أى فرد فى طريقه، فإنه يبذل كل فى طاقته من جهد حتى يزيحه عن طريقه ويبعده إلى مكان آخر، وما إن يحدث هذا، فإنه يتمنى له كل الحظ الحسن.

لقد طور من نفسه هكذا لأنه ظن أنه باستطاعته أن يتعامل مع الناس كانسان يتعامل مع أخيه الإنسان. كثيرا ما كان يقول لعمته "كثيرا ما يظن الناس أن صنف الرعاة ليسوا إلا جماعة من الحمقا، وهم بصراحة، أحيانا يكونون هكذا..لكن ليس دائما". هو يعلم تماما أنه ليس أحمقا أو غبيا، لكن الغرور لم يسيطر عليه أبدا. هو يدرك أنه قد أدرك سر الحياة، ويتعجب لماذا لا يفعل غيره هكذا. لماذا يسعى الناس لأن تركبهم وتسيطر عليهم الهموم؟ كان تصوره اللطيف لتلك الظاهرة هى أن "كل العواطف المحتدمة، هى كلها ببساطة، لا تستحق الاهتمام". وهذا ما درج عليه باستمرار وهو يدرج فى مراحل العمر المختلفة. انه بالفعل يعجب بالنساء، لكن نظرا لعشقه للفكاهة والمرح المنطلق، فقد حماه هذا من الوقوع فى حبائل الحب. هو بالفعل يفهم الضرورات الحسية والرغبات الجامحة للرجال والنساء، لكنه دائما ما كان يراقب تلك على البعد من خلال الصور وقصص الآخرين. لذا لا شيء يمكن أن يصدمه وهو لا يحتقر أبدا الجنس البشرى. هو يظن أن الإنسانية على وجه الإجمال قد استطاعت أن تجد حلولا لمشاكلها. هو إنسان طيب، أحيانا يكون كريما ولا يحمل لأى إنسان، سواء أكان حيا أو ميتا، أى شعور سيىء أو ضغينة.

إنه يرفض بتاتا أن يتشاجر مع أحد "فهذه عبارة عن ضياع للوقت وإفساد للذوق العام وطباع الإنسان".

الخطر الوحيد الذى يخشاه هو أن يشحذ خاصية التوضيب والتنظيم بأكثر مما ينتوى، فلعب الشطرنج مع الإنسانية، هو بالنسبة إليه، بكل بساطة، يجب أن يكون وسيلة للوصول إلى نتيجة محددة. وربما حدث معه هذا مرة وحيدة. لكن، وهو يدرج حثيثا فى مراحل العمر، كان هناك خطر داهم أن النهايات قد تبتلعها الوسائل التى قد تصل بها.

هذا الخطر بالذات، لم يتخيله أو يتصوره؛ انه نوع من العمى الذى أصيب به، أخيرا اقتنع مع لاروشفو الذى قال "الإشفاق ليس سوى عاطفة غير نافعة نهائيا بالنسبة للمفكر الملتزم".

على أية حال، اكتشف هو فى الحال أن فى داخل بولشستر هناك موقفا يتناسب تماما مع قدراته وقواه الطبيعية. المدينة، ومن ضمنها الكاتدرائية، يسيطر عليها رجل واحد، وهذا الإنسان عبارة عن رجل غبى، مستبد وطفل صغير. إنه لا يكن لهذا الطفل الصغير أية مشاعر عدائية، لكن يجب أن يزاح من مكانه هذا، أو على الأقل، من الضرورى العمل على تشذيب سلطته هذه. انه فى الحقيقة، يحب الأرشدياكون، وطوال سريان تلك المسألة، لم يتوقف لحظة عن حبه، لكن هو، روندر، لن يكون سعيدا أبدا طالما أن هذا الرجل متشبثا بمكانته هذه، ولن يستطع أبدا أن ينفذ أى خطوات تكون فى الصالح، لأنه فى تلك الحالة سوف تحدث تدخلات وأنواع من المناصرات تفسد كل شىء. انه معجب تماما بالزعامة التى يمثلها براندون، لكنه فى الحقيقة لن يسمح أبدا أن تستمر تلك الحالة.

إذا لاحظ، وهو يجهز خططه، أن قلب هذا الرجل ونفسيته، سواء المادية أو الروحية قد تأثرت - حسنا هو سوف يأسى لذلك. الأمر بكل بساطة هو أنه من الغباء أن يدمج الإنسان كل من قلبه وروحه فى شأن مثل هذا.

أدرك أن الخطوة الأولى التى يجب أن تنفذ هى ضرورة أن يعمل على تكوين علاقات وثيقة بأطراف أخرى، مثل باقى أعضاء مجلس الكنيسة. لذا بدأ فى المراقبة والاستماع، ثم، بعد عدة شهور، تحرك لتنفيذ خططه.

كثير من الناس يعتقدون أنه إنسان كسول، انه لا يسعى أبدا أن يتدرب، إذا كان فى إمكانه أن يتجنب ذلك، والخطأ الذى يمكن أن ينسب إلى بولشستر هو انها مليئة بالتلال. انه غالبا ما يتناول إفطاره وهو فى السرير، ثم يقرأ الجرائد ويدخن سيجارة. كل صباح، يأخذ حماما ساخنا للغاية، بقدر ما يحتمل، وهو فى الحقيقة يتحمل سخونة المياه إلى درجات مدهشة، فأكثر الأفكار التى تتوارد على دماغه تحدث فى هذا الوقت بالذات. وعندما يهبط الدرج، يحجز الساعات الأولى من الصباح للقراءة، لا ينهمك أبدا فى عمل آخر، ولا يدع شيئا يمكن أن يتدخل فى هذه العادة، أكثر الكتاب والمؤلفين الذين يقرأ لهم ويعشقهم هم فلوبير، جوتيير، لا بروير ومونتانى. هو يقرأ كتبا بالإنجليزية، والإيطالية والاسبانية، وهو له ذاكرة مدهشة. إنه لا يرى مانعا أبدا أن يقرأ كتبا عن الجنس بغرض المعرفة، ولديه كتب كثيرة من هذه النوعية. تسحره أيضا الكتب الدينية: كان يضحك كثيرا وهو يقرأ بعضها، فهو دائما ما يحافظ على ذهنه المتفتح - فالكتب التى تتحدث عن الإلحاد والمذاهب المادية يعتبرها سخيفة، مماثلا فى ذلك الكتب التى تتمسك بالأصولية فى الدين. لقد قرأ كتبا فى الفلسفة، لكن هو بصراحة، يحتقر كل من يعهد نفسه كلية للفلسفة - هو يدرك أنهم سريعا، يفقدون حاسة التذوق الفكاهى، ويجعلون الحياة لا تطاق بالنسبة لهم ولغيرهم.

بعد ساعة القراءة، ينظر فى شأن أعماله اليومية. إنه رجل يقدس النظام: مكتبه يحتوى على العديد من الأدراج والاختراعات المختلفة ليحتفظ بداخلها أشياء محددة بشكل منظم للغاية. أمامه أيضا تستقر "فازة" رفيعة من الزجاج الأزرق بداخلها صحبة من الورد، كذلك منظر صينى من حجر اليشم الأخضر، وصورة لهوميروس الأعمى أتى بها من متحف نابلى لها إطار فضى، أيضا ساعة صغيرة

ذهبية؛ كل هذه المقتنيات يجب أن تكون فى مكانها الصحيح. لا شىء يمكن أن يزعجه مثل تراكم الغبار أو أن يتم تبديل وضع مكان واحدة من متعلقاته. أحيانا يتوقف أثناء عمله ثم يعبر الغرفة مرتديا شبشبه الناعم ويقوم بتعديل وضع صورة معلقة على الحائط أو يغير مكان تحفة من مكان إلى آخر. أما الكتب التى تراصت على طول جدار معين من الأرض إلى السقف، فإنها انتظمت جميعا بدقة طبقا لموضوعاتها. إنه يكره أن يرى كتابا وقد برز بالمقارنة بإخوته، بابتسامه فيها بعض الاحتجاج، كأنما هو يعاقب الكتاب وهو يدفعه إلى مكانه الصحيح.

مع ذلك، يمكن لنا أن نفترض أنه يكون فى حالة من الكسل خلال تلك الساعات، لكن هو فى استطاعته أن ينجز كمية عمل هائلة فى وقت قصير، وهو لا ينتهج طريق الكسل إلا إذا انتوى ذلك بالفعل.

عندما يحين وقت فترة الغذاء، يستعد هو لأن يكون لطيفا مع عمته، وهو بالفعل يملأ قلبها دائما بالسرور والبهجة. هى تفهمه جيدا، لذا تركته لشأنه يخطط كما يشاء ولا تتدخل أبدا فى مشاريعه. إذا لم توافق على مشاريعه - وهى نادرا ما تتفق مع أحد - فإنها تحبه بسبب صحبته الجيدة، فمزاحه لطيف وعقله راجح. ما يبهجها أيضا أنه لا يمانع أبدا أن تسمح لتشددها أن يأخذ مجراه، إنه لا يهتم ولا يزعجه أبدا أى نوع من التشدد والتصلب فى الرأى.

فى فترة الغذاء، يشعر أن صداقتها هى أعظم المتع المشتركة، ولا داعى أبدا لأى نوع من التفسيرات؛ فمجرد لمحات عارضة فيها كل الكفاية. إنهما يستمتعان بالنكتة بدون التأكيد عليها، أحيانا حتى بدون التعبير عنها. تعلم مس روندر جيدا أن ابن أخيها يحب دائما أن يستمع للقيل والقال. إنه يقوم بجمع كل تلك القصص ويربطها جميعا فى حزم صغيرة ثم يحفظها فى أدراج سحرية ميكانيكية داخل تلافيف مخه. هى تخبره أولا بما سمعته، ثم ما هى مصادرها، أخيرا تدلى برأيها فى الموضوع. إنه بصراحة يتمتع بفترة غذاء مدهشة.

لقد أمكن له، الآن بالذات، أن يتحكم تماما فى مالية الكاتدرائية، فأمور وشئون الصندوق لم تكن معقدة، هى كانت فى الأصل مرتبة ومنظمة، لأن من سبقه وهو هارت- سميث كان رجلا مفضالا يعشق النظام والترتيب. لقد أدرك روندر على الفور أن آثار أصابع براندون تلعب فى التورتة القديمة، لذا حدث نفسه "الآن يا عزيزى، هناك تورتة جديدة قمت بتسويتها بنفسى...". استطاع أيضا أن يتتبع عددًا من التدخلات الغبية التى حدثت لصالح براندون. بلا شك، هناك كثير من الأشياء تحتاج إلى تركيز وتعديل وبذل جهد أفضل فى العمل والنشاط.

هناك كثير من الناس يحاربون ويجتهدون للحصول على المعونات التى تقدمها الكاتدرائية، ومن الواجب والمستحق أن تمنح لهم على الفور. من جانب آخر، كل المستلزمات المادية التى تحتاجها الكاتدرائية، يجب أن تنفذ فى الحال وبسخاء - لكن هناك توابع كثيرة لها، مثل المدرسة وملاجئ الفقراء التى تعانى بالفعل.

لكن أى فكر تجديدى، سوف يحارب بضراوة، وربما يهزم، لذا همس روندر لنفسه "سوف تكون هناك تجديدات وتغييرات متعددة، وأنا لها".

لذا بدأت حملة استفساراته بأن فكر فى التواصل مع القس بنتك-ميجور، كذلك مع القس فوستر. يعيش بنتك ميجور فى أول شارع اورانج، فى منزل ظريف له حديقة، بينما يعيش فوستر فى نزل يتكون من أربعة منازل تقع خلف الكاتدرائية، وتعرف تلك المنطقة من زمن بعيد باسم "ساحة القس".

وقعت عصرية يوم زيارته تلك بعد مرور ثلاثة أيام من حضوره لحفل غداء تم فى القلعة. هناك سمع ما يكفيه لأن يستثير اهتمامه لأيام عديدة تالية؛ لقد اعتبره أفضل حفل حضره، فيه استمع للمرة الأولى على موضوع بايبس سانت أنتونى. كان براندون حاضرا ولاحظ روندر مدى عصبية الأرشدياكون، لذا استنتج

أن هذا الموضوع جدى للغاية. كان عليه أن يعرف الكثير عن هذا الموضوع قبل نهاية هذا اليوم.

بينما يسير متوجها إلى شارع أورانج، صادف فى الطريق سائرا القس رايل، وهو رئيس المرتلين. هذا الرجل يبدو فى مظهره رجل الدين المثالى، هو متوسط القامة، دائما ما يوزع ابتساماته ذات اليمين وذات اليسار، يرتدى قبعة خفيفة، بنطلونه لها ركب، حذائه وسلسلة ساعته الذهبية من الأحجام الضخمة.

إنه يهتم - بوجه خاص - بالموسيقى والتراتيل التى تجرى فى قداسات الكاتدرائية، وكان من الممكن أن يبدع أكثر فى عمله إذا لم تكن فيه عادة النظر نحو الناس مفكرا عما إذا كانوا راضين عن عمله أم لا. فكرته عن الفردوس هى أنه مكان فيه يستطيع أن ينشد تراتيل لانهائية يعجب بها الكل. إنه إنسان طيب، لكنه ضعيف، لذا تجده يميل إلى أن لا يكون صادقا فى مشاعره الحقيقية. يبدو الأمر كأن هناك سر دفين فى ماضى حياته لا يود أن يطلع عليه أحد؛ لكن هذا الرجل المسكين ليس لديه فى الواقع أى أسرار.

"حسنا، أيها المرتل، كيف حالك؟ ". قالها روندر وهو يحدجه من وراء نظارته. فوجئ رايل، فقد أتى روندر من خلفه. إنه يكن إعجابا بمظهر روندر، فهو دائما ما يفضل السمان من الرجال، حيث أنهم أقل دهاء من الأنحف عودا.

"أوه. أشكرك يا قس روندر..أنا فى أفضل حال. لم أرك. الجو اليوم ربيعى مدهش، هل تسلك نفس طريقى؟"

"أننى ذاهب لأتقابل مع بنتك-ميجور"

"آه..نعم، بنتك ميجور"

كان الفكر الذى خطر على فكر رايل هو "يا ترى، هل سوف يتحدث بنتك- ميجور بأى كلمات ضدى"، ثم أضاف "سوف أذهب لشارع أورنج، اليوم هو موعد اجتماع مديرى المدرسة كما تعلم"

"آه.. بالطبع"

بدأ الاثنان يرتقيان التل سويا. أخذ روندر يطيل النظر حوله سعيدا، فشارع أورنج طالما أرضى ذوقه ونظرته التى تقدر الجمال. إنه شارع الأطباء، المحامين، أطباء الأسنان، رجال البنوك كذلك أغنى عوانس بولشستر. المنازل هنا لها نوافذ مقوسة والشرفات الأمامية قائمة على أعمدة، والأبواب الرئيسية تقع فى مكان أبعد، أما مطارقها فهى من نوعية مغرقة فى القدم. كل هذه المظاهر الأنيقة توضح لماذا استطاعت كل من كان اسمها إليزابيث، دى أركيز، أو موريس أن يعثرن على العالم كله داخل قاع فنجان من الشاى؛ حيث يتم تفكيك وتهدئة العواطف من خلال عقد زواج أو طموح يكون هدفه هو الحصول على عربة جميلة يجرها حصانان أنيقان. لكن الأفضل من تلك الحدائق والبساتين اليانعة التى ترامت هنا وهناك، من أول الشارع حتى آخره، كانت هناك أيضا كنيسة ضخمة فى حديقتها عدد كبير من أشجار التفاح، تكاد أن تنطق، فى كل خطوة، عن أيام مشمسة عبرت وعز قديم ما زال يانعا.

لم يشاهد روندر من قبل منظرا يفوق ما يراه الآن روعة وجمالا، وهناك ما يدله على أنه لن يشاهد مثل هذه الفتنة فيما يلى من أيام.

رايل هذا لا يعتبر محدثا بارعا، فهو يخشى دائما أن يلوى محدثه ما ينطق به، ولكى لا تدور عليه الدوائر، لكن، وفى الحقيقة، لاحظ أن القس روندر هو رجل طيب، لدرجة أنه أخبر زوجته عند عودته للمنزل أن الرجل لم يتلفت إلى أنهما كانا يرتقيان التل".

قال روندر "أرجو ألا تظن أننى إنسان غير مهذب، لكنى أود أن أعترف لك بأننى سعدت للغاية وأنا استمع لترتيلك فى قداس يوم الأحد الماضى. لعلك تلقيت الكثير من عبارات الاستحسان قبلا، لكنى اعتقد أن على الغريب أن ينطق برأيه. إننى فى الواقع من النقاد لمثل هذه المسائل، لكن أعترف أننى من ضمن الهواة... لكن حسنا، لقد سررت للغاية من إنشادك"

احمر وجه رايل، وبدا ذلك واضحا على أطراف أذنيه. قال:

"آه.. حقا يا حضرة القس... لا أعرف ماذا أقول..أنت إنسان مهذب بالفعل. اننى أبذل قدر ما أستطيع من جهدى البسيط فى هذا الشأن، لكن دائما ما أخشى مخاطر أن يتحول الأمر ويصبح نوعًا من الابتذال والتعود. لقد قضيت عمرا طويلا هنا، وأعتقد أنه يلزم تواجد نوع من التجديد..."

"حسنا، فعلا هناك مخاطر من هذا النوع، فأنه أعلم أنه فى حالات متعددة كان التغيير يؤدى إلى تحسين للخدمات، لكن فى حالتك أنت بالذات، لا أعتقد أن هناك أى نوع من الابتذال. أرجو أن لا تظن أننى أبالغ أو أدعى فى هذا الشأن. أنا لا استطيع أبدا أن اصمت. أيضا أهنئك بخصوص جوقة المرتلين. لكن ما رأيك فى "براكت" كعازف للأرغن؟"

أجاب رايل بنوع من الحماس "ليس كما أرغب بالطبع" – ثم أدرك أنه ربما أن يخبر أحدهم براكت برأيه هذا، لذا أضاف سريعا "ليس لأنه لا يبذل ما فى طاقته من جهد، انه إنسان ممتاز، لكن كل فرد له أخطاؤه. كل ما فى الأمر أنه أحيانا يضيف من عنده بعض النغمات من تأليفه، وهذه تكون من وحى اللحظة...أحيانا تكون نغمات غنائية"

قال روندر بملامح مبتئسة "فعلا.. وهذا ما أظنه أيضا. لقد لاحظت أنه فعل ذلك مرة أو مرتين يوم الأحد الماضى، لكن هذا يمكن أن نعتبره خطأ، يمكن أن

نضيفه إلى جانب الصواب. أما الأولاد فهم كانوا رائعين، لم اسمع من قبل مثل هذا الأداء المتقن".

الآن يعتبر رايل فى قمة الحماس والنشوة، لذا أسهب فى شرح هذا وذاك، يدافع عن هذا، ويعتذر عن شيء، ويأمل فى آخر، وبدون أن يدرى وجد أنه قد اقترب من مقصده، قال:

"هنا نفترق"

"فعلا..فعلا"

قال رايل منفعلا "أرجو أن تزورنا عما قريب، وسوف تسر مسز رايل بتشريفكما"

"بالطبع، أى يوم ترغبه، مع السلامة"

سار روندر فى شارع أورانج باحثا عن منزل بنتك ميجور.

النظرة الأولى لحديقة هذا القس أوضحت الكثير عن بنتك ميجور هذا. قصارى الزرع بها عدد من الورود الجميلة، أسوار من الخضرة المشذبة، الممرات الأنيقة، الأشجار فى أفضل وضع لها، كل هذا الظواهر لا تحكى فقط عن الماديات، لكنها تدل على شخصية الرجل ذاته...

قرع روندر الباب، ففتح له خادم صغير فى السن، سأله روندر:

"هل حضرة القس موجود؟"

من الواضح أن بنتك ميجور كان بالداخل، لذا اختفى الخادم فى الحال. استطاع روندر أن يرى ثلاث شجرات لتسلسل العائلة منشورة داخل جزء من جزع شجرة بلوط، كذلك صحن صينى كبير بداخله كروت للزيارات، ساعة حائط ضخمة مستديرة الشكل، وأثناء وقوفه هكذا دقت هذه الساعة معلنة نصف الساعة. فى الحال ظهر القس كأنما هو الجنى وهو يكاد أن يطير عبر الصالة.

"عزيزى روندر، يا لها من فرصة سعيدة. ربما يكون الوقت مبكرا على احتساء الشاى. فى الحقيقة زوجتى فى هذه اللحظة بالخارج. ما رأيك أن تصحبنى إلى غرفة المكتب؟"

لم يجد روندر ما يمكن أن يعترض عليه من جهة الذهاب إلى غرفة المكتب، لذا تبعه. بصراحة هى غرفة لطيفة مليئة بالكتب المجلدة، نوافذ عالية، مع صورة ضخمة للقس أيام شبابه، مكتب رائع، بينما جريدتا "سبكتاتور" و"تشيرش تايم" موضوعتان بجوار المدفأة، بالإضافة إلى مقعدين عميقين بمساند مكسوة بالجلد، عليهما جلس كلاهما.

شبك بنتك ميجور أصابعه، ووضع قدما متعارضة مع القدم الأخرى، ونظر إلى ضيفه مستفسرا.

قال وندر"حظى فعلا حسن لأننى تمكنت من أن ألحقك داخل المنزل، أخشى أنه ليس وقتا مناسبا للقيام بزيارة، لكنى أنا فى الواقع محتاج لنصيحتك"

"إذن هذا هو جلية الأمر"

ضحك روندر "أنا لا أدعى أبدا أننى رجل متواضع، ولأقل لك الحق، أنا لا أؤمن كثيرا بموضوع التواضع هذا، لكن هناك أوقات على الإنسان أن يعترف بعجزه، وهذه اللحظة بالذات هى واحدة منها....

"لماذا تخبرنى بكل هذا يا حضرة القس؟"، قالها بنتك ميجور لكى يمنح الرجل المسكين بعض التشجيع.

"لا أبدا، لكنى أعنى ما أقول. لا أظن أننى إنسان غبى، لكن عندما يحضر شخص ما لمكان معين للمرة الأولى، إذن هناك الكثير الذى لا يدرى عنه شيئا، وعلى الإنسان أن يبحث عن الحقيقة لدى من هم يتمتعون بقدر كبير من الحكمة والبصيرة الثاقبة"

"آه... حقا يا حضرة القس..إذا كان هناك شيئ يكون فى استطاعتى أن..."

"نعم يوجد، لكن ليس فى تفاصيل العمل الذى أنا مكلف به، فقد ترك لى هارت سميث كل الأمور فى حالة انتظام مدهش، وأتمنى مخلصا أن أتمكن من جعل كل الأمور تسير كما كانت قبلا. ما أطلبه منك هو نظرة الطائر لعمل تقييم دقيق لكل الموقف. مثلا هناك مجلس للكنيسة سوف ينعقد عما قريب. طبعا أنا لى فترة بسيطة هنا، ولم تتكون لدى بعد فكرة واضحة عن الناس هنا، لكن أنت لك مدة أطول، لذا لديك الكثير لتخبرنى به"

"مثلا، أى نوع من المعلومات؟"، قال بنتك ميجور ذلك، بينما ظهرت على وجهه علامات الجد والاهتمام.

"لا أود أبدا أن تخبرنى بأى نوع من الأسرار، أريد فقط رأيك كرجل يعيش فى العالم، عن الكيفية التى تسير بها الأمور هنا- ما الذى يمكن أن ننجزه هنا، ومن، بالإضافة إليك، هم القادة فى هذا المكان وفى أى اتجاه هم يعملون. طبعا لا داعى لأن أخبرك بأن هذه المحادثة سوف تكون فى طى الكتمان"

"نعم، بالطبع، بالطبع"

"الآن، لا أعرف أذا كنت على صواب أم مخطئا، لكن يبدو أنه خلال تلك الفترة التى قضيتها هنا أن وجهة النظرة العامة غارقة فى المحلية. أعتقد أنك تفكر مثلى، وربما أكون أنا متحاملا قليلا، وأنا ذاك القادم من وقت بسيط من لندن"

"شيء عجيب أن تذكر ذلك يا حضرة القس، فأنت فى الواقع وضعت بالفعل إصبعك على النقطة الضعيفة عندنا، فأنت الآن تذكر موضوعات طالما أنا طرحتها بأعلى صوتى منذ سنوات وسنوات. لقد كنت صوتا صارخا فى البرية، كما أخشى، نعم صوت صارخ فى البرية، لكنى أعترف بأننى تمكنت من فعل القليل من التحسينات. لا شك أن الرجال هنا كلهم ممتازون، لكنهم إلى حد ما هم جميعا من القرويين، إذن ما الذى يمكن أن تتوقعه؟ أنهم جميعا قاعدون هنا منذ سنوات.

لم تتح لهم أبدا، أو بالأصح لمعظمهم، فرصة أن يتجاوبوا مع العالم الخارجى ويتطلعوا نحوه، لقد أتيحت لى فرصا ضئيلة، أنا عن نفسى - وهذا وسع كثيرا من مداركى- أعطانى فرصة سانحة أن أكون لنفسى صورة أشمل وأعمق. تجد مثلا أن أسقفنا المسكين- وهو فى الواقع إنسان قديس، إذا كان بالفعل هناك شخص يمكن أن يطلق عليه ذلك، لكن هو قديس، وهذا ما أود تأكيده، هو الآن مختبئ فى قصره فى كاربلدون - أخشى القول أنه أصبح بعيدا عن كل شيء. بالطبع هو يحاول أن يبذل كل ما أوتى من جهد. ثم هناك العميد سامبثون، ولست فى حاجة لأن أخبرك أنه الرجل غير المناسب فى المكان المناسب. لكن تلك ليست غلطته بالتأكيد، انه يحاول أن يصنع شيئا، لكن نحن على ما جبلنا عليه... نعم، فنحن مؤهلين فقط لأن نستخدم المواهب التى منحنا إياه الله، لكن يبدو أنه لم يمنح العميد المواهب اللازمة لإدارة مكان مثل أبرشيتنا هذه.

توقف عن الحديث منتظرا. إنه إنسان حذر يزن كلماته بدقة متناهية. ثم واصل مبتسما:

"ثم هناك براندون، واسمح لى القول أنه إنسان على خلق قويم وله شخصية عظيمة، هو إنسان وهب كل حياته وجهده وعرقه لرفعة شأن هذا المكان- ومستعد أن يضحى بكل غال ونفيس فى سبيل ذلك"

حدثت وقفة قصيرة، انتهزها بنتك ميجور لكى تظهر ملامح بائسة على وجهه:

"انك تفكر بشأنه بالطبع، أليس كذلك؟ حسنا، بطرق كثيرة أعتقد إنك على صواب. براندون يعتبر صديقا صدوقا لى، وأعتز تماما بصداقته - وأعتقد أنه هو يقدر تماما كل ما فعلته من خير من أجل الأبرشية. لكن هو- وهذا الكلام بيننا- كيف اعبر عن ذلك؟ هو إلى حد ما إنسان مستبد. ربما تكون تلك كلمة قاسية إلى حد ما، لكن هو بالفعل هكذا. بعض المغرقين فى الخيال يظنون أنه يدير الكاتدرائية

بمفرده؛ هذا بالطبع رأى البعض هنا، ولا اعتقد أننى ضمن هذه المجموعة، لكن فيها قدر من الحقيقة. هو فى الواقع، رجل له إرادة حديدية. مرة أخرى- وهذا بيننا- هو يتميز بأنه يمتلك طبعا حادا، هذا الرأى بالطبع لن يخرج من وسطنا؟"

"طبعا لا"

"ظلت الأمور هنا لفترة رهن للتفكك لعدة سنوات، بالرغم أننى فعلت كل ما فى وسعى، لكن ما الذى يمكن أن يحققه فرد واحد مقابل حشد كبير،إذا فهمت ما أقصد؟"

"بالطبع أفهم وأقدر"

"حسنا، لا يمكن لأحد أن يتهم براندون بأنه شخص يعوزه النشاط أو الحمية، بل العكس هو الصحيح. لكنى أقول لك بكل الصراحة، إنه عندما يجرؤ أحد أن يتقدم ليعارضه، فهذا يستلزم قدرا هائلا من الشجاعة. وأقول لك، لقد عارضته أنا فى كثير من المسائل، لكن للأسف لم أجد المساندة المطلوبة، فبراندون عندما تنتابه نوبة الغضب، لا يستطيع أحد أن يقف أمامه، هو ليس خصما سهلا، لذلك فالنتيجة النهائية هى، كما أخشى، أنه يشق طريقه بدون أى نوع من المقاومة"

"كما تخشى؟"

بدا على بنتك ميجور بعض العصبية، لأن شخصيته الحقيقة تكشفت بسهولة. نظر إلى روندر متشككا، وأصبح صوته حادا أكثر من المعتاد.

"أوه...أنا أحب براندون- لا تشك فى ذلك إطلاقا، أنا وهو صنعنا هنا أشياء مدهشة، وفى أمور كثيرة، هو إنسان رائع، ولا أعرف ما الذى كان فى إمكانى أن افعل بدون مساندته لى. ما أقصد قوله هنا هو أنه أحيانا ما يبدو عليه حالة من التسرع"

"حسنا، أنت لا تدرى كم كانت هذه المعلومات مفيدة لى، أنا متأكد أنك على حق فى كل ما ذكرته. وإذا فهمت ما قلته، إذن واجبا على أن أتبع براندون فى كل ما يقوله أو يفعله. سوف أتذكر ذلك"

"حسنا، لا...لا أظن أننى قد عبرت عن نفسى هكذا. فبراندون كثيرا ما يكون فى الجانب الخطأ، ولا أعتقد أنه الآن على نفس مستواه السابق، فحادثة الفيل التى وقعت بالأمس - ولعلك سمعت بها، هى فى حد ذاتها موضوع تافه، لكنى لاحظت أن المدينة كلها نظرت للموضوع باعتباره هو الموقف السليم الملائم تماما لحضرة الأرشدياكون. أننى حقا أتوافق مع سياساته- التى تتلخص فى أهمية بقاء الأمور على ما هى عليه، بلا تبديل أو تغيير، فهى الوسيلة الوحيدة التى بها يمكن أن ننقذ كنيستنا. فعندما يخبرنى شخص ما بفكرة جديدة، هذا أعتبره كافيا بالنسبة لى، وسوف أدرس تلك الفكرة وأتحمس لها على الفور، لكن ما أعتقد وأؤمن به هو أن أفكاره دائما ما يجانبها الصواب. انه يندفع أمام أى شىء جديد كأنه الثور- نعم كالثور الهائج، ودائما ما يتمسك بثقته البالغة فى نفسه. لكن إذا لم تعتبرنى أنا كانسان مغرور- وأعتقد أننى شخص متواضع للغاية- فليس أمامك سوى أن تأتى إلى لتتباحث معى فيما يعن لك من أمور وكما تشاء، أنا متأكد أننا سوف نتوافق فى عديد من الأشياء"

"أنا أيضا متأكد من ذلك. غاية الشكر، وكم كنت كريما معى، ليس بالطبع عندك مانع أن تجيب على بعض الأسئلة، وأرجو أن لا أكون مستبقيا لك عن شىء"

"لا..أبدا "، قالها بنتك ميجور بكل لطف وتؤدة، وقد فرد جسمه الضئيل فى مقعده العميق "اسأل ما شئت، وسوف افعل كل ما فى وسعى للإجابة عليها"

وهذا ما فعله روندر لمدة نصف ساعة تالية. سأل العديد من الأسئلة وتلقى إجابات متعددة. ربما لم تكن تلك الإجابات قد أمدته بالكثير مما يود أن يعرف، لكنها أفادته الكثير لمعرفة بنتك ميجور.

دقت الساعة الرابعة بعد الظهر، قام روندر قائلا:

"لا تدرى كم أفدتنى، لقد أخبرتنى بكل ما رغبت معرفته، أشكرك شكرا جزيلا"

ظهر على بنتك ميجور أمارات السعادة والامتنان، فى الحقيقة، هو سر من هذه المقابلة.

"أوه، لكن بالطبع سوف تبقى قليلا حتى نحتسى الشاى سويا، أليس كذلك؟"

"آسف يا عزيزى، لا استطيع، فما زال أمامى مهام أخرى أفعلها قبل نهاية هذه الأمسية"

"سوف تشعر زوجتى بخيبة أمل شديدة"

"أعتقد أنك سوف تسمح لى أن أحضر فى يوم آخر، أليس كذلك؟"

"بالطبع..بالطبع"

اصطحب المضيف ضيفه وفتح له الباب الأمامى:

"فى أى وقت، أنا مستعد لتقديم يد المساعدة لك"

"أشكرك، مع السلامة"

"مع السلامة"

حتى الآن، حقق روندر بعض الأمور النافعة، لكنه فكر... الزيارة التالية سوف تكون بشكل مختلف تماما، وقد ثبت بالفعل أنها كذلك.

لكى يصل المرء إلى "ساحة القس" من شارع أورانج، عليه أن يسير فى حارة جرين مخترقا مجموعة من البساتين صاعدا حتى يصل إلى مجموعة المنازل المتفرقة التى تقع خلف الكاتدرائية. فى يوم من الأيام، كان مكان هذه المنازل ديرا باسم القديسة مارجريت، لكنه دمر ولم يتبق منه حجر واحد بمعرفة خدم الملك

هنرى الثامن، ولم يتبق ذكرا للقديسة مارجريت سوى ملجأ للعجائز على قمة شارع بودجر، وحتى هذا أصابه القدم ويبدو أنه فى طريقة للاندثار. فى الحقيقة، هذا الجزء من بولشستر يتعرض للإهمال والنسيان ولا يهتم به أحد، انه لم يسقط فى هوة الوحل والأقذار مثل منطقة سى تاون، فما زال به بعض المناظر الرومانسية ويحفل بالألوان، لكن الحياة ذاتها قد انسحبت منه.

مجموعة منازل "ساحة القس" تقع خلف الملجأ، وهو مكان مقفل مرصوف بالطوب، به عدد من المنازل الرفيعة تطل عليها أبراج الكاتدرائية. هنا تتضخم أصوات الأجراس مع خبط عجلات العربات على الأرض المرصوفة بالأحجار. الجو بشكل عام فاسد وملوث. عندما تدق أجراس الكاتدرائية، ينتقل الصدى من منزل إلى آخر، ومن حائط إلى الآخر، بحيث يبدو الأمر كما أن هناك مئات من الأجراس تدق فى لحظة واحدة. مع ذلك، نقول أن المناظر العلوية التى يمكن مشاهدتها، حيث تشاهد أمامك البساتين والتلال والغابات على البعد، هى كلها مناظر لا يمكن للمرء أن ينساها بسهولة.

يعيش القس فوستر فى أقدم منزل بالمنطقة وتديره مسز ماديز، وهى تلك التى تدير منازل القسس من أيام زواجها الأول عندما كانت فتاة صغيرة فى العشرين من عمرها، هى الآن فى الثمانين من العمر وتقوم ابنتها المتزوجة، مسز كرامبتون، بإدارة المنزل بديلا عنها. هذا المنزل يتكون من ثلاثة أدوار، هذا يعنى أن هناك ثلاثة قسس يقيمون فيه، لكن لفترة كان الدور الأرضى خاليا، أم الدور الأوسط فقد خصص للمؤجرين المؤقتين. فى وقتنا الحالى، كان يشغله كابتن سفينة.

يشغل القس فوستر الدور العلوى. هو لا يهتم كثيرا سواء بجيرانه، أو مديرى المنزل أو النظافة، كذلك المنظر العلوى – هو بطبيعته لا يهتم كثيرا بهذه الأمور. تسلق روندر السلم القذر المظلم ثم قرع الباب القديم البلوطى الذى التصق به كارت قذر مكتوب عليه اسم القس فوستر.

عندما انتهى من صعوده وانتهت الجلبة، حل صمت رهيب. لم تكن الأجراس فى حالة يقظة، كذلك اختفى صوت مسز كرامبتون، وهو صوت حاد وقح، لذا حل الموات كله على هذا المنزل، أيضا لعل المدينة ماتت، بل ومات العالم كله، كما لو أن هناك شمعة انطفأت فجأة، وفى كل الأحوال، فوستر لا يهتم بذلك إطلاقا.

خبط روندر على الباب أربعة مرات بقبضة عصاه، لم يتلق ردا، بالتأكيد الرجل خارج منزله. استدار استعدادا للهبوط الدرج، فجأة فتح الباب، كما لو أن هناك حياة نبضت فيه. ظهر شكل القس مشوشا، فى ملامحه دهشة وضيق، قال روندر:

"أتسمح لى أن أدخل عندك لدقائق، لن أستبقيك كثيرا"

حملق فوستر فى زائره، لم يجب بشىء، فتح الباب قليلا، ووقف جانبا. تقبل روندر ذلك واعتبرها دعوة للدخول.

قال فوستر "من الأفضل أن تحضر معى إلى الغرفة الأخرى". أخذ يدير رأسه هنا وهناك كأنما هو قد استيقظ للتو وكان مستغرقا فى حلم لطيف. مرا على صالة صغيرة وعلى غرفة للاستقبال غير مرتبة، إلى أن وصلا غرفة المكتب. هذه الغرفة مليئة بالكتب، كل أثاثها عبارة عن منضدة طويلة ومقعدين لهما قواعد من القش. يبدو أن فوستر كان يعمل فوق هذه المنضدة، حيث استقرت كتبا مفتوحة وبعض الأوراق، مع كومة من النبذات. أخذ فوستر يدير عينيه فى المكان، ثم قبض على أذنيه البارزتين وعركهما، قال فجأة:

"من فضلك اجلس، ما الذى يمكن أن أفعله من أجلك؟"

جلس روندر. لقد وضح فى الحال أنه مهما كانت حالة غرفته، إلا أنه قد أفاق تماما. أدرك روندر منذ مقابلته الأولى لهذا الرجل أنه أمام شخص يحسن التفكير، يحافظ على استقلاليته، له أخلاق قويمة. لذا استيقظت فيه حاسة الإعجاب

المرح، التى هى عنده من أرقى الأحاسيس. أدرك أيضا شيئا آخر، هو أن فوستر هذا ليس من النماذج المطبوعة، مماثلا لتلك النماذج التى طالما قرأ عنها فى الأدب الفرنسى والانجليزى، التى ترسم صورة القس العجوز الغائب عن الوجود، الذى دفن أنفه الطويل داخل كتب غطاها الغبار، لدرجة أنه يتعذر عليه أن يشتم رائحة العالم الحقيقية. فوستر هذا ليس غائبا عن الوعى أو مرتبك، هو على العكس تماما.

ما الذى يمكن أن يفعله لروندر؟ للحظة، كان روندر يعوزه التأكيد. هنا، هو سعيد لأنه يفكر، يجب أن يشق طريقه إلى قلب هذا الرجل بكل حرص وحذر. لم يبتسم مثلما فعل مع بنتك ميجور، تحدث معه كزميل يتحدث مع زميله، الند للند، قال:

"أرى أنك كنت مشغولا، لكن على أية حال، لن اعتذر بسبب حضورى هكذا. أقول لك بصراحة أننى فى حاجة لمساعدتك، فى نفس الوقت، أود أن أخبرك أننى لا أهتم كثيرا إذا أعطيتنى إياها أو لم يحدث ذلك"

"ما هى الطريقة التى بها استطيع أن أساعدك؟". نطق بهذا بكل برود.

"سوف يحدث اجتماع لمجلس الكنيسة قريبا، أليس كذلك؟ بالأمانة، أنا لم أقض وقتا كافيا هنا يمكننى فيه أن أحكم على الأمور ويحدد لى أين أقف. فربما تثار أسئلة معينة، بالرغم انه مطروح موضوعات هامة هذه المرة، لكن ربما تكون هناك بعض الأمور ما زالت فى مرحلة الاختمار. الآن أنت لك فترة طويلة هنا وتعلم جيدا كيف تسير الأحوال. أريد رأيك بالنسبة لبعض المسائل"

"أى أنك قد حضرت لكى تتجسس الأرض، كما أعتقد"

"ضعها بهذا الأسلوب أن شئت"، قالها روندر بشكل جدى "بالرغم أننى لا أعتقد أن كلمة تجسس هى الكلمة المناسبة هنا، فأنت حر أن تخبر أى إنسان بأننى أتيت لك وأن تكرر لأى إنسان ما قلته هنا. الأمر بكل بساطة أنه يصعب علي أن

أقوم بمهامى الوظيفية التى كلفت بها بدون أن أسترشد بآراء من يعرفون المكان جيدا"

"أوه، إذا أنت تود أن تعرف رأيى"، ارتفع صوت فوستر فجأة حتى وصل إلى مستوى الصراخ "هى جميعا من الممكن بكل بساطة أن تكتشفها، فكل الأشياء هنا مآلها الدمار والخراب..الآن أنت تعلم نوعية تفكيرى". نظر فوستر نحو النبذات، كأنما يود أن يخبر ضيفه "مع السلامة"، قال روندر:

"سوف يتم تدمير كل شىء، كيف هذا؟"

"بنفس الطريقة التى بها سوف يحدث تدميرا لدولتنا، تلك التى أدارت ظهرها لله"

حدثت فترة صمت، ثم اندفع فوستر فى القول:

"هل تؤمن بالله يا قس روندر؟"

"أعتقد، فى الحقيقة نحن فى موقف يجعلنا..."

"كلام فارغ، ليست هى الإجابة السليمة، أنت لا يبدو عليك أنك إنسان روحى"

"أنا رجل سمين، إذا كان هذا ما تقصده "، قالها روندر مبتسما "وهذا لسوء حظى"

قال فوستر بشكل ألطف "إذا ما كنت وقحا معك، فأرجوك المعذرة، فأنا فعلا وقح مع كل الناس هذه الأيام. لقد توقفت عن محاولة أن لا أكون هكذا مع الناس. الحقيقة هى أننى مريض حتى النخاع بسبب وحشيتهم، وفضائحهم، وأكاذيبهم، وأنانيتهم وكسلهم. ربما تكون أنت أفضل منهم وربما لا تكون. إذا أتيت إلى هنا بغرض أن تعمل على إيقاظهم وأن تحسن أمورهم، إذا أنا أتمنى لك أن تصطحبك العناية الإلهية. لكنك لن تقدر، ويستحسن أن لا تفكر بأنك سوف تقدر. إذا كنت قد

حضرت إلى هذه المدينة لكى تحصل على ما تقدر على حمله، فأعتقد أنك لن تجدنى صحبة طيبة لك"

"بالتأكيد لم أحضر إلى هنا لإيقاظ أحد، لا أعتقد أن تلك هى مهمتى ولم أخلق لكى أعمل بهذه الطريقة. بكل صراحة لا أعتقد أن الأمور سيئة بالطريقة التى تصفها أنت. لكنى أنتوى، بفضل من الله، أن أفعل ما فى وسعى. إذا لم يكن هذا صالحا من وجهة نظرك، إذا يمكنك أن تتركنى لمصيرى"

بدا أن فوستر يقدر هذا الحديث، لذا هز رأسه.

"هذا حديث فيه قدر كبير من الأمانة، هو أول قول أمين أستمع إليه منذ أمد طويل، ما عدا ما كان يصدر من فم جناب الأسقف. أقول لك بكل صراحة، لقد ظننت أنك قد أتيت لتعمل معاونا لبراندون، أن تصبح واحدا من غنمه. إذا كانت هذه هى الحقيقة، إذن دعنا لا نرى بعضنا بعضا إلا لماما"

"إننى لست هنا منذ أمد طويل بحيث أفكر أن أعمل لحساب أحد، وأنا لست راغبا أن انحاز لأحد. هناك واجب مطلوب منى تجاه الكاتدرائية، سوف أعمل فى هذا المجال وأترك باقى الأمور لتسير فى مجراها الطبيعى"

قال فوستر بعنف "هناك واجب عليك تجاه الله، وهو ما ينساه ويتناساه الجميع هنا، لكن يبدو أنك لست راغبا أن تسير ملازما لبراندون، وهذا شىء فى مصلحتك"

"لماذا يسير أى إنسان ملازما لبراندون؟"

"لماذا؟ لماذا؟ لماذا يتشتت قطيع الغنم عندما ينبح الكلب خلفهم؟..لكنى أنا فى الواقع احترم هذا الرجل. لا تفهمنى أبدا خطأ، هو شخص يستحق كل الاحترام، هو شخص شجاع يهتم كثيرا بالكاتدرائية، لكن هو أيضا متخلف بمقدار مئة عام خلفا،

ذلك كل ما فى الموضوع. هو لا يقرأ أبدا، لا يعرف شيئا، هو عبارة عن طفل كبير يحدث أضرارا بليغة فى كل الأنحاء"

نظر نحو روندرر مليا، ثم قال بنبرة هادئة "هل هناك شىء أخر تود معرفته؟"

"هناك حديث عن تعيين قس لقرية بايبس سانت أنتونى، يبدو أنه مكان مهم، وعندما يكون هناك حديث عن تعيين أو ترقية شخص ما، إذن يجب أن يكون عندى فكرة عمن يصلح لهذا المكان...."

"ماذا، هل مات موريسون؟"

"لا، لكنى أعتقد أنه مريض للغاية"

"حسنا، ليس هناك من يصلح لهذا المكان سوى القس ويستون"

"ويستون؟"

"نعم، نعم"، قالها نافذ الصبر "مؤلف كتاب (سفر الرؤيا الجديد) وهو حاليا راعى كنيسة سانت ادوارد، هوستون"

تذكر روندر "هذا شىء غريب بالفعل، كنت أظن أنه يجب أن يكون المرشح واحدًا من أبرشيتنا"

لم يسمعه فوستر، بل استكمل "كنت منتظرًا لهذا، أن أحضر ويستون إلى هنا - منذ أعوام طويلة - هو رجل رائع - رجل عظيم - سوف يشغل المكان، يجب أن يعين فى هذا المكان. أما بالنسبة للمحليين، فكلما كان المعين غريبا كلما كان هذا أفضل"

"لقد تحدث براندون قائلا أن المرشح الأفضل لهذا المكان هو قس اسمه فورسايث - ركس فورسايث؟

ابتسم فوستر متجهما "نعم..سوف يفعلها، هذه هى نوعية المعينين بواسطته. حسنا، إذا أصر على رأيه فسوف تحدث هنا معركة لن يرى المكان لها مثيلا"

قال روندر ببطء "إننى معجب بفكرتك عن ويستون، هذا يدعو للاهتمام"

نظر إليه فوستر باهتمام جديد، ثم تساءل "هل سوف تساعدنى فى هذا الشأن؟"

"لم أحدد موقفى حتى الآن، لكنك سوف تجدنى صديقا أكثر من أن أكون عدوا يا قس فوستر"

"لا أهتم أين هو موقفك، أو أين من الممكن أن تعثر مشاعرى وأحاسيسى على المكان الملائم لها، فهذا ما لا أهتم له، لكن أن يعين ويستون فى هذا المكان، أوه.. ما الذى يمكن أن يفعله! ما الذى يمكن أن يفعله!"

بدا أنه استغرق مجددا فى خضم أحلامه. بعد فترة خمس دقائق صحى لكى يقول لروندر، مع السلامة.

أحس روندر وهو واقف على عتبات السلم بمدى هذا السكون القاتل الذى يلف هذا المنزل كله.

* * *

## الفصل الثامن

# ابن - أب

فولك براندون ليس سوى ولد صغير، هو، بالطبع، سوف يشعر بالإحراج إذا أخبره أحد بذلك، بالرغم أن هذه هى الحقيقة التى لا مراء فيها.

هناك شكل معين من الثقة التى ننسبها نحن لفترة الصبوة تلك، وهى تلك التى تتميز بالسحر والفتنة، حيث نضع أعيننا عليهم وهم يدرجون حثيثا فى مدارج خطى الكبار، يسلكون مسارات عالمية يصحبها إيقان كامل وإيمان أكيد بالطبيعة البشرية، وثقة ساذجة نوعا بصلاح البشرية على مختلف ألوانها وأشكالها. ربما يقرأ المرء عن كل هذه الأحاسيس فى الكتب والقصص التى تعرض علينا مشاهد مؤثرة للأبناء وهم يخطون فى لباس الآباء. وبالرغم أن هذه الروايات ليست سوى مؤلفات من نسج الخيال، إذا قورنت بمحتوى الحياة الحقيقية، فإن تقليدها المتقن وتلك الجدة التى فيها تعرض مدى الجهل الذى يكتنف البعض بمكنونات الحياة، إلا أنها تعطى قوة ذاتية وشكلاً مبهرًا لا يستطيع أحد أن ينكرها.

يحوز فولك براندون نفس خصائص والده، مثل القوة والعزم الشديد، لكن بينما احتفظ والده بكل خصائصه حتى النهاية، إلا أن الابن فقد بعضا منها لأنه انتظم فى مجال العلم لفترة أطول، كذلك اطلع على مجريات الأحوال فى عالم أوسع، لكن هو فى وقتنا هذا لم يفقد شيئا.

هذه العاطفة التى سيطرت عليه الآن، هى فى الواقع أولى العواطف الحقيقية التى تتملكه وتسيطر عليه، هو لا يعرف إطلاقا كيف يتعامل أو يتحكم فيها. إنه يشبه رجلا تائها وسط ضباب كثيف، لا يعلم ما إذا كان واقعا فى غرام هذه الفتاة

أم لا، ما الذى يود أن يفعله بشأنها، أحيانا يخيل إليه أنه يكرهها، هو لا يراها بوضوح سواء من الناحية الفكرية أو الطبيعية، يعرف فقط أنه لا يستطيع أن يستغنى عنها. فى كل لقاء معها، كان يصل إلى مراحل خطيرة، ربما يمكن فيها أن يرتكب أفعالا جنونية، يمكن لها أن تسبب له أسى وأسفا يستمر معه طوال حياته.

بالرغم من أن موقفه كان عائما وغير محدد، لكنه كان على وعى كامل بالجانب الآخر من المسألة، الموقف العملى، منزله، وعلاقاته مع والده. كان الأمر غريبا، فمع تطور هذا الموضوع،أصبح وعيه بأبيه فى القمة. أحس كما لو كان غريبا عن أهله، وليس له أية صلة بعائلته. هو يشاهد مصيبة قادمة لا محالة، لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئا للحيلولة دون وقوعها. بالرغم أنه كان شابا صغيرا فى العمر، فإنه كان يدرك مدى حب والده له، كذا إعزازه وفخره. تيقن، أيضا، أن ما يهتم به والده فى المقام الأول هو كرامته ومركزه المتميز فى هذه المدينة، والأكثر أهمية، إخلاص ووجد والده فى كل أمر يختص بالكاتدرائية. كل هذه الدعائم والأسس سوف تتعرض للعوار والإهانة إذا لحقت بفولك أى فضيحة محلية. هنا اكتشف فى نفسه، بكل المرارة والأسى، أن وجدانه يفور بمشاعر لم يعهدها من قبل، شعر أنه بالفعل يستحق كل احتقار. توالت الأحداث المستقبلية أمام عينيه، وعلم أنه بمجرد انكشاف الفضيحة، حينئذ لن يجرؤ أن يظل فى هذه المدينة ليواجهها- ليس لأنه يخشى أى إنسان، لكنه لا يرغب أن يشاهد والده وهو يعانى بسببه.

حسنا، طالما أن الموقف كله مكشوفا أمام عقله، إذن لما لا يهمل الموضوع بأثره؟ لما لا يهرب بعيدا، أن يحصل مثلا على عمل فى لندن، أن يخلف وراءه بولشستر حتى تنتهى مرحلة الجنون التى سيطرت عليه؟

إنه لا يستطيع أن يفعل ذلك.

ربما يكون هو أول إنسان يمكن أن يحتقر ذاك الذى يتخذ مثل هذا القرار، أن يسخر من ضعفه ويحتقر ذاته. حسنا، دع الأمور تسير فى مجراها. إنه بالفعل يحتقر نفسه، لكن مع ذلك لا يستطيع أن يغادر.

كان كثيرا ما يخبر نفسه أن الأمور سوف تتضح عما قريب، سوف يعرف بعدها كيف يتصرف، والى أن يحدث مثل هذا، عليه أن يداوم على رؤيتها، أن يتحدث معها، أن يكون بجوارها، أن يراقبها. لقد جرت بينهما عدة مقابلات، دائما وقت المساء بجوار النهر، عندما يكون والدها بعيدا فى المدينة.

لقد قبلها مرتين، وكانت مستكينة خلال المرتين، تنظر إليه بنظرة ملؤها السخرية مع استمتاع حذر. لم تعطه أبدا أى مؤشر يدل على أنها تهتم بشأنه، ودائمًا ما كانت مناقشاتهما باردة وغير مرضية. مرة قالت له بعاطفة فجائية:

"نفسى أرحل من هنا"، فسألها أين تودين الذهاب.

"أى مكان.. لندن مثلا"، سألها عما إذا كانت ترغب أن تذهب معه.

"ارحل مع أى إنسان، لكن أنت لا تجرؤ أن تصطحبنى إلى هناك"

"لمَ لا؟"

"لأننى بصراحة، لا أحبك"

"ربما يحدث هذا لاحقا"

"مستعدة أن افعل أى شيء لكى أرحل من هنا"

فى أمسية جميلة، ذهب ليقابلها مصمما أن يحصل من نفسه على إجابات محددة. وقبلما يتجه نحو النهر، تقابل مع صامويل هوج، هذا الرجل الضخم دائم الابتسام، بينما هناك سيجار ضخم يلوكه بين شفتيه، كان هذا الرجل فى طريقه إلى المدينة ليلعب بلياردو، وكان بصحبته صديق.

"مساء الخير يا مستر براندون"

"مساء الخير يا هوج"

"طقس جيد"

"فعلا"

كانت الظلال تتبدى بشكل قرمزى مع ارتفاع التل، هذه أحاطت بجسد هوج الضخم. تملك فولك تعجبا غريبا، ما الذى يعرفه هذا الرجل؟ ما الذى يظنه؟ ما الذى يريده؟

كان النهر، وهو فى أقصى مد له، يداعب جوانب السد القديم برقة متناهية، أما المياه فقد كانت بلون أخضر كريستالى، بينما يلمع الشط الآخر والتلال الخلفية بلون أخضر مدخن، أيضا هناك نتف من السحب تجرى فى مجموعات صغيرة عبر السماء، تتسابق مع بعضها البعض تلتمس طريقا وسط دفعات سيول الدخان الأسود الصاعد إلى العلا من مداخن السفن العابرة. كانت منطقة سى تاون هادئة تلك الأمسية، بالكاد يسمع صوت صادر من منازلها القديمة، يمكن فقط سماع صوت الطيور وهى تتحاور وسط الأحراش القائمة خلف النهر. تحول بعد ذلك لون السحب القرمزية إلى اللون الوردى وسمحت للسماء أن تبدو بعض ملامحها وهى مرصعة بالنجوم الدقيقة، بينما ساد ضباب كثيف غطى الأحراش والنهر، فاختفت أصوات الطيور، بينما ساد فى الجو رائحة بصل وحشائش بحرية زنخة.

بعد ذلك تتابعت قصة غرام فولك فى مسارها المعتاد، كانت هى هناك تقف بجوار النهر فى انتظاره، وهناك القليل من الحديث الذى يمكن أن يتبادلاه. بدا على وجها اليوم قدر كبير من الإحباط والانقباض، يبدو أنها كانت منخرطة فى نوبة من البكاء، هى بصراحة لا تبدو جذابة عندما تنخرط فى مثل هذه الانفعالات، هو يحبها بالأكثر عندما تكون متمنعة، متباعدة. هذه الليلة أيضا، لم يبدُ عليها أى مظهر من مظاهر الاهتمام، لقد استسلمت له استسلاما مطلقا، يستطيع الآن أن يفعل

بها أى شىء، لكن هو لا يرغب فى ذلك. استند على إفريز النهر تبدو فى ملامحها مظاهر الهم والحزن، أخيرا التفتت إليه وسألته السؤال الخالد الذى طالما رددته كثيرا فى السابق: 'لماذا تطاردنى هكذا؟"

"لا أعلم"

"ليس لأنك تحبنى"؟

"لا أعلم"

"أنا أعلم- وفى منتهى الوضوح. لقد ظللت طوال الليل مستيقظة الليلة الماضية أفكر فيما تبغيه منى. بالتأكيد أنت لك توجهاتك الخاصة، وأنت تعرض نفسك للمخاطر"

ثم وضعت يدها على يده، وهذه هى المرة الأولى التى تفعل فيها هكذا بإرادتها وتتلامس معه. قالت:

"يبدو أننى أصبحت بالفعل معجبة بك، ربما لأننى أصبحت أراك الآن كثيرا. أنت لست سوى ولد صغير، وبشكل أو بآخر، الرجال لا يتابعوننى أبدا، أنت الوحيد الذى يفعل ذلك...أوه، كم أشعر بالتعاسة وأنا هنا!"

"حسنا إذن...من الأفضل أن تسافرى معى إلى لندن"

حتى وهو ينطق بهذه الكلمات، كان يتمنى أن لا يكملها. ما الفائدة التى يمكن أن يجنيهامن هروبهما سويا؟ ليس هناك ما يمكن أن يعيشا من دخله، وليس هناك زمالة حقيقية بينهما...وسوف تتمخض هذه المغامرة بأكثر من نتيجة واحدة.

هزت رأسها قائلة "لا...إذا كنت بالفعل مهتما بى، ربما فكرت أن آتى معك، لكننى لا أعرف إذا كنا سوف نظل سويا أم لا إذا رحلنا إلى لندن. أنا أريد فقط حياتى أنا، نعم أنا..أستطيع بسهولة أن اعتنى بنفسى، فأنا سوف أكون يوما بمفردى"

فجأة داهمه شعور قوى بأنه يريدها بجماع قلبه أكثر من أى وقت مضى:

"لا، لن تفعلى ذلك أبدا، إذا كنت مصممة على الرحيل فليكن هذا معى، يجب أن يصاحبك من يمكن أن تعتمدى عليه، أنت لا تدرين أبدا نوعية العيش فى لندن هذه".

ضمها إليه وقبلها بكل ما يمتلك من عواطف جياشة، بدت فى نظره امرأة جديدة انبثقت بعد تهديدها بأن ترحل بمفردها.

باستسلام سمحت له أن يقبلها، ثم بانحناءة بين يديه، وبتنهيدة ندت منها وبكل حنان قبلته هى بكامل إرادتها، قالت بصوت ناعم:

"أعتقد أننى أستطيع أن أرعاك، أن أريد بشكل عنيف أن أهتم بأحد"

لقد تقاربت روحاهما بشكل لم يحدث من قبل؛ وبعاطفة تعبر عن مدى الزمالة البشرية، زحفت تلك واستطاعت أن تقتحم هذا التشتت غير المحسوم، استطاعت أن تهدئ وتعمق. ظهرت هى أمامه بشكل جديد، كلها حكمة وتعقل وراحة، ولا يلفها الغموض. أصبحت قبضتها عليه الآن أكثر تحكما، فجأة أحس بالأسى يزحف عليه ويشمله خوفا عليها وعلى نفسه أيضا. للمرة الأولى، تركها هذه الليلة وقد سيطر عليه شعور دافق بأنه من الممكن أن ينشأ نوع من الزمالة الحقة بينهما. لكن وهو راجع مرتقيا التل، كان يشعر بأنه محبط للغاية ومنقبض. لقد كره نفسه لأنها اشتاقت لشيء ما هو لا يرغبه تماما. خيل إليه، وهذا ما يحدث معه دائما، أنه لن يتاح له عمر كاف لصنع كل الأشياء التى يود أن يختبرها ثم ربما يرفضها بعد ذلك.

عندما دخل سريره تلك الليلة، كان فى قمة ثورته وتمرده على العالم بأثره، لكن قبلما يستغرق فى النوم، حلم بآنى هوج، أتت إليه كروح لطيف رقيق، تقول له "كل الأمور سوف تتحسن..لا تخف..سوف أرعاك..نعم سوف أرعاك"، ثم شاهد نفسه وهو ينام بين ذ راعيها هانئا. فى صباح اليوم التالى، جلس على مائدة

الإفطار كل من فولك، جوان ووالدهما، لكن مسز براندون فقد حجزها عن الحضور صداع رهيب. غالبا ما كان فولك يتأخر عن إفطاره، لكنه هذا اليوم استيقظ مبكرا ونهض من سريره وخرج. سار فى الشارع يلفه ضباب رمادى، وأخذ يدير ويعيد فى مسألته مرارا وتكرارا فى ذهنه. فى هذا اليوم، لاحظ أن صورة آنى هوج قد اختفت من ذهنه مرة أخرى، ومعها اختفت أشواق ليلة أمس، كان واعيا برغبة قوية أن يهز نفسه ويتخلص من كل الأحمال التى وضعها بنفسه على كتفيه، بل وداعبت فكره هذا الصباح أن يرحل فجأة إلى لندن باحثا عن عمل.

عرفت جوان على الفور أن اليوم هو يوم "انعقاد المجلس"، أدركت هذا من منظر والدها، ففى هذا اليوم بالذات يكون الأرشدياكون أكثر لمعانا وروعة، تبدو على ملامحه مظاهر الجد والاهتمام، هو يبدو حينذاك كألطف وأجمل رجل عجوز، لذا نظرت إليه جوان هذا الصباح وكلها إعجاب وفخر، بدا أمامها كأنما هو قد غطس فى حمامات باردة مرارا وتكرارا.

درجة الأهمية كانت حاضرة معهم أيضا، حيث قبض الأب على جريدة "جليبشاير الصباحية". بين لحظة وأخرى، كان يرفع رأسه من الصحيفة ويخبر أبنيه بطرفة من أخبار العالم. فى أيام سابقة، كانت هى مخاطرة كبرى أن يبادله الصغار الحديث، أما الآن، وقد زالت الحواجز نوعا، ليس عليهما سوى الاستماع فقط، لكن إذا حدث وارتفعت أصواتهما، حينئذ يكون التحذير:

"يا أولاد...بعدين، ألا يمكن لوالدكما أن يقرأ الجريدة فى هدوء؟ هناك وقت كاف لكما لتتناقشا فيه بعدما أغادركما"

هو دائما ما يتلفظ بتعليقات مقتضبة وهو يقرأ الصحيفة "حسنا، هذا بالفعل أنهى موضوع بورنت...هذا بالتأكيد أفحمه...يا الله، خمس شلنات للمائة...ديفليوت سوف يذهب إلى سانت لومين...يا لها من خيبة أمل!...وهكذا."

أحيانا كان يشعر باستثارة كبرى لأنه قرأ ما أزعجه فى الجريدة، فتجده وقد نحى الصحيفة بعنف عنه، ثم يلوح بيديه كأنما هو يحاول تعلم العوم، مطلقا فى نفس الوقت عبارات الاستياء والتعجب: "الأغبياء المغفلون.. أكثر الناس وحشية! حسنا، هم يستحقون ما جرى لهم بسبب ضعفهم، لقد كتبت لبنسون فى نفس هذا الموضوع، - اعطنى التوست يا جوان، أين التوست، ألا تسمعينى يا جوان! ماذا يظنون أنفسهم؟ نعم، نعم، فيه قليل من الزبد..طبعا أنا قلت زبد"

لكن فى يوم "اجتماع المجلس"، مستحيل أن تزعجه أخبار الصحيفة، ففكره مزدحم بالسياسات والخطط التى يجب أن يتمسك بها هذا الصباح. لسوء الحظ، هو لا يستطيع أن يفكر فى موضوعين فى وقت واحد، فهذا يجعل خططه تسير بشكل متعثر. أما عندما يكون الاجتماع خطيرا، فهو لا ينظر للصحيفة إطلاقا، وبالكاد يأكل شيئا على الإفطار. لكن لأن اجتماع اليوم ليس به أمر مهم، سمح له هذا أن يطلع على مجريات الأمور فى العالم. كان هذا الاطلاع توطئة لحدوث سلسلة متوالية من سوء الحظ، حيث ورد فى الجريدة تفصيلات مؤلمة عن حادثة "قلعة دراموند". هى فى الواقع قصة مأساة قديمة فى ذلك الوقت، لكن فى جريدة اليوم كان هناك عرض تفصيلى لظروف وقوع الحادث.

حاول براندون أن يسترسل فى قراءة التفاصيل، لكن هو كان قد ثبت فى وجدانه قاعدة هى أن لا يزعج نفسه أبدا بالتملى فى أفكار وفعل الشر التى لا يستطيع أن يجد لها حلا أو منفذا. وهذا ما كان يقنع به نفسه دائما، وقضى دهرا من عمره يراعى ذلك.

لقد أقنع نفسه منذ سنوات خلت أنه يعيش فى عالم متكامل أبدعه الله، والله هو كلى الصلاح، ولكى يتمسك الإنسان بهذه العقيدة الخالصة، عليه أن لا يكون أبدا من "المتشككين". هذا التشكك يمكن أن يجد له منفذا إذا أعتقد الإنسان أن هناك "خطأ" ما فى الخليقة. وإنه إذا حدث شر ما أو أذى، فهذا يحدث فقط لمصلحة

الإنسان الذى يجب أن "يجرب" لتقوية روحه...كأنما هو قد ارتقى لوحا للنجاة فوق مياه الخلاص.

مرة، منذ عدة سنوات، كتب شخص ملحد مقالا فى جريدة يشرح فيها كيف ينشأ الشر، كيف أن الحيوانات تفترس بعضها بعضا، كيف أن مختلف الكائنات من أصغر حشرة حتى أكبر أنواع الفيلة تعانى وتعانى وتعانى، حتى النباتات نفسها تعانى من حياة كلها إحباط ونضال مستميت للعيش، لكن مع ذلك، سوف يكون مصيرها هو الفناء والبوار. قرأ براندون هذا المقال وهو فى قمة الاستياء، بعدها كره هذا الكاتب بجماع قلبه، ولو تحصل عليه، إذن لأمر بجلده بالكرابيج لو أتيحت له هذه السلطة. هذا المقال بالذات أزعجه عدة أيام، ولم يعتدل حاله إلا عندما أكد لنفسه مرارا وتكرارا أن ما ذكره هذا الشخص هو كلام مغلوط وليس عليه سوى أن يشاهد القطط الصغيرة وهى تتلاعب، الطيور وهى تغنى فوق الأغصان، الأزهار وهى تتفتح بكل الفرح والبهجة. حينئذ يتقوى إيمانه وترسخ عقيدته.

لقد عانى بالفعل كل من كانوا داخل "قلعة دراموند"، لكنهم فى النهاية حصلوا لأنفسهم فى النهاية على تاج الشرف والمجد. هو فى الواقع يحسدهم ويأسف لأنه لم يحصل على فرصتهم، لكن مع ذلك... مع ذلك....

دفع الجريدة بعنف من يديه. شيء بديع أنه ليس هناك مسألة مهمة يمكن مناقشتها اليوم فى اجتماع المجلس. هو فى الواقع ليس فى حالة اليوم أن يشتبك فى معارك مع أحد. لما عليه هو فقط أن يشتبك فى المعارك؟ هو فى الحقيقة يحمل فوق كتفيه كل هموم المدينة، بالكاد يشعر بالسرور من أجل هذا، لكن فى الواقع هو يشعر بالابتهاج لأن.... لأن....

أثناء قيامه باستعراض ابنيه فولك وجوان، شعر بالحنان والحب يتدفق من قلبه نحوهما. قراءته لحادثة "قلعة دراموند" أزعجه حقا، لذا تمنى لأبنائه أن يتمتعا بأفضل وقت وزمن وأن يسعدا فى حياتهما. ربما يكون من الأفضل أن يعانيا فى

حياتهما، لكن مع ذلك، إذا ضمنا الفردوس، وفى نفس الوقت لم يعانيا كثيرا، فهو سوف يكون مسرورا من أجلهما.

فجأة، عبر مائدة الإفطار، تراءت له صورة مرعبة؛ منظر جوان بوجهها الطفولى وهى تكاد أن تغرق فى البحر...صرخت هى؛ بينما تحاول جاهدة أن تقبض على حافة قارب.. أحدهم ضرب يديها....

بنوع من الاستياء الشديد، نفض هذه الرؤيا من عقله:

"ما هذا!" زعق بصوت عال وهو يغادر المائدة.

سألت جوان بانزعاج "ماذا حدث يا والدى؟"

"لا يجب أن يسمح لهؤلاء الناس أن يكتبوا هذه الترهات" قال هذا وهو ينسحب إلى غرفة المكتب.

بعد مرور ساعة، خرج ليلحق بالاجتماع وقد استعاد توازنه. لقد أصبح الآن فى منتهى التركيز فى المهام التى تشغل باله. بدأ فى عبور المنطقة الخضراء المؤدية إلى الكاتدرائية، كله براءة، رأسه مرفوعة عاليا، حاجباه معقودان، يداه مشبوكتان خلفه، مر به عدد من الأولاد المتدربين على الترتيل فى صفوف غير منتظمة، كلما مر به أحدهم ويرفع يده بالتحية، يبتسم هو له بلطف وتواضع، لكن ما إن مر به عازف الأرغن براكت، حتى حدجه بنظرة قاسية، فهو لا يحبذ أبدا إضافاته اللحنية على الألحان المعتادة.

لقد تبقى القليل الآن من المبنى المخصص للاجتماعات، وهو الذى كان يوما جزءًا من كنيسة القديسة مارجريت. يتكون هذا المبنى من غرفتين، وما زال السقف خشبيا من أعمال القرن الثالث عشر. الغرفة الكبرى هى المخصصة للاجتماع، أما الصغرى فهى مخصصة للاجتماعات الأقل أهمية وللمناقشات غير الرسمية.

أخشى القول إن الأرشدياكون أتى متأخرا قليلا. هو دائما ما يفعل هكذا عندما يتأكد أن الباقين قد حضروا بالفعل. مع ذلك، ليس هناك شيء يمكن أن يسبب له ضيقا مريعا أكثر من اكتشافه تأخر الباقين عن الحضور عندما يكون هو منضبطا فى مواعيده. لاحظ أن كلهم متواجدون، وهذا ما توقعه بالضبط.

كانت هناك مائدة طويلة من البلوط، وضع فوقها أوراقًا وأقلامًا أمام كل مقعد، أما الجدران الرائعة التى طالما افتخر بها براندون، فقد رصت عليها صور أساقفة بولشستر بشكل متتابع. على قمة المائدة، جلس العميد وهو فى حالة من الاضطراب، يوزع الابتسامات على الجميع. على يمينه يجلس براندون، وعلى اليسار ويزرام، ذاك الذى بدت على وجهه معالم الجد وهو يستعد لمناقشة جدول اليوم، كأن كل حياته معتمدة على ذلك. يجلس بجواره بنتك-ميجور وقد تبدت أظافره كأنما قد خضعت لنشاط المانيكير؛ بجواره جلس رايل، وما زال يضحك بسبب ملحة أستمع إليها من بنتك ميجور؛ يجلس فى الجانب المضاد له فوستر، يبدو عليه كأنه لم يذق طعاما منذ أسبوع، حلاقة ذقنه سيئة للغاية وهناك جرح غائر فى ذقنه. بجواره جلس روندر. فى نهاية المائدة جلس سكرتير الاجتماع، بوند وهو يقضم فى قلمه.

استقر براندون فى مقعده مقدما اعتذارا بسبب تأخره. بدأ العميد "دعونا أيها الأخوة أن نسأل الله أن يمنحنا بركاته ويرشدنا للصواب فى إقرار أعمال اليوم". تبع ذلك صلاة مشتركة، ثم خشخشة أوراق، استعدال مقاعد، تنظيف أنوف، سعال، بل وعطسة قوية تصدر من رايل المندهش المرتعب ثم بدأ عمل اليوم.

تم أولا قراءة ملخص ما جاء بالاجتماع السابق، ثم جرت مناقشة ودية. فى الحال شعر براندون بحضور روندر، لكن لماذا؟ هو لا يدرى لماذا، لكنه أحس أنه غير مستريح لهذا الرجل الذى لم ينطق بشيء حتى الآن. هو لم يكن حاضرا فى الاجتماع السابق، لذا ليس لديه ما يمكن أن يعلق عليه. جلس هو فى مكانه، بينما تلتقط نظارته الضخمة الأضواء من النوافذ المضادة، لذا بدا وكأنه قد فقد عينيه.

كان شكل جسمه السمين، والوضع الذى جلس به، حيث انحنى قليلا معتمدا على ذراعيه، بدا كأنه شخص يغالب النوم. وجهه مستدير، خدوده ممتلئة، تعطى انطباعا عن رجل يعتبر العمل عموما هو نشاط مجهد ويعتبر تدخلا لا لزوم له فى مسار ملذات الحياة.

مع ذلك، كان براندون يشعر بقوة بحضور هذا الرجل، وبين الحين والآخر، تنصب عيناه عليه. أحيانا كان براندون ينطق بكلمة أو تعليق ما، ليس لأنه بالفعل فى حاجة إليها، لكن فقط لكى يحدث تأثيرا فى روندر هذا، وبالطبع الكل يتوافق معه بكل سرور وأريحية، كما هو الحال دائما.....

بعد ذلك، استرد وعيه وخلف روندر وراءه؛ ثم شمل الجميع بنظرة جديدة. هو يعلم منذ زمن بعيد كيف يبدون وما هى ردود أفعالهم. يعلم تماما ما الذى سوف ينطق به كل واحد منهم، هم جميعا بالنسبة إليه، إنما يشبهون تلك التماثيل البارزة للتلاميذ الإثنى عشر المنحوتة على الباب الغربى. لكن اليوم بالذات، لاحظ أنهم قفزوا جميعا وامتلكوا روحا جديدة. بالأمس، كان بكل اطمئنان يرصد اتجاهاتهم بكل دقة، لكن الآن، يبدو أن هناك ريحا جديدة قد نفخت فيهم. لكنه بالرغم من إنه أدرك هذه الاتجاهات الجديدة، لكنه لم يكون لنفسه تصورا شاملا، فهو دائما ما يكون على درجة عليا من التصور والتخيل عن أى شيء يختص بوضعه أو مركزه فقط.

استمر نشاط العمل، كل واحد فيهم عبر عن شخصيته. لا شيء برز واستدعى اهتمام روندر. رأي كل واحد فيهم واضح تماما. كان الأمر لطيفا أن يراقب فوستر وقد تملكه روح الاحتقار للجميع، أيضا الاستماع لأفكار بنتك ميجور التافهة، حيث إنه كمستشار، عليه أن يقدم اقتراحات للتحسين بين والآخر، بينما تبدو على وجه رايل أمارات الاعتذار بسبب ما يقدم عليه مرؤوسه براكت من إضافات لحنية، لذا هو دائما ما يؤكد لبراندون أنه "يجب عمل شيء ما بشأن هذا الموضوع"، لكنه أيضا اتفق مع بنتك ميجور على أنه لا بأس أن نستمع بين الحين

والآخر إلى بعض القطع الموسيقية المتطورة بغرض تحسين الموسيقى التى اعتدنا عليها فى الكاتدرائية. وقد عبر براندون عن ثورته البالغة بسبب تلك الاتجاهات الحديثة، وأخذ يصب شواظًا ملتهبة من عينيه تجاه بنتك ميجور، لذا أخذ هذا يطرف بعينيه ويلاحظ أظافره وهو فى قمة التوتر والانزعاج.

قال براندون بصوته الوقور المهيب "بالطبع، هناك البعض الذين يحاولون جعل الكاتدرائية قاعة للموسيقى. لا أقول أن هذا يحدث بالفعل، لكن هناك اتجاهه لحدوث ذلك. فى وقتنا الغبى هذا، لا يدهشنى حدوث أى شيء. فى رأيى المتواضع، هو أن ما كان حسنا وموافقا أيام آبائنا، هو كاف بالنسبة لنا. مع ذلك، أرجو أن لا يكون رأيى هذا ملزما لأحد". قال بنتك ميجور "أنا متفق معك قلبا وقالبا يا حضرة الأرشدياكون". قام وزرام بعد ذلك بالتأكيد على انه لا يوجد مبرر سليم لإزعاج أى فرد، هم جميعا متأكدون أن المرتل سوف.... حدثت بعد ذلك غمغمة عامة، نعم هم يثقون تماما فى رئيس المرتلين أنه سوف.....

عندما تم الاتفاق على هذه النقطة، اقترب الاجتماع من النهاية الموفقة، بدأ العميد يهنئ نفسه لعودته المبكرة إلى حديقته ودراساته العلمية فى مجال النبات، عندما، فجأة، لسوء الحظ، برز موضوع آلة تسوية الأرض اللازمة لحديقة المدرسة.

هذا الموضوع هو فى حد ذاته موضوع بسيط. فقد تقدمت المدرسة منذ عدة شهور بطلب لشراء آلة تسوية جديدة، فهذه الآلة مطلوبة بشكل ملح لتسوية ميدان ألعاب الكريكت. حقيقى أن المدرسة تمتلك بالفعل آلتين من نفس النوع، لكن واحدة منها كانت صغيرة- وقد عبر عن ذلك الناظر دينسون بقوله أنها آلة طفلة- أما الثانية فهى لا تكفى لحجم العمل المطلوب، لأن مساحة أرض المدرسة كبيرة.

هذا الموضوع، الذى له صلة بصندوق المجلس، وقد تم مناقشته باستفاضة فى الاجتماع السابق، وكان براندون قد أجل التصويت عليه، ليس لأن المدرسة فى

حاجة لآلة التسوية، لكن لأن هارت سميث قد غادرهم وأصبح القس روندر هو البديل المسئول عن الصندوق ورصيد الكاتدرائية المالى. كثيرا ما كان براندون يسعى لإظهار قوته وسلطته، لذا كثيرا ما كان يرفض أمورا مختلفة، لكنه لو أصبح هو المسئول الأول عن الخزانة فمن المحتمل للغاية أن يتصرف على العكس تماما، وربما يسمح للجميع أن ينالوا ما يطلبون.

قال وزرلم "هناك موضوع تسوية أرض المدرسة"، بينما كان العميد يلملم أوراقه استعدادا لإنهاء الاجتماع بالصلاة الختامية.

بصوت متهجد، قال الكاتب "هذا الموضوع بالذات مسجل فى أجندة اليوم"

بدا على العميد مظاهر الانزعاج "يا إلهى، ما الذى يمكن أن نفعله فى هذا الموضوع؟"

انبرى فوستر قائلا "دعهم يحصلون عليها"، ثم نظر نحو براندون نظرة كلها تحدى، ثم أقفل فمه كمصيدة.

هذا فى الواقع هو تحد سافر، شعر براندون أن صدره قد انتفخ بوهج غضب نبيل، وهذا ما يحدث دائما عندما ينطق فوستر بأى حرف.

تحدث براندون بنفس الطريقة التى يتبعها عندما يكون حديثه هو فصل الخطاب، بينما يحدج العميد بنظرة قاتلة "أعتقد أننا قد توصلنا إلى قرار فى الاجتماع السابق، لقد فهمت – وقد أكون مخطئا- أننا لن نتمكن من إجابة طلب المدرسة وعليها أن تنتظر قليلا"

قال العميد بشكل عصبى "حسنا يا حضرة الأرشدياكون (يفهم هو جيدا معنى تلك النظرات النارية التى تنبعث من عينى براندون) على أن اعترف بأننى فهمت أن الموضوع لم يتخذ فيه قرار نهائى بعد، لكننا بالتأكيد كنا قد تناقشنا فقط فى موضوع تكلفة شراء الآلة فى الاجتماع السابق"

قال بنتك ميجور "أعتقد أن الأرشدياكون على حق تام". هو فى الحقيقة كان يود أن يكتسب ود الأرشدياكون بعد خطئه فى موضوع الموسيقى "أعتقد أن الموضوع يعتبر منتهيا"

اندفع فوستر بكل عنف "لم يحدث هذا أبدا، فنحن لم نستقر على قرار محدد"

تساءل العميد موجها حديثه للكاتب "ما هو المكتوب فى أجندة الاجتماع السابق؟"

"يؤجل الموضوع إلى الاجتماع التالى"

قال براندون "على أيه حال، المسألة فى منتهى البساطة ويمكن الوصول إلى قرار فى التو واللحظة. أولا، كل من درس هذا الموضوع يدرك فورا أن المدرسة ليست فى حاجة إلى آلة تسوية جديدة، فهم لديهم ما يكفيهم، ثانيا، صندوق الكاتدرائية ليس لديه القدرة أن يمول تكلفة شراء آلة جديدة"

قال فوستر "بصراحة، أنا أحتج بشدة يا سيادة الأرشدياكون، ففى المقام الأول، هل درست هذا الموضوع بنفسك جيدا؟"

تباطأ الأرشدياكون قليلا قبلما يرد، لاحظ أن كل العيون مركزة عليه، شعر فجأة أن فوستر قد حصل على قوة إضافية استمدها من شخص آخر، خيل إليه أنه يعرف من هو. الأكثر أهمية، هل فعلا انضم هذا الجديد إلى قائمة الأعداء؟ لكن هو ما يزال يشك، فهذا الشخص لم يقضِ وقتا كافيا لينضم إلى هذا أو ذاك، والموضوع أساسا ليس له أهمية بالغة....قال:

"بالطبع، أنا فحصت الموضوع جيدا، والحقائق واضحة تماما"

اندفع فوستر غاضبا "لا، الحقائق لم تكن واضحة، أقرر هنا أن المدرسة فى حاجة ماسة لتلك الآلة، وإن تصرفاتنا مخجله تستحق كل اللوم إذا منعنا عنهم ذلك"، ثم ضرب المائدة بقبضته.

وقف براندون والغضب يشع من عينيه "إذا كانت تهمة اللوم والخسة موجهة لى فإننى..."

قال رايل "أؤكد لك يا حضرة الأرشدياكون..."

رفع العميد يديه كنوع من الاحتجاج "لا أعتقد أن أى شىء يحدث هنا له صفة شخصية، لا يجب أن ننسى أبدا أننا فى بيت الله. بالطبع هذا الموضوع كله فى يد الصندوق، لكن لا أظن أن القس روندر وهو الذى قضى معنا وقتا قصيرا، قد أتيحت له الفرصة بالفعل أن يدرس هذه المسألة"

الجميع وجه نظره ناحية روندر، بدت بعض المظاهر الدرامية تتخلل الموقف. كان براندون منهمكا فى الحملقة فى الصور التى علقت فوق المائدة متظاهرا أنه خارج الموضوع كلية؛ فى الحقيقة، كان قلبه ينبض بقوة. المفترض أن كلمته فيها الكفاية، وهذا لم يحدث أبدا فى الأيام الخوالى، أما الآن فقد اختلط كل شىء....

قال روندر "فى الحقيقة، لقد درست الموضوع، وأعتبره أهم موضوع فى أجندة اليوم. ربما لا يبدو عليه أنه من الموضوعات الهامة، لكنى أعتقد أن ساحة كريكت المدرسة لن تكون جاهزة هذا الصيف إذا لم يحصلوا على الآلة الجديدة. لقد استقر الرأى بهم، كما أعتقد، أنهم سوف يحصلون على الآلة الجديدة عن طريق المساهمات الشخصية فيما بينهم إذا لم نوفرها لهم نحن، وهذا، أيها السادة، ولا أستطيع أن أمنع نفسى من التعبير عن هذه المشاعر، يرسم صورة مسيئة لنا. درست أيضا موضوع الأسعار واطلعت على بعض الكتالوجات وتأكدت أن الحصول على آلة تسوية الأرض ليست بهذا القدر الكبير من التكلفة، وأعتقد أن هذا لن يؤثر كثيرا على رصيد صندوق الكاتدرائية...

قال العميد "إذن أنت تعتقد يا حضرة القس أنه بإمكاننا أن نشترى تلك الآلة؟"

"نعم، أؤكد ذلك"

شعر براندون على الفور بالتأثير الذى انتشر وغزى قلوب الجميع، عرف أنهم يفكرون فى أنفسهم قائلين "حسنا، هنا أمامنا الآن شخص قدير!"

لذا انفجر براندون قائلا "أخشى القول أننى لا أتفق قطعا مع القس روندر، ليسمح لى بالقول أنه لم يكن معنا منذ فترة طويلة لكى يعلم كيف تسير الأحوال هنا. ليس لدى أى شكوى ضد ناظر المدرسة، لكنه يبدو أنه وضع مسألته بطريقة يمكن أن تجوز علينا، لكن كل من يعرفون المدرسة وأسلوب إدارتها لسنوات عدة، ربما يكون لهم حقًا أصيلا فى الحكم على الأمور. لذا أعذر القس روندر لأنه لم يقض وقتا كافيا بيننا"

صاح فوستر "شىء سخيف وغريب، الموضوع ليس له أدنى صلة بمعرفة أحوال إدارة المدرسة. المسالة ببساطة، هل يستطيع مجلسنا أن يوافق على طلب المدرسة أم لا. هنا نجد القس روندر، وهو المسئول الأول عن الخزينة يقول أنه بإمكاننا أن نلبى هذا الطلب، وهذا يعتبر كافيا لكل فرد هنا"

اشتعل الموقف بشكل درامى، وبرزت إمكانية أن يشترك الجميع فى التعليق فى نفس الوقت. شعر وزرام بالقلق، بدا على وجه بنتك ميجور مظاهر الخبث، رايل مضطرب، فوستر مشتعل، براندون ثائر. فقط روندر الذى بدا عليه عدم الاهتمام.

شعر العميد بالأسى يقبض على قلبه، لذا رفع يده:

"يبدو فى هذه المسألة أن هناك اختلافات فى الآراء، لذا اقترح أن نجرى تصويتا، أرجو من يحبذ قيامنا بشراء هذه الآلة للمدرسة أن يرفع يده"

كل من روندر، فوستر ووزرام برفع أيديهم.

قال العميد "من هم ضد القرار، يرفع يده"

رفع كل من براندون، بنتك ميجور ورايل أيديهم

قال العميد وهو يبتسم بشكل عصبى "أخشى القول إنه على أنا أن أقرر" توقف لفترة بسيطة، ثم نظر إلى الكاتب قائلا "أعتقد أننى سوف أوافق على شراء هذا الآلة. أعتقد أن القس روندر قد شرح مسألته باقتدار"

للمرة الأولى، فيما عدا روندر، أدرك الجميع أن تلك هى المرة الأولى التى فيها يهزم رأى لبراندون. لذا بدون الانتظار لأى أمر جديد، قام الأرشدياكون بلملمة أوراقه وبدون أن ينظر يمينا أو يسارا، خرج كالسهم من الغرفة.

* * *

# الكتاب الثانى

# الممر الهامس

## الفصل الأول

# الساعة الخامسة ـ السحابة الخضراء

بدت السحب كأنما هى تزحف كالدخان من فوهات أبراج الكاتدرائية، بينما ترسل الشمس شواظا من نار، تلونت الجبال الرمادية بلون وردى مدخن. كانت هناك سحابة صغيرة فى السماء تلونت أولا بلون أخضر خفيف وتشكلت بصورة خاتم ثم تلوت حلزونيا وانتشرت كأنها هى بركة مائية فى مقابل مغيب مدخن.

انتشر اللون الأخضر كأنما هو خاتم الأسقف...استمر الوضع هكذا ثم اختفى اللون البرتقالى تدريجيا تاركا السماء بلون أبيض لبنى. ثم انخفضت هجمة الضباب، بعد ذلك أعلنت ساعة الكاتدرائية الخامسة مساء، وغطى المدينة كلها ليل من ليالى فبراير الباردة مع ضباب دخانى كثيف.

### -١-

فى الساعة الخامسة إلا ربعًا، كانت تراتيل المساء قد انتهت، بعدها بدأ كابوت فى إطفاء شموع الخورس، بعد ذلك، خطا فردان وعبرا صحن الكنيسة المظلم.

خارج الباب الغربى توقفا، ثم أخذا يحملقان فى بهاء الطبيعة. قال روندر:

"الجو فعلا بارد، لكننا سوف نشاهد النجوم قطعا"

نجوم. برد. براندون واقف معه يرتعش. هناك شىء ما يسيئه. كان قلبه يخفق ويدق بعنف أثناء التسبحة، كأنما هناك عربة ثقيلة عبرت أمامه. شمل روندر

بنظرة كلها شك. هو لا يحب هذا الرجل، هوذا الآن واقف أمامه يناجى السماء كأنما هو يمتلكها، هو عن نفسه يفضل المغيب. قال براندون بسرعة:

"حسنا، تصبح على خير يا حضرة القس"، لكن روندر تبعه:

"لحظة واحدة يا أرشدياكون...أعذرنى...كنت انتظر فرصة لأن..."

توقف براندون. هذا الرجل مرتبك. سر هو لذلك؟

"نعم"

بدا اللون الوردى فى الخفوت قليلا، بينما تعلقت سحابة صغيرة لونها اخضر كأنما هى الدخان فوق البرج...

"فى اجتماع المجلس الأخير، كنا فى اتجاهين مضادين، أريد القول إننى فى أشد الأسف لذلك. أشعر أننا لا نعرف بعضنا البعض كما يجب. أتعجب ما إذا كنت تسمح لى..."

الضوء بدأ يخبو – برقت نظارات روندر. جسده فى الظلال، استكمل القول "... لأن أراك لفترة أطول... أن أتحدث معك حديثًا من القلب"

ابتسم براندون ابتسامة مقتضبة فى ضوء الغسق، هذا المغفل! إذن هو خائف. فجأة تخيل منظره وهو واقف فى مكتبة بينيت بلا قبعة، بينما فى الخارج هناك جمهور ساخر...

"أخشى يا قس روندر، أننا لن تكون لنا نفس النظرة فى كثير من الأمور، إذا سمحت لى القول. أنت لم تقض وقتا كافيا هنا لكى تخمن بالضبط كل مستلزمات الأبرشية الحقيقية. عليك أن تسير ببطء هنا، أكثر بطئا مما أعددت نفسك للسير بموجبه. نحن هنا لسنا متحضرين بما يكفى"

النظارات، هى الظاهرة الآن، وهى التى ردت عليه "حسنا، دعنا إذا أن نتناقش فى هذا، دعنا نرسى كل الأمور. دعنى أسألك بكل الصراحة، هل لديك أى

شيء تأخذه عليّ، شيء أكون قد فعلته بدون تفكير أو تدبر؟ يخيل إلى أننى أتلمس نبرة غير عادية...فى الواقع أنا إنسان حساس للغاية، لكن إذا كان هناك شيء ما فعلته، أرجوك دعنى أعتذر عنه، أتمنى أن تخبرنى عما فعلت"

أى شيء فعله؟ أخذ الأرشدياكون يبتسم لنفسه عابسا فى الظلام.

"فى الواقع يا حضرة القس، لا أعتقد أن مجرد الكلام سوف يساعدنا كثيرا. فى الحقيقة ليس هناك شيء يمكن أن نتناقش بشأنه...تصبح على خير"

اختفت السحابة الخضراء. روندر غير ظاهر الآن، فقد استمر باقيا فى ظل الباب العظيم.

-٢-

بجوار النهر، كان شكل المرأة أسود خلف المياه الذهبية اللون. قامت بالانثناء فوق الكوبرى الصغير. جسمها قوى، واثق من متانة بنيانه، يداها تقبضان بقوة، عيناها بهما نظرات كلها تفكير.

لا داعى أن تخاف من أبيها الليلة، فهو فى رحلة إلى درايماوث لمدة يومين. الساعة الآن الخامسة إلا ربعًا. سمعت صوت أجراس الكاتدرائية واضحة مجلجلة فى كل أنحاء المدينة، التفتت خلفا، شاهدت السماء الحمراء التى كست كل خلفية الكاتدرائية. لقد اشتهت أن ترى فولك الليلة. هو نوع جديد من الاشتياق. انه أفضل كثيرا مما ظننت. ولد طيب، كله حنان وقلبه دافئ. يمكن للمرء أن يثق فيه. هو الصديق الصدوق. كانت تنظر إليه أولا كوسيلة لأن تهرب من هنا وتحصل على حريتها. حرية كاملة من هذا المكان المرعب، تهرب من هذا الرجل، أبيها، هو أكثر إجراما من أى إنسان آخر تعرفه. أيضا أمها كانت تعلم ذلك. فجأة، انتابتها رعشة، تراءى لها جسد أمها، بصدرها الرجراج، بيضاء بشكل خاب، وقد خلع

عنها رداءها حتى الوسط، ينحنى فوق السرير ويضرب. أمها تصرخ، ثم أنين متواصل...ارتعشت مرة أخرى، استعرضت المغيب متوقعة حضور فولك...

أتى إليها. انحنيا على الكوبرى سويا. يداه حولها. لم ينطقا إلا بالقليل. نظرت نحوه:

"هل ترى السحابة الغريبة؟ لونها أخضر. هل شاهدت من قبل سحابة خضراء؟ أه..هى تشعر بالسعادة هنا...سعادة شاملة.

التفتت، نظرت إلى وجهه، بينما الغسق يشملهما. أخذت تربت فوق شعره. وضع يده حولها وضمها إليه بقوة.

-٣-

فجأة أنارت لمبات الشارع الرئيسى، فغلب بذلك منظر السماء. هناك فوق الشارع نفسه، لا تلاحظ أن الغروب قد انتشر، الفضاء الواسع لونه أبيض-أزرق شاحب؛ تدق الأجراس معلنة الخامسة إلا ربعًا. بدأ اللون الباهت فى الاختفاء تدريجيا، مخلفا وراءه بعض الظلال، فوق هذا امتد اللون البرتقالى لأنوار الشارع.

توقفت جوان قليلا تحت قنطرة أردن قبل أن تتجه إلى منزلها. فى مكانها هذا شاهدت كل روعة الغروب، سمعت أيضا آخر دقات الساعة وعزف الأرغن فى الكاتدرائية. نظرت إلى العلا، شاهدت سحبا لونها اخضر، هو لون أخضر كأنما هو لون أوراق الشجر التى تظهر مع بداية فصل الربيع. فجأة، وقف إلى جانبها رافعًا قبعته، انه جونى سانت ليث. كان جديرا بها أن تسرع فى طريقها. هى تشعر بالتعاسة، فالأمور فى منزلها ليست على ما يرام، هناك خطأ ما يكتنف والدها، أمها، كذلك فولك. هناك أيضا خطأ ما يلفها هى أيضا، سمعت إشاعات سرت فى المدينة كلها عن تلك الفتاة التى سوف تحضر إلى القلعة أيام احتفالات

اليوبيل. أنت لكى تتزوج جونى، حضرت لأنها غنية، جميلة. وقد صممت الليدى سانت ليث أن....

لذا أسرعت فى طريقها وهى تغمغم "مساء الخير". لكنه استوقفها، وجهه مزنهر، بينما كلبه يلهث خلفه جوعانا.

"مس براندون..لحظة من فضلك، أريد أن أتحدث معك. أمسية جميلة، أليس كذلك؟.. لقد تجاهلتنى بالأمس بالمرة، نعم هذا ما حدث، فى شارع أورانج...

"لماذا أفعل هكذا؟"، حاولت أن تتحدث معه ببرود

"نحن أصدقاء، أنت تعلمين ذلك، إلا أنه فى هذه المدينة المتوحشة لا يشعر الإنسان إطلاقا بحريته...فقط أود أن أخبرك أنه إذا تركت هنا- فجأة- فإننى سوف أعود مرة أخرى. تأكدى من ذلك. لا تصدقى أى حديث يقولونه- أى لغو ينطق به أى إنسان- سوف أعود مرة أخرى، تذكرى ذلك. نحن أصدقاء. يجب أن تثقى فيه، هل تسمعين؟"

غادرها متجها ناحية الكاتدرائية، بينما الكلب اندرو يلهث وراءه.

اختفى الضوء أيضا- ذهب، اختفى، لم يعد.

ظلت فى مكانها لفترة، لكن ما أن بلغت باب منزلها، حتى ثارت الرياح وأخذت تتلاعب بالحشائش....

## - ٤ -

تقابل الشخصان، بدون ترتيب سابق، اندفعا صوب بعضهما البعض قدرًا، كما كان يحدث فى كل مقابلاتهما خلال الأسبوع الفائت.

تقريبًا فى نفس الساعة، تقريبا فى نفس المكان. فى الممر الرملى الذى يقع بقرب الكاتدرائية، فوق مجرى المياه، فى المنخفض الذى يقع على التل المقابل، فوق التل الذى نصب فيه سابقا المعرض.

فى أعماق المنخفض لا يستطيع الغروب أن يجد له منفذا، دقات الساعة تعلن ثلاثة أرباع الساعة، تتهادى كأنما هى خطو الذكريات، تسترجع عهدا قديما، يردد لحنا أصبح فى طى النسيان. لكن فوق رأس المرأة، نشاهد تغير لون السحب من اللون الوردى إلى اللون البرتقالى، تراها كما كانت لوحا من الزجاج.

دائما ما يتقابلان هكذا، هى قادمة من البلدة، كما لو أنها سوف تلتفت وتسلك الطريق المتشابك الذى يقود إلى بيتها فى حضن ملحقات الكاتدرائية، بينما هو يسير متلكعا وقد عقد ذراعيه خلف ظهره، كأنما هو يسير مشغولا بالتفكير فى حل مشكلة ما...

أحيانا لا يجىء، أحيانا هى لا تتمكن. لا يظلان مع بعضهما أكثر من عشر دقائق، من شهر لآخر، من النادر أن يمر هنا أحد.

هذا اليوم بالذات، بدا نافذ الصبر متعجلا "إذا لم تحضرى الليلة، ربما فكرت أن أذهب لأبحث عنك. كان من الضرورى أن أراك. لا،ليس لدى ما أقوله لك، فقط أريد أن أراك. أننى اشعر بوحدة قاتلة فى منزلى هذا، كنت دائما أشعر بهذه الوحدة- ليس أكثر مما كان عليه الحال عندما كنت متزوجا- لكن الآن...إذا لم أحصل على العشر دقائق هذه، إذن لحضرتنى الوفاة، أظن أن....

إنهما لا يلمسان بعضهما البعض، لكن دائما ما يقفان مقابل بعضهما وجها لوجه. قال:

"ما الذى يمكن أن نفعله؟ لا أعتقد أنه عمل شرير أن نتقابل هكذا ونتحدث لوقت لا يزيد عن عشر دقائق"

"أريدك أن تعلم، أنك أنت وابنى- كل ما لى فى الدنيا. كليكما. لكن ابنى يحتفظ لنفسه بسر ما مبتعدا عنى، لذا أنا أيضا اشعر بالوحدة. لكن هذا الشعور قد اختفى الآن، صداقتك لى هى...."

"نعم، أنا صديقك، دائما فكرى بهذا الشكل. أنا صديقك منذ اللحظة الأولى التى شاهدتك فيها...وأنت هكذا لطيفة وغير سعيدة...لقد أدركت فى التو واللحظة بمدى تعاستك. يبدو لى أن لا أحد فى هذه البلدة قد أدرك ذلك. أعتقد أن الله هو الذى جمعنا لنكون أصدقاء، وجعلنى سببا لأن أعيد لك الشعور بالسعادة – وقليل من...."

"تقول السعادة؟ أليس اليوم شديد البرودة؟ هل ترى تلك السحابة الخضراء اللون، غريبة الشكل؟ آه...لقد اختفت الآن...كل الضياء سوف يختفى...هل تؤمن بالله؟"

اقترب منها. يده لمست يدها.

أجاب بصوت حاد "نعم، وهو يأمرنى أيضا أن أهتم بك"، يده وهى ترتعش ربتت على ذراعها. لم تتحرك. يده وهى تهتز لمست رقبتها. ثم انحنى وقبل عنقها، فمها، ثم عينيها.

أسندت رأسها على كتفه للحظات، ثم، وهى تهمس : تصبح على خير، دارت وسارت مسرعة فى الممر.

* * *

## الفصل الثانى

# أرواح يوم الأحد

لعلى كنت فى الثالثة عشر أو الرابعة عشر - وربما كان هذا عام ١٨٩٧، عندما قرأت للمرة الأولى قصة روبرت ستيفنسون "جزيرة الكنز"، والموضة الآن هو انتقاد ستيفنسون معتبرين إياه كاتب مغامرات رومانتيكية.

مع ذلك، أتعجب، ما هى الواقعية التى ينشدونها، وما زلت حتى الآن فى انتظار ما هو أكثر واقعيه من "بو"، "لونج جون سيلفر". لعل الواقعية الحقة واجبا أن تحتوى على : قرع عصا رجل أعمى على الأرض الحصباء، أو عرض لمختلف أشكال الفسق والفجور.

فى سنوات عمرى وأنا صغير، أشكرك يا رب، لم اعرف الكثير عن الواقعية، كنت أقرأ أى أقصوصة طبقا لقيمتها ووقعها، إذا كانت جيدة، إذن هى تستحق ثلاثمائة حقيبة من الذهب الخالص. الآن، عندما أنظر للوراء، يبدو لى الأمر على أن تلك الروح التى سيطرت على مدينتنا فى ذلك الوقت، مشابهة تماما للمشاعر التى سيطرت على الدكتور "لايفساى" والولد "هوكنز" والباقين عندما عثروا على خريطة القرصان الميت، وهذه ليست مضاهاة جبرية. فقد انتشرت روح المغامرة مع الهمسات التى لحقت بآل براندون، روندر، بايبس سانت أنتونى وكل هذه المسائل. لكن متى بدأ هذا الهمس؟ ما الذى يمكن أن يدل عليه؟

عموما، همسات بولشستر تنشأ وتنتشر غالبا عن طريق خدمنا.

فى كل قرية ومدينة تابعة إلى جليبشاير، ينتشر نوع من الزواج المختلط ما بين الخدم بشكل يدعو للدهشة. كل خادمة، كل ساع، كل جناينى وسائق عربة فى

بولشستر هو أو هى أقرباء بعضهما البعض، لذا جميعا يمثلون شبكة أخبار متحدة تحيط بكل مدينتنا.

مع ذلك، نجد أن كل ما يحملونه من منزل إلى الآخر، ليس هو القصة الحقيقية على الإطلاق. ببساطة هى ليست سوى بعض ملامح القصة الحقيقية. أيضا ليس بالضرورة أن يكون بناء القصة شريرا أو فاضحا، كل ما فى الأمر هو أن أعيننا قد التقطت ملامح جزئيات من دراما الحياة، ولا نسع أنفسنا سوى أن نصيح صيحات الاندهاش بينما خيوط التاريخ تنسج خيوطها أمام أعيننا. وأجمل ما فى سعينا لصيد الوقائع هو ببساطة ينحصر فى الاستثارة التى تكتنفنا بسبب المطاردة، ليس لأننا نشاء أن نسبب ضررا لأى روح فى العالم. إذا حدث، فى أحوال معينة أن هناك نبذة من الشر وجدت طريقها إلينا، فهذا بسبب أننا نعيش فى هذا العالم الذى ينقصه عنصر الأمان، لذا، لكى نؤكد طمأنينتنا، نحن نراقب جيراننا وهم "ينقلبون". نحن فى الواقع لا نريدهم أن "ينقلبوا"، لكن إذا حل الدور على أحد لأن "ينقلب"، فنحن نفضل أن يكونوا هم وليس "نحن".

لأمد طويل، يعتبر براندون من الشخصيات البارزة فى عالمنا، لذا فأى اختلاف يظهر فى صورته، فى الحال يتم إدراكه وملاحظته. ومنذ عودة فولك من أكسفورد، كان متوقعا أن هناك شيئا ما "سوف يحدث".

كثيرا ما يحدث موقف معين بين عدد من الناس يبدو غامضا وغير محدد، إلى أن تصل لحظة معينة، ودائما ما تكون لحظة غير دراماتيكية أو سلبية، فيها يبرز الموقف بطريقة فجائية، يظهر بشكل واضح وجلى أمام أعين الناس جميعا، كأنما هو الحقيقة التى لا مراء فيها. لذا نقول أن هناك يومًا من أيام آحاد شهر ابريل من سنتنا هذه، أن أصبح هذا التاريخ بالنسبة للأرشدياكون وعدد آخر من الناس، هو يوم انفجار الأزمة، مع ذلك، يمكن أن يقال بكل الثقة أى لا شىء ذا بال قد حدث.

يبدو أن كل شيء يحدث فى أيام الآحاد، لسبب وحيد، هو أن أكثر الحديث والرغى يحدث يوم الأحد إذا قورن بأى يوم آخر خلال الأسبوع. أيضا تظهر الكاتدرائية فى أبهى وأجمل صورها هذا اليوم، فالكل يجتمع هناك، كل شخص يتحدث مع آخر قبل المغادرة، بالطبع تسمح لحظات، فرجات ووقفات الانتظار الطويلة، أن تنتشر التعليقات، والأسئلة، والظنون والتخمينات، وهذه بالتالى تنمو وتكبر وتتضخم قبلما يتسلم الليل كل فرد ويبسطه على ظهره ليستغرق فى متاهات الأحلام.

أكثر ما كان يحبه ويفضله حضرة الأرشدياكون هو "أجازة" يوم الأحد، حيث لا يجد من بين يديه ما يفعله سوى أن يسير بجلال وهيبة إلى مكانه المخصص فى الخورس، أن يقرأ فصلا من الكتاب المقدس، وربما ألقى عظة، أن يتحدث بكلام مهم وجدى مع من يدعوهم لمشاركته شرب الشاى بعد خدمة تسبحة المساء، أن يستغرق فى أفكاره بتكاسل بعد عشاء يوم الأحد، بينما ساقاه الطويلتان ممدودتان أمامه، الغليون فى فمه، متأملا فى مدى وعظمة وسعادة وهناء الكاتدرائية والعالم كله ومركزه المتميز فيه. يوم الأحد، هو اليوم المثالى بالنسبة له- لذا كان يوم الأحد الموافق ١٨ أبريل، جديرا بأن يكون مماثلا لإخوته السابقين، لكنه للأسف لم يكن هكذا.

بدأ الأمر مبكرا هذا اليوم، حوالى الساعة السابعة صباحا، حيث وقع حادث مرعب. المعتاد هو أن تقرع الخادمة الباب الساعة السادسة والنصف لكى تقدم الشاى للأرشدياكون وزوجته، ثم يبدأ حضرته فى احتساء الشاى وكله سعادة وحبور حتى السابعة إلا ربع، ثم يندفع مغادرا سريره ليستمتع بحمامه البارد، بعدها يؤدى بعض تدريباته الرياضية، ثم يحلق ذقنه فى غرفة الملابس الصغيرة، وما أن تحل السابعة والربع يكون قد قارب على الانتهاء من ارتداء ملابسه، بعدها يرجع إلى غرفة النوم ليجد أن مسز براندون قد قاربت من الانتهاء من ارتداء ملابسها.

فى هذا اليوم بالذات، كان يشرب فنجان الشاى، لكن يبدو أن زوجته ما زالت مستغرقة فى النوم؛ لكن هذا لم يردعه عن أن يغادر سريره مندفعا بنفس الجلبة المعتادة، فبعد عشرين عاما من الزواج، أنت لا تهتم كثيرا بمثل هذه الشكليات؛ أيضا قد حان أن تنفض زوجته من عينيها آثار النوم. عندما حلت الساعة السابعة والربع عاد إلى غرفة النوم مرتديا فقط قميصه وبنطلونه وهو يدندن ترنيمة "إلى الأمام يا جنود المسيح". كان يوما ربيعيا رائعا، لذا أسرع إلى النافذة وشمل بناظريه كل مبانى الملحقات والمزروعات التى غطاها ندى الصباح. لاحظ أن الصمت كان شاملا ولا يسمع سوى ترديد غراب مبكر، ثم التفت، ولدهشته البالغة، لاحظ أن زوجته ما زالت راقدة وعيناها مفتوحتان على سعتهما تحملق أماما.

صاح "عزيزتى، هل تشعرين بوعكة ما؟"

"أنا فى أفضل صحة ". ما زالت عيناها فى أقصى اتساع لهما. اللهجة التى نطقت بها هذه الجملة كان غريبا، وجديدا، لم تكن لهجة استسلامية أو دفاعية، كانت بلا اهتمام.

بالتأكيد هى مريضة، اقترب من السرير.

"هل تدركين كم الساعة الآن؟ هى السابعة وعشرون دقيقة، متأكدة أنك لا تودين أن انتظرك أكثر من ذلك".

لم تجبه. بالتأكيد هى مريضة. هناك شىء غريب فى عينيها"

"بالتأكيد أنت مريضة، لم لا تعترفى بذلك؟ هل تشعرين بالصداع؟"

"لست مريضة، ولست مصدعة، ولن أحضر خدمة باكر"

"أنت لست مريضة؟ ولن تحضرى؟..."، تملكته دهشة كبرى "ألا تعلمين أنه ليس هناك خدمة متأخرة؟". لم تجبه، لكنها أدارت نفسها لتنام على جانبها وقد أغلقت عينيها.

اقترب من السرير، معقود الجبين.

"أمى...ما معنى هذا؟ أنت لست مريضة ولا تريدين أن تذهبى للكنيسة؟ لماذا؟. أصر على الحصول على إجابة".

لم تجب بشىء.

شعر بالغضب يسيطر عليه، وهو من نوعية الغضب الذى يحاول جاهدا أن يكبت نوعيته منذ لسنوات عدة. بدأ هذا الغضب يتجمع فى حلقه.

بجهد خارق للسيطرة على أعصابه، قال بهدوء "ما بك يا أمى؟ يجب أن تخبرينى فورا". لم تفتح عينيها، لكنها قالت بصوت خفيض، لدرجة أنه بالكاد استطاع أن يفسر كلماتها:

"لا شىء، أنا لست مريضة، ولن أحضر خدمة باكر"

"لماذا؟"

"لأننى لا أود ذلك"

للحظات شعر أنه مقدم على رفعها وحملها بالقوة من السرير، كانت يداه تستعدان لأن تطيعا فكره هذا. لكن لدهشته البالغة، لم يفعل ذلك. لم ينطق بحرف. نظر نحو السرير، حيث مكان الانخفاض الذى كان يشغله، كذلك ركز نظره على رأسها وقد تشعث شعرها الأسود على المخدة وعلى عينيها المغمضتين، ثم اتجه نحو غرفة الملابس. ما إن انتهى من ارتداء ملابس سار مرة أخرى إلى غرفة النوم، ناظرا نحوها، بلا حراك، ما زالت عيناها مغمصتين، راقدة على جانبها،

شاعرا بالصمت الحال على الغرفة، على المنزل، على الملحقات، لا يزعج هذا الصمت سوى نعيق هذا الغراب اللعين.

ثم هبط إلى الدور الأرضي.

خلال خدمة باكر، ظل هو فى حالة من الاندهاش الغريب. فى مكانه حيث جلس، كان فى إمكانه أن يرى تابوت الأسقف الأسود بوضوح، بينما أشعة شمس الصباح بلونها الوردى الذى تخلل من النافذة الشرقية، أخذت تتلاعب على حجارته الزرقاء. استطاعت هذه الأشعة أيضا أن تركز على خاتم الأسقف الأخضر ونشرت إشعاعات نارية من قلبه. رجع بفكره وقلبه إلى ذلك اليوم، منذ أيام قليلة، عندما شعر بفرح غامر، تبدى له أنه يشارك الأسقف فى روحه، لأن يكون رمادا من رماده، عظم من عظامه. كان هذا اليوم، كما يتذكر، هو اليوم الذى فيه عاد فولك من أكسفورد. منذ هذا اليوم، كل أموره سارت فى مسلك غير مرض- فولك، الفيل، روندر، فوستر، اجتماع المجلس، والآن هوذا زوجته! لم يحدث فى يوم ما منذ زواجهما أن خاطبته بنفس أسلوب هذا الصباح. إنها بالتأكيد مقدمة على مرض خطير. بدأ نوع من الاهتمام يبزغ فى قلبه، اهتمام لم يشعر أنه مجبر عليه قبلا. يا لها من مسكينة آمى، يا له من أمر محزن أن تكون بالفعل مريضة، بينما منزله يقلب ويعدل! بصدمة شديدة، شعر أنه ليس مركزا على القداس، لذا نفض عن نفسه تلك الأفكار الخاصة، أخذ يحدج بناظريه بكل الرضى صف المصلين المنتظرين بصبر لأن يصلا حتى عتبات الهيكل.

مع ذلك، على مائدة الإفطار، كانت مسز براندون متواجدة، تبدو فى حالتها الطبيعية، مرتدية ملابس يوم الأحد من الحرير الرمادى، تجهز الشاى، وكما هى عادتها، تجيب على الأسئلة بكل رضى واستسلام وصبر "كما يجب أن تكون عليه زوجة الأرشدياكون". أراد أن يظهر لها بسلوكه أنه قد صدم صدمة عنيفة، لكن للأسف، دائما ما كان يبدى علامات انزعاجه وضيقه فى مناسبات عديدة عندما

يكون الأمر محتاجا لذلك، لكن اليوم، وقد برزت أهمية حدوث ذلك، شعر أنه غير قادر على فعل ذلك.

قرعت الأجراس معلنة بدء قداس الصباح، وقد أشرقت الشمس بكل قوتها، بينما اقتربت الساعة نحو العاشرة والنصف صباحا، وتدفقت زرافات من الناس وعبروا منطقة الملحقات ثم اختفوا داخل فوهة الباب الغربى العملاق. الآن يتبدى كل من لورنس وكابوت فى أبهى حللهم- لورنس بردائه الأرجوانى الرائع، وهو منسوج من الحرير، وقف فى نهاية صحن الكنيسة، تحت ستار الخورس، منتظرا قدوم السادة الارستقراطيين، حيث حجز لهم المقاعد الأمامية وحبست تلك بالخيوط التى لا يفكها سواه. كم تبلغ سعادته عندما يتقدم غريب سىء الحظ، جاهل بالعادات المرعية بالكاتدرائية، ثم يسير على طول القاعة مستعدا أن يجلس على واحد من هذه المقاعد المقدسة! فيتقدم لورنس بكل جلال ممسكا بصولجانه بيده، يحدق فى الدخيل المتطفل، ثم يهز رأسه المتوجة بالشعر الأبيض، ينظر نحوه بأسى وأسف، أكثر من كونها نظرة غضب. لا ينطق بحرف، بل يشير إلى هذا الجرىء ليعود إلى المكان الذى يقف عنده كابوت خلفا، فيتراجع المسكين خطوة تلو الأخرى، محرجا، بينما تغطيه الأعين الساخرة من كل جانب حتى يستقر فى الصفوف الخلفية. فجأة هجرت الأجراس صوتها المجلجل المتنوع لتنهمك فى صوت متكرر بلحن وحيد. جلس الناس العاديون على مقاعدهم الخلفية، أما العظماء، فهم لا يظهرون إلا فى اللحظات الأخيرة. بعدها حدثت إضاءة فوق الأرغن، بكل نعومة بدأ براكت فى مداعبة اللحن المعتاد - قرقعة، قرقعة، قرقعة، ثم وصل طلاب المدرسة، الأولاد الصغار فى المقدمة وقد بلعتهم ياقات إيتون العالية، وملأوا المكان المخصص لهم على يمين الحجاب، ثم دخل الأولاد المتوسطون، فى مظهرهم عدم اهتمام وإهمال، ثم يليهم من هم فى الفصل الخامس والسادس فى ياقاتهم العالية، يتحركون بعظمة وغير مهتمين إطلاقا.

بشكل خافت، يمكن أن تميز على جانب الحجاب طلاب المدرسة هؤلاء وقد احتلوا مكانهم ما بين الخورس والهيكل.

بعدها يسمع صوت خشخشة فساتين نسائية، ويدخل الأرستقراطيون فرادى وأزواجا من الأبواب الجانبية التى تفتح على الخورس. البعض منهم - القلة القليلة - يحتفظ لهم لورنس بابتسامة التوكيد، هو مثلا يمنحها إلى مسز سامبثون، مسز كمبرمير، ومسز رايل وأيضا مسز براندون.

هو يرسم ابتسامة مخصوصة لمسز براندون، أنه يقدر زوجها تقديرا عظيما. هى فى حد ذاتها لا تستأهل - "ست غبية"، هذا هو فكرته عنها - لكن الأرشدياكون زوجها، وهذا فيه كل الكفاية.

كانت جوان برفقة أمها، مدركة أن الجميع ينظرون نحوها - بنات عائلة دا-أركى، سينثيا رايل، جلاديس سامبثون، كلهم يوجهون النظر نحوها وينتقدونها. خشخشة، خشخشة، خشخشة - هنا حدث حقيقى يا سادة! فقد حضرت الليدى سانت - ليث، برفقتها أبناؤها جونى وهيتى. أسرع لورنس نحوها، مهملا مسز براندون، التى اضطرت أن تفك حبل مقعدها بنفسها. قام لورنس بقيادة الليدى إلى الأمام بأجلى مظاهر الاهتمام والاحترام والتبجيل، وهو منظر يستحق أن يشاهد. سارت خلفه كأنما هى تمتلك الكاتدرائية، أو لعلها استطاعت أن تتملكها لو فكرت أنها تستحق ذلك. كل الأولاد الصغار، فى سنة ثالثة ورابعة أحنوا رقابهم التى تقبض عليها ياقات ايتون وأخذوا يراقبون هذا الموكب. يا لها من قبعة رائعة ترتديها، فيها كل ألوان قوس القزح، شىء عجيب فعلا، وقد كبستها هكذا فوق شعرها الأبيض الغجرى.

وقف الجميع كل فى مكانه، أصبح صوت الأجراس أكثر إلحاحا، أخذت النسوة ينظرن لبعضهن. رمقت ألين ستيالر مس دوبل- ابتسامة، ابتسامة، ابتسامة. جوان شاهدت سينثيا رايل- ابتسامة، ابتسامة، ابتسامة. لورنس وعليه مظاهر

الملاك جبرائيل، وقف هكذا كأنه مخول له أن يسمح لرعيل من الخطاة التائبين أن يلجوا باب السماء، أما الشمس فقد ألقت بعضا من إشعاعاتها على هيئة سلم من الغبار الملون وسقطت على مربعات مضيئة فى الأماكن الخالية من الصحن.

توقف صليل الأجراس فجأة، ثم صدرت كلمة "آمين" طويلة ملحنة من مكان بعيد يغطيه ظل ارجوانى. الجميع تحرك من مكانه، مصدرين شكلا من أشكال الضوضاء، كأن هناك ريح مجهولة قد هبت على الكاتدرائية أثناء وقوفهم؛ اصطف الجميع، الأولاد والرجال، المرتل، والقس العجوز مورفيو، والقس الأكبر بارثلميو، القس روجرز، وجهه به بعض من ملامح المرارة وعدم الارتياح. وقف فى مكانه كل من القس فورستر، وبنتك ميجور، وآخرهم الأرشدياكون براندون، ثم ركعوا بينما ارتفع صوت المرتل مرتلا....

جعل الصوت المألوف للمرتل رايل، مسز رايل أن تنتبه للزمان والمكان. كانت راكعة ويدها المغطاة بالقفازات، قريبة لوجهها، كانت تحملق فى ظلال قاتمة، هى ظلمة تختلط فيها روائح نافذة للجلد الروسى وتلك الرائحة التى تصدر دائما من مقاعد الكاتدرائية والأشغال الخشبية الأخرى التى انحنت عليها. انتبهت على صوت رايل، بعدما كانت غاطسة فى بحار من الأبدية واللانهائية، كأنما هى زورق يغالب الأمواج. رأت نفسها كأنما هى فى جسد إنسانة أخرى، ترقد على السرير المألوف وهى تزعق "لا"، ثم مرة أخرى وأخرى "لا. لا. لا".

لما قالت "لا"، هل هى السيدة الأخرى التى نطقت بتلك الكلمة، لمَ كان هو صامتا؟ ليست هذه طريقته أو أسلوبه. لم تحدث العاصفة. ارتعشت قليلا داخل قفازاها، بينما يقول المرتل بشكل غير شخصى "إخوتى الأعزاء الكرام"...

ببطء بدأ عقلها، كأنما هو سمكة صغيرة تحاول أن تصعد من أعماق مياه خضراء إلى سطح الانتباه. هى كانت على وعى كامل بأنها على حافة فعل ما؛ إنها بالفعل ليست سوى مشاعر طبيعية، كانت تشعر كما لو أنها تسير فوق أعماق

ضبابية، ترددت قليلا، لتجد نفسها تنظر إلى الأسفل نحو حواف مشرشرة مسننة لصخرة سوداء، نعم، هى "صخرة سوداء مسننة" تلك التى تراءت لها.

حدث الآن نوع من التنافس ما بين صفى الخورس على الجانبين فى إنشاد المزامير، حيث يسلم كل جانب، الجانب الآخر المقطع التالى بسرعة بالغة، كما لو كانوا يقولون "التقط هذه الكرة. أمسك بها. أوه، إنك بطىء!".

بنفس هذه الطريقة، فى قلب ميدان آمى براندون، كان هناك صوتان يتباريان مع بعضهما: أحدهما يصرخ قائلا "أنظر ما تفعله هذه المرأة، هذه الغبية، هى تلعب لعبة خطيرة لا تقدر على مجابهتها، سوف تقضى عليها لا محالة"

الثانى يجيب " حسنا، هى فى خضم اللعبة بالفعل! لذا لا فائدة من التحذير. هى ترغب فى ذلك، وسوف تحصل على مبتغاها"

يرد الأول "لا شىء ينفع، لا شىء يستحق! كله سراب!"

يجيب الثانى "لا. لا شىء يمكن أن يقف فى سبيلها الآن، لا شىء!"

هل هناك فعلا شىء ما يستطيع أن يوقفها؟ بيد متصلبة، ورعشات خفيفة تسيطر على كيانها كله، أدركت أنه عليها أن تحارب معركتها الصغيرة الصعبة"

"نحمدك ونشكرك يا رب، أنت إلهنا وربنا..."

"كل أتباع الأنبياء يحمدونك ويمجدونك...."

دعها الآن تنسحب طالما أن هناك وقتًا متاحًا. هى لديها أبناء، لديها فولك. نعم فولك! أخذت تجول بناظريها باحثة، متوقعة أن تجده قريبا منها، بالرغم أنها تعلم يقينا أنه قد أهمل حضور القداسات التى تقام فى الكاتدرائية. آه، هذا ليس فيه أى قدر من العدل! آه لو كان يحبها بالفعل، لو أى إنسان أحبها، أى إنسان تستطيع أن تهبه حبها، إذا وجد أى واحد يحتاج إليها بالفعل.....!

كان لورنس فى الانتظار، مع آخر عبارات التسبيح، قام وهو يصيح صيحات الانتصار. التفت ثم رفع عصاه، ثم تقدم بينما سار وراءه براندون. الآن، كما هو الحال دائما، سرت بعض همسات الإعجاب والتقدير فى القاعة بينما يتقدم الأرشدياكون ليقف أمام المنبر، أخذ السياح يتهامسون فيما بينهم، من هو هذا الرجل الأنيق بديع المنظر والشكل، لذا تجدهم وقد أمالوا أعناقهم منتبهين لكل كلمة ينطق بها. نعم، هو منظره مبهر، رأسه مرفوعة إلى أعلى، كتفاه مشدودتان إلى الخلف، وقاره الجليل فى خدمتهم بكل لطف وإبداع. هو فى خدمتهم وخدمة الله أيضا.

منظره أشعل نارا فى قلب زوجته. أخذت تحدق فيه كأنما تراه للمرة الأولى، لكن هى فى الواقع لم تكن تنظر إليه كما هو حاله الآن، لكن كما كان شكله هذا الصباح عندما انحنى عليها وهو مازال مرتديا بنطلونه وقميصه، ثم هذه الحركة التى ندت منه والتى بدا منها أنه مقبل على أن يحملها حملا من فوق السرير.

أغلقت عينيها. صوته الغنى العميق أتى إليها من مكان بعيد. دعه يرفع من صوته، يبدع فى إلقائه كما يشاء، كل هذا لن يمس قلبها أو مشاعرها فيما بعد. لقد أفلتت منه، والى الأبد، تراءى لها موريس كما شاهدته للمرة الأولى فى حفل الشاى منذ بضعة شهور سابقة. استرجعت فى الحال تلك المشاعر التى أحست بها (وهذا ما حدث معه هو أيضا، كما تعلم)، حيث يشعر المرء كأنما هو محمول لكى يغطس فى هجير النار، ثم فجأة يلقى به فى وسط بارد. هما لا يستطيعان الآن أن يمتنعا عن تبادل تلك النظرات، أكثر من قدرتهما على أن لا يولدا فى الأصل. دع الأمور على حالها إذن. هى لا تأمل فى شىء أكثر من ذلك، فكل ما تتمناه هو تلك النظرة التبادلية. هى تشعر بالجوع، تلهث وراء هذه النظرة، يجب أن تراه كثيرا، يجب أن تكون قادرة أن تصنع أشياء من أجله، أشياء بسيطة لا يستطيع غيرها أن يفعله. هى لا تريد أى شىء آخر غير ذلك، فقط أن يكون قريبا منها، وان هناك من تهتم

به... ويأخذ باله منه. بالتأكيد ليس هناك أى خطأ فى ذلك، لا يمكن لأحد أن يحتج بالقول.......

برعشات خفيفة، أخذت تتناوب وتقبض على جسدها، بينما يداها المختبئتان داخل القفازات رطبتان ينز منهما الماء.

ردد المرتل عبارات الختام "يا أبنائى الأعزاء، أحبوا بعضكم بعضا"

الكل وقف، ما عدا الليدى سانت-ليث، فإنها ظلت جالسة فى مقعدها بكل عظمة، تنظر حولها كأنما تتحدى أى إنسان يجرؤ أن يخبرها أن ما تفعله هو الخطأ بعينه.

نعم، هذا كل ما تريده وترغبه آمى براندون. من ذاك الذى يستطيع أن يخبرها بأنها على خطأ فيما ترغب وتبغى؟ لقد انتهت أحداث تلك المعركة الصغيرة.

من سوف يلقى العظة اليوم هو القس فوستر، ودائما ما إن تنتهى الصلوات الروتينية، حتى نجد أن بعض الزوار والسياح وبعض العامة يغادرون. فليس هم فى حاجة للمزيد. وهذا لا يهم بالطبع طالما أنهم احتلوا المقاعد الخلفية، وليس هناك من يود أن يشاهدهم وهم يغادرون.

لكن فى الأيام التى فيها يتصدى القس فوستر لإلقاء العظة، نلاحظ أن هناك عددًا من الأرستقراطيين يغادرون أيضا. كان هذا ملفتا للنظر لأن مقاعدهم مميزة وفساتينهن من الحرير. كثيرا ما تكون الليدى سانت-ليث واحدة منهن، لكنها اليوم غطست فى مقعدها كأنما هى مستغرقة فى سبات عميق، ولا تند منها حركة. أما مذنبات اليوم فهن مسز كمبرمير، وألين ستايلز، كذلك مسز سامبثون.

لذا تحدث خشخشة الملابس الحريرية، كذلك الصوت الصادم للباب الجانبى للخورس وهو يقفل وراءهن، ثم يحل الصمت مرة أخرى، لا يقطعه سوى الصوت الغاضب للقس فوستر وهو يردد "دعونا نصلى".

خارجا كان الجو لطيفا، حيث غطت شمس أبريل الهادئة مربع العشب الذى استقر وسط الأعمدة المستديرة الكثيفة.

وقفت مجموعة السيدات للحظات ينعمن بذلك السكون المشمس، بينما الكاتدرائية خلفهن فى حالة من السكون؛ كانت ألين ستايلز فى قمة المرح وهى تخطر وفوق رأسها قبعة جميلة مزينة بالورود وقد وضعتها على جانب من رأسها، وترتدى فستانا حريريا قرمزيا ضيق عند الوسط، يصل عاليا حتى يكاد أن يبلغ كتفها المحشو، فى الواقع منظرها لم يكن موافقا لموضة أيامنا هذه.

شرحت مسز سامبثون بأنها تعانى بالفعل من أسوأ أدوار الصداع النصفى الذى عهدته فى حياتها كلها، إنها لم تستطع بأى حال أن تستكمل الصلوات أكثر من ذلك، لذا انبرت مس ستايلز لتعزيها وتطبطب عليها:

"أنا متأسفة جدا من أجلك. أعلم تماما كيف تشعرين عندما تصيبك مثل هذا الحالة. بصراحة لا شيء يصلح معها، أليس كذلك؟ أعلم أنك قد جربت كل شيء، وهذه الحالة تستمر معك أيامًا وأيامًا. أسوأ فى هذا الأمر هو أن هذه الحالة، معك أنت بالذات قد أصبحت مزمنة. ليس هناك طبيب يمكن أن يصنع شيئا لك طالما أنها تحولت وأصبحت مزمنة. سوف تظل هكذا حالتك حتى نهاية أيامك!"

أحست مسز سامبثون برعشة صغيرة تسيطر عليها، قالت وهى تئن:

"يجب على القول أن الدكتور باديفوت له نفع بسيط فى هذا الشأن"

قالت مس ستايلز باحتقار "أوه، باديفوت! هذا شخص متخلف. لكن هو له فائدة عظيمة فى مدينتنا هذه، فأى مريض عليه أن يموت فورا. لا آمال زائفة، على الأقل نحن نعلم أين نقف"

ساروا جميعا فى ممر الشهداء تحت أشعة الشمس التى غطت كل منطقة الملحقات.

قالت مسز كمبرمير "يا له من يوم ظريف؛ سوف اخرج بكلابى لنتمشى قليلا. بالمناسبة يا ايلين، كيف كان الحال فى حفل مس بورنت؟ اننى لم أرك منذ ذلك الحين"

كركرت مس ستايلز بالضحك "أوه، كانت بالفعل حفلة لطيفة؛ لن تتاح لك أبدا فرصة أن تشاهدى مثل هذا الخليط من البشر. لا أعتقد أن مس بورنت كانت تعلم كيف هو حال أى فرد من المدعوين، ليس لأنه يعوزها الوقت للتفكير، المسكينة، لا، هى كانت مشغولة للغاية بموضوع تقديم الشاى، أما تلك الوصيفة التى تعمل عندها، فلن ترى أبدا مثيلا لها! "

"تقولين خليط؟ من حضر هذا الحفل؟"

"أوه، القس روندر وبنتك ميجور ومسز براندون و.... أيوه نعم! فى الحقيقة كان معها فولك براندون! "

"فولك براندون كان حاضرا؟"

"نعم، أليس هذا غريبا؟ لم أكن أظن أن له وقتًا لمثل هذا....مع ذلك، لقد حذرتنى من قبل أن لا أفضفض على راحتى، لذلك أنا...."

"لمن تحدثتِ؟"

"تحدثت مع مس بورنت معظم الوقت، كنت أحاول أن أخفف عنها، لا أحد كان مهتما بها على وجه الخصوص"

"هى إنسانة غبية، كما أعتقد"، هذا ما غمغمت به مسز سامبثون "بالطبع معرفتى بها قليلة"

ضحكت مس ستايلز "تقولين غبية! لماذا؟ هى ليس لديها أى فكر فى دماغها. أعتقد جازمة أنها لا تعلم أن سنتنا هذه هى سنة اليوبيل الماسى لملكتنا المحبوبة. هذا مؤكد"

هبت ريح بسيطة حول قبعة مس ستايلز الكبيرة، تحركوا جميعا إلى الأمام.

توقفت مس ستايلز وحملقت فى مسز كمبرمير بنوع من التمعن "أعلم انك لا تحبين الاستماع للفضائح، لكن أنا متأكدة أن تلك ليست فضيحة- ليست هى كذلك قطعا- "

"وبعدين يا ألين، اطلعى بها "

"حسنا، إنها مسز براندون ومستر موريس، لقد التقطت بينهما اغرب النظرات"

سألت مسز كمبرمير، بينما وقفت مسز سامبثون وقد فغرت فمها، ناسية صداعها العنيف.

"بالطبع هو لا شىء مؤكد، لكن على كل حال، كانا هما الاثنان واقفين عند النافذة يتحدثان، ينظر كلاهما فى عين الآخر. حسنا، حدث هذا كأنما هما يعرفان بعضهما بعضا منذ آماد طويلة. أؤكد لك...."

التفتت إليها مسز كمبرمير "من أسوأ العقول فى بلدتنا هذه يا الين، تأتى أنت فى المقدمة. وقد أخبرتك بذلك من قبل. إذن لم يعد فى استطاعة أحد أن ينظر فى عين الآخر هذه الأيام. لماذا، ربما يمكن لك أن تقولى بأننى أنا أيضا كنت أحملق فى روندر خاصتك، عندما أتى لحفل الشاى عندى بالأمس"

قالت مس ستايلز ضاحكة "ربما أقولها، إنها قصة طريفة أن تنشر، بجد، لماذا لا تنتهزين هذه الفرصة؟ أنتما مناسبان لبعضكما"

قالت كمبرمير وهى مقضبة الجبين "مرة واحدة معى فيها الكفاية. الآن تحركى يا الين، لا داعى لذكر المآسى، دعى المسكين موريس فى حالة"

قالت مسز سامبثون وقد فغرت فاها حتى آخره "مسز براندون ومستر موريس! حسنا، هذا شىء عجيب بالفعل"

تفرق شمل السيدات، وتركن منطقة الملحقات إلى السلام الذى يحل فى يوم الأحد الجميل الهادئ"

## الفصل الثالث

# مقدمات هذا اليوم من شهر مايو

يعتبر شهر مايو هو أفضل الشهور فى جليبشاير، حيث يكون النهار دافئا لكنه ليس حارا، والسماء زرقاء لكنها ليست شديدة الزرقة، الهواء لطيف لكنه ليس حادا. الوديان معشبة مليئة بالورود والزهور، طيور الوقواق تصيح وتطير عبر المياه الزجاجية للموانئ الزرقاء، وأشجار القندول برائحة العسل تنتشر بين الصخور.

أيام شهر مايو هذا العام فى بولشستر كانت دافئة مبهجة، مع طائر وقواق لحوح استقر فى مكان ما فى حديقة العميد، بينما هناك طائر كنارى له صوت حاد فى نافذة مس دوبل المفتوحة.

فجأة أدرك أهل بولشستر أن الصيف قد اقترب عليهم، لذا فتحت الأبواب وتم إرواء الحدائق بالمياه جيدا، وتم سحب ملابس الصيف من أماكن حفظها، بينما علق رجل المكتبة، مستر مارتين، عدة مناظر لمدينة بولشستر على نافذة المكتبة، وتغطت كل الممرات الظليلة فى ميدان السوق بأوانى زهور الربيع اليانعة، وظهرت أيضا عربة المياه التى يمتلكها سيمون العجوز وقامت بجولتها وهى تهتز فى الشارع الرئيسى.

كان هذا حسنًا وعاديًا للغاية، لكن ما ميز هذا الربيع عن غيره هو أن فى ذلك العام سوف يتم الاحتفال باليوبيل الماسى لملكتنا المحبوبة فيكتوريا. لذا فى ذلك اليوم الحار من شهر مايو، أدرك سكان بولشستر فجأة أن هذا الاحتفال أصبح وشيكا، لكن هذا الحدث لم يكن له نفس الإثارة والجدية التى كانت عليها أيام

الاحتفال باليوبيل الذهبى عام ١٨٨٧. ربما كان الإحساس السائد فى لندن والمدن الإنجليزية المختلفة هو إحساس بالتكرارية. لكن بولشستر كانت تقع بعيدا عن خطوط المواصلات العامة، وبالرغم من أن صورة هذه السيدة العجوز الرائعة، وهى الآن فى الثمانين من العمر، كانت قوية وعظيمة فى نظر الجميع. فإنه كان هناك تصميم قوى فى بولشستر أن يكون احتفال هذا العام هو أعظم الاحتفالات، وأن يعتبروه أيضا هو احتفاء بأعظم رجال بولشستر، وبتاريخ بولشستر وتقدمها أيضا.

لقد تم وضع برنامج الاحتفال منذ فترة - القداس العظيم الذى سوف يكون محضره فى الكاتدرائية، ثم الحفل الراقص الذى سوف يكون مقره قاعة الاجتماعات العامة، مهرجان الزهور الذى سوف يكون فى قلعة سانت-ليث، موكب المشاعل، مسابقة الكريكت، حفل شاى الأولاد الصغار، مباريات كريكت الأولاد. أنه سوف يكون احتفالا رائعا، وقد عقدت عدة اجتماعات للجنة الاحتفال التى تتكون من الأسقف، العمدة، الكونتيسة سانت-ليث، هم جميعا رؤساء الاحتفال.

مع ذلك، فإن جليبشاير تتبعها بعض التعبيرات اللغوية التى تختص بها، فمدينة بولشستر أطلق عليها النقاد وصف المدينة "الكسول"، يجب هنا أن نعترف بأن كل ما له صلة بالاحتفال باليوبيل كان يعمل هذه المرة بنوع من التكاسل، إلى أن حل هذا اليوم من شهر مايو وقفز الجميع للعمل. هنا عقد العمدة اجتماعا لفرع لجنة المدينة، والأسقف فى مقره فى كاربلدون، استدعى معاونيه، أما جوان فقد وصلتها رسالة من جلاديس سامبثون تدعوها لأن تحضر إلى قصر سامبثون لكى تشارك بجهدها فى هذا الاحتفال العظيم. لقد تقرر بمعرفة السلطات العليا أنه من الأفضل أن يعهد لفتاتين من فتيات بولشستر أن يكونا مسئولتين عن العلمين اللذين سوف يزينان قاعة الاجتماعات فى ليلة الحفل الراقص، لذا قامت الآنسة جلاديس سامبثون، التى لا تشبه إطلاقا والدتها، ولا تعانى إطلاقا من الصداع المؤلم، وهى فتاة قوية، ذات عزيمة ومضاء، بل يمكن اعتبارها ذكرا، باستدعاء كل معاونيها.

لا أود القول إن بولشستر تتمتع بروح وثابة أكثر من المدن الأخرى التى بها كاتدرائيات، لكن ليس هناك شك، أنه منذ ثلاثين عاما، كانت الخطوط تحدد بوضوح تام ما بين "الكاتدرائية" و"الآخرين".

الكاتدرائية لا تشمل فقط بنات القسس، لكن من ضمنها بنات أخت الدكتور باديفوت، أيضا جريس وآنى ترودون، ثلاث بنات ماكنزى، محامى المدينة؛ البنت الصغيرة بيتى كولندر، وهى الابنة الوحيدة للميجور كولندر ذى الوجه الأحمر؛ أيضا مارى وآمى فوريستر، بنات الأدميرال فوريستر؛ وبالطبع معهن بنات سانت - ليث.

لذا عندما حضرت جوان إلى بنت العميد، كان هناك تجمع عظيم، قد يوصفون جميعا "بالسذج" من وجهة نظر الجيل الجديد. تجمع معهم أيضا ليدى روز وليدى مارى، اللواتى قاربن الأربعين من العمر، وليس الثلاثين، لديهن بالطبع خبرة لندن، بل وسافرن فعلا إلى باريس وروما.

من ضمن "الأخريات" فى ذلك الوقت، فقط هناك بيتى كولندر التى ولدت فى الهند، أما بنات فوريستر فلم يذهبن إلى أى مكان أبعد من مدينة مجاورة مثل درايماوث. كانت كل حياتهن مرتبطة تماما ببولشستر، لقد عشن فيها وتمتعن بملاذها، الكلام والرغى، الكروكيه، ركوب الدراجات (تحت ملاحظة قوية)، وفى المناسبات البعيدة (البعيدة حقا) للاشتراك فى تمثيل مسرحيات للهواة فى قاعة الاحتفالات.

أكثر من ذلك، كن دائما ما يشعرن بسعادة غامرة هنا ويتمتعن بصحة جيدة. بالنسبة لمعظمهن، كانت رواية "جين اير" ما زالت من الكتب الممنوعة، أما ركوب القطارات فهى مغامرة محفوفة بالمخاطر.

بولشستر بالنسبة لهن هى العالم بأثرة، والعالم هو بولشستر، كن يقتربن بمقدار قرن من الزمان بعالم جين أوستن أكثر من قربهن لعالم جورج الخامس.

رأت جوان، وهى تشعر براحة عميقة، ما أن دخلت القاعة، أن نساء عائلة سانت-ليث لسن موجودات. كان هؤلاء يشعرنها بالإحراج، فهن أكبر عمرا عن الأخريات، وكن يحملن معهن قدرا كبيرا من الضيق.

أى غريب كان يحضر فى هذا الوقت بالذات فجأة، سيشعر على الفور بجو المرح والسعادة المرتسمة على الوجوه، وقد فتحت النوافذ العليا لغرفة الطعام، التى تطل على سهول متدرجة الهبوط حتى تصل إلى نهر بول، ثم تتدرج عالية حتى تصل إلى الغابة. كانت الأشجار ذات لون قرمزى وهى تحت شمس الربيع، بينما زهور البنفسج تتمايل فى الحديقة، وهناك سحب سهمية ذات لون برتقالى خافت تسبح كأنما هى ريش الطيور فى السماء.

تم إخلاء غرفة المائدة للعمل عليها، بينما وقفت جلاديس سامبثون وعليها مظاهر الجد والأهمية فى نهاية المائدة تحت صورة سيئة مرسومة لأبيها، وهى توجه العمليات. معظم الفتيات كن يرتدين بلوزات من الموسلين الأبيض، مرتفعة عند الأكتاف ومرتفعة عند الوسط ومقفلة جيدا عند الرقبة- فقط هن فتيات ماكنزى، اللاتى لا يجدن بأسا من الاشتراك فى حفلات اصطياد الحيوانات البرية، ويلعبن التنس ببراعة، ولديهن، هن الثلاثة، وجوه حمراء لامعة، كن يرتدين ملابس من التويد الثقيل، الذى بدأت فى ذلك الحين باعتبارها الموضة الجديدة.

أما جوان التى كانت من الممكن منذ شهر أو اثنين، أن تذوب خجلا بسبب اقتحامها غرفة الطعام فى قصر سامبثون، لكن هذه الأحاسيس غادرتها، لذا تجدها وقد هزت رأسها تحيى جلاديس بشكل طبيعى، ثم ابتسمت لبنات ماكنزى، ووجدت لها مكانا وسط سينثيا وجين دى - أركى.

جلسن جميعا، يغمرهن ضياء الشمس، ينظرن نحو جلاديس سامبثون، وهذه قامت بتسليك حلقها ثم صاحت بصوتها الجهورى- خلق صوتها من أجل الاجتماعات: "الآن، جميعكن يعلم لما نحن هنا. نحن هنا بالطبع لنصنع علمين

كبيرين لقاعة الاجتماعات العامة، علينا أن نقدم أفضل ما لدينا، فليس لدينا وقت كاف من اليوم حتى يوم ٢٠ يونيو، لذا علينا أن نعمل بكل حماس، لذا أقترح أن نأتي إلى هنا عصرية كل يوم ثلاثاء وجمعة، وأقصد بكلمة "هنا" هو أن اجتماعنا سوف يكون فى منزل أى شخص آخر، لأنه بالطبع لن يكون مقرنا الدائم هنا. أمامنا العديد من القص والتفصيل، وهناك عمل دائب مطلوب منا، لأنه بعد حكاية العلمين الكبيرين، هناك الأعلام الصغيرة المطلوبة لمدرسة الأولاد. الآن، أية واحدة فيكن لديها اقتراح ما، أرجو أن تدلى به"

لم تحر أى واحدة منهن إجابة، بل اكتفى الجميع بالابتسام والتحديق فى صورة العميد. ثم علقت واحدة من بنات ماكنزى، بصوت جهورى:

"هذا كله حسن يا جلاديس، لكن من سوف يقترح أن هذا أو ذاك سوف يصنع ماذا؟ لطيف أن تطلبى منا تقديم يد المساعدة، لكن نحن جميعا لسنا مهرة فى موضوع الحياكة، ولم نكن هكذا أبدا"

"أوه، لدى أسماء من سوف تعمل ماذا، وكل من تظن أن العمل المطلوب منها غير مناسب، أرجو أن تخبرنى"

فى الحال تم توزيع المواد وتكونت مجموعات عمل حول الغرفة، وثارت نوعية من التعليقات والحديث المشترك كأنما هى ثرثرة مجموعة من عاملات النحل، وبينما هبطت الشمس خلف أشجار الغابة، تحول لون الجو إلى القرمزى الداكن، وأصبح لون النهر رمادى باهت. سقطت أشعة الشمس الآن داخل الغرفة على هيئة بقع ومربعات، ثم ساد جو الغسق على الغرفة وبرقت الفساتين البيضاء كما لو أنها ترى خلال لوح من الزجاج. كان الجو فى الخارج باردا، لكن جو الغرفة كان دافئة بسبب أن جدرانها احتفظت بكثير من أشعة الشمس التى سقطت عليها.

جلست جوان ما بين جين دا-أركى وبيتى كالندر. شعرت بالسعادة تغمرها لأنها تشعر بالراحة هكذا؛ أحست أنها فى أمان وتغمرها الطمأنينة. فى الحقيقة، خلال تلك الأسابيع الماضية، أصبحت المعيشة فى منزلها لا تطاق وصعبة- ليست فقط صعبة، هى حالة جديدة وغريبة، ولا تجد تفسيرا لما يحدث معهم. أصبحت الحياة مؤخرا لغزا عويص الحل، خلف هذا اللغز هناك نوع من التكهن، وهو تكهن لم تعهد مثيله من قبل. وبينما هى تشعر بالراحة هنا فى تلك العصرية الباهرة، وبينما تمر منها وإليها القطع الحريرية البيضاء، حاولت بينها وبين نفسها أن تتفهم مجريات ما يحدث فى منزلها. والدها هو إنسان بسيط، لكنه بدأ مؤخرا يعانى من بعض الأوهام والطباع الخشنة. منذ طفولتها كانت تراقب تلك الأوهام وتخشاها، وقد تبدت هذه الطباع، وهذا الهوس فى عديد من المناسبات، البعض منها خفيف الوطأة والآخر لا يحتمل. هناك مثلا منازعاته مع الحكومة، العميد، مجلس المدينة، مجلس الكنيسة، الخورس، خطاب غير مهذب يصل إليه، مرة أخرى مقال لم يعجبه منشور فى صحيفة. هذه جميعا تظهر على شكل حيوان مفترس يبرز من ثنايا غابة كثيفة ثم يهجم عليه، بعدها يبدأ العراك بمحضر من عائلته، ودائما ما يكون النصر حليفه فى النهاية، ثم يحل السلام لفترة. كانت آخر ثورة خاصة باشتباك مع مجلس المدينة بخصوص مشكلة تختص بالصرف المائى.

فقط قبل عودة فولك، كانت جوان تهنئ نفسها بسبب أمارات السعادة التى تكسو وجه والدها، ولعلها أدركت أنه دائما بعد فترات الهدوء تحل عواصف جديدة وتظهر لها بعض البوادر. فعلا، فى نفس يوم عودة فولك مطرودا من الكلية، حضر القس المدعو روندر.

القس روندر، كم كرهت هذا الاسم! لقد كرهته ما أن وقعت أنظارها عليه. لقد اشتمت، بطريقة لا شعورية تلك المتاعب التى تكمن وراء هذه النظارة الضخمة والابتسامة العريضة. هى الآن تسمع فى بيتها اسم روندر هذا أثناء الإفطار والغذاء

واحتساء الشاى. فى كل شأن، تلاحظ أن أصابع هذه الرجل مغموسة، فوالدها يتلمس شكله الدائرى وراء كل باب، وخدوده المتوردة خلف كل نافذة.

مع ذلك، كان من الصعوبة بمكان عليها أن تكتشف ما الذى فعله هذا الرجل! فالآن، كل خطأ يحدث فى منزلها، فى الكاتدرائية، فى المدينة، فإن والدها على يقين كامل أن روندر هو المسئول عن هذا الخطأ - لكن أين الدليل، حسنا، لا يوجد. كان نقص الدليل هو الذى أضاف إلى الحالة الصعبة التى يشعر ويتصرف بها والدها.

فى كل مكان يحل فيه روندر، نجده يتحدث عن الأرشدياكون بحماس وحمية، وهذا التقريظ كان يصل لأسماع جوان. "إذا كان هناك أى شخص فى هذه المدينة يستحق كل الثناء....."، "نحن سعداء الحظ أن يكون بيننا حضرة الأرشدياكون، لأنه.....". لكن مع ذلك، ألا تصدر بعد هذه التعليقات نوع من الضحك والاستهزاء، شىء له صلة بذلك اليوم العظيم عندما خطف الفيل القبعة من فوق رأس والدها؟

إنها تحب والدها، وقد زاد حبها له أضعافا عندما ركبا سويا عربة متجهين إلى القلعة فأمسك بيدها، لكن هذا الهوس الذى حل عليه منع أى تواصل بينهما؛ إنها تتمنى أن تفعل أى شىء لكى توضح له أنها معه قلبا وقالبا، مستعدة أن تشتم روندر فى السوق، أن تدير له ظهرها عندما يتحدث معها، وفى نفس الوقت، كان يختلط بهذا الفخر بوالدها نوع من الحيرة عن الكيفية التى بها سمح والدها لنفسه أن تهتم بهذا الرجل، فهو أعظم وأكفأ من مليون روندر.

هذا الموقف الذى استغرق كل عائلة براندون، لم يخفف عنه هذا الاستلطاف الذى يكنه فولك لهذا الرجل البغيض روندر. لا تدعى جوان أبدا أنها تفهم أخاها، أو أنها كانت يوما لصيقة به، فعندما كانت هى صغيرة فى العمر، كان هو يبدو فى نظرها كأنه من عالم آخر، أما الآن وقد كبرا سويا، كان يبدو فى نظرها غريبا

كأنما هو آت من قطر آخر. لقد عرفت أنه لا يعمل لها حسابا فى حياته، ولا يفكر فيها إطلاقا أو حتى يريدها. هى لا تهتم بذلك، فقط ما يشغل تفكيرها هو ذلك الاهتمام والقلق الذى يستغرق والدتها بشأن فولك. لاحظت خلال الأسابيع السابقة أن والدتها تراقب كل خطوة يخطوها ابنها، ودائما ما تكون عيناها فى حالة تفتيش لوجهه كأنما هو يخبئ عنها سرا، أما بالنسبة لجوان، فهى لا تصدق أبدا أنه من الممكن أن يستطيع إنسان أن يدير حياتين فى نفس الوقت، لذا نظرت إلى هذا الموقف باعتباره شيئًا غير عادى فيه قدر كبير من المبالغة.

لكنها هى تعلم يقينا أن أمها لم تحاول أبدا أن تفضفض بمتاعبها لابنتها. كل شىء الآن فى بيتها أصبح صعبا ومرتبكا. لا أحد فيه يشعر بالسعادة، لا أحد يتصرف بشكل طبيعى، حتى تاريخهم الخاص، إذا نظرت إليه بتمعن، فلا تبدو فيه أضواء تبعث على التفاؤل. إنها لم تشاهد جونى سانت ليث منذ أسبوعين، لم تسمع عنه شيئا، وهذا الكلمات الطيبة التى استمعت إليها تحت قنطرة أردن، بدأت فى الانزواء كأنما هو حلم. مع ذلك، فإنه إذا نظرنا إلى الصفات التى تتمتع بها جوان براندون، وأكثرها أهمية، هى بكل بساطة مقدار ثقتها فى العمل أو الشخص الذى ارتبطت به.

شكوكها تنحصر ببساطة فى تعجبها عما إذا كانت قد استنتجت من كلامه أكثر من اللازم، وأنها قد بنت قصورا وأحلاما كأنما هى تعاين قصة خيالية.

بهزة من رأسها، علقت كل متاعبها وتعجبها على التأمل فى الحديقة التى كساها لون ذهبى، وركزت كل اهتماماتها على الحديث مع البنات التى أحطن بها. إنها معجبة للغاية بالآنسة جين دى-أركى، فهى فى منتهى الأناقة والرقى، كل ما ترتديه هذه الآنسة يصبح مطابقا لجسدها النحيل المستقيم، ووجها الحاد الباهت دائما ما يكون فاتر التعبير، كما لو أن ممارسة الحياة اليومية هو عبء ثقيل عليها، ليس لائقا للعظماء من الناس. لقد قيل لها، منذ أيام موغلة فى القدم، أن صوتها "خفيض وموسيقى الجرس". لذا تجدها الآن تتحدث فى همسات، وهذا بالطبع يدمغ أفكارها

بأهمية خاصة ربما لا تستدعى ذلك فى كل الأحوال. أما من تختلف عنها تماما فهى الآنسة بيتى كالندر، فهى مستديرة الشكل وردية اللون كأنما هى تفاحة، مع بعض النمش فوق أنفها، ولها عينان زرقاوان لامعتان، هى تضحك كثيرا وتفضل أن توافق على أى شيء ينطق به أحد.

قالت جين وهى تهمس كعادتها "إذا سألتنى، فهناك كثير من السخافات ارتبطت باحتفالات اليوبيل هذا"

أجابت جوان "أوه تعتقدين ذلك؟"

"نعم، فالملكة فيكتوريا العجوز ظلت فوق العرش مدة طويلة، نحن فى حاجة إلى وجوه جديدة"

شعرت جوان بصدمة بالغة وهى تستمع لهذا القول، وعبرت عن ذلك، لكن جين بادرتها بالقول "لا أعتقد انه من المناسب أن يحكمنا الطاعنون فى العمر، يجب أن يدفن أى شخص تعدى سن السبعين من العمر، سواء أراد ذلك أم لم يرد"

ضحكت جوان بصوت عال، قائلة:

"بالطبع هم لن يرضوا بذلك"

تناثرت الضحكات من هنا وهناك وشمل الغرفة كلها. كلهن كن يشعرن بالسعادة والحبور بشكل ثلاثى، أولا لأن بولشستر قد انتخبتهم لصنع ما هم مشغولين به الآن، أيضا لأنهم يصنعون عملا له أهمية خاصة، كذلك بسبب قدوم الصيف.

رفعت جين دا-أركى رأسها وهمست "لقد أخبرنى والدى أنه ربما يأخذنا إلى لندن لنشاهد احتفالات اليوبيل هناك"

قالت جوان "إننى لن أذهب حتى لو دعانى أحد، فأنا أفضل أن أشهد احتفالات بولشستر. بالطبع أرحب أن أشاهد موكب الملكة، لكن هذا سوف يكون

للحظات فقط، أما من تجمعوا من حولك من جمع غفير، فأنت لا تعرفين أحدا منهم، بينما هنا، أوه! سوف يكون الاحتفال رائعا!"

ابتسمت جين "يا لك من طفلة غريرة، أنت لا تعرفين شيئا عن لندن، وكيف يتسنى لك ذلك؟ اعطنى أسبوعًا واحدًا فى لندن، حينئذ سوف تنسين كل شيء يمت بصلة ببولشستر إلى الأبد. ما الذى يمكن أن يحدث فى بولشستر؟ مجرد عدة مباريات سخيفة من الكريكت، وحفل راقص وحيد يعقد فى قاعة الاحتفالات، ولا تشاهدين أبدا وجها جديدا"

قالت بيتى كالندر "حسنا، هناك بالفعل شخص جديد وصل مدينتنا، لقد رأيتها هذا الصباح"

سألت جين وفى عينيها أمارات الاحتقار "تقولين هى، من هى؟"

"كنت مع والدتى فى السوق، عندما مرت بنا عربة الليدى سانت ليث، كانت هى برفقتها، قالت أمى إنها الآنسة دوبنى من لندن. آه! منظرها بالفعل رائع! قالت ماما إنها قد أتت لتتزوج جونى سانت ليث"

قالت جين وما زالت أمارات الاحتقار مرتسمة على وجهها "أوه، علمت أن هذا سوف يحدث، يا لك من سخيفة يا بيتى! أنت تظنين أن أية واحدة تفد إلى لندن بالضرورة يجب أن تكون فى قمة الجمال"

أصرت بيتى "لا، هى بالفعل كذلك، وهذا ما أكدته لى والدتى، كانت معها مظلة حريرية لونها أزرق. هى فى قمة الجمال، وكان برفقتهم اللورد سانت ليث"

قالت جين "يا له من مسكين جونى هذا، إنه مضطر دائما أن يفعل ما تأمر به أمه الشنيعة"!

استمعت جوان إلى كل هذا الحوار متمسكة بكل ما تملكه من شجاعة وتحمل. إذن فقد حل يوم الحساب؟ تم النطق بالحكم؟ أتت بالفعل الآنسة دوبنى.

استطاعت أن تستمع مرة أخرى لصوت الكونتيسة وهى تقول "انها كلير دوبنى، ابنة مونت ايجل، يا لها من فتاة جميلة! هى صديقة جونى"

صديقة جونى! بالطبع هى كذلك. لا شىء يستطيع أن يبين لها بشكل واضح الفرق بين عالم جوان وعالم سانت ليث أكثر من وصول هذه الغريبة الجميلة، أما جوان فهى تنتمى لجيل سابق. أحست بالارتعاش يتملكها خوفا من تعرضها لأى نوع من العلانية، من أن يزج بها فى أى شأن يختص بهذا الموضوع المثار. بالطبع، جونى ينتمى إلى هذه المخلوقة الجميلة، لقد علمت فى عمق أعماق قلبها أن حلمها هذا هو الاستحالة فى حد ذاتها، شعرت فجأة أن الغرفة، كذا ضياء الشمس، الأقمشة البيضاء، المائدة الطويلة اللامعة أمامها، الحرير، الأشرطة، بدأت جميعا تعوم أمام عينيها وتختلط مع بعضها البعض. أحست فجأة أنها فى قمة التعاسة، يداها ترتعشان وشفتها العليا ترتجف. تملكتها رغبة جامحة أن تعثر على الآنسة دومنى وأن تخطف منها مظلتها الجديدة الزرقاء وتضربها على أم رأسها.

قالت جين "حسنا، إننى لا أحسد أية إنسانة تتزوج جونى- لأنها سوف تحبس داخل تلك القلعة المليئة بالنساء العجائز!"

أخذت بيتى تهز رأسها بكل وقار محاولة أن تبدو أكثر من عمرها.

اختفى ضياء العصرية، لذا قدمت جلاديس لتقفل النوافذ "أعتقد أنه يكفى ما صنعناه اليوم، الآن سوف نحتسى الشاى"

كانت رغبة جوان العارمة هى أن تهرب منهم وتذهب لمنزلها، لذا وضعت عملها فوق المائدة وعبرت الغرفة لتجلب معطفها من الجانب الآخر.

أوقفتها جلاديس "لا تذهبى يا جوان، يجب أن تشربى الشاى معنا"

"لقد وعدت والدتى...."

فتح الباب. التفتت جوان، فوجئت أن من دخل عليهم هو العميد وخلفه القس روندر. تقدم العميد وهو يفرك يديه بشكل عصبى كما هى عادته "حسنا يا أولاد"، قال ذلك وهو يطرف بعينيه. وقف روندر خلفه يبتسم للجميع. ما أن شاهدته جوان، حتى امتلأ قلبها بكراهية بالغة- كراهية غير طبيعية أو منطقية؛ إنها لم تكره أحدًا من قبل، ربما كرهت مرة مدرستها مس كلير الفرنسية. الآن، من أى مصدر حل عليها هذا؟ هى لا تدرى، شعرت بخوف وعواطف محتدمة تسيطر عليها.

مظهره كان لطيفا محببا للنفس. كالمعتاد، كانت ملابسه أنيقة وتفصيلها رائع، قميصه ابيض ناصع لا تشوبه شائبة، حذاؤه يبرق.

أخذ ينحنى نحوهن بالتحية جميعا، شعرت جوان برد الفعل الذى شمل كل من بالغرفة. أنهم يقدرونه ويحبونه، لقد أصبح له قبولا شعبيا.

هو يمثل لهم كل ما هو صالح ولائق، هو ليس من النوع المتصنع أو يتصرف كالأطفال مثل العميد، ليس متعاظما مثل بنتك-ميجور، أو متحذلقا مثل رايل. إنه لا يقدم نفسه إليهم كأنه أفضل منهم، هو واحد منهم، يفهم تماما بالضبط كيف يبدو أمامهم.

جوان تكرهه، كرهت وجهه الأحمر وأناقته وصدره العريض وساقيه السمينتين- كل شيء فيه، كل شيء؛ هى أيضا تخافه وتخشاه، وبالرغم أنها كانت على وعى كامل بمدى قوته، وأكثر وعيا بما يربطه بها، خيل لها كأن شكله المستدير، فى تلك العصرية الرائعة، أنه زحف حثيثا ولمس بظله الكئيب للمرة الأولى بيت آل براندون.

صاحت جلاديس "قس روندر، تعالَ وانظر... ماذا أنجزنا حتى الآن"

تقدم روندر، ربت على رأس بيتى كالندر أثناء مروره "هل أنت بخير يا عزيزتى، ما أخبار والدك؟".. كان وضحا أن بيتى قد شملها سرور بالغ بما نطق به. فجأة شاهد جوان:

"أوه، مساء الخير يا آنسة براندون" غير من لهجته فى مواجهتها، تحدث معها كأنهما صنوان. نظرت جوان نحوه، وهرب اللون من خدودها. لم تجب، شعرت فى لحظة أنها مقدمة على ارتكاب فعل مشين، لذا اندفعت خارجة من الغرفة.

حالا، وهى تبتسم للوصيفة التى وجدتها واقفة فى الصالة، فهذا تعتبر صديقة لها، لأنها كانت تعمل يوما فى بيت آل براندون، ثم وجدت نفسها خارجا واقفة وكلها حيرة على ناصية حارة جرين مع شارع أورانج. شعرت أنها ضائعة ومحتارة، بينما هناك عاطفة تلو الأخرى تتوارد على ذهنها وتسيطر عليها. كانت ضائعة ومحتارة، كما لو أنها قد تعرضت لنوع من السحر الذى طوح بها إلى سماوت عليا ثم أسقطها إلى قطر آخر مجهول.

فى هذا المساء، كانت حارة جرين تسبح فى ضياء باهر، وقد بدت أشجار الربيع كأنما تخفى لمبات مضيئة بين أغصانها، وبدا أمامها الطريق الصاعد للتل كأنما هو من شمع باهت.

على الجانب الآخر، هبط شارع أورانج إلى مستوى سطوح المنازل، أما تمثال المواطن الجورجى الذى وقفت بجواره بدا كأنه يحرس تلك المدينة الصغيرة بوجد حقيقى. لا صوت يكسر هذا السلام الشامل، لا أحد يأتى أو يجىء، فقط هى الأشجار التى كانت تهمس حثيثا كأنما تريد أن تؤكد للفتاة مدى حبها وحدبها عليها.

لم يحدث من قبل أن شعرت بهذا الحب الذى يغلفها ويحيط بها لمدينتها. بدا الأمر هذه الليلة، كأن همومها قد زادت مقدارا، أيضا زادت مخاوفها ومعارفها العالمية. أكدت لها تلك الأشجار الصديقة أنها سوف تقف معها ضد مخاوفها، لقد أدركت أنها مقدمة على خبرات جديدة، عرفت كم هو مخيف إلمامنا بكينونة الحياة الحقيقية. تلك الأشجار أيضا طالما عانت عند إنشاء الطرق الجديدة، حيث يتم

نزعها بالقوة من الأرض، ثم تسقط حولها البيوت القديمة، والنهر يختنق والتلال تتعرى.

شعرت جوان بمدى إحساسها بمتاعب المدينة، أكثر مما تود أن تؤكده هى لها، لكن هى تشعر بقليل من الأمان والراحة.

أخذت تفكر وهى تسير فى طريقها للمنزل خلال منطقة السوق ثم عبر الشارع الرئيسى وتحت قنطرة آردن حتى وصلت إلى منطقة الملحقات الهادئة، لماذا يا ترى ظنت أن روندر هذا له هذا القدر من الأهمية؟ على كل حال، ألن يتضح بعد ذلك أنه ليس بهذا القدر من السوء الذى يبدو عليه؟ فى الواقع، كل ما شعرت به نحوه كان مصدره هو مدى غيرتها بسبب ما حدث مع أبيها. خلفت ورائها كل ما تشعر به من متاعب فى دفعة فجائية من الحنان الذى تفجر فى قلبها تجاه عائلتها. كانت ترغب أن تحميهم جميعا وتعيد لهم أواصر السعادة، لكن كيف تستطيع أن تعيد لهم تلك السعادة وهم لا يخبرونها بأى شىء؟ أنهم جميعا ما زالوا يعاملونها كطفلة صغيرة، لكن هى امرأة الآن، وكل حبها هو لجونى. هذا ما اعترفت به لنفسها أخيرا. توقفت فجأة فى الممر الخارجى للمنازل المزينة ووضعت قفازاها الباردين على خدودها الملتهبة.

أدركت أنها كانت تحبه منذ أمد بعيد، لكنها جبنت أن تخبر نفسها بذلك. يجب أن تقهر هذه المشاعر، أن تكبتها، انه أمر سخيف، غير واقعى، صعدت سلم منزلها كأنما هناك من يطاردها.

دخلت فوجدت الصالة فى حالة قريبة من الإظلام، لم يتم إضاءة اللمبات. سمعت صوتا:

"من حضر؟ "

نظرت إلى أعلى ورأت والدتها بحجمها الضئيل، تقف عند منحنى السلم تمسك بشمعة صغيرة فى يدها:

"أنا يا ماما، لقد عدت من عند جلاديس سامبثون"

"أوه، كنت أظنك فولك، ألم تقابلى فولك فى طريقك؟"

"لا يا ماما يا عزيزتى"

عبرت جوان إلى حيث يوجد الدولاب الذين يضعون فيه المعاطف، أثناء خلعها لمعطفها كانت تدرك أن أمها ما زالت واقفة....تتسمع.

***

### الفصل الرابع

## القلب الأصيل

لا يشعر روندر بأى قدر من السعادة أكثر من رغبته أن تشمل هذه السعادة كل الإنسانية جمعاء.

هو لا يستطيع أبدا أن يجبر هذه العاطفة لأن تعمل غصبا أو أن يزيفها، إذا لم يشعر بها، إذن هو لن يشعر بها، وسوف يخسر الكثير. أحيانا يكون الطقس بديعا، نظامه الهضمى ممتازا، يشعر بالحب يتدفق من قلبه على كل ما يحيط به، يحصل على عمل لطيف يقدر أن ينجزه بكفاءة – هنا نجده وقد انحنى نحو البشرية جمعاء مغدقا عليها كل الهبات والمنح. هو دائما ما يعبر عن مزيد حبه للناس، يربت على ظهور الأولاد، يساعد العجائز وهم يعبرون الطريق، يستمع إلى شكايات المعدمين والفقراء – إنه إنسان أصيل، هو يعنى كل كلمة ينطق بها، وكل ابتسامة ترتسم واسعة فى وجهه.

الآن، فى وقت مبكر من شهر مايو فى بولشستر، كان هو أسيرا لنوع من المزاج المعتدل. ما إن استقرت قدماه فى هذه المدينة، حتى أدرك أنه سوف يسعد بها ويحبها، وهى قدمت نفسها إليه بكل الحبور والترحيب، لكن لم يخطر على باله إطلاقا أن هذه المدينة قد بلغت مرحلة الكمال. كان النجاح حليفه حتى الآن، وهو لم يكن نجاحا يسيرا وغير محتاج لقدر من التخطيط وإعمال الفكر. هذه التخطيطات كانت ذات ضرورة قصوى. إنه لا يتذكر إطلاقا وقتا مر به ولم تقابله مصاعب عليه أن يجتهد للتغلب عليها. هى صعوبات يقدرها ويعمل لها حسابا. هذه المرة تركزت الصعوبة الحالية فى شخص يكن له كل الحب والتقدير، وسوف يشعر

بالحزن البالغ إذا أحس يوما أنه يكن نوعا من الكراهية أو الاحتقار لبراندون، فهذه ليست سوى عواطف ضـــارة، وهو من النادر أن يجعل واحدة منها تسيطر عليه أو تقوده.

أكثر الأمور التى يغرم بها ويحبها، فوق كل اعتبار، هو النزال والعراك الشريف، وهذا بالطبع يحتاج إلى الحذر من الوقوع فى شرك الغضب أو إحساسات المرارة، ومن ذاك الذى من الممكن أن يشعر بالغضب من براندون؟ أيضا هو لا يكن لهذا الرجل أية مشاعر احتقار، هناك عنصر من الصدق، من القوة، بل ومن النبل والأخلاق القويمة التى تعمل فى هذه المسألة.

هو أبعد من أن يحتقر أو يكره براندون، بل هو معجب به إلى حد بعيد- بينما هو مقدم على تدميره بالكامل.

ثم، وهو يقترب من قلب الدراما، لاحظ، كما كان يفعل سابقا، كيف تتلاعب المسألة بهذه الطريقة الغريبة بينما هو قابض عليها بقوة بين يديه، فأى افتراضات، لا تلزمه إطلاقا. بدا الأمر كأنه ما أن صمم على عمل شيء ما، يلاحظ حينئذ أن الأمور تسير بشكل طيع فى الاتجاه الذى توقعه بالضبط، فقد قدر الله سبحانه أن ما يفعله هو عين العقل ويوافق إرادته، لذا يدفع إلى يديه كل الأشياء لتستقر فى مكانها المخطط له سابقا. هذا الوعى بمدى ما تقدمه له العناية الإلهية، ثبتت فى وجدان روندر أن خصومه ليسوا سوى بعض من عساكر الشطرنج يحركها كما يشاء فى مباراة حسمت نتيجتها قبل اللعب.

يا لهم من مساكين، أنهم بالفعل يستحقون الإشفاق! كل هذا أضاف إلى مشاعره الرقيقة نحوهم، أيضا شحذت إحساسات المرح التى يتميز بها، وهو يرى خصومه يتلقون مصيرهم المحتوم دون أن يدروا كيف ولماذا، هو فى الواقع يعجب تماما بأى شخص يمكن أن يشحذ ويثير فيه إحساسات المرح والفكاهة.

لم يعهد من قبل أن استكانت عناصر مسألة ما بهذه السهولة بين يديه- مثلا، نجد أن براندون تمسك حتى النهاية بهذا العناد الغبى، هذا بالطبع كان مطلوبا، أيضا ما ساعد هو أن المدينة كانت تعيش فى حالة من الجهل المطبق بمجريات أمور العالم الخارجي وتمسكت كلية بكل عاداتها القديمة.

والآن، هوذا الشاب فولك، فى كثير من المناسبات، يستوقفه ليتحدث معه، وفى آخر مرة طلب أن يزوره فى منزله!

يا له من حظ حسن أن يرتكب براندون ذلك الخطأ الذى ينتوى أن يصنعه فى مسألة بايبس سانت أنتونى.

أخيرا، بالرغم من أنه صريح مع نفسه ويعلم تماما أنه يعمل، أولا وأخيرا، من أجل راحته فى المستقبل، لكنه أيضا تراءى له أنه يمنح المدينة بالفعل منفعة حقيقية.

لقد تغيرت ظروف الأزمان، فالرجال المماثلون لبراندون يعيشون فى ظلال أزمنة غابرة عفى عليها الزمن. لقد ظلت المدينة أمدا طويلا تحت السيطرة الكاملة لهذا الرجل، أما الآن فقد انتصرت الحياة - بزغ عالم جديد - وحضارة حديثة.

بالرغم من أنه لا يوجد أى إنسان يؤمن باليوتوبيا والعوالم الجديدة أكثر من روندر، لكن هو لا يؤمن أبدا بغلبة روح العصر- ببساطة هو يشعر بالراحة وليس مدفوعا بأسباب أقوى من ذلك. حسنا، هوذا روح العصر تهبط على بولشستر، وسيطها هو روندر. التقدم والرقى؟ لا، روندر لا يؤمن بهذا التقدم؛ لكن فى "مستعمرة الحياة"، هناك غرف كثيرة وبين الحين والآخر يتغير الرياش.

فى عصر يوم من أيام شهر مايو، أدرك هو أن الأمور تسير بأكثر من خطوها المعتاد، بأكثر مما يتوقع، فعندما كان يعبر المنطقة الخضراء المؤدية للكاتدرائية، تقابل مع الدكتور باديفوت، كان يدرك أن مشاعر هذا الطبيب كانت تسير أولا ضده، لكن سريعا ما تقبله معتبرا إياه "إنسان أفقه واسع إذا قارناه بأى

قس آخر، يعلم الكثير عن الحياة أكثر مما نتوقع". كان روندر ينظر بدقة إلى الأفكار وهى تروح وتجىء فى عقل الدكتور كما لو أنه يراقب سمكة زينة تتجول داخل إناء زجاجى. هو أيضا كان معجبا بمظهر الدكتور باديفوت، فهو رجل ضخم الجثة ووجهه أحمر، وهو من النوعية التى يمكن للإنسان أن يتعامل معه، بعكس من هم أنحف عودا.

كان يدرك تماما أن الوقت سوف يحين عندما يخبره الدكتور بواحدة من قصصه المشينة، والتى بها يمكن أن يعزز أواصر الصداقة.

"أهلا يا حضرة القس! "، قالها الدكتور وهو يزفر كأنما هو عجل البحر "يوم رائع!"

وقفا وتحدثا، ثم لأن وجهتهما سويا هى المدينة، لذا استدارا وعبرا سويا قنطرة أردن. تحدث باديفوت عن حالة صحته، ومماثلا لكل الأطباء، كان مهتما بنفسه وراغبا أن يؤكد لنفسه ذلك علنا "كيف حالك أيها القس؟ لكن ليس هناك داع لأن أسأل أنت تبدو فى أحسن حال، أنا عن نفسى أشعر بدفق الحياة، لم يحدث من قبل أن شعرت بمثل هذه الإحساسات. فقط شعرت الليلة الماضية ببعض متاعب الرومانتزم، لكنها لم تكن ذات شأن بالغ، المفترض أن أتوقع مثل هذه الأمور فى عمرى هذا، فأنا أسير حثيثا نحو السبعين من العمر. لا تستطيع أن تطمئن علينا نحن ضخام البدن، خذ عندك مثلا الأرشدياكون براندون..."

قال روندر وهو يدفع بنظارته الضخمة على قنطرة أنفه "طبعا لن تجد مثيلا له فى اكتمال الصحة فى المملكة كلها"

"هل تظن هذا؟ لكن أنت فى الواقع مخطئ فى تصورك هذا، يكفى صدمة مفاجئة تحل به فتكون هى القاضية ولا يجد نفسه على ظهر هذه البسيطة. هو معتاد على نوبات الغضب، ودائما ما يحمل نظامه البدنى أكثر مما هو مطلوب، هو

لم ولن يتعلم أبدا موضوع ضبط النفس، انه معرض لأن يصاب بنوبة قلبية فى أى يوم، بالرغم أنه يبدو كرجل متين البنيان!"

"حقا، يا الله!"

"بالطبع هناك أسرار طبية تسرى فى هذا الموضوع، نحن لا نعلم كل أسرارها. المظاهر دائما خادعة، هى مظاهر ملعونة. أعتقد أن عقل براندون ليس هو أقوى النقاط فى بنيانه، هذا الجزء بالذات من الممكن أن يخرب فى أية لحظة"

"يا ساتر، آسف أن أسمع مثل هذا"

قال باديفوت وهو يزفر وينفخ كأنما هو ملاك مرسوم بريشة الفنان سير جوشوا رينولدز "هو فى أية لحظة من الممكن أن يخر ميتا، أو يصاب بنوبة قلبية خطيرة، لكن مظهره الحالى هو مظهر مخادع. هو لا يرعى نفسه كما يجب"

خارج المكتبة، توقف روندر.

"سأدخل المكتبة باحثا عن كتاب معين، مع السلامة يا دكتور، أراك لاحقا"

"نعم، نعم" قالها الدكتور وهو يحملق هنا وهناك فى الشارع، بدت عيناه كأنهما سوف يغادران محجريهما "حسنا، أراك قريبا"، ثم سار هابطا التل.

عبر روندر تحت الممر المظلم المؤدى إلى المكتبة، ووجد سبيله عن طريق الإيمان أكثر من العيان، صعد بعدها الدرجات الحجرية ذات الرائحة الكريهة حتى بلغ القاعة العليا الكئيبة. بالأمس داهمه شعور ضاغط أن يعيد قراءة رواية قديمة تأليف الكاتب "بيج"، كان قد قرأها وهو ولد صغير، وهى القصة السوداوية العنيفة "هرمز برونج".

عاد إليه، فى أحلامه، شكله وهو صغير يرقد فوق شبكة هزازة فى حديقة عمه فى أمسية يوم صيفى رائع، يقضم تفاحة ويقرأ "هرمز برونج"، وهى قصة عثر عليها فى مكتبة عمه المتربة. هو الآن يود أن يقرأها مجددا، عادت إليه

رائحة قشر التفاح، كذلك تخيل الأضواء المبرقشة التى نفذت خلال أغصان الأشجار العالية، رجعت إليه أحلام أيام الصبا السعيدة....

قطع عليه فجأة سلسلة تخيلاته، وهو يتقابل مع عيون الآنسة ملتون أمينة المكتبة، هى عيون ذات هالات حمراء تدل أنها تعرضت لنشاط بكائى عنيف، كانت مكومة هكذا فى مقعدها تحدق فى لا شيء أمامها.

ابتسم لها "حسنا يا مس ميلتون، ما أريده هو كتاب قديم. لن أزعجك البتة، سوف ابحث عنه بنفسي".

عبر إلى أبعد مكان مظلم فى المكتبة، عثر هناك على سلم قديم وصعد على درجاته. فى العلا تواجه مع كل المآثر القديمة، مؤلفات هولكروفت، راداكليف، لويس وجين بورتر، كلارا ريف وماكنزى، وهى كتب ما أن يلمسها بإصبعه حتى يتناثر منها هالة من الغبار، كان سعيدا وهو يبحث وينقب بينما يحاول أن يوازن جسده الضخم على هذا السلم المتراقص، فجأة خيل إليه أنه سمع آهة. توقف، أخذ بتنصت؛ هذه المرة تأكد من سماعه، هى آهة واضحة ذات معنى وقصد صادرة من قلب الآنسة ملتون. متعجلا، أخذ يقلب فى الكتب أمامه لعله يجد مبتغاه سريعا، هو لم يكن فى مزاج حسن ليستمع إلى شكاوى وآهات مس ملتون. آه، لقد وجد الآن رواية "تلال بارهام"، بالتأكيد الكتاب الذى يبحث عنه ليس بعيدا الآن. فجأة، وصلت إليه شهقة واضحة، ثم أخرى، ثم اثنتان، تبع ذلك شهقات هستيرية مرعبة. اضطر أن ينزل سريعا مستخدما السلم، عبر الغرفة صائحا:

"عزيزتى مس ملتون، هل هناك شيء يمكن أن أفعله من أجلك ؟"

ظهرت أمامه بشكل غريب بعيد تماما عن الشاعرية، وقد تكومت هكذا على مقعدها الخشبى، بينما انحت تحتها ساق سمينة ووجها ساقط على صدرها الواسع. كل جسدها كان يهز حزنا، والمقعد يشاركها اهتزازات الحزن والأسى.

لاحظ روندر أن الآنسة فى أشد حالات المعاناة والأسى، لذا اقترب منها:

"عزيزتى مس ميلتون، ما الموضوع؟"

لفترة عجزت عن النطق بشىء ما، ثم رفعت وجهها المرقش باللون الأبيض والقرمزى، ثم وهى تربت على خديها بمنديل لا يمكن أن يوصف بأنه نظيف، انخرطت فى بكاء نحيف عنيف:

"أسبوعى الأخير...، يوم السبت....، يوم السبت أرحل... مطرودة، مرفوتة.... أخ، أخ.... هو الأرشدياكون"

"لكن أنا لم أفهم شيئا، من ذاك الذى سوف يطرد؟"

"أنا!" زاد معدل نحيبها، شهقاتها تختلط فيها عناصر الغضب "لم يكن من الواجب أن أظهر هكذا أمامك يا حضرة القس، لكنى أنا انتهيت، خرب بيتى، كل هذا لأننى أؤدى واجبى"

هذا التغير الفجائى الذى حدث معها، من النهنهة والمرأة المكسورة، إلى المرأة التى تسعى للانتقام وإحقاق الحق، جعل روندر يتخبط فى حيرة حقيقية "ما زلت لا افهم شيئا يا مس ملتون، فهمت انك قد طردت من عملك، من فعل هذا؟"

"نعم، طردت!، طردت!" أخذت فى البكاء "،على أن أترك مكانى هذا يوم السبت. لقد كنت أمينة لهذه المكتبة منذ عشرين عاما يا قس روندر. نعم، عشرون عاما، أنا الآن أطرد منه كأننى كلب أجرب"

استطاعت أخيرا أن تتحكم فى دموعها بشكل مدهش. الآن عيناها الحمراوان جافتين تلمعان، خديها كأنهما فطيرتان لونهما أبيض يتخللهما بقع حمراء صغيرة غاضبة. نظر نحوها روندر، ركز عينيه على يديها المتسختين، أدرك أنه لم يشاهد من قبل سيدة يمكن أن لا يحبها بهذا القدر.

"لكن يا مس ملتون، إذا سمحت لى بالسؤال، ما زلت غير مدرك. من عينك هنا، ومن ذاك الذى سوف يرفتك؟ بالتأكيد لديهم أسباب قوية"

ظهرت الآن، مس ملتون الإنسانة العملية، تتحدث بهدوء، بالرغم أن صدرها كان يصعد ويهبط باضطراب بينما أصابعها تقبض بقوة على بعض الأوراق أمامها. تحدثت بهدوء، لكن خلف صوتها، كمنت كراهية بالغة، مرارة شنيعة وشر بالغ، لذا راقبها روندر باهتمام جديد.

"هناك لجنة مختصة بالمكتبة رئيستها هى الليدى سانت ليث، هى التى تعين أمين المكتبة، وقد عينتنى بالفعل منذ عشرين عاما، الآن هى ترفتنى مع إنذار قدره شهر واحد بسبب ما تدعيه أنه "الإساءة والإهمال فى واجبات العمل"، إساءة! إهمال! أنا! التى لم تصدر منها أى شكوى إطلاقا إلى أن..."

هنا ظهر أن مشاعر مس ملتون بدأت تتغلب عليها، لذا استجمت نفسها بجهد جهيد:

"أعلم تماما من هو عدوى يا قس روندر، فعلا أعرفه"

قال لها بهدوء "قولى لى إذا كان هذا فى إمكانك، ما هى التهمة الموجهة لك، ربما أستطيع أن أساعدك، هل هى الليدى سانت ليث هى التى -----"

"لا، ليست هى الليدى سانت ليث، أنا أدين لها بالكثير فى ماضى الأيام، وبالرغم أنها أحيانا تكون مستبدة، فهذا قبل كل شيء هو حقها الطبيعى، إنها سيدة كاملة ومحترمة. ما حدث هو كالآتى؛ منذ عدة شهور ماضية، كنت احتفظ بكتاب لليدى سانت ليث إرادته هى على وجه الخصوص، لكن حضرت لى الآنسة براندون وحاولت أن تأخذ هذا الكتاب بالذات منى لأن أمها ترغب فى قراءته. أخبرتها أن هذه الكتاب محجوز لليدى سانت ليث. مع ذلك، هى اشتكت للورد سانت ليث، الذى صادف أن كان بالمكتبة فى ذلك الوقت، وهو، كانسان مهذب، لم يكن له سوى أن أعطاها الكتاب. بعد ذلك، ذهبت هذه الآنسة إلى الأرشدياكون واشتكت إليه، هو بالتالى حكى هذا الموضوع أمام لجنة المكتبة وصمم أن أطرد

من وظيفتى. نعم يا قس روندر، إننى أعرف جيدا من هو غريمى، ولن أنسى ذلك أبدا "

"يا الله، أنا آسف جدا لما حدث معك، يبدو أنهم تعجلوا معك الأمور، برغم أن الأرشدياكون هو من أكثر الناس كرما وأخلاقا"

"كرما وأخلاقا!"، قامت من مقعدها "كرما، إنه يكاد أن ينفجر فخرا بنفسه، هو لا يعلم شيئا عن نفسه. أوه! لست قادرة أن أزن كلماتى جيدا يا قس روندر، لا أجد سببا لأن أفعل غير ذلك..هو ذاك الذى دمر حياتى، إلى أين اذهب فى عمرى هذا الآن؟ أن أعمل سكرتيرة تافهة، أو احصل على عمل أقل من ذلك، لكن ليس هذا ما أشكو منه، لقد أوذيت فى أعمق أعماق كرامتى يا قس روندر، فى اعتزازى بنفسى وشرفى، هى جراحات لن أغفرها له أبدا"

بدا الأمر كأنما مس ملتون تقرأ من كتاب "هرمز برونج" وتقتبس منه، لدرجة أن روندر أخذ يجول بناظريه عله يجد الكتاب أمامه.

"حسنا يا مس ملتون، ربما أستطيع أن أفعل شيئا فى مسألتك هذه"

"هذا كرم بالغ منك يا سيدى، هناك الكثيرون الذين سعدوا بحضورك إلى بلدتنا هذه، ونأمل أن يكون مجيئك مؤشرا لحدوث تغييرات كثيرة ضد هؤلاء المسيطرين على مدينتنا"

"أين تسكنين يا مس ملتون؟"

"٣ شارع سانت جيمس، خلف السوق تماما، فى مقابل مساكن القسس. أسكن فى غرفتين صغيرتين هناك، ونافذة غرفتى تطل على شقة مستر موريس"

"حسنا، سوف أتذكر ذلك"

"أشكرك يا سيدى، آسفة لأننى نسيت نفسى هذا الصباح، لكن ليس هناك شىء يفوق الشعور بالظلم لكى يفقد الإنسان شعوره. أنا لا أهتم بمن يسمعنى، لكنى أنا لن اغفر إطلاقا للأرشدياكون ما فعله معى"

"وبعدين يا مس ملتون، علينا دائما أن نغفر للآخرين زلاتهم وأن ننسى دائما"

ضاقت عيناها، لدرجة أنهما كادتا أن تختفيا:

"لا أود أن أكون ظالمة يا قس روندر، لكنى عملت أكثر من عشرين عاما كإنسانة محترمة، ثم فى النهاية يحدث معى هذا----أنا لا أحمل لمسز براندون أية مشاعر سيئة وهى تلك التى تأتى لمقابلة مستر موريس بين الحين والآخر، أجرؤ القول بأنها لن تسعد كثيرا عندما يذيع خبرها"

"الآن يا مس ملتون، ما تحكينه هذا لن ينتفع به أحد، ولن يحسن من موقفك أن تنشرى بعض الفضائح كما تعلمين. أنا لدى الآن عنوانك فى حالة ما إذا استطعت أن أخدمك، مع السلامة"

بينما هو ناسٍ تماما رواية "هرمز برونج"، فهو لديه الآن أمور أكثر أهمية، تلمس طريقه هابطا الدرج إلى حيث ينهل من الهواء النقى.

يبدو الآن أنه فى كل اتجاه، يلقى وينثر الأرشدياكون حوله مآس وأخطاء فادحة، ربما هى أخطاء بسيطة، لكن عندما تتجمع فإن تأثيرها الكلى سوف يصبح بالغا، والآن أحد دفتى الميزان قد ثقلت تماما عن أختها، ولعل القوى التى تحتل مجتمع الهواء قد ملت الآن من المنظر الممتد لنجاح وحماس الأرشدياكون، فأرسلت فى الجو علامات إنذار....

وجد روندر نفسه واقفا هكذا تحت شمس الربيع، يمسح بناظريه جانبى الشارع الرئيسى، الملىء بالألوان والحركة، فجأة انبعث داخله دافع قوى أن يذهب

ليحذر الأرشدياكون! ثم ابتسم لنفسه، تخيل نفسه وهو يقدم على تنفيذ ذلك. تشكل المنظر أمامه، كذلك الاستقبال الذى سوف يناله وهو يفعل ذلك. مع ذلك، هو مضطر الآن أن يصنع العجة بدون أن يكسر البيض! وعمل العجة هو أمر لازم وضرورى.

كان ينتوى أولا أن يذهب ليجرى بعض التسوق البسيط، وهى مهمة يسر بها، حيث يجد أمامه عددا من الانتصارات الشخصية يكتسبها بأسلوبه الخاص، لكنه فجأة، شعر بدافع قوى، لا يدرى من أين نشأ، لذا استدار متجها نحو الكاتدرائية. عبر المنطقة الخضراء، وقبل أن يدرى شيئا، دفع الباب الغربى وعبر داخل ظلال ذات ألوان قاتمة. كان الهواء باردا والصحن يسبح فى مربعات ومعينات من الأضواء الخضراء والقرمزية. تحرك ناحية الهيكل الجانبى، مفكرا أنه هو هنا، يمكن له أن يتبادل مع لورنس كلمة أو اثنتين، فلا ضرر يمكن أن يحدث عندما يتباسط نوعا مع هذا الرجل.

قبلما يدرك، وجد نفسه قريبا من تابوت الأسقف الأسود. بدا الوجه القاتم كأنه قد اكتسى بابتسامة انتصار خلف لحيته السوداء، بعض إشعاعات الشمس كانت تلعب على الرخام، لذا توهجت الأجزاء المعنية المذهبة والخاتم الأخضر كأنما قد بعثت إلى الحياة.

روندر، وهو ذاك الذى يحركه دائما الإحساس بالجمال، ابتسم ابتسامة واسعة كأنما هو يحيى ذلك الأسقف الميت.

فكر فى نفسه "بصراحة، أنت أيها التمثال أكثر الموجودات حياة فى هذه الكاتدرائية!"

فجأة، سمع من يتحدث بجوار كوعه "إنه من أعظم الأعمال الفنية، أليس كذلك؟"، التفت روندر ووجد أن محدثه هو دافرى الرسام. هذا الرجل عرفه روندر بالإشارة وهو مار فى الشارع وعرف الكثير عن سمعته. كان جديرا به أن يبدى

اهتماما بالغا بهذا الرجل، أو بأى إنسان له فكر أوسع ونظرة شاملة للحياة أكثر من أى مواطن من مواطنى هذه البلدة. دافرى هذا كان قد هجر احتساء الكحوليات منذ عدة أسابيع، ودائما فى واحدة من نوبات صحوه، يبدو إنسانا لطيفا، عاقلا وفنانًا حقيقيًا يقدر واحدة من أهم أشكال الجمال فى العالم.

هو، فى تلك المناسبة، كان فى صحوه أزيد من المعتاد، كان يشعر بالضعف ويكاد أن يفقد الوعى، يبدو عليه كأنما هو قد هجر الطعام ورذائله المفضلة لفترة أطول من المعتاد، وابتدأ الشرب يلح عليه طوال الأسابيع السابقة.

سلك دافرى حلقه قائلا "نعم، هو بالفعل عمل رائع. أنت القس روندر، أليس كذلك؟"

"نعم، أنا هو"

"اسمى دافرى، ربما سمعت عنى كسكير دائما ما تجده متطوحا فى أرجاء المدينة، ولا تتوقع أن يصدر منه أى خير. أعلم يقينا أنك لا تود أن تتحدث معى، أو حتى تعرفنى، لكن هنا، حيث يحل الهدوء والجمال، يمكن للإنسان أن يتعرف على الآخرين الذين لا يرحب بمعرفتهم خارجا"

تفحص روندر الوجه المنهك حاد الملامح لهذا الرجل، ولعله كان ألطف من ذلك يوما:

" أنت تظلم نفسك يا مستر دافرى، أنا بالفعل سعيد بمعرفتك

"حسنا، بالطبع أنتم طائفة القسس، واجب عليكم أن تتعرفوا على كل إنسان، أليس كذلك؟ لا سيما الخطاة منهم، فهذا هو لب عملك. لكننى لست من زمرة الخطاة اليوم، فأنا لم أشرب خمرا منذ عدة أسابيع، لكن أرجو أن لا تهنئنى على ذلك، لأننى لا استطيع أن أمسك نفسى أكثر من ذلك، وليس هناك أى أمل فى إصلاحى أو خلاصى، حتى ولو أتيح لك الوقت لتفعل ذلك"

ابتسم روندر "لا تخف، لن أعظك أبدا"

"حسنا، دعنا ننسى كل هذا، فالكاتدرائية ليست هى المكان المناسب لذلك. ولو كان عندكم أيها القسس أى إحساس بمراعاة المعايير، إذن لشعرتم بالخجل وأنتم تعظون الناس داخلها، هى بصراحة تضحك عليكم"

"على أية حال، هذا ما يفعله هذا الأسقف الراقد هنا" قالها روندر وهو يشير إلى تمثال الأسقف.

"ليس هذا الجزء فقط، بل كل المكان" بشكل غريزى، أخذا يتطلعان على المكان كله. فى أعلى مكان من البرج، كان هناك نوع من الضباب يتلاعب فوق النوافذ بلون وردى خفيف، يتماوج كأنما هو بحر يحيط بالعروق الخشبية والأعمدة الضخمة المستديرة. أثناء انشغالهما، طارت بعض العصافير وهى تزقزق من ركن إلى آخر.

قال دافرى "عندما أكون فى حالتى الطبيعية، ليس مثل يومنا هذا، كنت تجدنى فى شوق بالغ إلى أن يتخلص هذا المكان منكم. أننى كثيرا ما أضحك عندما أفكر كيف تبالغون فى مدى أهميتكم، بينما الكاتدرائية تضحك منكم. هى بين الحين والآخر تمد إصبعا كسولا وتزيحكم عنها بعيدا كما تفعل مع شبكة عنكبوت واهية. آمل أن لا تظننى إنسانا غير مهذب"

"أبدا، بل لعل البعض منا يفكر بنفس أسلوبك"

"لكن براندون مستحيل أن يفكر هكذا، أحيانا أفكر وأنا فى حالة من السكر البين أن أقترف جريمة واقتل هذا الرجل. غرور هذا الرجل واكتفاؤه الذاتى يعتبر إهانة بالغة للكاتدرائية، لكن هى تعلم ذلك جيدا، وسوف يحل زمنها فى الوقت المناسب"

احتوى روندر بناظريه هذا الشخص التافه بلحيته المدببة وذراعيه النحيلتين "أنت تتحدث وكلك ثقة وتصميم يا مستر دافرى وأنت تحكم على الآخرين، لكن ما أن تعلم مشيئة الكاتدرائية فى شأنك، حينئذ سوف تتضح لك كل الأمور"

"بشأنى أنا! هل هذا معقول؟ أنا لا شىء يا سيدى! هى ليست مضطرة أن تشغل فكرها بى، أنا أقل شأنا من مخلفات الطيور التى تتساقط من البرج، لكننى دائما ما اشعر بتواضع غريب أمام هذه الكاتدرائية، وعلى استعداد تام لأقل حجارتها شأنا أن تسحق الحياة من جسدى، وسوف أسر بذلك. على الأقل أنا أتفهم جيدا مدى قوتها وجلالها، أنا متيم بها! مغرم بالكاتدرائية!"

كان يحدق فى أعلى المكان وهو يتحدث، عيناه مشغولتان بالتفحص، لعلها تقع على وجه غير متوقع ظهوره.

كم يكره روندر تلك المناظر الميلودرامية المغرقة فى الشاعرية، وكلاهما كانا حاضرين الآن أمامه. قال مبتسما "خذها نصيحة منى، لا تشغل بالك كثيرا بهذا المكان. أنا سعيد بمعرفتك. سلام.

يبدو أن دافرى لم يلاحظه، كان الآن مركزا عينيه على تابوت الأسقف. غادر روندر. إنسان غريب! يوم عجيب! كم يختلف الناس ! ليسوا هم أحسن أو أسوأ، هم فقط مختلفون، كما تختلف الأشكال الدقيقة لحبات رمال الشاطئ.

من المستحيل أن يمل الإنسان من الحياة! مع ذلك، ما أن دلف داخل منزله حتى شعر فى التو واللحظة بالملل يمسك بخناقه، فقد وجد من تشرب الشاى مع عمته، جالسة تحت كتاب هرمز، ما جعل التناقض مذهلا، كانت هى السيدة جوليا بريستون.

هذه السيدة تمثل له أكثر النسوة مدعاة للضجر فى بولشستر، فهى تعتبر نفسها أكثر الناس أهمية فى تلك البلدة. هى أرملة تعيش فى منزل لونه أخضر بحديقة خضراء يقع فى ضواحى بولشستر. ما زالت هذه السيدة تحتفظ بمسحة من

الجمال كما كانت منذ عشرين عاما، ما عدا بعض التغييرات البسيطة. تظن هذه السيدة أن العالم كله مغرم بها، لذا تجدها دائما فى حالة من الرضا والسعادة. هى تهتم اهتماما غير عادى بكل أخبار جيرانها مهما كانوا، تؤمن بالمقولة "فلنسع نحو الحق، والجمال، كذلك تحسين أحوال الطبقات الدنيا". ما أن شاهدته حتى صاحت "يا عزيزى القس روندر، يا لها من فرصة سعيدة! أنت مجهد بالطبع بسبب كل العمل الذى أنجزته ظهر اليوم، بالتأكيد أنت الآن فى حاجة لفنجان من الشاى. بصراحة العمل هو ألطف شىء فى الحياة، أننى أتعجب كيف يكون حال الدنيا بدون العمل!"

روندر، ذلك الذى اعتاد تقبل كل رذالات الناس، جلس بجوارها وبدا عليه كأنه مغرم بها "حسنا، لكى أكون صريحا معك، أنا لم أكن منهمكا فى عمل صعب، فقط تقابلت مع عدد من الناس"

"فقط تقابلت مع عدد من الناس!"، أطلقت مسز بريستون ضحكتها المفضلة، حيث قيل لها مرة أن ضحكتها تشبه جرس يغرد، "استمعى إليه! كما لو أن كل ما فعله هو لم يكن أصعب ما فى العالم! لا تتواضع! فما هو أكثر الأمور إرهاقا، وفى نفس الوقت له قيمة عظمى؟ أكثر من التحلى بعدم الأنانية! فى الواقع، أنا أظن أن تلك الخصلة هى السر الحقيقى للحياة"

قالت مس روندر بلهجة جافة "جربى أن تأكلى واحدة من هذه الكعكات يا جوليا" فهى، خلافا لإبن أخيها، لا تهتم كثيرا بالناس.

"نعم يا عزيزتى أليس، سوف أفعل، أشكرك يا قس روندر! أنت إنسان طيب. أوه، لقد أسقطت شنطتى، إنها أسفل هذه المائدة. أشكرك ألف شكر! لكن أليس هناك أمور غريبة تحدث ما بين مسز براندون ومستر موريس؟"

تساءلت مس روندر وهى ترمق ضيفتها بنظرة انتقاد حادة: "غريبة؟ بأى مفهوم؟"

"أوه، حسنا، فى الواقع لا شىء يذكر سوى ما الذى يمكن أن يجدا فى بعضهما من أمور مشتركة. هما دائما تجدهما سويا. يوم الاثنين الماضى، شاهدتهما آجى كمبرمير خارجين من منطقة مساكن القسس، ثم رأتهما ايلين ستايلز فى منطقة الملحقات سويا ظهر يوم الأحد، أنا عن نفسى رأيتهما هذا الصباح فى الشارع الرئيسى"

قال روندر "عزيزتى مسز بريستون، لماذا ليس من المفترض أن لا يتقابلا؟"

قالت مسز بريستون وقد احمر وجهها بشكل جميل، عندما تتخيل أن أحدا يهاجمها: "طبعا ليس فى ذلك أى أمر مشين، وأنا سعيدة بالفعل لأن مسز براندون المسكينة استطاعت أخيرا أن تعثر على صديق، فشعارى الدائم فى الحياة هو : دعنا جميعا نساهم فى إغداق السعادة على الآخرين بكامل طاقتنا وقدراتنا. فى الحقيقة، هذا شىء يجب أن نشترك فيه جميعا، أليس كذلك؟ فالحياة لا تغدق من كرمها على كل الناس، كما أعتقد. لذا فالشجاعة هى المطلوبة والمرغوبة. فعلى كل حال، ليست الحياة هى المهمة، لكن بكل بساطة، ما هو قدر الشجاعة التى تتحلى بها الإنسانية. على الأقل، هذا بعض من إيمانى الضعيف، لكن الموضوع فيه نوع من الغرابة بالنسبة لمسز براندون، فهى دائما ما تحتفظ بأسرارها لنفسها!"

قالت مس روندر "أنت تهتمين كثيرا بغيرك يا عزيزتى جوليا"

"نعم، هذا حق. ما هذا، لقد ضاعت حقيبتى مجددا! أوه، ما ألطفك أيها القس روندر! انها تحت هذا المقعد. نعم إنه كذلك. لكن الإنسان لا يستطيع أن يغالب طبيعته، أليس كذلك؟ كثيرا ما أخبر نفسى بأننى لا يجب أن أكون هكذا، غير أنانية. فى الواقع أنا ولدت هكذا. زوجى المرحوم المسكين، كثيرا ما كان يقول لى إنه يجب أن أهتم أكثر من ذلك بنفسى. أعتقد أننا ولدنا لكى نتشارك فى حمل متاعب الآخرين، وهذا ما أفعله الآن. لكن ما الذى يمكن أن تجده مسز براندون فى مستر موريس هذا، هذا شىء غريب، فهو فى الحقيقة إنسان ممل"

قال روندر "دعنى أصب لك فنجانًا آخر من الشاى"

"لا، أشكرك. ضرورى أن أغادركم الآن، فقد بقيت هنا وقتا طويلا. أوه! هذا هو منديلى! كما أنا عبيطة! أشكرك للغاية!"

قامت استعدادا للرحيل، كانت تبدو جميلة ومسالمة لدرجة أنه من المدهش أن كتاب هرمز لم يعرب عن إعجابه بها:

"مع السلامة يا قس روندر، لا داعى لتودعنى حتى الباب. حسنا، كما تريد. فى كل مكان أسمع عن العمل الرائع الذى تؤديه هنا. لا تظن أبدا أن هذا نوع من التملق، لكنى أعتقد أن بلدتنا هذه فى حاجة قصوى لك، فما نحتاجه هنا هو رسالة- شىء ما يرفعنا قليلا عما نحن فيه. من السهولة بمكان أن لا ترى حولك سوى الحزن والكآبة، أليس كذلك؟ بينما فى كل الأحوال تشاهد النجوم وهى تلمع فى السماء.... على الأقل هذا ما يبدو لى"

أغلق الباب وراءها، ثم حل صمت رهيب على الغرفة. جلست مس روندر فى مكانها لا تتحرك، عيناها مصوبتان أمامها.

حالا عاد روندر.

لم تنطق مس روندر بشىء. فهى الإنسانة الوحيدة القادرة لأن تسبب له ارتباكا وحرجا. هى تحرجه الآن.

قال "أليست الأمور تسرى بشكل غريب؟ لقد تقابلت اليوم مع أربعة أشخاص مختلفين اليوم، جميعهم تحدثوا من أنفسهم وذكروا براندون، وأساءوا القول عنه. براندون هذا يعتبر معلقا فى الهواء، هو فى خطر داهم"

نظرت إليه مس روندر وركزت نظرها فى عينيه "فريدريك، ما هو دورك فى هذا الموضوع كله؟"

"فى ماذا؟"

"كل هذا الحديث عن آل براندون"

"أنا! لا شيء بالطبع"

"كلام فارغ. منذ أن وطأت قدماك هذه المدينة وأنت مصمم أن يختفى منها براندون. هل تلعب باستقامة؟ بلا خداع؟"

نهض، وقف مقابلها، ساقاه منفرجتان، يداه مشبوكتان خلف ظهر"تقولين باستقامة؟ لا شك فى ذلك بالطبع"

كانت عيناها مليئتين بالتهم "خلال كل السنوات الماضية، لم أعرفك أبدا كما يجب. كل ما توصلت إليه هو أنك تحصل على كل ما تبتغى، وأنت سوف تحصل على ما تريد الآن. أرجوك افعل ذلك بلطف"

"لا تخافى أبدا"

"أنا بالفعل خائفة. أنا أحبك يا فريدريك، ودائما ما أحببتك، وسوف أحزن إذا غادرنى هذا الحب، فهو واحد من أهم ممتلكاتى"

أجابها ببطء، كما لو أنه يفكر فى كل كلمة ينطق بها "دائما ما كنت أخبرك بالحقيقة، وأنا أخبرك بها الآن. بالطبع أود أن أتخلص من براندون نهائيا، ومن الطبيعى أنه بالفعل سوف يختفى من حياتنا، لكنى أنا لن أحرك إصبعا فى هذا الشأن، فكل الأمور تسير سيرها الطبيعى دون أى تدخل من جانبى. براندون يدمر نفسه بنفسه. وحتى إذا لم يحدث هذا له، فإننى سوف أراعى أن أكون عادلا معه. لقد حاربته مواجهة فى اجتماع المجلس اليوم السابق، وهو يكرهنى لذلك"

"وأنت تكرهه؟"

"أكرهه؟ أبدا أبدا. أننى معجب به وأحبه حقا، ولو كان فى مركز أقل ولم يكن هكذا واقفا فى طريقى، إذن لأصبحت من أعز أصدقائه. هو إنسان رائع،

غبى، أعمى، مغرور، لكن هو مخلوق أفضل منى. أننى أحبه أفضل من أى إنسان فى هذه المدينة"

"أنا لا أفهمك أبدا"، خفضت عينيها من وجهه "أنت إنسان غير عادى"

جلس مرة أخرى مدركا أن المباراة قد انتهت، ثم قال:

"هل تظنين أن فى هذا الموضوع شيئا؟ ذلك اللغو الخاص بمسز براندون ومستر موريس؟"

"لا أعلم. هناك كثير من الحديث يتم تداوله فى هذا الشأن. أعتقد أن ايلين ستايلز هى المسئولة عن ذلك"

"مسز براندون ومستر موريس! يا الله! هل سمعت من قبل عن رجل اسمه دافرى؟"

" نعم، هو رسام سكير، أليس كذلك؟ لماذا؟"

"لقد تحدثت معه فى الكاتدرائية بعد ظهر اليوم، هو أيضا يكره براندون... حقا، سوف أقوم وأدخل مكتبى"

انحنى، قبل جبهتها بحنان، ثم غادر الغرفة"

خلال هذه الأمسية، لم يشعر إطلاقا بالارتياح، وعندما يحدث معه هذا الأمر تجده شخصا غريبا، فكل دوافعه، رغباته، نياته تشبه حزمة من القمح حزمت جيدا حول مشاعره التى تسعى للحصول على الراحة والاهتمام بالنفس، وعندما يحدث ما يزعج هذه الأحاسيس، يشعر أن كل شىء قد تفكك، يبدو العالم أمامه كأنه ملىء بعناصر طالما أنكرها ووقف ضدها. عمته هذه لديها القدرة على أن تزعجه أكثر من أى إنسان آخر، هو يعلم أنها كانت تتحدث بما تعتقد أنه الحق، وهو يشعر بذلك، بالرغم من إنكارها، فهى تعرفه جيدا، وكثيرا ما كانت الدهشة تصيبه لأنه كان يطلب منها أن تصادق على أفكاره وتصرفاته.

فى فترة المساء، بينما كان جالسا ساندا ظهره على مقعد وثير فى المكتب المريح لمنزل بنتك - ميجور وهو يراقب الآخرين، تغلبت عليه فجأة مشاعر من القلق وعدم الراحة لدرجة أنه وجد أنه من الصعوبة بمكان أن يدع عقله يشترك فى المناقشات الدائرة، بالرغم أن هذا الاجتماع كان له أهمية بالغة بالنسبة له، فهو يمثل النتيجة الأولى الواضحة لكل مناورات الشهر الماضى. هو فى الوقع اجتماع يضم كل المتآمرين والمساهمين فيها، ما عدا واحد منهم، لا يدرى عنها شيئا. كل من بنتك-ميجور، كذلك فوستر ورايل وروجرز يعرفون ذلك، أما الاستثناء فهو القس الشاب المدعو مارتين، الذى يخدم فى بيعة سانت جوزيف التى تقع على الأطراف العشوائية للمدينة.

لقد تم دعوة مارتين هذا لأنه يعتبر أفضل قس فى بولشستر، وبالرغم من صغر سنه، إلا أن كل فرد من المجتمعين يدرك مدى قدرته، تكامله ونفوذه أمام كل رجال المدينة، هو أيضا يتمتع بالحس الفكاهى مع الذكاء الخارق، ولعل لا يوجد شخص فى كل بولشستر يهتم روندر بضمه إليه مثل هذا الرجل.

هو رجل يحتقر الاشتراك فى المؤامرات، ويعتبر متدينا من الدرجة الأولى، وإنسانًا أصيلاً لا يرضى أبدا بالانغماس فى المهاترات.

يعلم روندر جيدا أن هذا الشاب سوف تعلو مراتبه مع الزمن وسوف يتقوى مركزه، أما الآن فهو ليس إلا قسا بسيطا فى كنيسة صغيرة ومعيشته ضيقة.

ربما لا يكون مشهورا بالاطلاع العميق فى الكتب، وعائلته ليست من العائلات المرموقة كذلك مدرسته، فهو قد تخرج من جامعة دورهام. فى مظهره، هو إنسان بسيط، نحيف القوام، طويل، لون شعره ترابى، عيناه لطيفتان، وقد كانت أمنية روندر المخلصة هى أن يدعو هذا الرجل لذلك الاجتماع بالذات، لذلك عبر فوستر عن احتجاجه بصفته المسئول الأول عن هذا الاجتماع:

"مارتين؟ لماذا مارتين بالذات؟"

"سوف ترى شان هذا الرجل فى ظرف خمس سنوات"

الآن وقد أدار روندر عينيه مستطلعا الجميع، جلس شاغلا مقعده الواسع كله.

هل حقيقى أن عمته قد غيرت فكرتها عنه؟ هل عليه أن يتصرف خلال الشهور القادمة بحريته بينما هو معرض لانتقاداتها وعدم رضائها؟ بصراحة، الموضوع فيه ظلم كبير واقع عليه، فهو كان يعنى مخلصا عما يكنه لبراندون، فهو يحبه حقا ولا يرغب أبدا أن يلحقه أى سوء، لكن يؤمن أيضا، فى نفس الوقت أنه من مصلحة المدينة أن يختفى منها هذا الرجل نهائيا.

انتفض من بحر خيالاته عندما سأله فوستر ما الذى سوف يناقشونه تحديدا. لذا بشكل غريزى أخذ ينظر نحو مارتين وهو يتحدث. وكالمعتاد، يحل عليه ما أن ينطق بالكلمات الأولى، شعور قوامه التفوق والابتهاج، ورغبه مخلصة أن يحرك كل من هم حوله كأنما هم مجموعة من عساكر الشطرنج. هو على أتم استعداد أن يلوى أى مبدأ أو عقيدة إذا كانت ضرورية لخدمة مآربه. أيضا بشكل غريزى، رفع من درجة صوته، وفرد يديه فوق المقعد الضخم كما يفعل أى ممثل قدير.

قال ضاحكا "إننى أعترض تماما على ما قد يوحى به فوستر من أننى المسئول الأول عن إدارة دفة الحديث فى اجتماعنا هذا، فليس من حقى قطعا أن أكون مسئولا عن شيء بينما أنا لم أحضر إلى بلدتكم إلا منذ وقت قصير. مع ذلك، سوف لا أدعى أننى أمتلك ذلك القدر من التواضع. أنا الآن مستقر فى بولشستر منذ مدة كافية بحيث أستطيع أن أعلن عن مدى إعجابى بها، وهذا الإعجاب يزداد من يوم للآخر. أيضا أنا لا ادعى أننى إنسان عاطفى، لكن أقول بصراحة أن هناك اهتمامات وأماكن كبرى معرضة للخطر أكثر من الكاتدرائية، ولأننى مدرك لهذه الأخطار، لذا أنتوى أن أحددها تفصيلا، بغرض أن أجذب إلى أى إنسان يقف معى ويعضدنى فى آرائى. عندما أعثر على شخص فاضل كالقس فوستر، ذلك الذى

عاش وقتا طويلا هنا، وهو مغرم بالكاتدرائية بكل جماع قلبه، يقف فى صفى، حينئذ يتقوى ويتشدد عزمى ومضائى. أنا لا أهتم إطلاقا بمن يقول أننى إدفع بنفسى دفعا، فهذا لا يحدث إطلاقا. ما أن يتبرع أحدهم بأن يرعى ما نشكو منه، حينئذ سوف أرحب أن أخطو خلفا، لكنى ببساطة لست مستعدا أن أشاهد المعركة ونحن نخسرها خوفا مما قد يقوله الناس عنى...حسنا، هذه ليست سوى مقدمة. الموضوع المهم الآن هو، كما يعرف الكل أن موريسون المسكين مريض للغاية، وفى أية لحظة سوف يخلو منصب قس بايبس سانت أنتونى، والتعيين كما نعلم هو من سلطة المجلس. هذا المكان بالذات ليس له أهمية كبرى، لكن دائما ما كان ينظر إليه بأن من يشغله يصبح فورا مؤهلا للحصول على ترقية أعلى فى الأبرشية، فدائما من كان يشغل هذا المنصب، نجده بعد فترة وقد احتل مكانا أفضل، ودائما ما يتم اختيار الشخص ليشغل هذا المكان وتلك الفكرة فى البال. هذه الأمور جميعا معروفة لكم جميعا، لكنى أذكرها لأنها تجعل مسألتى أكثر قوة. أيضا نلاحظ أن موريسون، بالرغم من كل فضائله، لكنه لم يكن مؤهلا لأى ترقية، نحن نريد الآن شخصا استثنائيا. إننى هنا منذ شهور قليلة، لكنى لاحظت أمورا كثيرة، وتحديدا أقرر هنا أن الكاتدرائية معرضة الآن إلى أزمة فى تاريخها، فالكنيسة يتم الهجوم عليها من أكثر من ناحية، ولا أعتقد أن غرب انجلترا فى حاجة إلى دم جديد، أفكار جديدة ونشاط مبتكر أكثر من وقتنا هذا. خلو هذا المنصب فى بايبس سوف يتيح لنا فرصة لتحقيق ما نتمنى، وأعتقد أن كل واحد فيكم يؤمن بذلك. مع ذلك، حدث أن اكتشفت دلائل قوية تؤكد أن هناك عزمًا صادرًا من أقوى رجل فى مدينتنا هذه (ولن أذكر أسماء) لأن يشغل هذا المكان شخص لا يساوى شيئا، فهو إنسان رجعى وغير مقنع إطلاقا. إذا نجح هذا المسعى، فإننى لا أبالغ إذا قلت أن الحياة الدينية هنا سوف تتراجع خمسين عاما إلى الخلف، وواحدة من أهم قرارات المجلس سوف نفتقدها، وربما ينظر إلى هذه المسألة كأنها ليس مهمة، لكن......"

قاطعه فوستر " لما لا نذكر أسماء؟ ليس لدينا وقت نضيعه، البعض منا ربما ينشغل بالتخمين فيمن يكون هذا. إنه الأرشدياكون براندون هو الذى يريد أن يعين القس الشاب فورسايث فى بايبس، وهو الذى نقف الآن ضده، دعنا نكون أمناء"

قال روندر سريعا "لا، أنا لا أسمح بذلك، نحن لا نتعارك بسبب أشخاص. عن نفسى، أقرر هنا أننى أكن إعجابا لا حدود له لبراندون. هو بالفعل إنسان رجعى ومعارض لكل الأفكار الجديدة، وله تأثير خطير فى هذه المدينة، لكن فى مسألتنا هذه ليس هناك مشاعر شخصية تعمل فيها، علينا أن ندفع بالشخصيات بعيدا من موضوعنا هذا، فهناك أمور أخطر من إعلاننا أن نحب أو نكره هذا أو ذاك."

اندفع فوستر وكله غضب "كلمات، كلمات. أنا بصراحة أكره براندون، وأنت أيضا تكرهه يا روندر بالرغم من حذرك هذا. فى الحقيقة نحن لا نود تعيين فورسايث فى هذا المكان، لكن الأكثر أهمية هو أن نهزم هذا الفخر الذى يملأ جوانب الأرشدياكون، وهذا ما سوف نفعله"

أصبح الجو العام مكهربا. ملامح روجرز النحيفة انبسطت بما أعلنه فوستر، بينما انهمك بنتك-ميجور بدعك يديه فى بعضهما بينما أغمض عينيه كأنه ينتوى أن يظل ذلك الجنتلمان حتى النهاية. هذا بينما جلس مارتين منتصبا فى مقعده، وحيرة عظمى ترتسم على وجهه، عيناه ثابتتان على وجه روندر. أما رايل فقد مثل دور الرجل المحرج القلق، أخذ يجول بناظريه من وجه لآخر، كأنما هو يرجو الجميع أن لا يغضبوا منه؛ فكل هذا الكلمات العنيفة التى تم تداولها ليست واحدة منها من إنشائه.

شعر روندر بالغضب من نفسه. هو بالتأكيد ليس فى أفضل حالاته الليلة. لقد تحقق ودرس كل الشخصيات الماثلة أمامه، لكنه مع ذلك لم يقد قاربه بمهارته المعتادة وسطهم.

فى قلبه، كان يلعن فوستر بسبب تعصبه الأعمى.

صاح روجرز بصوت حاد غريب، كأنما هو صوت الطاووس "إننى متفق تماما مع كل ما ذكره القس فوستر، ومهما كان تظاهرنا العام، لكنى أقرر هنا أن رغبتنا العارمة هو أن يتخلص هذا المكان من براندون، وكلما كان هذا الإجراء أسرع، كلما كان هذا أفضل، وكان من الأجدر أن يحدث هذا منذ زمن طويل."

أخيرا تحدث مارتين "آسف جدا، لو كنت أعلم أن هذا الاجتماع عقد لكى يوجه اتهامات شخصية على الأرشدياكون، إذن لما حضرت أصلا. لا أعتقد أنه يوجد فى كل الأبرشية أى إنسان مخلص وأمين مثل الأرشدياكون، وأنا واحد من المعجبين به. هو من الممكن له أن يقترف أخطاء، وهذا بالطبع حالنا جميعا، لكنى أقرر هنا أن أخلاقه فى أعلى المستويات كذلك عمله وأهميته هنا. هذا ما أردت توضيحه قبلما نستمر أكثر فى هذا الموضوع"

قال رايل وكله ابتسام "هذا هو الحق بعينه، فعلا القس مارتين محق تماما. ألا تظنون كذلك؟ أرجو أن لا يذكر أحد منكم أننى أحمل أية ضغينة ضد الأرشدياكون. فى الحقيقة هذا ليس من شيمتى إطلاقا، ولا يمكن لأحد أن يتهمنى بذلك"

هنا تدخل روندر، وصاح بصوت كله سلطة وقوة، لذا نظر إليه الجميع كأنهم يراقبون شخصا جديدا دخل الغرفة "أريد أن أؤكد فى الحال، لكى لا يظن أن إنسان هنا أو فى أى مكان آخر أننى سوف أتشارك فى أى عمل عدائى يمس أشخاصا معينين. هذا الموضوع يختص أساسا بموضوع منطقة بايبس، والمرشح له هو فورسايث هذا، وهو الذى لم أقابله حتى الآن، لكنى أتمنى له كل الحظ الحسن فى الحياة، لكن نحن بصراحة أفاضل فيمن يعود بالنفع الأكبر لمنطقة بايبس ليس إلا. إذا رغب أحدهم أن يحصل على هذا المركز وهو غير جدير به، إذن سوف أناضل ضده بكل ما أوتيت من قوة. وللأسف، الأرشدياكون لا ينظر للأمور بنفس الأسلوب الذى ننظر نحن إليه، وربما يحدث هذه له قريبا، وإذا فعل ذلك، فسوف أكون أنا أول المعضدين له..."

هز فوستر رأسه محتجا "فليكن هذا شأنك، فكل الأمور تسرى هناك بهذا الأسلوب، ودائما ما تقف أمامنا الحلول الوسط، نعم الحلول الوسط! أننى أشعر بالغثيان من تلك الألفاظ التى تتسم بالجبن. إذن فنحن ممنوعون أن نذكر براندون هذا فى جلستنا تلك، لكنه هو سوف يظهر مرة ومرات، ولا خوف من ذلك، فهو ليس من نوعية الرجال الذين يخشون إفساد الشوربة التى يحتسونها!"

قال بنتك ميجور بأسلوبه التوافقى "حسنا، إذن كلنا اتفقنا الآن، كما أعتقد. ربما تلاحظون أننى انتظرت بفارغ الصبر حلول هذه اللحظة لكى أقترح أن نكون عمليين. مهمتنا، كما أعتقد، هى أن نفعل كل ما فى وسعنا لمنع تعيين فورسايث ليشغل هذا المنصب، لكن علينا فى نفس الوقت أن نقترح أسماء أخرى...نعم مرشح آخر"

قاطعه فوستر - وهو يخبط بقبضته الضعيفة على المائدة - "نعم، المرشح المناسب لهذا المنصب. هو فى رأيى القس ويستون الذى يعمل فى هوستون. تلك كانت أمنية حياتى لسنوات خلت، أن يأتى إلينا ويستون. نعم لا نعلم يقينا ما إذا كان يرضى بذلك أم لا، لكن من الممكن إغراؤه. حينئذ- حينئذ سوف يعود الأمل إلينا مرة أخرى!- سوف يخدم الله، سوف..."

توقف فجأة عن الحديث. كان من المدهش الآن التطلع إلى وجهه القبيح وقد أضاء الآن بجمال قدسى، فالخطوط العميقة لانت، والعيون أصبحت رقيقة حانية، والفم حساسا "حينئذ سوف أتلو صلواتى وأنا مستريح"

لم يكن هو الوحيد الذى بان الوجد على ملامحه، تحدث مارتين وكله شوق "هل هو ويستون الذى ألف كتاب (المعتقدات الأربعة) وكتاب (الرؤى الجديدة)؟"

ابتسم فوستر وقال بينما الفخار ينبعث من صوته كأنما هو يتحدث عن ابنه الوحيد "هناك فى البلد ويستون واحد فقط"

قال مارتين "إنه بالفعل اختيار موفق، هذا إذا وافق بالفعل على الحضور، لكن هل من الممكن أن يحضر؟ أعتقد أن هذا أمر مشكوك فيه"

قال فوستر بلطف كأنما هو يخاطب نفسه "أعتقد جازما أنه سوف يوافق"

"ماذا، هذا سوف يكون أمرا مدهشا"، نظر مارتين حوله وعيناه تلمعان "بالطبع أعتقد أن لا أحد فى اجتماع المجلس سوف يحلم باقتراح أن يعين فى هذا المكان فورسايث هذا، انه شيء غير معقول"

انفجر فوستر "غير معقول! هل تعتقد أن براندون - وسامحونى إذا كنت قد ذكرت أسماء - هل تظن أن براندون لن يحارب حضور ويستون إلى هنا؟ انه دائما ما ينظر إليه باعتباره هرطوقى، متحرر، يبشر بأفكار جديدة أو كما تشاء من أوصاف. أما عن ويستون ذاته، فإنه سوف يجعل شعر براندون يقف عاليا بدء من جذوره!"

قال مارتين وفى مظهره كل الجد "حسنا، إذا أتيحت فرصة للحصول على ويستون لهذا المنصب، فإننى سوف أعمل فى هذا الموضوع بكل ما أوتيت من قوة"

بشكل غريزى، كلهم التفتوا ناحية روندر. شعر هو بنظراتهم. سعيدا، متأكدا الآن من نفسه، عادت إليه روحه فهو الآن المهيمن عليهم جميعا، لقد تركوا أنفسهم إليه ليفعل بهم كما يشاء. تحرك الآن عقله بكل سهولة ويسر ووضوح كما لو كان آلة جديدة تبرق، عيناه أيضا كانتا تلمعان.

قال "الآن، أعتقد أنه واجب علينا أن......" جميعهم قربوا مقاعدهم نحوه.

* * *

## الفصل الخامس

# فولك بجوار النهر

فى نفس تلك الأمسية التى تقابل فيها المتآمرون فى المكتبة الأنيقة لبنتك-ميجور، تعرضت مسز براندون لنوبة من الهستيريا السخيفة.

هى لم تتعرض من قبل لهذه النوعية من الهستيريا. حدثت هذه النوبة عندما كانت جالسه أمام المرآة تمشط شعرها. كانت مستعدة لارتداء ملابسها استعدادا للعشاء، وكان فى استطاعتها أن تشهد شكلها، بيضاء نحيفة فى المرآة الكبيرة المستقرة أمامها. فجأة لاحظت أن الوجه الذى ارتسم أمامها بدأ فى الابتسام، فى نفس اللحظة، أدركت أنها لم تعهد رؤية هذا الوجه بهذا الشكل من قبل.

كانت عبارة عن ابتسامة مرعبة، تطورت فجأة لتصبح قهقهة عالية، بدا الأمر كأن هذا الوجه قد تعرض إلى لطمة قوية وتحطم إلى آلاف الأجزاء.

أخذت تضحك حتى سالت دموعها على خديها، لكن عيونها كانت تحتج فى غضب ومعارضة شديدة لما يحدث فى المرآة أمامها. كانت تدرك أنها تضحك بصوت عال حاد النبرة من جراء ذعرها. كانت من جانبها تجرى محاولات يائسة لتهدئة نفسها وقد تملكها خوف مقيم أن ينتبه زوجها ويكتشف ما يحدث معها.

توقف الضحك فجأة، ثم تبعه سيل مدرار من الدموع. أخذت تبكى حتى كاد قلبها أن ينفطر. ثم بخطوات وئيدة، عبرت حتى سريرها واستلقت عليه، كان عليها أن تسيطر على نفسها فى التو. ففى أية لحظة الآن سوف يدق جرس العشاء وعليها أن تذهب. لكن أن تبقى فى مكانها مدعية حجتها الخالدة من أنها تعانى من صداع عنيف، سوف يجلب إليها زوجها، بالرغم أنه مشغول تماما بشئونه الخاصة،

وسوف تكون أسئلته متكلفة يلقيها وهو غائب عن الوعى. شعرت أنها لن تتحمل هذا بالذات، أن تكون بمفردها معه.

رقدت على سريرها ترتعد متعجبة ما الذى سيطر عليها. إنه شر مستطير لا شك فيه، إنها لا تطلب سوى أقل القليل فى حياتها، فقط أن ترى موريس للحظات كل يوم، أن تراه فى أى مكان عام تختاره الأقدار، لكن من الضرورى أن تره، أن تستمع لصوته، أن تنظر إلى عينيه، أن تلمس أنامله (يده طرية كأنما هى يد امرأة) هذا استمر الآن لمدة شهر كامل باعتباره ضرورة ملحة. إنها لا تطلب شيئا أكثر من ذلك، لكنها كانت على وعى كامل أنه لن يتاح لها وقفة أو تمهل فى تلك العاطفة التى سيطرت وقبضت عليها. هى مساقة الآن بنوعين من القوى المضادة: قوة محبة الأم التى قوامها عنصرِ الحماية والرقة واللطف، كذلك الشبق القاسى الذى يولد النزعة الجبارة للتملك والاستحواذ.

هى تود أن تهتم به، أن ترعاه، أن تحرسه، أن تفعل له كل شىء، أيضا أرادت أن تستشعر بمدى سيطرتها عليه، أن تراه يتحرك، كما لو كان منوما ومتجها دائما نحوها.

هذا التفكير والانشغال به، هذه المشاعر الغالية التى تطاردها دائما، تحكمت فى أفكارها بالنسبة إلى أى فرد آخر يتحرك فى محيط عالمها، ما عدا فولك بالطبع. هى بالكاد الآن تفكر أنها زوجة، ولم يخطر فى فكرها للحظة واحدة ما إذا كان الناس يتحدثون عنها أم لا. إنها لا ترى أمامها أحد سوى موريس- فقط هو، ومعه فولك.

على ابنها فولك، كل شىء يتعلق الآن. لقد أبرمت مع نفسها صفقة ذات شكل خاص. إذا ظل فولك محبا لها، راعيا لها، فإنها سوف تقاوم تلك القوى التى سيطرت عليها وتدفعها دفعا ناحية موريس. الآن، ربما تكون قد تقابلت مع موريس مليون مرة أكثر من ذى قبل، فهى مجبرة أن تبحث عمن تهتم به وترعاه. بدا

الأمر فى نظرها كما لو أن هناك لمبة قد أشعت بضوئها الأخاذ فوق تلك السنوات الخوالى المظلمة الكئيبة، فكيف يتسنى لها أن تواصل نفس معيشتها السابقة؟ الآن هى تعانى من جوع قاس، رغبات وحشية، جوع كافر يسرى فى كل كيانها. يستطيع فولك أن يغطى ويعالج هذا الجوع، لكن إذا فشل فى مهمته، إذن هى لن تتردد إطلاقا.

إنها سوف تقبض على موريس كما تفعل النمرة المفترسة، هى لن تخدع نفسها فى شأن هذا الموضوع. بينما هى ترقد على سريرها ترتعد، اعترفت لنفسها أن سيطرتها على موريس يعتبر هو مجدها وفخرها العظيم. إنها لم تسيطر أو تقبض على أحد من قبل، إنه يتبعها كما لو كان رجلا يحلم، هى ليست شابة صغيرة، ليست جميلة، ولم تكن يوما ماهرة فى.....

انه ليس سوى انتصار، نعم انتصار مؤزر، انتصار يحسب لها. ثم الآن، بسبب هذا، سيطر عليها فيضان من الحنان نحوه، كم رغبت أن تكون لطيفة معه، أن ترعاه، أن ترتق له ملابسه، أن تطبخ له، أن تغسل ملابسه، أن تفعل أى شىء مهما كان تافها من أجله، أن ترعاه وتحميه. أدركت أن نهاية هذا كله سوف يكون هو الدمار لكليهما!... آه، حسنا، فى تلك الحالة سوف يحتاجها أكثر من ذى قبل! إنها تشعر بالهدوء الآن، لقد توقف الارتعاد، يا لها من طريقة غريبة اتبعها كلاهما لكى يتقابلا سويا خلال كل تلك الشهور الماضية، كان هذا يحدث كثيرا بدون تخطيط مسبق! إنها تسترجع فى ذهنها كل لحظة من لحظات اللقاء، كل همسة، كل كلمة، كان يبدو كأنما هو قد أصبح جزء من كيانها، يتحرك فى محيطها.

جلست على سريرها، عادت إلى مرآتها، مسحت وجهها، واستعدلت ملابسها، وهبطت إلى الدور الأرضى.

إنه عشاء عائلى، لكنه بالطبع بدون فولك، فهو دائما فى تلك الفترة ما يكون دائما فى الخارج.

تحدثت جوان عن مواضيع عدة، ثم انتهى العشاء سريعا. ذهب الأرشدياكون إلى غرفة المكتب، وجلست المرأتان فى غرفة الاستقبال، جوان بجوار النافذة، بينما غطست مسز براندون فى مقعد مرتفع الأذرع بجوار المدفأة. كانت الساعة المعلقة على الحائط تدق بصوت مسموع وأجراس الكاتدرائية تدق كل ربع ساعة. كان فستان جوان الأبيض خلف دائرة ضوء اللمبة على شكل خيال. أخذت مسز براندون تقلب فى صفحات كتابها بينما أصاغت أسماعها متوقعة عودة فولك من الخارج.

أثناء جلوسها هناك، وهى غير منتبهة تقلب فى صفحات الكتاب، ملأ الغرفة فيضان غامر من مشاعر محتدمة تنبئ بوقوع دراما معينة. كم من سنوات مرت عليها وهى تعيش من يوم ليوم بدون أن يحدث شيء ذو بال، لقد طالت الأيام وهى لا تحس بوعيها، كأنما هى مخدرة، أما الآن فقد عادت إليها الحياة بشكل فجائى كأنما هو عسكرى اللعبة. لقد ظلت لمدة عشرين عاما تقف على شاطئ جاف، نصف نائمة، تمد أصابع كسولة تلتقط به الطعام، تنعس، ثم تستيقظ، ثم تنعس مرة أخرى. فجأة، أطاحت بها موجة عنيفة ساقتها بعيدا نحو بحر متلاطم الأمواج.

إنها دائما لا تفكر على شكل صور أو مناظر، فليس هذا أسلوبها، لكن الليلة، وهى نصف مرتعبة، نصف جذلة، فى تلك الغرفة شبه المظلمة، فى حالة من الانتظار، شعرت بقلبها وهو يدق بعنف وتشعر بضرباته فى حلقها، تتنصت، تراقب جوان خلسة، فترى موريس، بنفس ظله يشير إليها بإصبعه لتتبعه خلف المنزل. لا، يجب أن تكون صادقة مع نفسها، هو يجب أن يستبعد من فكرها، فالقوة تقف إلى جانبها، وليست هى....

أخذت ترمق جوان بنوع من القلق، فهذه الابنة كانت تمثل لها دائما مصدرا للتوتر، هى لا تهتم أبدا بنوعية جنسها، أما الآن، وكما يحدث مع النسوة اللاتى ينغمسن فى مواقف عاطفية، كانت تنظر إليها كمتداخل محتمل. هى تحتقر كل

النسوة الأخريات، كما تفعل معظم النسوة فى أعماق قلوبهن، بالأخص تحتقر جوان.

"يا عزيزتى، أفضل لك أن تذهبى لسريرك، الساعة الآن العاشرة والنصف"

بدون أن يصدر منها حرف، عبرت جوان الغرفة ثم قبلت أمها واتجهت نحو الباب، ثم توقفت، قالت وهى مترددة وخائفة "ماما، هل بابا بخير؟"

"تقولين بخير يا عزيزتى؟"

"نعم. هو لا يبدو فى حالته الطبيعية، كل جبهته حمراء، وقد سمعت بالأمس وأنا فى منزل آل سامبثون أن والدى ليس على ما يرام، وأنه يجب أن يهتم بنفسه أكثر من ذلك، هو مضطر ومجبر على اتباع ذلك"

"مجبر على ماذا؟"

"لا، هذا يعنى أنه يجب أن يهتم بنفسه أكثر من ذلك"

"شىء سخيف بالطبع!"، التفتت نحوها وقد فقدت بعضًا من صبرها "لا يوجد أحد مثله فى اكتمال صحته"

"انه دائما ما يوجد باديا عليه أنه مهموم بأمر ما"

"نعم، أعتقد ذلك"

اختفت جوان، جلست مسز براندون تنظر أمامها، عقلها يساير دقات الساعة - تك - تك - تك - ثم خطر ببالها فجأة، هل سوف يحضر إليها زوجها ليقول لها تصبحين على خير؟

كم تغيرت هى بعد مرور تلك الأسابيع الأخيرة، إنها الآن تمج قبلته- سوف يقف خلف مقعدها، ثم ينثنى بجسده الضخم ووجهه الأحمر يقترب منها، ثم دفعة من رائحة التبغ، بعدها الضغطة العنيفة على خدها، ثم ذلك التواصل الذى لا يعنى

شيئا بين شفتيه وشفتيها، سوف تبرق عيناه الجميلتان عبرها مستطلعتين أنحاء الغرفة وهو غائب عن الوعى. جميلة! نعم، هى عيون لها شهرة مدوية فى كل البلدة. هى تتذكر جيدا تلك الأيام الخوالى عندما كانت تلك العيون تبدو وكأنها تخاطبها بكل حنو ورقة، عندما يضمها إليه، كانت تمد يدها متلمسة أزرار قميصه دافعة بأصبعها حتى مكان قلبه لتشعر بالضربات القوية وجسده دافئ تحت لمستها.

الحياة! ثم الحياة! يا لها من سراب خادع، نعم كلها خداع!. قفزت من مقعدها، تاركة الكتاب يسقط من حجرها، وبدأت تقطع الغرفة جيئة وذهابا، هل هذا الأمر الجديد الذى ظهر فى حياتها يقوم أيضا بخداعها؟ بنفس الرقة والحدة التين نظرت بهما نحو موريس، هكذا فعلت مع براندون. نعم، هناك احتمال. إنها لن تخدع نفسها أبدا، لكنها الآن هى أكبر سنا، وهذه هى آخر فرصة لأن تتمتع بحياتها، بشكل نهائى ومحدد، هى بالفعل آخر فرصة لها. هذه المرة، لم تكن رغبتها الأساسية أن تكون هى المحبوبة، فما كان يدفعها دفعا نحو موريس هو رغبتها أن تحب. هى تعلم ذلك جيدا، لكن فولك فيه الكفاية وأكثر. إذا رضى فولك أن يبقى بجوارها، يسمع لها، يسمح لها أن ترعاه وتحبه، وأن تكون دائما بجواره، حينئذ هى قادرة أن تبتعد عن موريس وتطرده من قلبها وعقلها.

نعم، كادت أن تصرخ بذلك فى تلك الغرفة شبه المظلمة:

"اعطنى فولك وسوف أترك الآخر على الفور، اعطنى ابنى..هذا من حقى. هو حق كل أم. إذا رفضت طلبى، فليس أمامى سوف أن أبحث عن بديل"

"اعطنى إياه! من فضلك اعطنى إياه! هناك شيء وحيد مؤكد، هو أنها لن تعود أبدا لحالة السبات التى استمرت طويلا، فاللقاء الأول مع موريس أشعل حياتها، هى لا تستطيع الآن أن تعود إلى الوراء، هى تشعر بالسعادة لأنها.....

وقفت فى منتصف الغرفة تتنصت. لقد أغلق باب الصالة بهدوء، فجأة اختفى خط النور تحت عقب الباب. هناك شخص ما خفض من درجة إنارة اللمبة.

ذهبت إلى باب غرفة الاستقبال، فتحته، نظرت، ثم قالت بهدوء:

"فولك! فولك!"

"نعم يا أمى" عبر الغرفة متجها نحوها. كان يحمل شمعة فى يده "هل ما زلت مستيقظة؟"

"نعم، الوقت ليس متأخرا. حوالى الحادية عشر، تعالى إلى غرفة الاستقبال"

عادا إلى الغرفة، أغلق الباب وراءه، ثم وضع الشمعة على المائدة المستديرة؛ جلسا فى حدود إضاءة شمعتين، واحدة على كل جانب.

نظر نحوها، فكر كم هى صغيرة الحجم وهشة، كم هى غير مهمة فى حياته، لكن ما الذى تعنيه الأمهات للأبناء، هى تعتبر كما مهملا بالنسبة إليه! هو دائما تجده مناصرا لرأى والده فيها، من أنه من الضرورى بمكان أن تكون متواجدة فى المنزل، وبالطبع يجب أن تبذل أفضل جهدها فى خدمتهم، لكن يجب أن لا تتوقع أن يفكر فيها أحد. قال:

"كان من المفترض أن تكونى فى سريرك الآن"، متوقعا بذلك أن تطلق سراحه.

للمرة الأولى فى حياتها تحدثت معه تلقائيا، مهملة تماما تلك المشاعر التى كانت تزاحمها دائما، من أن ابنها وزوجها سوف يتركنها فور أن يشعرا بأنها أصبحت غير محتملة. أما الليلة، فإنها لن تتركه حتى تعقد معه صفقة. قالت:

"ما الذى كان يشغلك يا فولك كل تلك الأسابيع الماضية؟"

"يشغلنى؟ "، كرر ذلك، إلحاحها هذا كان غير متوقع إطلاقا.

"نعم، أنا أعلم تماما أن هناك ما يشغلك، وأنت تعلم أننى أعلم. يجب أن تخبرنى. أنا أمك، المفروض أن اعرف كل شىء عنك"

أدرك فى الحال، أنها أخر إنسان يمكن أن يخبرها بشىء. أنه يشعر بالتعب، تعب قاتل. أراد بالفعل أن يذهب إلى سريره، لكن تم أسره بصوتها الملح. ما لها هذا السيدة؟ هو كان مركزا طوال الشهور الماضية على اهتماماته ومشاكله الخاصة. لم يخطر على باله قط أمه هذه. أخذ فى استعراضها عبر المائدة. امرأة صغيرة الحجم، بلا لون محدد، ولا شخصية. لكن مع ذلك، هناك شىء ما حدث لها. شعر بالضجر الذى يمكن أن يشعر به أى إنسان مشغول بمأساته، لكنه مضطر غصبا أن يهتم بشخص آخر.

"ليس هناك شىء يمكن أن أخبرك به يا والدتى. حقيقى لا يوجد. لقد تعبت من السير فى أرجاء تلك المدينة الملعونة خلال الشهور الماضية. أنا غير مستريح، لذا سوف أرحل إلى لندن فى أقرب وقت ممكن"

سألته "ما الحاجة إلى الرحيل؟". كادت الشمعة أن تقفز من مكانها بسبب صوتها الحاد.

"ما الحاجة؟ لكن بالطبع هذا أمر ضرورى. وأنا أسألك الآن، هل تعتقدين أن مدينتنا هذه هى المكان المناسب لمعيشة أى إنسان؟"

"أنا لا أعلم لم لا تكون هكذا؟ كنت أظن أنك سوف تشعر بمزيد من السعادة والرضى ببقائك هنا. هناك أمور كثيرة يمكن أن تنشغل بها هنا"

"ماذا مثلا؟"

"يمكن أن تعمل فى المجالات القانونية، أو أن تمتهن عملا ما. هناك الكثير من الفرص، بالتأكيد سوف تعثر على العمل المناسب لك هنا"

قام ممسكا بالشمعة فى يده، قائلا:

"حسنا، إذا كانت تلك هى فكرتك، أنا آسف. لكن أرجوك انسى هذا الموضوع تماما. أنا مستعد أن أدفن حيا عن أن أبقى هنا فى هذا المستنقع، وسوف أدفن بالفعل إذا بقيت هنا"

رفعت ناظريها إليه. إنه طويل القامة، أنيق وجميل، أيضا بعيد، هو شخص لا يربطه بها أية روابط. قامت هى أيضا ووضعت قبضتها الصغيرة على ذراعه.

"إذن فنحن جميعا لسنا فى حسبانك إطلاقا"

"بالطبع أنا أهتم بكم"، أجاب متوترا، نافذ الصبر، بسبب أصابعها المغروسة فى كم معطفه "سوف تشاهدينني كثيرا، لكن لا تتوقعى أبدا أن أعيش هنا. لقد أضعت أفضل سنوات عمرى حتى الآن، ويبدو أنك تودين أن أضيع الباقى أيضا"

"حينئذ" اقتربت منه وهى تنطق بصوت خفيض "حينئذ، خذنى معك"

"آخذك معى!" ابتعد عنها قليلا. هو لا يصدق انه يستمع إليها جيدا "آخذك معى؟"

"نعم"

"آخذك معى؟"

"نعم، نعم، نعم"

كانت تلك أكبر مفاجأة تحدث له فى حياته. أخذ يحملق فيها باندهاش واضعا الشمعة مرة أخرى على المائدة.

"لكن لماذا؟"

"لماذا؟.. ماذا تظن؟ بالطبع لأننى أحبك وأود أن أكون معك"

"تبقين معى؟ وتتركين بولشستر،... تتركين والدى؟"

"نعم، لم لا؟ والدك لم يعد فى حاجة لى. لا أحد يريدنى هنا. لم لا أرحل من هنا؟"

اقترب منها، متنبها تماما لحديثها، محملقا فيها كأنما يراها للمرة الأولى فى حياته.

"أمى، هل أنت بخير؟ هل لا تشعرين بالسعادة هنا؟"

ضحكت "السعادة؟ بالطبع سعيدة جدا، لدرجة أنه فى إمكانى أن أغرق نفسى الليلة إذا كان هذا فى مصلحة أحد"

"اجلسى هنا" دفعها دفعا لتجلس على مقعد "على أن أفهم كل شىء بوضوح. أنا لا أعلم شيئا عما تتحدثين عنه. أنت غير سعيدة؟ لماذا؟ ما الموضوع بالضبط؟"

"الموضوع؟ أوه، لا شىء..لا شىء إطلاقا، كل ما فى الأمر هو أننى خلال العشر سنوات الماضية كنت فى حالة مزرية من كره هذه المدينة، أكره هذا المنزل، أكره والدك أيضا"

"تكرهين والدى؟"

حملق فيها، كما لو أنها قد أصيبت بجنون مطبق. قالت هى بهدوء:

"نعم. لم لا؟ ما الذى فعله لكى يجعلنى أشعر بخلاف ما أحس به؟ ما هى درجة اهتمامه بى؟ متى عمل اعتبارا لى إلا بصفتى مدبرة المنزل وعشيقة يدفع لها نقودا لكى يجعلها بقربه؟ لم لا أكرهه؟ أنت صغير يا فولك، وسوف تشعر بدهشة بالغة عندما تعلم أن كثيرًا من الزوجات الهادئات المستقرات فى منازلهن يكرهن أزواجهن الطيبين المسالمين"

أخرج من صدره زفرة هائلة:

"ما الذى فعله والدى ليجعله محلا لكراهيتك هذه؟

كان من المفترض عليها أن تدرك من نبرات صوته أنها وهى مشغولة تماما بمشاكلها، قد نسيت أهم عنصر فى كل المسالة، وهى حبه البالغ لوالده. قالت:

"ليس الأمر مختصًا بما فعله معى، لكن بما لم يفعله. متى أن أهتم بأحد غير نفسه؟ لماذا علينا أن نستمر فى ترديد أنه إنسان عظيم ورائع؛ هل تعتقد أنه يمكن لإنسان يعاشر والدك عشرين عاما أو أكثر ثم لا يكتشف أنه إنسان صغير، دنىء وأنانى؟ كيف يمكن...

قاطعها غاضبا "ليس من حقك أن تقولى هذا، ربما يكون لوالدى أخطاؤه- وهذا يحدث مع كل بشر - ويعيش وسطنا أسوأ أنواع الناس. إنه ليس صغيرا أو دنيئا، ربما يبدو أحيانا مغرورا ومعتزا بنفسه، لكن هذا لا يحدث إلا لأنه يراعى مصلحة الكاتدرائية بجماع قلبه قبل أى شان آخر، والكل يعلم ماذا صنع من أجلها. هو أفضل إنسان قابلته فى حياتى حتى الآن. إنه لا يرى دائما الأمور كما انظر إليها، لكن هذا لا يمنعنى عن إعلان إعجابى به. ماذا حل بك؟ بالتأكيد أنت مريضة يا أمى. تتركين والدى! لماذا؟ هذا فكر مريع! فكرى فى الكلام والأقاويل التى سوف تثار هنا! ما هذا؟ ذلك العمل سوف يدمر والدى تدميرا كاملا، ولن يتغلب على تلك المأساة أبدا"

أدركت الآن الخطأ الذى ارتكبته، لذا نظرت نحوه بضراعة:

"أنت على حق يا فولك. أنا لم أقصد ما قلته، لكنى أنا تعيسة للغاية لذلك لا أدرى ما أنطق به. كل ما أتمناه هو أن أبقى معك. لن يضر والدك شيئا إذا رحلت معك إلى لندن لفترة بسيطة، كل ما أحتاجه هو إجازة قصيرة، وسوف أعود بعد شهر أو اثنين وأنا منتعشة. أنا متعبة للغاية"

فجأة، أثناء حديثهما، أدرك فولك ذلك التناقض الساخر الماثل أمامه. هنا هو واقف وكله تعجب واندهاش من أمه لأنها كانت تفكر أن تقدم على خطوة سوف تسبب ضررا بليغا لأبيه، بينما هو، ذاك الذى أعلن أنه يحب والده، سوف يقدم

على عمل يجعل كل المدينة تتحدث لمدة عام. لكن بالتأكيد، موضوعه مختلف تماما. هو صغير السن وعليه أن يشق طريقه فى الحياة، وعليهم أن يسمحوا له أن يتزوج من يرغب فى الاقتران بها، كذلك ليس الأمر هو أنه سوف يقدم على إيذاء هذه الفتاة ....

مع ذلك، فإن هذه المقارنة الفجائية صدمته وحيرته.

استند عبر المائدة محملقا فيها "عليك أن لا تفكرى إطلاقا فى هجر والدى- لا تفكرى حتى فى هذا الموضوع من الأساس، هو فى حاجة ملحة لك، ربما لا تلوح الأمور كما ترغبين، فالرجال ليسوا عاطفيين كالنساء، لكن هو سوف يشعر بالبؤس البالغ إذا تركت هنا. إنه يحبك بطريقته الخاصة، مماثلا لأسلوبك، لكن بطريقة مختلفة.لا يجب أبدا أن تتركيه يا والدتى، هل تسمعين؟"

أدركت أنها قد هزمت كلية، فصرخت فى قلبها مخاطبة القوى العليا،

"أنت ترفض طلبى، إذن على أن اسلك الطريق المناسب لى"

قامت وقبلته فى جبينه، قائلة:

"أجرؤ على القول إنك على حق يا فولك. انس ما قلت. أنا لا أقصد معظم ما نطقت به. تصبح على خير يا عزيزى"

غادرت الغرفة بهدوء وأغلقت الباب وراءها.

لم يذق فولك طعم النوم هذه الليلة، وأصبحت هى ليلة من جملة ليال جافاه فيه النوم، لكنها كانت أسوأ ليلة مرت عليه. الليلة كانت دافئة، بينما هناك ضوء خافت يتردد خلف قمم أشجار الحديقة وراء نافذته المفتوحة. رقد أولا تحت الأغطية، ثم فوقها، ثم خلع كل ملابسه وغطس رأسه فى وعاء من الماء. ثم وهو عار، إلا من شبشبه الناعم، أخذ يطرق غرفته ذهابا وإيابا... رأسه كانت ملتهبة

بالنار. للحظة بدا الضوء الخافت كأنه سوف يختفى، أصبح العالم كله يسبح فى الظلام والصمت. ثم، مع دقات ساعة الكاتدرائية، التى بدت كأنها دقات المسرح قبل فتح الستار، زحف الضوء مرة أخرى وبدأ فى النمو تدريجيا، بدأت الطيور فى الزقزقة، ونعق غراب، ثم انتشرت دفقة من ضياء ذهبى وتشكلت مربعات وأشكال أخرى تتبدى من خلال فرجات الأشجار السوداء، وتصافحت مع الهواء.

كانت صدمة إعلان والدته مزلزلة، ليس بسبب المفاجأة التى تبدت فى المسالة، لكن لأنها ألقت ضوء فجائيا على مسألته هو الخاصة. خلال الأسابيع الماضية، درج مع آنى هوج خطوات كبرى بحيث أصبح من المستحيل أن يتراجعا الآن. لقد حققا علاقة غريبة بينهما: ليس قوامها الزمالة، أو الشهوة، أو الرغبات الجامحة أو الحب، هى تتكون من قليل من كل هذا، لكن ليس الكثير من إحداها. هما الآن يشبهان اثنان من الغرباء تعرضت سفينتهما للغرق، فتعلقا سويا على قطعة من الخشب التى ربما تسبح بهما ليصلا إلى شط الأمان.

كانت هى تشعر بالبؤس، هو أيضا كان بائسا. إذا كانت هى بالفعل تهتم به، هذا لا يستطيع أن يؤكده، أو هل هو مهتم بها؟ لقد كانت الاستثارة التى خلقتها فيه عظيمة وطاغية، لكنها لم تكن استثارة مصدرها الشبق المدفوع بقوة الرغبات الجنسية، إنه لم يفعل شيئا سوى أن يقبلها، هو على استعداد تام أن يستمر الوضع معها هكذا. ربما يكون قد انتوى أن يتزوجها، لكنه هو حتى الآن غير متيقن.

لكن هو لا يستطيع أبدا أن يهجرها؛ لا يستطيع أن يبتعد عنها بالرغم أنه قليلا ما كان يشعر بالسعادة وهو معها. ببطء وبشكل تدريجى، من خلال مقابلاتهما، نشأت بينهما رابطة قوية. هو دائما ما يشعر أنه على طبيعته معها أكثر من أى إنسان آخر، وبالرغم أنها كانت تثيره، لكنها أيضا كانت تعمل على تهدئته. لشكل متزايد، أصبح معجبا بها، محترما لها- أمانتها، استقلاليتها، تحفظها، الاحترام والإعجاب المتبادل. لم يكن هناك بينهما، من اللحظة الأولى، أى نوع من الخداع، هو لم يكن على هذه الدرجة من الأمانة مع أى إنسان من قبل- وبالتأكيد،

يشمل ذلك نفسه ذاتها. كانت أمنية حياته، الأكثر أهمية، أن يكون أمينا: أن لا يتظاهر بعاطفة لا يحس بها حقيقة، أن يدرك ما هى حقيقة الحياة بالضبط، أن يواجه الحياة وهو غير خائف أو متردد. هو يعتقد أن الأمانة هى أعظم خصلة فى الحياة؛ لهذا السبب كان معجبا بروندر. مع ذلك، لاحظ أن الحياة دائما ما تدفعه لأن يتخذ مواقف زائفة. حتى فى هذه اللحظة، كان يفكر فى كيفية هروبه مع حبيبته، وحتى هذه الليلة، كان منهمكا فى تخيل كيفية تنفيذ هذا الهروب، لكن مناقشته مع والدته، أوضحت له أنه قريب للغاية من اتخاذ هذا القرار الحاسم. مع ذلك، هو سوف يتحدث مع روندر ومع والده أيضا، بالطبع لن يخبرهما بكل شىء، لكن سوف يحاول أن ينتهل منهما بعض النصائح التى تبدو صائبة ترشده إلى سلوك الطريق الأسلم.

أخيرا، بعد ظهور أضواء الصباح جلية خلف الأشجار، تأكد أنه مضطر أن يكون أمينا مع والده، لكن كيف تكون أمنية حياته الآن أن لا تسىء أمه إلى والده، بينما هو مقدم على ارتكاب نفس الجرم؟

لكن حتى مع اكتشاف هذه المسألة، فهذا لن يقلل من درجة تصميمه لأن يخطو تلك الخطوة. هل هو، إذن، ليس فى الواقع سوى واحد من المنافقين المدعين؟ إلا أنه يعلم يقينا أنه ليس كذلك.

يستطيع الآن أن يستجلى المستقبل، يدرك أن والده سوف يوقن أن ما سوف يحدث، أو ما حدث، هو كان فى مصلحة ابنه فى المقام الأول. لقد عرف الجميع، حتى أمه أدركت فى صميم أعماق ضميرها، أنه ليس مستعد إطلاقا أن يعيش فى بولشستر إلى نهاية أيامه، ومسألة رحيله إلى لندن هو أمر حتمى. هو من الضرورى عليه أن يصطحب معه آنى، سوف يمثل ذلك فى مبدأه صدمة قوية لأبيه، لكن هذا لن يستمر طويلا. فى بولشستر ذاتها، سوف يفوز الأب بالإشفاق والمشاركة الوجدانية، لكنه هو سوف يتلقى الاحتقار ويحكم ضده، سوف يقولون: "آه، براندون الشاب هذا، هو لم يكن ابنا بارا أبدا، لقد صنع معه والده كل ما يلزم،

لكن بلا فائدة...". ثم ترد الأخبار لاحقا التى توضح على أنه الآن موفق تماما فى عمله بلندن، وأن كل أموره تسير سيرا حسنا، وقد صادفه التوفيق والنجاح المؤزر."

كان متلهفا أن يتحادث مع روندر، فهذا الرجل سوف يقدم له النصيحة المخلصة. روندر هذا اختبر الحياة جيدا، وهو ليس قرويا مثل جميع أهالى بولشستر....

فجأة أحس بالبرد يداهمه، عاد إلى سريره واستغرق فى نوم عميق بلا أحلام.

فى الأمسية التالية، عند الساعة الثامنة والنصف، كان فى موقعه المعتاد بجوار النهر، الذى لا يبعد كثيرا من حانة "الكلب والسمكة".

كانت هناك عاصفة تبدى نواجذها خلف الكاتدرائية، وقد تجمعت سحب سوداء، طبقة فوق الأخرى، كما لو أن هناك بائعًا للسجاد يفرد سجادة وراء الأخرى ليغرى الزبون. لمعت الأضواء فوق الكاتدرائية بآخر التماعة من الضوء الهارب ببهاء طيفى فضى اللون، بدت الكاتدرائية مرة أخرى كأنما هى باخرة فى العلا تمخر العباب وراء العاصفة.

فى الأسفل، بجوار النهر، كان الغسق رماديًا رطبًا، أما النهر فكان يجرى غاضبا بين صف من المنازل والحقول المترامية الملتوية. كان الرياح شديدة، ما يجعل الناس يسيرون وقد أحنوا ظهورهم، كأنما هم يحملون إثقالا أكبر مما يستطيعون حمله. هذا الجزء من النهر، أصبح بالنسبة لفولك هو جزء من نفسه وكيانه. الطاحونة القديمة، مجموعة الأشجار المجاورة لها، كذلك السد المنخفض الذى تصطدم به المياه كأنما هى غرغرة السكران، والممر بأحجاره الصخرية الحصباء، الذى يبدو كأنه يطحن أسنانه تحت كل خطوة يخطوها إنسان فوقه. على

اليسار، تكومت المدينة عاليا، بينما امتدت أجنحة الكاتدرائية كذلك الحقول المنحدرة خلف النهر، ثم تبدى على البعد ملامح الغابة السوداء التى تقطع خط الأفق، كل هذه الملامح تمثل تاريخه هو، تقبض عليه وتمتلكه امتلاكا.

هناك أماكن كثيرة، كان من الممكن أن يختارها للاقاء، وهناك أوقات أخرى كان من الممكن أن يحضرا فيها، لكن الظروف والصدفة هى التى حددت هذه الخلفية بالذات. منذ فترة طويلة، لم يعد يهتم ما إذا كان أحد يراهم أو يراقبهم. فهما، كلاهما، لا يتصفان بالجبن. بالرغم أن والد آنى هو الشر مجسما، وابنته هذه تكرهه، حيث أنها تدرك مدى قدرته على ارتكاب أفظع الجرائم، لكن هى لا تخشاه بشكل بات، ولن تتورع أن تجابهه، بل وهى تفكر فى الهرب بسببه، وكانت قد أعطت فولك فكرة واضحة عن مقدار الشر واللؤم المختفى وراء تلك الابتسامة الخالدة لوالدها. أيقن فولك الآن أن هوج هذا كان يعلم تماما بهذه اللقاءات، بل وراوده شك قاطع من أنه كان يعلم بها منذ أن بدأت للمرة الأولى. هوج هذا له أخطاؤه، لكنها جميعا لا تخيف فولك، فهو، فى الحقيقة، لا يخشى أى إنسان حى، ما عدا نفسه ذاتها.

أما العامل الآخر الذى ازدادت فيه درجته مع مرور الأسابيع الماضية، هو شعوره بمقدار هذا النبل الذى اكتست به شخصية آنى، فهى بالرغم أنها شغلت فكره بقوة، لكنها لم تحاول أبدا أن تتظاهر بما ليس فيها، لقد رآها كما هى- إنسانة غير متعلمة، جاهلة، محدودة فى مظهرها، عادية فى أمور كثيرة، بل وكثيرا ما تكون متشائمة ومتطايرة. فى كل من هذه السمات، كان هناك عنصر من النبل يظهر فى شكل غير متوقع، داعيا له كأنما هو صدى يأتى من مصدر بعيد، لذا داهمه عجب، فهل هو يعتبر محظوظا أكثر مما يستحق...

فى تلك الليلة العاصفة، تقابلا كأنهما صديقان عرف بعضهما البعض منذ أمد بعيد، وما يربطهما سويا هو الشعور بالزمالة والانتماء. لم يتعانقا فى قبلة، فقط تلامسا ببساطة بأيديهما، ثم تحركا نحو المنطقة المظلمة التى تجمعت فوق الكوبرى

الصغير الذى يقع أسفل الطاحونة. من هنا، استطاعا أن يسمعا صوت المياه وهى تناغى كأنما هى تعلق على حديثهما سويا. قالت آنى:

"يبدو أن حضورنا إلى هنا سوف يصبح محدودا"

"لماذا؟"

"لأننى سوف أرحل إلى لندن، سواء ذهبت معى أم لا. هذا سوف يحدث فى القريب العاجل"

كان أكثر ما يبهره فيها هو قراراتها القاطعة، فهى دائما ما تنتقل من نقطة إلى أخرى بدون أن تطلب النصح من أحد، ولا تسمح لنفسها أن تشعر بالندم طالما اتخذت قرارا ونفذته.

"ما الذى حدث منذ آخر لقاء لنا؟"

"حدث؟ لا شىء. سوى انه قد فاض بى الكيل بسبب والدى وحانة الكلب والخمر والسكارى"

"ما الذى يمكن أن تفعليه فى لندن إذا رحلت بمفردك؟"

رفعت رأسها ضاحكة "هل تظننى إنسانة عاجزة ؟ حسنا، أنا لست كذلك"

"لا، أنا لا أظن كذلك، لكن أنت لا تعرفين لندن جيدا"

" ربما يكون مكانا مرعبا، لكنه لن يكون مقززا مثل والدى"

فجأة برز فى نبرة صوته نوع من التوتر "إذن أنت لا تهتمين سواء جئت معك أم لا؟"

"بالطبع أنا أهتم بك. نحن أصدقاء، وأنت أفضل صديق قابلته فى حياتى. قل لى، ما الذى أبغيه من حرصى على مقابلتك كل تلك الشهور السابقة إذا لم أكن مهتمة بك؟ هل تعتقد بأننى معجبة فقط بالمناظر هنا؟"

ضحكت برقة، ثم أكملت "أنا مستعدة أن أرحل سواء معك أو بمفردى، وإذا رحلنا سويا، فسوف أحرص على استقلاليتى كما لو أننى قد رحلت بمفردى. إننى أحرص دائما على أن أكون مستقلة عن أى إنسان- سواء أكان هو والدى، أو أنت، أم غيرك. سوف أوافق أن تتزوجنى إذا رغبت، ومن الممكن أيضا أن أعيش معك بدون زواج، بل وفى إمكانى أن أعيش بدونك ولا أراك أبدا. لا أقول أن بعدى عنك لن يسبب لى حزنا وضيقا. فعلا سوف اشعر بالحزن، بعض قضائى كل هذه الأسابيع معك؛ لكنى أفضل أن أحزن عن أن أفقد استقلاليتى"

أمسك يدها بقوة بين يديه، ثم استمرت فى القول:

"ربما تقول يا فولك، أنه ليس من حقى أن أقول بأننى سوف أرحل معك- وأنى سوف أدمر مستقبلك وأجعل الناس يعايرونك. حسنا، لك الحق فى أن لا ترانى مجددا، فأنا لدى خططى الخاصة التى أفكر فيها. أنا لا اسمح لأى رجل أن يشعر بالخجل منى"

"لك الحق أن تعبرى عن نفسك كما ترغبين، وأنا أيضا من حقى أن أفكر فى مستقبلى، لذا أقول لك أن أكثر ما أهتم له هو أن لا أسبب أى ضرر لوالدى. إذا رحلنا سويا، سوف تتناثر كثير من الأقاويل بشأننا، وكلها سوف تنصب فوق رأس والدى"

قالت وهى ترفع رأسها وتسحب يدها من يده "حسنا، إذن لا ترحل. أنا لا أطلب منك ذلك. أما عن والدك، فهو ذلك الرجل الفخور بنفسه....."، توقفت عن الحديث فجأة "لا، لن أذكر هذا. أنت تهتم بمشاعره، ولك الحق فى ذلك، لكن فيما يختص بموضوعنا، لا داعى أن نرحل سويا، يمكنك أن تأتى لاحقا وتنضم لى"

عندما نطقت بذلك، عرف على الفور أنه لا يتحمل أبدا فكرة أن تذهب إلى لندن بمفردها، وانه كان قد عقد العزم أن لا تذهب بمفردها إطلاقا، قال:

"إذا اعترفت بأنك تحبيننى، فلن أتركك أبدا تغيبين عن نظرى مرة أخرى"

"لا، بل سوف تفعل. أنت لا تعلم يقينا ما إذا كنت تحبنى أم لا. فى كثير من الأحيان أنت تفكر بأنك لا تحبنى. أنا أيضا لا أعرف ما إذا كنت أحبك أم لا. أحيانا أفكر أننى كذلك. لكن ما هو الحب؟ أنا لا أعرف. أحيانا أفكر أننى خلقت بحيث لا أفكر فى أى إنسان كحبيب لى. لكن ما أود أن أقوله لك هذه الليلة، اننى كرهت للغاية هذا التأجيل.سوف أرحل بعد أسبوع من اليوم وأنزل عند قريبة لى فى طريق "بلاك هيث" بلندن. إذا أنت أتيت، فسوف أسعد بك، لكن إذا لم تستطع- حسنا، أعتقد أننى سوف أتغلب على ذلك"

"أسبوع من اليوم؟"، حملق فى الماء.

"نعم، هذا قرار نهائى"

ثم، وبشكل غير متوقع، كما فعلت سابقا، وضعت ذراعها حول رقبته وجذبت رأسه على صدرها ودعت يدها تستقر فوق رأسه، قالت:

"أحب أن تكون فى هذا الوضع دائما، فأنا مشاعرى هى مشاعر الأم أكثر من كونى حبيبة"

لم تدعه يقبلها، فجأة ابتعدت عنه فى الظلام تاركة إياه فى مكانه؟

عندما كان فى منتصف المسافة إلى منزله، انفجرت العاصفة التى كانت هادئة خلال الساعة والنصف السابقة وصعدت فوق المدينة كلها. بينما كان يعبر منطقة السوق، هطل المطر على هيئة سيول وأخذ يتراقص على حجارة الطريق غير المستوية بشكل جنونى، وتكاثف الهواء بغلالة كثيفة من الضباب. صعد هو إلى الشارع الرئيسى، رأسه محنى، شاعرا بالرضا بسبب هذا الهجوم الكاسح عليه. كانت المدينة تلمع ومهجورة تماما، لم يكن هناك إنسان واحد على مدى البصر، ولا صوت يسمع سوى فحيح وتهكم وثرثرة هذا السيل المنهمر. وصل أخيرا إلى

منزله، ثم أسرع إلى غرفته وبدل ملابسه وارتدى جاكت العشاء، ثم هبط ودخل غرفة مكتب والده. لم يكن الوقت قد حان ليتناولوا طعام العشاء، لكن هو لا يشعر بالجوع، حتى لا يتذكر متى أحس بذلك.

دق على الباب ثم دخل، كان يعتمر فى قلبه دافع يائس يحثه على أن يحدث توافقا ومصالحة بين اهتمامات الاثنين الذين يشغلان الآن كل فكره- هما والده وآنى، ويجب عليه أن يعثر على الوسيلة المناسبة لتحقيق ذلك. هو ما زال يتذكر لمسة يد آنى على يده، لقد ارتبطا هذه الليلة بالذات ارتباطا قويا بعد الحديث الذى جرى بينهما أكثر من أى لقاء آخر، لكنه كان فى شوق بالغ لأن يؤكد لنفسه نوعًا من التواصل مع أبيه، وأن لا يسبب أى ضرر لهذا الرجل العجوز، وأن يكون قادرا على التعبير عن حبه وتقديره البالغ لوالده.

لكن الأسباب الصغيرة كثيرا ما تكون نتائجها صادمة، وربما كانت حياة عدد كبير من الناس قد تغيرت لو كان فولك قد اختار وقتا آخر غير هذه الليلة ليتحادث مع والده.

لم ينظر الأرشدياكون والباب يغلق وراء فولك. كان جالسا على حافة المائدة يكتب بعض الخطابات. تشبه التعبيرات التى كست وجهه نفس التعبيرات التى قد تظهر على وجه غلام حبس فى الفصل لكى يكتب خمسين سطرا من شعر الإلياذة. شعره المتموج كان منفوشا، وفمه ملتويا فى اشمئزاز، وقد دفع بجسمه الضخم ليحتل المقعد كله، بينما يبسط ويثنى ساقيه كما لو أنه أثناء انشغاله بكتابة هذه الخطابات يود أن ينتفض قائما، ثم يمسك برقبة عدوه، ثم يدفعه وينزل فيه ركلا وضربا موجعا.

"مساء الخير يا أبى" قالها فولك ثم جلس على مقعد جلدى وثير وأخرج غليونه وأخذ يحشيه بالتبغ.

استمر الأرشدياكون فى الكتابة، يغمغم لنفسه ويعض فى مؤخرة قلمه، يبدو أنه لم يلاحظ دخول ابنه، لكنه فجأة قفز واقفا ودفع مقعده حتى كاد هذا أن يقع، ثم بدأ يخطو فى أرجاء الغرفة ذهابا وإيابا. منظره كان رائعا، وقد رفع هامته عاليا، كأنما هو يخاطب العالم كله:

"أهذا هو الاعتراف بالجميل! هذا شىء لا يفقهون فيه شيئا، هل تعتقد أننى سوف استمر فى العمل من أجلهم، أرهق نفسى حتى أصبح خيالا، أستمر فى عملى طوال الليل، وأصحو من نومى السابعة صباحا، وفى النهاية يكون هذا جزائى؟ سوف أغادر هذا المكان. سوف اتركهم ليغرقوا فى مستنقع أخطائهم وأتفرج عليهم. سوف أعلمهم كيف يحتفظون بالجميل. لمدة عشر سنوات، أعمل كالعبد لمصلحة المدينة والكاتدرائية. من فيهم أجهد نفسه فى العمل مثلى؟"

"ما الموضوع يا والدى؟" تساءل فولك وهو ما زال جالسا فى مقعده. بالطبع، يعلم كل فرد ذلك التوتر الذى يصادف أى إنسان عندما يدخل عليه آخر، بينما يكون هو مشغولا بأمر خاص به. أخذ فولك يفكر فى نفسه "دائما هو مشغول بنفسه، وكلها أمور تافهة"

"الموضوع؟ قل المواضيع، كل شىء! سوف يداهمنا موضوع الاحتفال باليوبيل، لكن كل شىء فى حالة من الخراب الكامل والضياع. أنا، ذاك الذى يعرف كل كبيرة وصغيرة فيما يختص بالكاتدرائية خلال العشر سنوات الماضية، ثم أخيرا أجدهم يكلفون رايل أن يكون هو الوحيد المختص بتنسيق وتسيير موضوع القداسات التى سوف تقام خلال كل أسبوع الاحتفال باليوبيل؟"

"حسنا، أعتقد أن رايل هذا هو رئيس المرتلين، أليس كذلك؟"

"بالطبع هو كذلك، وما هو عمل رئيس المرتلين! كل مواطن هنا يعلم أنه إنسان لا يقدر ولا يستطيع أن ينظم شيئا بمفرده، وهذا ثبت بدل المرة الواحدة ألف مرة. لكن هذه ليست سوى واحدة من عدة محاربات تحاصرنى فى كل مكان،

وسوف ينتهى بى الأمر أن أطلب فى المستقبل إذن المجلس لكى أمر فى الشارع الرئيسى!

"على أية حال يا والدى، لا تتوقع أن يضعوا كل تجهيزات اليوبيل على كتفيك، فهذا أكثر من طاقة شخص واحد"

"أنا أعلم ذلك. بالطبع أعرف – فموضوع رايل هذا ليس سوى نفخة وحيدة من عاصفة عاتية تهب. كل إنسان عليه أن يؤدى الدور الموكول إليه، لكن خلال الشهور الثلاثة الماضية تغير المكان هنا تماما– لقد أصبح المجلس كله فى حالة من الارتباك، هناك تمرد واضح بين المرتلين وحاملى الصولجانات وفى كل مكان آخر. الآن، تتعرض الكاتدرائية للدمار، لكن لماذا؟ من ذاك الذى غير كل شيء؟ لماذا لم تعد الأمور كما كانت قبل ثلاثة شهور؟"

فكر فولك فى نفسه "يا لك من مزعج أيها العجوز!". كان هو أيضا فى أسوأ حالاته التى يمكن فيها له أن يستمع لشكاوى والده، بدا الموقف أمامه، وهو يراقب والده، أنهما مبتعدان عن بعضهما بأميال عديدة. فجأة شعر أنه لا يهتم بتاتا لما يحدث لوالده، أو بسبب جرأته فى أن يخدش مشاعر والده......

"حسنا، قل لى"، نطق بها الأرشدياكون وهو منفرج الساقين، واضعا ذراعيه خلف ظهره "من تعتقد هو الذى يقف خلف كل هذه المحاربات الموجهة لى؟"

"أوه، لا أعلم بالطبع"، قالها فولك نافذ الصبر.

"أنت لا تعلم؟ بالطبع، وكيف لك أن تعلم؟ فأنت بالطبع لا تهتم بما يحدث للكاتدرائية أو أى شيء آخر. لكن على أية حال، أعتقد انه مستحيل لأى إنسان قضى داخل تلك المدينة نصف ساعة فقط ليعرف من هو المسئول. ليس هناك سوى رجل واحد، وهو بالطبع روندر."

لسوء الحظ، يعتبر فولك من المعجبين بروندر، لذا قال "اعتقد أن روندر هذا رجل يستحق كل الإعجاب، هو إنسان بارع وخلاق أيضا"

أخذ الأرشدياكون يحملق متعجبا من ابنه:

"أنت تحبه؟"

"نعم يا والدى"

"طبعا لن تهتم عندما تعلم أنه العدو الأول لوالدك، وهو الذى يقف أمامه ويعطله ويعارضه فى أى شيء يفعله"

ابتسم فولك واحدة من تلك الابتسامات الواثقة التى يمكن أن تبث توترا لا مثيل له فى قلوب الآباء "أوه، وبعدين معاك يا أبى، ألا تبالغ قليلا؟"

"أبالغ؟ بالطبع أنت سوف تقف مع الجانب الآخر، لكن ما الذى يمكن أن تعرفه عن أى شيء فى العالم وأنت هكذا مسترخٍ فى مقعدك، متسكع أسبوعا وراء الآخر، حتى أن البلد كلها أصبحت تتحدث......."

نهض فولك قائما " وخطأ من هذا إذا كنت متسكعا؟ كل ما طلبته منكم هو أن تترك لى الحرية أن ابحث عن العمل المناسب لى. خطأ من هذا؟"

"أوه، بالطبع هو خطأى أنا"، زعق الأرشدياكون " ضع الحمل كله على كتفى، قل لى أننى رجوتك أن تهجر جامعة أكسفورد! أن تمضى باقى عمرك هكذا كسولا بلا نفع إطلاقا. لماذا تهتم طالما أن لديك أما وأختا يقفان فى صفك دائما وعلى طول الخط؟"

"توقف عن هذا يا أبى"، كان فولك أيضا يزعق "خذ بالك من كلامك وإلا فإننى سوف أتبع نصيحتك وأغادركم جميعا"

"اعمل ما يروقك، أنا لا أهتم إطلاقا"

وقفا يواجهان بعضهما، كلاهما وجهه أحمر، فجأة ظهرت الملامح المتشابهة في وضوح كامل" قال فولك:

"حسنا، هذا ما سوف أفعله" قالها وهو يندفع خارجا من الغرفة، وهو يصفق الباب خلفه بقوة.

* * *

## الفصل السادس

# هــروب فــولك

جلس روندر فى مكتبه منتظرا قدوم الشاب فولك براندون، بينما تبتسم له الكتب وهى فوق رفوفها البيضاء، والطقس فى الخارج ربيعي بارد، لذا جلس بجوار المدفأة والستائر الزرقاء مضمومة. كان روندر مرتديا شبشبا بنيا وجاكت من القطيفة الرمادية. جلس مستندا بظهره على مقعد عميق، يدخن سيجارة بينما وجهه السمين ينضح بشرا وسعادة، عيناه كانتا مغمضتين تقريبا، كأنما هو رمز بليغ للسعادة الخالصة والقلب الطيب.

كان هو بالفعل متأثرا من سعى هذا الشاب لاكتساب صداقته، ويشعر أنه يمتلك عرقا عاطفيا يعمل باستمرار عند الحاجة إليه، طالما أنه ليس هناك شيئ عاجل مطلوب منه، وقد حدث مرة أو مرتين أن رجالا ونساء أصغر منه أثاروا فيه هذه النوعية من العواطف، لكنه استطاع بشكل متعجل وسريع أن يهرب منهم.

لكن عندما تكون هذه العاطفة هادئة فإنه يسر بها، هو دائما ما يحب أن يكون قلبه دافئا على الدوام، هو يرحب بأن يشعر الآخر بضغطة يديه، وترحيب عينيه وابتسامة شفتيه، وكلها كانت حقيقية وأصيلة وطبيعية. إنه يفضل أن يشبك يديه فى ذراع ملىء بالحيوية والقوة البدنية، هو يكره بشكل بالغ المرض والفناء، ويحتقرهما أيضا.

فولك هذا هو شاب صغير، أنيق ومتحمس للحياة، وإن كان متمردا إلى حد ما، وأعظم تحية يمكن أن يقدمها لروندر هى أن يلجأ إليه طالبا النصيحة. هو بالتأكيد أكثر الشباب جاذبية وقبولا فى بولشستر، بالرغم أن هذا لا يدل على شىء

محدد، فعلى كل حال، روندر يعيش الآن فى بولشستر ويود أن يشارك فى أفضل ما بها من نشاطات وحياة.

مع ذلك، هناك أسباب أخرى واقعية تجعل روندر يرحب بزيارة هذا الشاب. هو استمع بالطبع لكثير من الأقاويل، التى اكتسبت مع الوقت كثيرًا من الإضافات وهى تتداول فى كل مكان على الشفاه. قيل أن فولك قد ارتبط بعلاقة غير شريفة مع فتاة عامية تقطن فى منطقة عشوائية بقرب النهر. هو أيضا يسكر ويلعب القمار، وإنه أكثر شباب بولشستر شرا، وبالتأكيد سوف يكسر قلب أبيه يوما.

كانت هذه العلاقة القوية التى تربط الولد بأبيه هى التى استدعت اهتمام روندر. لقد أبدى ملاحظة إلى إلهه (الصغير)، فهو الذى يرعى أعماله ودائما هو مسلط عينيه عليه، قائلا له أن آخر شىء يمكن أن يهتم به هو أن يتدخل فى الشئون العائلية لبراندون. نفس هذا الإله (الصغير) لم يستطع سوى أن يعلق على أهمية هذا الموضوع، وكيف أنها متداخلة تماما مع اهتماماته العاجلة، وإنه وإذا كانت زوجة براندون وكذلك ابنه وكل دقائق عمل براندون تصر أن تظهر بشكل شاذ وغريب، فهذا ليس خطأ يمكن أن يعزى إلى، لكننى بالطبع لى كل الحق أن لا أشعر بالأسف طالما أن كل هذه الأمور قد سلكت طريقا معوجا.

فى الحقيقة، وهو هكذا جالس مستريحًا فى غرفته الدافئة، كان يشعر أن كل خططه تسير فى مجراها الصحيح وتتحقق تباعا، بينما الحياة تتنامى كما أراد لها. شعر بقليل من مشاعر الرثاء لبراندون وداهمته رغبة مخلصة أن يفعل شيئا لبراندون، أن يقـــدم له هدية، أن يثنى أحيانا على مقدار ما يتصف به من غرور، أو حتى أن يجعله يفوز فى مباراة لا تعتبر نتيجتها النهائية ذات أهمية كبرى.

عندما أتت الخادمة معلنة قدوم فولك، حدجه روندر بناظريه معجبا به، فهو أكثر شباب المدينة وسامة وظرفا. هو مستعد أن يمده بأفضل النصائح فى العالم بكل ما فى قلبه من حب وود لهذا الشاب خاصة. لذا قام مندفعا ووضع كلتا يديه

على كتفى الشاب وأجلسه مستريحا، ثم أحضر له التبغ، والوسكى والصودا وأفضل مقعد ليجلس عليه.

كان واضحا أن هذا الشاب فى أسوأ حالاته، يكاد أن يصل إلى نهاية قدرته على الاحتمال. يبدو أن هناك دراما عنيفة تغلف كل كيان هذا الفتى، ودائما ما تظهر فى كل لمحاته ولفتاته.

استدار الشاب فى مقعده وأشعل العديد من الثقاب، وأخذ يجذب فى غليونه بيأس، يحملق فى روندر بمزيج من الخجل والاهتمام اللذين كشفا بوضوح مدى صغر سنه، كذلك مدى تقديره لأهمية روندر. بدأ روندر فى سرد حديث ليس فى محتواه شيئ محدد، وهو اتجاه يتقن أصوله جيدا، فجأة قاطعه فولك:

"أنظر، أنا لست مهتما بما تحكيه الآن، لم احضر إليك للاستماع لهذا. بصراحة،أريدك أن تساعدنى"

قال روندر وما زالت الابتسامة عالقة على شفتيه "يسرنى ذلك، إذا كان فى استطاعتى"

"ربما تستطيع، ربما لا. أنا لا أعرفك جيدا، وليس فى جعبتى سوى فكرتى عنك. أنت تبدو أمامى أكبر سنا عنى، كأنك أب يفهم الكثير من الأمور، وأنت قد خبرت العالم والحياة مدة أطول. أريد أن أعرف رأيك فيها"

"هذا طلب صعب. ما الذى يظنه الإنسان فى الحياة! حسنا، كما تعلم، لا يمكن للمرء أن يعبر عن ذلك بكلمات محدودة"

ثم فى لحظة، بدا وجهه وقد اكتسى بمزيد من الجد والوقار، وبدأت عيناه المستديرتان تبرقان وتشعان.

تلون وجه فولك "ربما قد تظننى إنسانا غير مهذب. هذا بالطبع لا يؤثر فى إطلاقا. فعلى كل حال، أليس هو أمرا سخيفا أن لا يوجد فى كل هذه المدينة

شخص آخر يمكن أن تسأله مثل هذا السؤال؟ مع ذلك، ليس هناك ما يهم. ربما تنظر للمتسائل باعتباره مغفلا كبيرا. وربما تظنني فى عجلة من أمرى، لكن هذا السؤال بالذات كان يلح على منذ سنوات عدة ولم أحصل على الجواب الشافى- وهذه هى الحقيقة كما تعلم. لكن لماذا خلقنا، هل هناك بالفعل اله يهيمن على الوجود أم لا؟ بالطبع يتوجب عليك أن تتظاهر بوجود الله، لكن ما أود معرفته، لما تظن أن هذه حقيقة مؤكدة؟ وأعدك أن هذا الموضوع سوف يقف عند هذا الحد. لكن أهم شيء أريد معرفته، ما إذا كانت تظن أننا جميعا خلقنا لنكون أحرارا، ولماذا تكون تلك الحرية هى أصعب المسائل؟"

"عليك أن تخبرنى بشيء واحد، ما هو الدافع الذى جعلك تسعى لمقابلتى. هو بالطبع وبكل بساطة لبحث أمور عامة، فقط لأنك مهتم لمعرفة خفايا الحياة؟ أم أن هناك أزمة عامة فى حياتك تريد أن تتخذ فيها قرارًا ما ؟ إننى اسأل هذا السؤال لأننى لاحظت أن كل الناس كقاعدة عامة لا يهتمون بتحليل مقاصد الحياة إلا إذا كانوا مضطرين أن يرسوا على بر يرشدهم إلى الطريق السليم الذى يجب أن يسلكوه"

تردد فولك؛ ثم قال بصوت بطيء " نعم. هناك شيء ما. وهذا ما أظن أنك أطلقت عليه لفظ الأزمة- هى بالفعل أزمة تتجمع خيوطها منذ عدة شهور- بل ومنذ عدة سنوات إذا أردت أن تعلم. لكنى لا أفهم لما يمكن أن أزعجك بتفاصيلها- إنها مشكلة تخصنى، لكنى لا أظن أن ما سوف تذكره لى يمكن أن يؤثر فى. ربما لا تعلم أننى شعرت منذ اللحظة الأولى التى قابلتك فيها من أنك سوف تذكر الحقيقة، وذكر الحقيقة هو أهم الأمور فى حياتى"

"لكنى أنا لا أفضل أن أؤثر فيك بشكل عشوائى، وليس لك الحق أن تطلب منى أن أقدم لك النصيحة عندما لا أعلم ما الذى سوف أنصحك به"

"حسنا، الأمر بكل بساطة هو أننى أريد أن ارحل إلى لندن لأمارس حياتى هناك. لكنى أحب والدى – ربما كانت الأمور أسهل من ذلك كثيرا إذا لم أكن أحبه- لكن هو لا ينظر إلى المسائل مثل نظرتى إليها- الموضوع فى منتهى التعقيد، لكنى لا أود أن تخبرنى ما الذى يمكن أن أفعله فيما يختص بشئونى الخاصة! أريدك فقط أن تعلمنى، لماذا نحن موجودون على ظهر هذه الدنيا. أنت بالتأكيد فكرت فى هذا الموضوع وتوصلت إلى نتيجة"

تردد روندر، كان يتمنى أن المسائل لا تأخذ هذا الاتجاه، فهو يستطيع أن يهزم براندون بدون الحصول على هذا السلاح الجديد. كان تصوره الأول أن يثنى الفتى عن أى عمل فيه نوع من التهور، لكن الإغراء كان قويا ذاك الذى يتحكم فيه ويجعله غير قادر على السيطرة عليه، وهو الذى كان يهتف به أن يستغل الموقف الجديد. الأكثر أهمية، لماذا لا يذكر للفتى ما هى الحياة؟ إنها فكرة خالصة وحقيقية وليس هناك ما يخجل فيها....لذا قال:

"لا أستطيع أن أقدم لك نصيحة ربما تكون ضد رغبات والدك، فأنا من كبار المعجبين بأبيك وفكرتى عنه أنه رجل عظيم"

تحرك فولك قلقا فى مقعده "لست أنت مضطرا أن تنصحنى ضده، فتقديرك له لن يكون أعظم من تقديرى له. أنا أحبه أكثر من أى إنسان فى العالم، لكن ما أود أن أنقله إليك هو أننى لا أود أن تنصحنى بشأن أمورى الخاصة. ما يهمنى فى المقام الأول هو: هل أنت تؤمن بوجود الله، وما الذى يعنيه وجودنا فى هذه الحياة. بمجرد ما شاهدتك للمرة الأولى، قلت فى نفسى: حقا أرغب أن أعرف ما الذى يظنه ويفكر فيه هذا الرجل. هذا كل ما فى الأمر "

"بالطبع أنا أؤمن بوجود الله، وإلا ما أصبحت من رجال الدين"

قال فولك سريعا "حيث أن هناك وجود لله، إذن لما هو دائما ما يتخلى عنا، يشعرنا أنه من الواجب أن نكون أحرارا، ثم يسحب منا تلك المشاعر ويقنعنا بأنه

من الخطأ أن نكون أحرارا لأن فى ذلك ضررا بليغا قد يلحق بمن نحبهم ونقدرهم؟ هل نحن نعيش حياتنا من أجل ذواتنا أم من أجل الآخرين؟"

"إذا أردت أن تعرف ما هى فكرتى عن الحياة، إذن أقول لك- لا يجب أن تنظر إلى كل أحوالنا المعيشية بهذه النظرة العابسة المتزمتة. علينا أن نفعل كل جهد ممكن لحل المشاكل التى نصادفها، على شرط أن لا تتسبب، إلا بالقدر الضئيل من المتاعب، التى قد تسببها لمن يحيطون بنا"

هز فولك رأسه "نعم. هكذا الأمر بكل بساطة، وإذا سمحت لى بالقول، فهذا ما ينطق به أى إنسان لكى يشرح حقيقة مشاعره. لكن هذا القول الذى نطقت به ليس هو فى الحقيقة ما تشعر به، ولا يعبر عن أى شيء، إذا كان هذا هو كل ما تختص به الحياة....

"لم أقل أن هذا ما تختص به كل الحياة. كل ما قلته هو أن هذا الاتجاه هو الطريق المفترض أن يسلكه الإنسان كبداية... كمعيار للسلوك اليومى. لكن عليك أن تخلى عقلك من أى أوهام. لا تتوقع أن تتقابل دائما مع الشعر والموسيقى فى كل ركن من أركان حياتك. لا تحلم كثيرا باليوتوبيات؛ فإنها لا تتحقق أبدا. اهتم فقط بمشاكلك اليومية"

"وهى أن ينشد الإنسان السلامة فى كل أحواله"

تلون وجه روندر قليلا "ليس دائما، عليك أن تغامر أحيانا إذا ظننت أن سعادتك تعتمد على ذلك، وتكون متأكدا أنك سوف تخدم العالم أفضل عندما تحصل على مبتغاك، وأن تكون مرتاحا فيها، لكن التعاسة وخيبة الأمل هى التى تعلق كل أمورنا وتعاكسها"

ابتسم فولك "أنت تقدم لى الآن نوع الفلسفة التى أنا مغرم بها. أننى فى الواقع لا أؤمن بها، ولا أعتقد انك أنت تؤمن بها، لكنى أعتقد أنه فى إمكانى أن أخدع نفسى إذا قدمت لى تشجيعا قويا وكافيا. أننى لا أرغب أن أسبب أى نوع من

الأذى للآخرين، لكن يجب أن أصل إلى معرفة كينونة الحياة، وأن اتبع هذا المفهوم بحيث لا أضل بعد ذلك فى أى اتجاه أسلكه. عندما كنت صغيرا فى السن، كنت أخاف من الكاتدرائية، كنت فى ذلك الحين أؤمن بالله، كنت حينذاك أزحف إلى هناك منصتا لعلنى استمع لصوته. كنت أعتقد أنه عند تابوت الأسقف الأسود سوف أسمع هذا الصوت، بل وكنت أتخيل أنه يحادثنى من قلب هذا الحجر. لكننى أجرؤ على القول الآن أن هذا الصوت كان صادرا من الأسقف الحجرى ذاته. على أية حال، لقد قررت منذ زمن بعيد أن الكاتدرائية لها حياتها الخاصة المختلفة تماما عن حياتنا، وأن هناك حياة وخلودًا فى أقل حجر فى صحنها يفوق ما تحتويه كل أجسادنا"

"لا تكون فى تمام التأكد من ذلك، فنحن أيضا نتحلى بقدر من الخلود- فهى شعلة وضاءة ضئيلة، لكنى أؤمن أنها لا تنطفئ أبدا، الجمال يصدر منها ويسكن فيها، ونحن نزيد ضيائها أو نطفئها أثناء مسيرتنا فى الحياة"

"مع ذلك، أنت كنت ألان تبشر باتجاهات، اسمح لى بالقول، إنها ليست سوى تشجيع للأنانية، كيف يمكن لك أن تتمازج هذه مع فكرة الخلود؟"

ضحك روندر "لا يوجد سوى أربعة مذاهب أو اتجاهات تقود العالم كله ونسعى نحن البشر وراءها. الأول منها، يختص بمحاربة الأنانية "يا أبنائى الصغار، أحبوا بعضكم بعضا"، "ومن يريد أن ينقذ حياته يضيعها"، الثانى هو مضاد للأول، يختص بالفردية والأنانية "أنا هو أنا، هذا كل ما أعرفه، وسوف أسعى دوما ليحقق مصلحتى ونفعى، فهذا على الأقل ما أتفهمه".الثالث يختص بإتباع طريق الله والروحانيات "أنا لا أهتم بنفسى أو بجارى، أنا على استعداد أن أستغني عن العالم كله، كل إنسان وكل شيء فى سبيل معرفة الله". أما الرابع فهو يختص بالبحث عن الجمال "الجمال هو الحقيقة، والحقيقة هى الجمال". هذا كل ما يجب علينا أن نفقهه ونفهمه. كل إنسان حى أم ميت قد اختار واحدة من هذه الأساسيات أو خليط منها، المشاركة الوجدانية، التفرد، العبادة، أو البحث عن

الجمال. لكن فى النهاية، بعدما يكتمل الفعل والقول، نظل نحن كما نحن، هى حياتنا التى يجب أن نسلك فى مسارها، وهذا هو هدفنا الذى نسعى للبحث عنه. فى نهاية كل الأشياء، نحن نظل بمفردنا، بعيدا عن أنفسنا، أو بأنفسنا، أو لأنفسنا. الحياة فى النهاية ليست سوى رحلة مفردة نحو مسار وحيد، ودعنا نخدع أنفسنا كما نشاء"

جلس روندر فى مقعده منجعصا، عيناه نصف منغلقتين، فليس هناك شيء فى العالم يمكن أن يعتز به أكثر من أن يكشف عن أرائه فيما يختص بالحياة يلقيها فى مسامع مستمع جيد واع، والمستمع الجيد فى نظره يعنى إنسان ذكى متجاوب. انه يفضل أن ينطق بالحقيقة بدون أن يخاطر بشيء. الآن بالكاد يستطيع أن يخفى إعجابه بفولك وهو يشاهد مدى تأثير كلماته عليه. فلم يكن، والسماء تعلم، أى قول أصيل فيما نطق به من كلمات منمقة، لكن يبدو أن هذا بالفعل ما أراد الفتى أن يستمع إليه.

قفز فولك من مقعده "نعم، أنت محق، علينا بالفعل أن نتدبر حياتنا بأنفسنا. كنت أعلم هذه الحقيقة دوما. أنت تعلم يا سيدى مقدار محبتى لوالدى؛ وأعتقد أن البعض هنا يعتبرونه إنسانا متعبا ومتعصبا لرأيه، لكن هو كالولد الصغير، تستطيع أن تعثر على مكانك بسهولة وأنت معه. انه لا يعرف معنى الخداع، ينظر إلى الكاتدرائية كأنما هى من بنات أفكاره، كأنما هو الذى أنشأها، وبالطبع هذا فيه خطورة بالغة. فى يوم من الأيام سوف يصاب بصدمة بالغة عندما يكتشف أنه سار مسافة أبعد من قدراته، كما فعل ذلك الأسقف الأسود، لكن هو إنسان فاضل؛ ولا أعتقد أن هناك إنسانًا يعلم كم أنا فخور به. بالطبع من الأفضل كثيرا أن أسلك طريقى الخاص واكتسب معاشى بجهدى وعرقى بدلا من أن أتسكع هنا لا أفعل شيئا–، أليس كذلك؟"

مع هذا الالتماس المباشر، وبتلك النظرة التى ثبتها فولك على وجه روندر، شيء ما فى قلب هذا الأخير تحرك وتأسى.

أليس من الحكمة أن يطلب من الفتى أن يتروى ويبقى هنا؟ كلمة واحدة تصدر من فيه يمكن لها أن تعدل كثيرا من الأمور. فهذا الشاب يثق فيه وفى أحكامه. ربما يكون هو الإنسان الوحيد الذى لجأ إليه طالبا الإرشاد والنصح. بمرور بضع سنوات، سوف يعود بذكراه إلى تلك اللحظة بالذات، يراها مجسمة فى ذاكرته، يرى رؤية العين مجموعة الكتب فوق رفوفها تلمع، يشاهد الستائر الزرقاء، يستمع للنار وهو تكركر...ربما هذه تمثل بالنسبة إليه أزمة بشكل معين، كما هى أيضا بالنسبة إلى فولك.

قام وعبر الغرفة ثم وضع يديه على كتفى فولك:

"نعم، أعتقد أنه من الأفضل أن ترحل من هنا"

"وماذا عن الله والجمال." قالها فولك وهو يحملق فى عينى روندر، يبتسم خجلا، ثم استدار قائلا "أعتقد أنه مبحث طويل، أليس كذلك؟ لكن طالما أن هناك شيئًا ما بعد الحياة، وأنا موقن بوجود ذلك، فإن البحث يستحق أن ينغمس الإنسان فى أغواره"

نظر متشتتا نحو روندر، كما لو كان متوقعا أن يوافقه الرأى مرة أخرى، لكن هذا لم ينطق شيئا. قام فولك متجها نحو الباب "حسنا، على أن أغادر، سوف أثبت لهم أننى كنت على حق عندما سلكت طريقى بنفسى. كل ما أبغيه هو أن يفخر بى أبى. قرارى هذا بالطبع سوف يصدمه أولا لفترة معينة، لكن بعد وقت قليل سوف يرى. ربما تريد أن تعلم يا سيدى أن تلك المحادثة البسيطة التى جرت بيننا الآن تعنى الكثير بالنسبة لى. لقد ساعدتنى تماما لأن أقرر ما الذى سوف افعله بشأن حياتى المستقبلية"

عندما غادر فولك، جلس روندر على مقعده بلا حراك لفترة؛ ثم قفز من مكانه واتجه نحو رفوف الكتب، ووجد كتابا. قبلما يجلس نطق بصوت عال، كما لو أنه ينفى عن نفسه تهمة شنيعة "حسنا، أنا على كل حال لم أخبره بشىء محدد"

منذ تلك اللحظة، قرر فولك مساره الجديد، وود أن يتخذ إجراءاته بأسرع وقت ممكن. تبع ذلك أن هناك حالة غريبة استغرقت المدينة كلها، لدرجة أن فولك اندهش مما يحدث، فالمدينة كانت تزخر بالحياة هذه الأيام، طقس شهر مايو كان مدهشا، سماء لونها أزرق ناعم، هواء بارد منعش، سحب بيضاء تتهادى بكسل من نقطة لأخرى، حدائق تزهو بأزهارها، المنطقة الخضراء أمام الكاتدرائية تبدو كأنما هى صفحة من الزجاج، كل مطرقة وأكرة باب تلمع فى ضياء الشمس.

كانت المدينة تستعد للاحتفال باليوبيل، ويبدو أنها قد اتخذت لنفسها دورا حيويا فى الاستعدادات. البيوت القديمة كانت تبتسم بعضها لبعض بسبب الاحتفالات التى سمعت عن مراسمها. الطيور، وهناك عدد لا يحصى منها، كانت تطير من جدار إلى الآخر، من حديقة إلى الأخرى، من مدخنة إلى مدخنة بسبب تلك الأخبار المدهشة التى تجمعت لديها.

بدا كل محل ودكان فى الشارع الرئيسى كأنما هو يهمس لفولك وهو يمر به "بالتأكيد لن ترحل وتتركنا. نحن مستعدون أن نقدم لك أثمن ما عندنا، فنحن لم نعهد فى أنفسنا مثل هذا المرح والسعادة التى نعهدها هذه الأيام".

حتى البنى الآدميون فى المكان، بدا عليهم أنهم أصبحوا ألطف شانا وكلهم ود وظرف فى التعامل معه أكثر من أى وقت آخر. هم أبدا ما كانوا ينظرون نحوه بنظرة الصداقة والود سابقا، دائما ما يرمقونه بنظرة فيها نوع من الإنكار والرفض، حتى عندما كان ولدا صغيرا، لأنه دائما ما كان يصر أن يسير مستخدما طريقته الخاصة، مظهرا لهم أنه لا يهتم إطلاقا بآرائهم فيه.

الآن، فجأة، بدوا يتزاحمون عليه. مثلا، استوقفته مسز كمبرمير فى الشارع الرئيسى، وهى محاطة كالمعتاد بكلابها، ثم بصوت عميق أجش سألته لماذا لا تراه الآن كثيرا، ثم ربتت على كتفه بيدها الثقيلة المغطاة بالقفازات. حتى تلك السيدة السخيفة، جوليا برستون، قابلته فى مكتبة بينيت وسألته أن يساعدها فى اختيار

كتاب للشعر سوف تقدمه لصديقة لها. كذلك الفتاة بيتى كالندر، رأته يسير فى شارع أورانج، فأسرعت نحوه وأخذت تثرثر بخصوص رسوماتها، حتى ذلك المتعاظم بنتك- ميجور أصر أن يصطحبه إلى نادى المحافظين، وتقابلا هناك مع العجوزين ماكنزى وفوريستر وانهمكوا فى الاستماع إلى إنجازاتهم الكبرى السابقة فى مجال لعبة الجولف.

ربما يكون الأمر ببساطة أن كل إنسان فى المدينة أصبح الآن بجواره أو فوقه، يتحدث عن احتفالات اليوبيل - كل هذا مثل صعوبة بالغة فى قلب فولك، بالإضافة إلى الصعوبة التى أصبح يعهدها فى كل شىء فى منزله. هنا وفى تلك اللحظات الأخيرة، كل غرفة فى بيته وكل قطعة أثاث بدت وكأنها تتوسل إليه أن لا يتركهم. لمدة عشر سنوات كان مخصصا له غرفة نوم خاصة ذات سقف منخفض، بها انتفاخات غريبة فى حوائطها، مجهزة بمدفأة منحنية، وأرضية منحرفة. لسنوات اعتاد على منظر ورق الحائط حيث رسم فوقها رسوم تكرارية لبرج كنيسة وتلال ثلجية وطيور أبو الحن لونها أحمر قرمزى. لكن الآن، تكاد صور الطيور أن تختفى، وأصبح لون التلال الثلجية أصفر. وعلى الحائط علقت صور لمجموعات التلاميذ زملائه فى المدرسة وصورة أخرى له وهو فى جامعة أكسفورد. أما رفوف المكتبة المجاورة للباب فقد وضعت فوقها الجوائز التى حصل عليها عندما كان فى المدرسة وبعض من روايات الكاتب وافرلى لها أغلفة حمراء داكنة. لكن أكثر المناظر التى سوف يفتقدها بشدة هى ما كان يلمحها خارج نافذته، تلك النافذة التى تطل على الكاتدرائية والمنطقة الخضراء. هذه النافذة بالذات كان لها صلة قوية بكل مجريات حياته عندما كان طفلا صغيرا. كان يطل منها ويكاد أن يقع عندما يشعر أنه قد أكل أكثر من اللازم، يلجأ إليها عندما تتجمع الدموع فى مآقيه بعد مقابلة مؤلمة مع أبيه. عرف عندها الفرح الخالص يوم عودته للمرة أولى من مدرسته، منها ألقى بعض الأشياء على غرباء مشكوك فى أمرهم، حضر إليها وهو فى أشد حالات الانفعالات الغرامية والشعرية، راقب عبرها القمر، الذى بدا

كأنما هو طبق من ذهب مطفى يبحر فوق أبراج الكاتدرائية، جلس خلفها يتسمع إلى صدى صوت الأرغن صادر إليه كأنما هو همسات جبار محبوس ينشد الحرية وهو مثبت بالأغلال الرمادية، نظر من خلالها متمتعا بمنظر أمسية ساكنة، بينما النجوم تبدو فى السماء كأنما هى أزرار صغيرة بعد لقاء مع آنى. أتى إليها وأخذ يحملق ويملأ ناظريه من مباهج المنطقة الخضراء، قلبه حزين، فهو الآن مضطر أن يودع كل هذه المناظر إلى الأبد.

بقلب موجوع لكنه راسخ العزم، تعجب لأنه بعد مرور شهور عدة من التردد، يجد الآن أن ذهنه قد استقر بكل عناد وتصميم، حتى بدا له الأمر، وبشكل تنبؤى أنه يطلع بالفعل على المستقبل، لكن ما الذى زاد من درجة يقينه، هذا ما لا يعلمه، إلا أنه عن نفسه، هو يدرك أنه قد استقر على تنفيذ خطاه الصائبة، من أجله ومن أجل آنى، خارج كل هذا، بدا الأمر كأن هناك سحابة سوداء قادمة لتغطى كل ما تركه خلفه. إنه لا يدرى كيف أدرك، لكنه شعر كأنما هو يهرب من مدينة بولشستر، وأنه مدفوع لذلك بقوى لا يدرك مقدار مفاعيلها وقوتها. تصور، وهو ينظر من النافذة، أن الكاتدرائية أيضا تعلم، بينما هى هكذا عالية ومتباهية، منتظرة حلول تلك الساعة التى لا مفر من قدومها.

عندما اتفق مع آنى على الترتيبات النهائية، أدرك أن تصالحه مع أبيه الآن فى حكم المستحيل. هنا أحس أن مشاعره العميقة نحو أبيه قد اشتعلت واستثيرت، لذا صعب عليه أن يتصور شكل خيانته القادمة؛ مع ذلك، لم يخطر فى باله للحظة أن يتراجع عما عزم على تنفيذه. بدا الأمر أمامه كأن هناك شخصيتين تتصارعان داخله، الشخصية القديمة، تلك التى تنتمى للمدينة، لوالده، لأيام طفولته وشبابه، أما الأخرى، فهى شخصية جديدة تماما، تنتمى إلى آنى، المستقبل، الطموح، لمصارعة الحياة ذاتها. وبقدوم كل ساعة، كانت تتسلخ منه بعض من ملامح شخصيته القديمة، وببطء تتحرك منسحبة بلا عودة.

أتى متأخرا بعد الظهر، دخل إلى غرفة المكتبة، وجد أباه ممتطيا سلما صغيرا ينظم وضع كتاب "دخول المسيح إلى أورشليم"، وهى نسخة كتبها بنجامين هايدون.

توقف فولك قليلا عند الباب، وقد داهمه فجأة إعجاب خالص بأبيه، ذاك الذى خلع معطفه، وانحنى هكذا، حينئذ بدا وضاحا مدى تناسق جسده وروعة بنائه، فالسيقان الكثيفة ضغطت على القماش الأسود لبنطلونه، وظهر شكل فخذيه المستديرين، كذلك الرقبة القوية والرأس المستدير بشعره المجعد. هذه الملامح كلها تقف حائلا ضد مظاهر التقدم فى السن والفناء ذاته. ربما يكون والده قد اكتسب وزنا زائدا مؤخرا وأصبحت رقبته أكثر سمكا من استدارة ياقته، لكن النشاط والقدرة ما زالت مماثلة لنشاط شاب فى عمر فولك.

ما إن شعر بالباب يقفل، حتى التفت الأب، فى الحال أخبرت خطوط جبهته وفمه عن عمره الحقيقى، كان على فولك أن يتذكر تلك الصورة ذاتها لما تبقى من عمره بوضوح كامل ووجد حقيقى.

إنهما لم يتقابلا بمفردهما منذ معركتهما السابقة؛ فرعبهما البريطانى منعهما من أن يذيعا شيئا مما حدث. هبط براندون من سلمه وأتى مبتسما نحو ابنه.

فى أوقاته السعيدة، عندما يكون متصالحا مع نفسه ومع العالم، يبدو مبتهجا وسعيدا كأنما هو طفل صغير. لقد كان فى حالة رائعة الآن. لذا وضع يده على فولك وجذبه عبر الغرفة وأجلسه بجوار النافذة:

"كنت أشعر بصداع رهيب"، كان يشكو لابنه كأنما هو طفل صغير يعبر عن آلامه لمن هو أكبر سنا "لمدة يومين حدث هذا، لكن فجأة، اختفى هذا كله اليوم. أننى لست معتادا على الصداع عموما، لم يحدث من قبل أن أصبت بالصداع، لكن لأننى تعرضت لبعض المتاعب الوظيفية مؤخرا، هذه جعلنى أصاب بالصداع. لا تخبر

والدتك؛ أنا لم أنطق بكلمة عن حالتى هذه لها، لكن ما الذى تتعاطاه أنت عندما تشعر بالصداع؟"

"أعتقد أننى لم اصب بالصداع أبدا"

"لست على استعداد الآن أن أحشو جسمى بالأدوية التى يتحدثون عنها. أنا لم أتعاط أى دواء فى حياتى"

قال فولك باهتمام بالغ "أرجوك يا أبى، لا تدع نفسك تقع فريسة للتوتر السريع، فهذه هى عادتك. كل إنسان معرض أن يصادف ما لا يرضيه أحيانا. شىء سىء أن تدع نفسك تقع فريسة للقلق والهم، فكل شىء يسير على ما يرام، وسوف يظل الأمر هكذا (كان يشعر أنه منافق وهو ينطق بهذه الكلمات)، أنت تعلم أن كل شخص هنا يظن إنك إنسان رائع لا يمكن أبدا الاستغناء عنه. من فضلك لا تنظر إلى كل أمورك بهذه الجدية المفرطة"

هز براندون رأسه "أنت على حق يا فولك، انه شىء رائع أن يصدر هذا الحديث من فم ابنى. لقد اعتدت كثيرا على فقدان أعصابى. المفروض أن أراقب نفسى أفضل من ذلك، لكن عندما يصادفك وتجد أمامك مجموعة من الأغبياء يثرثرون عن أشياء لا يفقهون عنها شيئا...."

"نعم أنا أعلم"، قالها فولك وهو يضع يده على ذراع والده "هم فى التو واللحظة سوف يدركون مستواهم المتدنى"

"نعم، ثم أن هناك موضوع والدتك. ألم تلاحظ أنها تتصرف بشكل غريب خلال الأسبوع أو الأسبوعين الماضيين؟"

أن يهتم والده بوالدته، بدا هذا الموضوع غريبا فى نظر فولك! وفعلا سوف تندهش والدته من ذلك أيضا! فهذه هى المرة الأولى خلال كل تلك السنوات التى يتحدث فيها براندون عن شأن يختص بزوجته.

"أمى؟ لا، بأى طريقة تتصرف؟"

"إنها ليست كما هى، ليست سعيدة. إنها تبدو قلقة من أمر ما"

"أنت الذى يشعر بالقلق يا والدى، هذا كل ما فى الموضوع. هى نفسها لم تتغير. يبدو أنك بدأت تقلق من كل شىء. ماما فى أفضل حال"

هز براندون رأسه "ربما تكون على حق، على أية حال...."

قال فولك ببطء "أبى، ما الذى سوف تقوله إذا رحلت إلى لندن؟" هذا تقريبا موضوع خناقتهم السابقة.

"متى؟ لماذا؟"

"أوه، قريبا لكى أبحث عن عمل هناك"

"لا، ليس الآن، بعد انقضاء الصيف يمكن أن نتحدث فى هذا الموضوع مجددا"

كان يتحدث بتصميم بات، كأسلوبه الدائم مع فولك، كأنما هو طفل صغير فى الخامسة من عمره ولا يعلم شيئا عن الحياة.

"لكن يا والدى ألا ترى أنه ليس مناسبا أن أستمر فى التسكع هنا، لا أفعل شيئا؟"

قام براندون وذهب إلى سلمه القصير، تردد قليلا ثم تسلقه.

"هذه الصورة لدى منذ عشرين عاما، ولم تستقر أبدا فى مكانها الصحيح"

اتجه نحوه فولك "لا، لكن يا والدى، أنا رجل الآن ولست طفلا، لا أستطيع أن أستمر فى هذه الحالة. فعلا لا استطيع"

"حسنا، سوف نتحدث عن هذا الموضوع فى الخريف"، قالها براندون وهو ما زال يدندن لحنا، كما كان يفعل دوما، لكن اللحن كان بعيدا عن وقعه الصحيح.

"على أن أكتسب معيشتى بنفسى، أليس هذا واجبا؟"

"هنا!"، قالها براندون وهو يتراجع قليلا حتى كاد أن يفقد توازنه "هذا أفضل وضع لهذه الصورة، لكنها لن تظل فى مكانها هذا أكثر من خمس دقائق، هى لم تفعل ذلك أبدا"

نزل السلم مرة أخرى، كان وجهه أحمر بسبب الجهد الذى بذله "دع الأمور لى يا فولك، أنا لدى خطط عظيمة بشأنك".

فجأة، اكتست مشاعر فولك فياضة بسبب ذلك التناقض الواضح بينه وبين أبيه، فوالده هذا ليس إلا طفلاً كبيرًا! لذا وهو ممتلئ بأغرب أنواع الحنان، الأسى، الإشفاق، فعل شيئا لم يفعله إطلاقا من قبل، ولم يحلم يوما أنه سوف يفعله، وربما مات بالخجل لأنه فعلها إذا شاهده أحد، فقد تقدم ووضع يديه على كتفى والده وقبله بخفة على خده.

ضحك وهو يفعل هكذا، لذا قال لكى يخفى ارتباكه.

"يا أبى، أنا لا أعتقد أننى مرتبط بأى مانع، سوف أرحل إلى لندن فى الوقت الذى أراه مناسبا"

لكن براندون كان فى قمة ارتباكه بسبب ما فعله ابنه، لذا لم يسمع شيئا من حديثه السابق، شعر بدافع عبيط أن يعانق ابنه، لكنه تراجع إلى النافذة وهو مازال يدندن ترتيلته المفضلة. أخذ يملى ناظريه على المنطقة الخضراء "أجد هناك ولدين من فرقة الجوقة يلعبان على العشب الأخضر، إذا لم يستطع رايل أن يهذبهما، إذن سوف يجدنى مستعدا أن أقول رأيى الحقيقى فيه. إنه دائما ما يتقدم بالوعود ولا يفعل شيئا"

كان هذا آخر حديث يتم فى حياتهما معا.

كل خططه الآن مكتملة. قرر أنه فى يوم هروبه سوف يسير حتى محطة ساليس كومب، التى تبعد ميلين؛ هناك سوف تلحق به آنى، حيث تمكث مع خالتها هناك لأنها سوف تقوم بزيارتها فى اليوم السابق للرحيل. ثم يلحقان بعد ذلك بالقطار البطىء المتجه إلى درايماوث، ثم يستقلان القطار الاكسبريس الذى يصل إلى لندن منتصف الليل. سوف يذهب هو إلى صديق له من أيام أكسفورد يعيش فى منطقة سانت جون، ثم يتزوج آنى فى أقرب فرصة ممكنة.

فقبل كل شىء آخر، أراد أن يتم هذا الزواج بسرعة، وما أن يتم ذلك حتى يعتبر نفسه حاميا لآنى، طالما هى احتاجت إليه. وسوف يكون لها لحق أن تتمتع بحريتها فى أى وقت تشاء، لكن دائما سوف يكون بجوارها شخص تستطيع أن تعتمد عليه وله الحق قانونا أن يقدم لها تلك الحماية وأن يتأكد بأنها لم تتعرض لأى ضرر.

الشىء الذى بث الخوف فى قلبه أكثر من أى شىء آخر، هو أن تتضرر بسبب اهتمامه بها؛ هو على استعداد أن يخلى سبيلها ثانى يوم من زواجهما إذا أرادت، إذا حقق لها هذا أنها لا تتضرر أبدا، فهذه الفتاة تتصف بالشجاعة النادرة، المختلطة بالجهل والبساطة المتناهية، كل هذا جعل من حمايته لها هى أولى مهام حياته. أما عن المعيشة هناك، فصديقه هذا له اهتمامات متعددة بعدة مشروعات أدبية، ويمتلك ثروة صغيرة وثقة فى النفس وطموحا بالغا. وعندما كان فولك فى أكسفورد، قام هو وصديقه هذا بإصدار صحيفة سويا، وقد حصل فولك على وعد بالمساندة من دار نشر ناشئة. فى السنوات اللاحقة، كان ينظر بتعجب كيف أنه هجم على لندن وهو مدعم بأقل مئونة من الذخائر- لكن الآن، وهو ما زال يقيم فى بولشستر، كان موضوع معيشة المستقبل تبدو كأنها أقل اهتماماته شأنا.

ربما، الأكثر عمقا، أن هناك دافعا ديموقراطيا عنيفًا اشتاق داخله قدوم تلك اللحظة التى ربما يمكن له فيها أن يعلن احتقاره البالغ لكل الفوارق ما بين الطبقات.

كان ينتوى بكل بساطة أن يرحل ثم يمكن لهم أن يرسلوا وراءه متعلقاته، وإذا أمعن النظر فى صور المستقبل، فربما، يرى نفسه وهو عائد إلى بولشستر فى ظرف عام على الأكثر، كمحرر مرموق لأهم جريدة جديدة تصدر فى لندن، ثم يقوم والده باستقباله بكل مظاهر الحماس والترحيب، بل ويتم قبول آنى كواحدة من أفراد العائلة، بالطبع هما لن يعودا إلى هنا ليستقرا نهائيا، هى فقط زيارة....عندما تبدت أمامه المنظر التخيلى لاستقبال والده لآنى، تبددت الصورة على الفور؛ لأن هذه هى نهاية الحياة لقديمة. يجب أن يتقبل ذلك ويقسِّى قلبه أكثر من ذلك......

كان آخر غذاء له مع أهله هو أغرب وجبة يتناولها بينهم. كانت غريبة لأنها كانت عادية جدا، مغرقة فى العادية! فراخ مشوية وكعكة تفاح، والدته جالسة فى مؤخرة المائدة تراقب كعادتها، كما فعلت منذ سنوات عديدة أن كل شىء فى مكانه المناسب، بينما وجهها الباهت لا يظهر عليه اى تعبير محدد، وفمها مستعد أن ينطق بالإجابة السليمة للسؤال السليم، عيناها غامضتان. طار ذهنه خلفا إلى تلك المحادثة التى تمت بينهما فى الغرفة شبه المظلمة عبر المائدة التى وضعت فوقها الشموع، كانت فى حالة من الانهيار تلك الليلة ومتعبة جدا، لم تكن تدرى بما تنطق به. حسنا، الآن يتعذر عليها إطلاقا أن تفكر فى هجر والده، فهروبه سوف ينهى تلك الأفكار الغريبة.

"ما الذى سوف تفعله ظهر اليوم يا فولك؟"

"لماذا تسالين يا أمى؟"

"أنا فقط أتعجب، فأنا مضطرة أن أذهب إلى بيت العميد لأحضر اجتماع لجنة الاستعداد لاحتفالات اليوبيل. فكرت ربما يمكن لك أن تأتى معى حوالى الرابعة بعد الظهر"

"لا أعتقد أننى سوف أعود من الميعاد الذى ارتبطت به، فقد وعدت أن أزور صديقا لى يعيش فى ساليس كومب"

حملق فى جوان التى جلست موجهة له. إنها فتاة جميلة، كم كبرت فجأة خلال تلك الأيام الأخيرة! وها هى قد رفعت شعرها إلى أعلى، ذلك جعلها تبدو كامرأة كاملة، لكنها ما زالت طفلة وهى ترتدى تلك الملابس ذات الأذرع المنتفخة. وجهها الطفولى يضحك من فوق ياقتها المنشاة، هو فستان جميل، مع ذلك، هذا اللون الأزرق القاتم بأشرطته البيضاء.....لماذا لم يلتفت لأخته هذه من قبل؟ إنها لم تكن تعنى له شيئا على الإطلاق، الآن وهو راحل، ظن أنه كان من الممكن أن يكونا أصدقاء طوال كل تلك الأعوام السابقة، إنها فتاة طيبة، حنون، ذات أخلاق راضية ومرحة أيضا.

هى- أيضا - كانت تتحدث عن احتفالات اليوبيل وعن لجنة هى مشتركة فيها، وعن بعض الأعلام المنهمكين فى تصنيعها وخياطتها. كم كان هذا اليوبيل مهما بالنسبة لهم، لكنه لا يمثل أى قدر من الأهمية بالنسبة له.

كانت تتحدث عن بعض الكتب "....السيدة الجديدة التى عينت أمينة للمكتبة، هى سيدة فاضلة بالفعل، لقد أعطتنى الكتاب الذى طلبته أمى على الفور، وهو كتاب "عائلة ماسارين" من تأليف الكاتبة أودا. كل البنات قلن إنه كتاب جميل"

"لقد سمعت عن ذلك يا عزيزتى من مسز سامبثون، بصراحة قالت إنه كتاب لا يصح للصغار أن يقرأوه، لا أعتقد أن والدك سوف يسمح لك بقراءته"

"أوه، هل تسمع يا والدى؟"

"ماذا؟"

كان الأرشدياكون فى حالة من البهجة والانسجام، فهو يحب كعكة التفاح.

"عن كتاب عائلة ماسارين الذى ألفته الكاتبة أودى"

"أوه، إنها كتب سخيفة، لمَ لا تقرأ الفتيات سوى الروايات؟"

دقت الساعة الموضوعة على رف المدفأة الثانية والنصف، يجب عليه أن يغادر الآن. ألقى نظرة أخيرة حول الغرفة كما لو أنه يعزو كل شيء للذاكرة- المقاعد المحشوة المريحة، السجادة الزرقاء الدافئة، علبة البسكويت التى وضعت على البوفيه.

"حسنا، يجب أن أغادركم الآن"

"سوف تعود لتتعشى معنا يا عزيزى فولك، أليس كذلك؟ سوف يكون موعد العشاء الليلة مبكرا، فى السابعة والنصف، فوالدك لديه اجتماع."

نظر نحوهم جميعا، بينما جلس والده على كرسيه مستريحا مطمئنا.

"نعم سوف آتى". قالها ثم غادر.

بدا أمامه الأمر عجيبا من أن يكون الرحيل هكذا بمنتهى البساطة، فعندما تتحدث عن أهم خطوة سوف تنفذها فى حياتك، بالطبع سوف تظهر على الفور العفاريت فى الطريق! لكن هنا لم يظهر أى نوع من العفاريت. أثناء مروره فى الشارع الرئيسى، كان الناس يلوحون له بالتحية. كانت المدينة مزهوة تحت شمس الظهيرة. انه يوم السوق، حيث افترش البائعون المكانبكل منتجاتهم من الزهور، والخضروات، والفاكهة والألعاب؛ فى منتصف السوق تجمعت قطعان الماشية والخنازير. كانت الكلاب تنبح، فلاحون ضخام الأجساد وقفوا يتجادلون ويساومون. فجأة، فوق كل هذا الهدير، دقت ساعة الكاتدرائية معلنة مرور الساعة.

أسرع فى خطوه، ثم عبر شارع أورانج، بعد ذلك صادفه مرج ملىء بالزهور، أخيرا وصل إلى الطريق المؤدى إلى درايماوث. مع كل خطوة كان يخطوها، كان يتذكر واحدة من طرائف طفولته. وصل أخيرا إلى العلامة التى ترسم الاتجاهات كلها، اتجاه السير حتى درايماوث، اتجاه سانت مارى، ثم اتجاه بولشستر. هذه العلامة بالذات كان يصل إليها وهو ولد صغير برفقة مربيته السمينة، وهى كانت ترفض تماما أن تتجاوزها. كان هو يعلم أنه يوجد بعد قليل

طريق روكيت رود، وهو مكان محبوب لديه كان قد شاهده من قبل أثناء رحلة قام بها إلى هناك حيث شاهد أشجار الشربين الكثيرة، والأرض المبثوثة بالطحالب، يتخللها جمع كبير من زهور الربيع. ويا لها من معارك عنيفة كانت تنشب بينه وبين مربيته، حيث كان يتعلق بعمود لوحة بيان الاتجاهات، فتضطر هى أن تحمله حملا وترجع عائدة به إلى المنزل.

إنه الآن فى طريقه إلى الغابة، بالفعل وجدها مبثوثة بالذهب، بالرغم أن الوقت لم يحن عد لظهور ورود الربيع. كان داخل الغابة شبه مظلم مع ظهور أعمدة من الضوء القرمزى. فى الداخل، هناك صمت كامل، لا يقطعه سوى صوت بعض الطيور التى بنت أعشاشها فوق أغصان أشجار الشربين...عبر منطقة الغابة، أخيرا استطاع أن يتشمم رائحة البحر، وهى فى الحقيقة روائح جليبشاير، الطازجة المالحة المليئة برائحة البحر. فى قمة هذا المكان وقف والتفت خلفا. كان يعلم أنه فى تلك البقعة بالذات يستطيع أن يملى ناظريه بشكل الكاتدرائية للمرة الأخيرة.

كثيرا أيام المدرسة، كان يحضر إلى هنا ليتمتع بهذا المنظر الرائع، حيث تبدو الكاتدرائية كأنما هى عملاق ضخم يرقد خلف التل واضعا وجهه على جانب التل، وهكذا كان منظرها الآن حيث تبدو أبراجها كأنما هى الآذان، وكان الشباك الشرقى الكبير يلمع كأنما هو عين كبيرة، بينما انتصبت الأبراج بلونها الوردى الرمادى حتى وصلت إلى عنان السماء. كان المنظر مهيبا عبر هذا المستنقع الواسع.

هذه الكاتدرائية لا تهتم بالإنسان، تقف دائما صامدة فوق صخرتها، تخبئ فى قلبها كل الإجابات التى حيرت وتغربت عن الوجود الإنسانى - مع ذلك، ربما، هى تدرى بفناء الإنسان وتكن له احتقارا بليغا لأنه لا ينتفع أبدا بهذه المعلومة الواضحة - لكن مع ذلك، هى معجبة به، بسبب متانته وتماسك شجاعته وآماله الناهضة.

فولك، وهو ليس سوى نقطة سوداء فى مقابل هذا المدى بالغ الاتساع ومنحنى الأرض السوداء، اختفى من خط الأفق.

* * *

## الفصل السابع

# براندون يرتدى دروعه

لم يتعجب براندون عندما لم يحضر ابنه صلاة الصباح، فهذا الطقس لم يقدره فولك أبدا، بالطبع كانت جوان واقفة مع الأرشدياكون، لكن ما إن بدأت المجموعة الثانية من الصلوات، حتى ظهرت مسز براندون وشاركتهم ووقفت فى مكانها المعتاد.

بعدما غادرهم الخدم وأصبحوا بمفردهم، قالت مسز براندون بصوت متهدج:

"لقد قضى فولك ليلته فى الخارج، فراشه كما هو، لم ينم عليه أحد"

كان رد فعل براندون، وقبلما يدرك أهمية ما نطقت به زوجته:

"أوه، ليس هناك داع للانزعاج الشديد، المفروض أن تتماسكى أفضل من ذلك"

جلس على مائدة الإفطار، ببطء فرد جريدة "أخبار جليبشاير الصباحية" التى دائما ما تكون فى انتظاره بجوار طبقه. يداه لم ترتعشا، لكن قلبه كان يدق بوجد غريب:

"أظن أنه قد ذهب إلى مكان ما، هو بالطبع ليس معتادا على أن يخبرنا بخططه، هو أنانى فى هذا الشأن بالذات"

وضع جريدته على المائدة ثم التقط الخطابات. للحظة شعر أنه غير قادر أن يفض أى خطاب منها فى وجود زوجته. أخذ ينظر سريعا إلى عناوين الظرف، لم يكن واحد منها بخط ابنه. سرح ذلك قلبه واستراح قليلا.

قال "على أية حال، هو لم يكتب لنا شيئا، لا يمكن أبدا أن يكون بعيدا عن هنا"

إجابته هى "هناك بريد سوف يرد كالمعتاد حوالى العاشرة والنصف"

شعر بالغضب لأنها نطقت بذلك، لكن هذه هى شيمتها! لماذا لا تبحث عما يسر لتنطق به؟

استمرت هى فى القول "إنه لم يأخذ أيا من متعلقاته، ولا حتى شنطة يده، إنه لم يحضر للمنزل منذ أن خرج بعد غذاء الأمس"

"أوه، بالطبع سوف يحضر! "، أمسك برندون بجريدته "من فضلك يا جوان، ناولينى المستردة". انتهى الإفطار، ذهب هو إلى غرفة المكتب، جلس على طاولة الكتابة الطويلة متظاهرا بأنه مشغول بمراسلاته اليومية. لم يستطع أن يستمر فى ذلك طويلا. هو لم يكن يوما من ذلك النوع الذى يستطيع أن يسيطر على ما يدور فى خلده، الآن كل قلبه وفكره امتلأ بكل ما هو مزعج.

بدا الأمر أمامه كأنه منذ أسابيع ماضية وهو يخشى وقوع كارثة ما، أى نوع من الكوارث؟ ما الذى يمكن أن يحدث؟

تقريبا نطق بصوت عال "لم يحدث من قبل أن خشيت....."

فى نفس الوقت، لم يحاول أن يفكر فى فولك، كان عقله يدور ويدور حول هذا الاسم، كما لو أن هناك فراشة تدور حول نور شمعة. سمع الساعة تعلن العاشرة والنصف، سمعها أولا آتية من غرفة الطعام، ثم من على رف المدفأة فى غرفة المكتب. بعد لحظات، من خلال باب غرفته الموارب، سمع صوت الرسائل وهى تسقط فى الصندوق، ثم سمع صوت الجرس الحاد. جلس على مائدته ويداه مقبوضتان.

"لماذا لا تحضر هذه البنت الخطابات؟"، لماذا؟ كان يردد لنفسه تلك الكلمة بدون أن يدرى. دقت الخادمة على الباب ثم دخلت ووضعت الرسائل على المائدة. كانت هناك ثلاثة خطابات فقط. لاحظ على الفور أن هناك خطابا منهم بخط فولك. مزق الظرف وجذب الخطاب. كانت أصابعه ترتعش، بالكاد استطاع أن يثبت الخطاب أمام عينيه وقلبه يحدث ضوضاء كأنما هى أمواج تضطرب داخل أذنيه.

ما كتبه فولك فى هذا الخطاب هو كالآتى:

**محطة الطريق الشمالى**

**درايماوث**

**٢٧ مايو ١٨٩٧**

**أبى الحبيب- أكتب لك هذا الخطاب فى غرفة الانتظار بمحطة طريق الشمال قبلما أستقل قطار لندن السريع. أعتقد أننى قد صنعت عملا جبانا لأن أكتب لك هكذا وأنا بعيد عنك. أعتقد أنه يصعب على أن أحصل على تفهمك لما فعلت هكذا. ربما تقول، وعندك كل الحق، أننى ربما قصدت أن أسبب لك ضررا بفعلتى هذه، لكن يا والدى، وبالحق، لقد بحثت موضوعى من كل جوانبه، وأدركت أن ما فعلته هو التصرف الوحيد المناسب لى. الجزء الأول منه، وهو أن أرحل إلى لندن لأتكسب معاشى بنفسى وبجهدى، وهذا لا أشعر فيه بأى ذنب.**

**فقد بدا لى، بالحق، أن هذا هو التصرف الوحيد المتاح لى. لقد حاولت أن أتحدث معك بشأن هذا الموضوع مرات عديدة، لكنك كنت دائما ما تثبط همتى، وكما أرى، فأنت قد تظن أنه ليس هناك ما يضر أن أستمر متسكعا فى بلدة صغيرة مثل بولشستر. وأنه ليس من الضرورى أن أمتهن عملا حتى طوال حياتى. أظن أن موضوع طردى من أكسفورد قد أعطاك فكرة بأننى إنسان فاشل**

ولن يصدر منه أى صلاح. لكننى سوف أثبت لك أنك مخطئ. أعلم أننى على حق كامل لأننى تناولت أمورى الخاصة بنفسى. أعطنى وقتا قليلا وسوف تدرك أننى عل حق. لكن الموضوع الثانى هو الأكثر صعوبة، ولا أتوقع أن تغفر لى على الفور، إلا أنه ربما يحدث هذا لاحقا، وسوف تدرك أن هذا الموضوع ليس بهذا القدر من السوء. أريد أن أخبرك أن الآنسة آنى هوج، ابنة صامويل هوج هى معى الآن، وسوف نتزوج الأسبوع القادم. والى الآن لم اصنع معها أى شىء يمكن أن تخجل منه، أننى أحبها، لكنى لم أكن أبدا عشيقا لها، وسوف تظل هى عند أقرباء لها هنا فى لندن إلى أن نتزوج. أعرف أن هذا يعتبر مريعا فى نظرك يا والدى، لكن هذا أمر يختص بضميرى وإحساساتى. لقد حاولت كثيرا أن أبتعد عنها وأتركها لكنى لم أوفق. وهى أيضا كانت مصممة أن ترحل إلى لندن لتجرب حظها هناك. إنها لا تحب والدها وهى غير سعيدة فى مقامها ببولشستر، وأنا لا استطيع أن أتركها تذهب بمفردها بدون حماية، والطريقة الوحيدة التى يمكن لى بها أن أحميها هو أن أتزوجها.

إنها امرأة فاضلة يا أبى، هى فاضلة وتستحق كل الاحترام. أرجو أن تفكر فيها بعيدا عن والدها وما كان يحيط بها. إنها لا تنتمى للبيئة التى عاشت وسطها. حقيقى هى لا تنتمى إليها. طوال تلك الشهور التى انقضت، لم تحاول أبدا أن تشجعنى لأكون نذلا وغير مخلص، إنها لا تستطيع أبدا أن ترتكب أى عمل دنىء. فى كل ما يهمنى من مسألتى تلك، هى مشاعر التعاسة التى سوف تلحقكم. سوف تظنون أنه من السهل على القول طالما ليس هناك محل للاهتمام بما فعلت، لكنى أتعشم أنه عندما يقل معدل غضبك بسبب ما فعلت، فإنك سوف تعطنى الفرصة لأثبت لك أن ما فعلته هو الإجراء الصحيح. لدىّ وعد أن ألتحق بعمل يختص بتحرير بعض الصحف الجديدة، وهذا بالطبع سوف يمدنى بما يكفى لأتدبر معيشتى فى لندن. أننى لم اصطحب معى أى شىء من متعلقاتى، ربما

**يتوجب أن تقوم والدتى بحزم مستلزماتى كلها وترسلها على العنوان ٥ شارع باركر، سانت جون رود.**

**أبى، اعطنى فرصة لأثبت لك أننى قد اتخذت الخطوات السليمة فى حياتى.**

**ابنك المحب فولك برندون**

فى غرفة الصباح الصغيرة التى تقع فى قمة السلالم، كانت جوان وأمها تنتظران. كانت جوان تتظاهر بأنها تحيك شيئا، لكن أصابعها بالكاد كانت تتحرك. أما مسز براندون فقد جلست على طاولة الكتابة؛ وأذناها منتصبتان لتتسمع بها أى صوت. افترشت الشمس كل الغرفة بضوء مبهر، ومن خلال النوافذ المفتوحة على مصراعيها، أتت إليها ضوضاء المدينة، صيحات الأطفال، صوت احتكاك أقدام المارة على أحجار الطريق. عندما دقت ساعة الكاتدرائية معلنة بدء صلوات الصباح، صاحت مسز براندون "أوه، نفسى أكسر هذه الأجراس، اقفلى النوافذ يا جوان"

عبرت جوان الغرفة وأغلقت النوافذ، فيما توقف صوت الأجراس.

فجأة انفتح الباب بعنف، براندون واقف عنده.

صاحت مسز براندون وهى تنظر ناحية قدميها "أوه، ماذا حدث؟"

كان الرجل عبارة عن رجل أعماه الغضب، لقد رأته من قبل فى كثير من هذه النوبات، عندها تغيم عيناه الزرقاوان، كأنهما قد فقدتا الإبصار وتحدقان فى لا شيء، وجسده كله يتلوى كأنما هو يستعد لتسلق جبل عات، ثم يسقط نفسه ليخمد نهائيا من وقع فوقه.

كان الخطاب يتراقص بين يديه، أمسك بأكرة الباب كأنما يود أن يخلعها من مكانها، لكن صوته، عندما انطلق أخيرا، كان هادئا، بل وكان عاديا.

"لن اسمح إطلاقا أن ينطق باسم هذا الولد فى بيتنا هذا"

"ما الذى فعله؟"

"هذا يكفى. ما قلته أكرره مرةَ أخرى، لن أسمح أن يذكر اسمه هنا إطلاقا"

أخذت المرأتان تحدقان فى وجهه، بدا كأنه عائد للتو من قمة جبل عال، لذا استدار وأقفل الباب وراءه بكل تؤدة ووقار.

ترك الخطاب ملقيا على الأرض. ذهبت إليه مسز براندون والتقطته.

"أوه، يا والدتى، ما الذى فعله فولك؟" كانت الأجراس تتراقص فى كل الغرفة.

هبط براندون إلى الدور الأرضى، عائدا إلى غرفة المكتب، أقفل الباب وراءه. وقف فى منتصف الغرفة يقول بصوت عال:

"أبدا لا ينطق أحد باسمه...أبدا لا أحد ينطق باسمه". رجع إليه صدى هذا الصوت كأنما هو صادر من عمق المياه. ثم انتبه فجأة، كما يحدث لأى إنسان يتعرض لصدمة كبرى عندما تتزاحم فى ذاكرته العديد من الموضوعات. لقد كره ابنه؛ لأنه جلب على عائلته العار والشنار الأبدى. إنه يحب ابنه، ولم يحبه بهذا العمق مثلما يحدث الآن. هو ابنه الوحيد، ليس لديه غيره. لقد هرب ابنه مع ابنة أسوأ رجل عامى فى البلدة، لذا فقد جلب عليهم العار أمام كل ناس المدينة. فولك (ما إن وصل هذا الاسم إلى ذهنه فجأة، حتى صاحبته رعشة مؤلمة) ليس مسموحا له أبدا أن يخطو خطوة واحدة داخل هذا المنزل، ليس مسموحا له أن يضحك، أن يغضب، أن يكون متفكها فيما بعد (خلف هذه الصورة، كرت عديد من الصور لفولك وهو ولد صغير، كطفل يحبو، كولد فى المدرسة، صور حاول أن يحجزها بعيدا عنه بقوة إرادة جبارة). فى المدينة سوف يثور القيل والقال، بل هم بالفعل بدأوا يمارسون هذا النشاط المحموم فى نقل الأخبار. يجب منعهم من الاستمرار فى

ذلك؛ لا يجب أن يعرفوا شيئا، عليه أن يكذب. عليهم جميعا أن يكذبوا، لكن كيف يمكن منعهم من معرفة ما حدث، بينما ابنه سافر بالفعل مع ابنة هذا المتشرد؟ بالطبع جميعهم سوف يعرفون... سوف يضحكون، نعم سوف يضحكون، ولن يستطيع أن يسير فى الشارع بدون أن تلاحقه ضحكاتهم.

بشكل ملتبس، توصل إلى السؤال الأكبر، يا ترى ما الذى حدث مؤخرا وقلب حياته كله رأسا على عقب؟ انه كان يشعر بذلك منذ عدة أسابيع وقبلما تحل هذه المصيبة الجديدة، بدا الأمر الآن كأنما هو محاط بمجموعة من الأعداء المستهزئين الذين يرغبون فى النيل منه. هم مجموعة من الرجال يتمنون له الشر ! يريدون أيذاءه! بينما هو ذاك الذى لم يضر إنسانا من قبل، هو الذى يرغب دوما أن يسعد الجميع، يسعى لجلب الخير والسعادة والنفع لكل إنسان فى المدينة، ويعمل لتحقيق مجد الرب! الرب!...ارتادت أفكاره منطقة ذات مجال واسع. لماذا سمح الله بوقوع هذا الكارثة التى أصابته فى مقتل؟ أليس هو ذاك الذى خدم الله بجماع قلبه، ولم يطرق فكره شيئا سوى أن يتحقق مجد الله وعظمته؟ إنه الآن فى خضم عالم جديد، حيث البحار، والجبال، والطرق والمدن كلها جديدة. لسنوات عديدة، سارت أموره سيرا حسنا، ثم، فجأة، وبرفعة إصبع واحد، سقط الكل وتهشم...

خلال ضباب أفكاره، تدريجيا، كما هى الشمس فى عز قوتها، بدأ مرجل غضبه يزداد عنفا. كان الوضع الأول هو عبارة عن غضب شخصى؛ لأن ابنه قد خانه وخدعه. لكن الآن، ولفترة، بالكاد تذكر فولك.

سوف يجعلهم يشاهدون. بالطبع سوف يضحكون عليه، أليس كذلك؟ سوف يشيرون نحوه كرجل هرب ابنه الوحيد مع ابنة صاحب حانة لبيع الخمور. حسنا، دعهم يشيرون نحوه. إنهم سوف يتآمرون ليسحبوا منه كل سلطة وشأن، لكى يقللوا من درجة أهميته، أن يجعلوه نكرة فى المكان الذى اعتاد على حكمه وتسييره بكفاءة لسنوات عديدة. لم يكن لديه أدنى شك من أنهم قد حفزوا فولك لكى يهرب

مع هذه الفتاة، فهذه هى نوعية السلاح الذى يمكن أن يحاربوه بها، نوع من الأسلحة التى يمكن أن يشهرها واحد مثل...واحد مثل روندر...

مع الرنين المفاجئ لهذا الاسم المكروه فى أذنيه، أحس بالهدوء. نعم، لكى يحارب هذا العدو عليه أن يحتفظ بكل هدوئه. كم سوف يكون مقدار فرح هذا الشخص عندما يعلم بما حدث؛ كم هو انتصار مؤزر حصل عليه! حسنا، من المؤكد أنه لن يهنأ بهذا الانتصار. بدأ يزرع الغرفة هنا وهناك، هامته عالية، صدره بارز إلى الأمام، بدا شكله كأنما هو واحد من المحاربين القدماء، مستعد لأن يرتدى دروعه قبلما يقدم شاهرا أسلحته قبلما يظهر فى ساحة الوغى- يلبس دروع الساقين، الدرع الذى يحمى صدره، والخوذة، ثم يتجهز بالسيف....

هو سوف يحارب حتى آخر قطرة من دمائه، عليه أن يهزم كل هذا القطيع. إذا ظنوا أن ما حدث سوف يجعله يحنى رأسه أو أن يختبئ أو يمشى متخفيا، فإنهم فى الحال سوف يدركون بأنهم مخطئون.

فجأة توقف عن المسير. هذا الألم الذى كان يداهم رأسه أحيانا، هاجمه الآن. للحظات كان الألم حادا، مؤلما للغاية، أحس بالدوار وكاد بالفعل أن يقع على الأرض. وقف مكانه، جسده متخشب، يداه مقبوضتان. كانتا تشبهان سكاكين غرست فى مخه، امتلأت عيناه بالدم، لذا بالكاد استطاع أن يميز ما أمامه. فجأة انتهت النوبة، لكنه شعر بضعف بالغ. بدأت ركبتاه ترتعشان، لذا اضطر أن يجلس وقد قبض بيديه على ركبتيه. الآن عبرت تلك الأزمة، يستطيع الآن أن يرى بوضوح. ما الذى حدث؟ ربما هى تخيلات. فقط كان لاستمرار الدق العنيف الذى استمر يزلزل قلبه، أرشده ذلك على أن فى الأمر شيئا. ظل فى مكانه فترة طويلة. أخيرا قام، خرج إلى الصالة، ارتدى قبعته وخرج. عبر المنطقة الخضراء ودخل من باب الكاتدرائية.

كان قد خرج بشكل غريزى، بدون تفكير مسبق إلى الكاتدرائية، فهو المكان الذى يمكن أن يعيد إليه هدوء نفسه ويعزيه. ودائما عندما تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن، يسرع إلى الكاتدرائية ويحتمى بها. كانت صلوات الصباح فى ختامها، فبدأ الناس فى الخروج من الباب الغربى، بينما دخل هو مستخدما باب سانت مارجريت، ثم عبر غرفة استبدال ملابس الكهنة، حيث وجد روجرز يرتدى ملابسه العادية، ثم صعد السلم الملتف ودخل غرفة "لوسفر". مجرد لمحة إلى روجرز (هو يعلم يقينا أن روجرز هذا يكرهه) جعل الصوت داخله يهمس "إنه يعلم، وهو سعيد بذلك"

هذه الغرفة التى دخلها هى الملاذ المفضل لديه، حيث توجد مساحة عارية كبيرة، خالية من أى أثاث يمكن أن يعيقه، أيضا، لا أحد يحضر إلى هنا. هى غرفة موجودة فى برج الأسقف وكان الرهبان يستخدمونها منذ مئات السنين كقاعة لتناول الطعام، وقد كرت السنوات ولم يشغلها أحد سوى الوطاويط والبوم والفئران. كانت هناك مدفأة قديمة فى نهاية القاعة، لكن هى مسدودة الآن وما زال يظهر بها بعض الرسومات المحفورة. فوق الباب ثبتت ساعة قديمة توقفت عن العمل منذ زمن بعيد، لها كسوة خشبية بها رسوم بارزة غريبة الشكل. هذه القاعة مجهزة بنافذتين صغيرتين عليهما زجاج ملطخ بالكاد ينفذ منهما الضوء ولونهما هو الأحمر والأزرق الداكنان، وهى ألوان يصعب أن تجد مثيلا لها الآن. فى ركن من الغرفة يوجد أرغن صغير مهمل عليه كمية هائلة من الغبار. ورصت على الحائط أشكال خشبية ذات حجم كبير لعدد من القديسين لونهم قرمزى وأصفر وذهبى، والكثير من هذه الألوان أصبح حائلا الآن، لكن عيون التماثيل كانت تبرق على شكل تحديق ثابت. الأرضية كانت متهالكة وتحدث صوتا مع كل خطوة. عندما دفع براندون الباب الثقيل ودخل، بعض الطيور المذعورة طارت متجهة إلى مكان النوافذ. كثيرا ما وضعت المشروعات للاستفادة من هذه القاعة، لكن أى منها لم يتحقق، ولا يذكر أحد لماذا أطلق عليها لفظ غرفة "لوسفر"، ولا أحد يهتم بذلك.

هذا الضوء الخافت والألوان الخابية تناسب براندون تماما هذه اليوم. أراد أن يستقر فى مكان لا يزعجه فيه أحد، فيه يستطيع أن يستجمع عناصر مقاومته التى بها يستطيع أن يواجه العالم كله. أخذ يتحرك هنا وهناك، يداه خلف ظهره، خيل إليه أن تماثيل القديسين تنظر إليه بنوع من الحب والتقدير.

الآن، وللحظة، كل كرامته وغضبه انزاحا وبعدا، لم يستطع سوى أن يتذكر محبته لابنه. داهمه فجأة شعور كاد أن يقوده لكى يرجع إلى منزله مسرعا، يستقل أول قطار راحل إلى لندن ليعثر على فولك، هناك يحضنه ويسامحه أيضا. أخذ يتصور مرة تلو الأخرى تفصيلات آخر لقاء تم بينهما، عندما قبله فولك على خده. عرف الآن معنى ذلك. على أية حال، كان الولد بالفعل على حق، هو كان مخطئا فى رغبته بقاء ابنه هنا لا يفعل شيئا. شيء رائع أن يقبض الفتى بيديه على مسار حياته بنفسه لكى يظهر مدى استقلاليته وأن يحارب من أجل إثبات تفرده. هو نفسه لو كان فى وضع ابنه إذن لفعل مثله، ثم خطر بباله على الفور منظر آنى هوج وخلف ذلك منظر أبيها السمين المبتسم دائما ذى الوجه الأحمر، السافل وأكثر الأشخاص إجراما فى كل بولشستر، وعندما تحقق أن هناك صلة جديدة قد تكونت بينه وبين هذا الرجل، وأن السبب فى ذلك هو ابنه، هرب كل الحب والود والرقة التى شعر بها تجاه فولك. هو فى الواقع لا يستطيع سوى أن يعبر عن عاطفة واحدة فى وقت واحد، لذا هجم عليه غضب عارم جعلته يتوقف عن السير، رفع يديه ولعن فولك- أجل، لهذا السبب بالذات، لن يغفر له أبدا، فقد ألحق بأبيه العار والشنار، هذا العار بالطبع سوف يلحق أيضا زوجته وابنته، بل ويلحق بالكاتدرائية ذاتها، وكل شكل من أشكال السلطة والنظام فى المدينة بأثرها.

شعر وهو واقف بأشد أنواع العذاب والألم الذى ربما لم يشهد له مثيلا طوال حياته. لم يكن هناك أحد حاضرًا ليشاهد مأساته، لذا ارتمى على عارضة خشبية بارزة من الحائط القديم، مخبئا وجهه بين يديه، كما لو أنه يشعر بخجل بالغ من أن يظهر وجهه أمام هذه التماثيل الخشبية.

حدثت حركة فى القاعة، فتح الباب الصغير ثم أغلق؛ رفرفت الطيور بأجنحتها وطارت إلى الأركان. رفع براندون ناظريه وشاهد ظل خفيف لرجل عند الباب. قام من مكانه، وتحرك نحو الباب ثم توقف عندما تعرف على الدخيل، إنه لم يكن سوى الرسام دافرى.

إنه لم يتحادث إطلاقا مع هذا الشخص من قبل، وكره تماما أى حديث يمكن أن يذكر فيه اسم هذا الإنسان، ففى المقام الأول، إذا دعى شخص بأنه فنان، فطبقا لرأى الأرشدياكون، يعنى أنه ملحد. أيضا هذا الشخص، كما يعلم كل أهالى المدينة، هو إنسان سكير، متشرد، لم يجلب لبولشستر سوى العار. وإذا كان لبراندون حرية التصرف كاملة، إذن لكان قد أمر بطرده من هذه البلدة والتنبيه عليه بأن لا يعود أبدا. مجرد ظهور هذا الشخص داخل الكاتدرائية، هو شىء يصدمه ويزعجه، ومما زاد من صدمته هو أنه بالرغم من العتمة السائدة، أدرك أن الرجل مخمور.

تقدم دافرى خطوة، ثم قال بصوت أجش "حسنا، إذن فقد هرب ابنك المؤدب مع ابنة هوج الجميلة"

فجأة استيقظت المشاعر التى اكتنفت براندون عندما أدرك أن جناية ابنه قد ربطته بكل قوى الشر والعار، وبلغت أقصى مفاعيلها مع الصوت الذى صدر من فم هذا الأفاق؛ لكن معها أيضا، بزغت قدرته على التحكم. وبنفس مشاعر الاشمئزاز التى بعثتها فى نفسه رؤيته لدافرى، أضافت إلى تحكمه والحفاظ على كبريائه.

قال بهدوء وهو وقف فى مكانه "يا سيدى، كان يجب عليك أن تشعر بالخجل وأنت بهذه الحالة المزرية داخل هذا الصرح الخالد. أم أنت تسكر دائما لكى تعرف أين موقعك بالضبط؟"

قال دافرى ضاحكا "نعم أنا سكران، وأنا دائما هكذا- هذا شأنى الخاص، لكننى لست على هذه الدرجة من السكر بحيث لا أعرف أين أنا، وأعلم من أنت وماذا حدث لك. أنا سعيد بالقول أننى اعرف كل هذه الأمور. ربما أنا أفوقك فى هذا الشأن، وربما لا تعلم ماذا فعل ابنك الدلوع"

جمد براندون فى مكانه كأنما هو أيضا واحد من هذه التماثيل الخشبية.

"إذن طالما أنك واع وتعلم أين أنت، اترك هذا المكان على الفور ولا تعود إليه إلا إذا كنت فى حالة مناسبة"

"مناسبة؟ تقول مناسبة"، كان مجرد شعور دافرى أنه يقف الآن وحيدا مع الرجل الذى طالما كرهه، أشعل النار فى قلبه" تقول حالة مناسبة؟ دعنى أخبرك أيها الديك العجوز. أنا فى وضع مناسب أكثر منك مرتين، برغم أننى سكران، لكن وجودى هنا مناسب أكثر منك أيها الأحمق المتعاظم"

لم يتحرك براندون من مكانه "ارجع إلى منزلك! اخرج!.عد إلى صوابك وأطلب المغفرة من الله"

"مغفرة الله! "، تحرك دافرى خطوة كأنما هو مستعد للنزال. لم يتحرك براندون "ومن ذاك الذى يحتاج إلى مغفرة الله أكثر منك؟ اسأل هذه الكاتدرائية. اسألها من ذاك الذى يحبها ويقدرها. فأنا أعبدها ومغرم بها أكثر من غرامى بأية امرأة قابلتها فى حياتى. اسألها عما إذا كنت مخلصا لها بالرغم من سكرى، ثم اسألها عما تظنه فيك، عن غرورك، وعظمتك الفارغة، ومنذ متى فكرت أنت فى عظمة وجلال الكاتدرائية، وأنت مشغول باستمرار بمقدار عظمتك ورفعة شأنك؟...لماذا يا رجل؟ نحن جميعا مقهورون من مجرد وجودك، هذه هى مشاعر كل إنسان فى هذا البلد، من الكبير إلى أصغر طفل. الكاتدرائية تمجك وتكره غرورك الغبى، وسوف تعلم كل جهدها لتتخلص منك إذا لم ترحل أنت من نفسك، وهذه هى الخطوة الأولى، لقد رحل ابنك مع عاهرة إلى لندن وكل المدينة تضحك منك.

لم يتراجع براندون من مكانه. هذا الرجل كان قريبا منه لدرجة أنه استطاع أن يشم روائح سكره - لكن خلف كلماته، بالرغم أنه شخص سكران، تشع كراهية قاهرة وعميقة، بدت كأنها لطمة قاسية توجه إليه. كراهية له ! إنه لا يعرف أن أحدا فى حياته قد كرهه - هذا الرجل يبدو أنه كان يكرهه منذ سنوات عديدة، وهو رجل لم يتحدث معه أبدا من قبل.

أما دافرى، وكما هى عادته، بدا عليه فجأة أنه قد أفاق من سكره، لذا وقف جانبا قائلا بكل هدوء، بنوع من العواطف المحتدمة:

"كنت فى انتظار هذه اللحظة منذ سنوات، أنت لا تدرى كيف أننى كنت أراقبك من يوم أحد إلى يوم أحد آخر وأنت تتمخطر فى هذا المكان الجميل فى غرورك الغبى وكبريائك المتعاظمة، هذه ليست سوى إهانة موجهة للإله الذى يخيل لك أنك تخدمه. أننى لا أعلم إذا كان هناك إله أم لا! بالطبع لا يوجد، وإلا ما كانت الأمور قد سارت بهذا الشكل- لكن ما يوجد حقا هو هذا المكان، ذلك الصرح الرائع الجمال، المنتصر، ذلك الذى جرؤت أن تضع قدميك داخله...كان من حقى فى الأمس أن أصرخ فرحا عندما علمت بما فعله ابنك، قلت فى نفسى: هذا سوف يعدله، سوف يقدم له درسا فى التواضع، وهنأت نفسى بشرب عدد من الكئوس الإضافية. كنت أراقبك طوال هذا الصباح لأجد فرصة أن أتحدث معك، لذا تبعتك إلى هنا. لقد أصبحت أنت الآن واحدا منا يا سيادة الأرشدياكون. قدماك الآن لمستا الأرض أخيرا، لكنهما لم تنزلا بما فيه الكفاية ولن يحدث هذا إلا عندما نتخلص منك الكاتدرائية نهائيا."

"اذهب بعيدا، فبالرغم أن هذا هو بيت الله، إلا أننى لن أتورع أن أحملك وألقى بك خارجا"

"سوف اخرج، لقد عبرت عن كل ما أردت قوله، لكن لا تخشى، سوف نتقابل مرة أخرى. أنت واحد منا الآن- واحد منا الآن، سلام"

خرج من الباب، وعاد للغرفة هدوءها المعتاد كما لو أنه لم يكن بها أحد....

هناك أحدوثة ألمانية قديمة، حكاها دى لا موت فوكيه، كما أعتقد، قال فيها إنه كان هناك مسافر شاب سأل عن قلعة بعيدة يود أن يرحل إليها، لذا أرشده أحدهم على الطريق الموصل إليها مخبرا إياه أن الرحلة سوف تكون سهلة إلى أن يبلغ غابة صغيرة عليه أن يعبرها. هذه الغابة مظلمة ومتشابكة الأغصان ومربكة، لكن أصعب العقبات فيها هم سكانها، فهم جماعة من المتوحشين الأشرار الذين عهدوا على أنفسهم أن يفتكوا بأى مسافر يفكر فى عبور غابتهم متجها للقلعة.

تخبرنا القصة أن هذا الشاب، وهو فخور بشبابه وقوته وواثق من أسلحته، تقدم منتويا اختراق الغابة، لكن وهو داخل قلب الغابة المظلمة، شعر أن كل عالمه قد تغير، كما لو أن كل شىء سابق وضع فيه ثقته أصبح بلا قيمة، كأن هذا السلاح الذى وضع فيه كل ثقته هو الذى جعله هكذا بلا دفاع. كانت له فى قلب هذه الغابة العديد من المغامرات، لكن أسوأ ما فى الأمر، بينما هو فى آخر درجات قوته، خامره شك قوى بأنه هو أيضا قد تغير، وأصبح بالفعل واحدًا من هؤلاء الأشرار المحيطين به.

ما أن غادر براندون الكاتدرائية، حتى صاحبه مثل هذا الشعور الذى تحكيه هذه القصة، هى مشاعر داهمته للمرة الأولى، كما أعتقد، بشكل صامت غير واضح، يوم حادثة الفيل الذى خطف قبعته، أما الآن، فهى تبدو بكل وضوح وجلاء وقريبة إليه. هو دائما ما كان يعتبر نفسه إنسانا طاهرا نقيا، دائما ما يتنازل وهو يعامل إخوته فى الإنسانية، هو فى الحقيقة، يحبهم، لكن أيضا ينظر إليهم كأنهم من طينة أخرى تختلف عنه تماما، كل هذا ليس بسبب فضائله، لكن هى إرادة الله. أما الآن فقد وقف أمامه سكير بائس يلعنه ويخبره بأنه مكروه من كل إنسان، وأنهم يتمنون ويشتاقون لليوم الذى يسقط فيه.

كانت تلك الكلمات الأخيرة إلى نطق بها دافرى، هى التى أخذت تتردد مرارا وتكرارا فى أذنيه: أنت الآن واحد منا، وبالرغم أن من نطق بها هو متشرد سكير، إلا أن هذه الكلمات لا تنسى...أبدا.

برأس مرفوعة وكتفين إلى الخلف، عاد إلى منزله.

قابلته الخادمة فى الصالة "هناك رجل فى انتظارك فى غرفة المكتب يا سيدى"

"من هو؟"

"مستر صامويل هوج يا سيدى"

نظر براندون بثبات، لكن ليس بنظرة قاسية:

"لماذا سمحت له بالدخول؟"

"كان مصرا يا سيدى. كانت مسز براندون وجوان فى الخارج. قال هو أنك تنتظره وأنك سوف تعود حالا"

"ما كان واجبا أن تدعى أحدا هكذا فى انتظارى يا جلاديس، إلا إذا كنت قد أخبرتك مقدما"

"لا يا سيدى"

"تذكرى هذا فى المستقبل"

"نعم يا سيدى، أنا آسفة يا سيدى"

دخل براندون إلى غرفة المكتب

كان هوج واقفا بجوار النافذة ممسكا بقبعة حائلة اللون. التفت وهو يسمع الباب يفتح، لذا قدم للأرشدياكون وجها مبتسما لطيفا، لكن بطريقة خشنة. كان مرتديا ملابس ريفية بدا فيها ضخم الجثة، قال: "أرجو أن تغفر لى هذه الحرية التى سمحت بها لنفسى يا أرشدياكون وأنا منتظر قدومك هكذا، لكن الموضوع عاجل للغاية"

"نعم"، قالها براندون وهو لم يغادر مكانه بجوار الباب.

"أتيت إليك مدفوعا بروح الصداقة، بالرغم أن غيرى ربما كان يأتى فى مثل هذه الظروف بشكل آخر. أنت طبعا مقدر للظروف التى نحن فيها الآن"

"سوف أكون ممتنا لو تشرح لى بسرعة ما هى مسألتك"

غادر هوج مكانه بجوار النافذة متقدما "طبعا يا حضرة الأرشدياكون، من كان يظن أننى أنا وأنت نسقط فى نفس الصندوق؟ من كان يتصور أن ابنتى هى التى تهرب مع ابنك؟"

لم ينطق براندون بشىء، مع ذلك لم يرفع عينيه عن وجه هوج، قال الأخير بكل لطف:

"أعلم أنه من الصعوبة عليك يا أرشدياكون أن تتعامل مع أمثالى، فأنت تعتبر نفسك فى مستوى أعلى كثيرا بالقياس علينا نحن القرويين، وهذا شىء طبيعى، لكن من جهة أخرى، أقول إن كلينا لديه أولاد، هنا نعثر على أرضيتنا المشتركة- أنت لديك ولد، وأنا لدى ابنة جميلة. إنها بالفعل فتاة رائعة الجمال، لذا من الطبيعى أن يفكر بالهروب بها"

عبر براندون الغرفة وجلس على مكتبه:

"مستر هوج، حقيقى قد وصلنى خطاب من ابنى هذا الصباح يخبرنى فيه أنه رحل إلى لندن مع ابنتك، وإنه ينتوى أن يتزوجها فى أسرع وقت ممكن، ولا تتوقع منى أن أوافق على هذه الخطوة. كان رد فعلى الأولى هو أن أسافر إلى لندن لأمنع بأية وسيلة كانت هذه المسألة، لكن مع ذلك، وبعد إمعان التفكير. قلت أنه طالما قد هرب مع الفتاة، إذن واجب عليه أن يتزوجها. أنا متأكد أنك سوف تفهم مشاعرى عندما أقول بأنه عند قيامى بهذه الخطوة، كنت أضع فى اعتبارى أنه قد جلب العار

على نفسه وعلى عائلته. بل وقد قطع نفسه عن عائلته تماما. أعتقد أن هذا كل ما هو وأجب أن أخبرك به"

خلف عينى هوج نصف المغمضتين، عبرت بعض آثار الغضب والكراهية، لكنها لم تظهر واضحة وراء هذا الفم الممتلئ ابتساما "بالطبع يا أرشدياكون، أستطيع أن أتفهم لماذا لا تهتم كثيرا بما فعله ابنك، لكن الأولاد هم الأولاد، أليس كذلك؟ كلانا كنا شبانا يوما. لقد نظرت إلى الموضوع من وجهة نظرك، وهو أمر طبيعى. لكن الطبيعة الإنسانية هى الطبيعة الإنسانية، واسمح لى أن أنظر للموضوع من جهتى أنا. إنها ابنتى الوحيدة وهى فتاة صالحة، تساعدنى مساعدة قيمة فى متابعة أعمالى. حسنا، وهوذا ابنك الغندور يأتى فجأة، يعجب بشكلها ثم يفترسها....أوه، ربما تود أن تقول شيئا مختلفا يا أرشدياكون، وربما يخبرك هو ما يشاء، لكن أنا وأنت نعرف ماذا يحدث عندما يتقابل شاب وفتاة فى عمر الزهور ودماؤهم تجرى حارة فى عروقهما وليس هناك من يراقبهما. ربما يصممان أولا أن يكونا حذرين، لكن نعلم أن الطبيعة سوف تقبض عليهما وسوف.... لكن حتى بافتراض أنه لم يحدث شيئًا بينهما، فهذا أيضا لا يدعو للاطمئنان، فهذه الفتاة كانت أهم عنصر فى ازدهار تجارتى، وها هى قد ذهبت ولن تعود مرة أخرى. ربما تعتقد أن موضوع زواجهما قد يحسن بعض الأمور من وجهة نظرك، لكنى لست متأكدا من ذلك. ربما تكونون أنتم من الطبقة العليا فى المجتمع، لكن ما يشغلنى فى المقام الأول هو نفسى وعملى. ما المنفعة التى سوف تعود على من زواج ابنتى من ابنك؟ هذا ما أريد أن أفهمه"

كانت يدا براندون قابضتين بقوة على المائدة، مع ذلك تحدث بصوت هادئ:

"لا أعتقد يا مستر هوج أن هناك أى نوع من المنفعة عندما نتناقش فى هذا الموضوع الآن، فأنا لم أسمع به إلا هذا الصباح. لكن تأكد أن العدل سوف يأخذ مجراه، العدل المطلق لابنتك ولك أنت أيضا"

تحرك هوج ناحية الباب:

"نعم، بالطبع يا أرشدياكون، الوقت مبكر لنبحث كل ما يختص بموضوعنا، أعتقد أنه سوف تحدث مقابلات عديدة بيننا قبلما ينتهى. أنا متأكد أننى أريد تناول الموضوع بشكل ودى للغاية، وكما قلت سابقا، نحن فى صندوق واحد، وهذا يدعونا أن نراعى بعضنا بعضا. واحد فقد ابنه والآخر ابنته، وهى من أفضل الفتيات. سوف أغادرك الآن، لكن فكر فى الموضوع جيدا. أعتقد انك سوف تدرك وجهة نظرى مع مرور الزمن"

"أعتقد يا مستر هوج أنك لن تجنى شيئا بمجيئك المتكرر إلى هنا. سوف تسمع عنى"

التفت هوج من الباب النصف مفتوح مبتسما "حسنا يا أرشدياكون، فالإنسان يمكن أن يتواصل مع آخر عن طريق محادثة بسيطة أفضل من مئة خطاب. أنا عن نفسى لست بارعا فى موضوع كتابة الخطابات، لكن سوف تراقب سويا تطور هذا الموضوع. سلام"

لم يستمر الحديث سوى خمس دقائق، وكل قطعة أثاث فى الغرفة، المقاعد، المائدة، السجادة، الصور المعلقة، بدا عليها جميعا نوع جديد من الغبش، حتى النوافذ أصابتها نوع من العتمة.

جلس براندون محدقا أمامه، فتح الباب مجددا ودخلت زوجته إليه:

"أليس هذا هو صامويل هوج الذى غادر الآن؟"

"نعم"

نظر نحوها عبر الغرفة، فى الحال أصابته دهشة بالغة لورود أغرب المشاعر التى تدفقت على قلبه. إنه، لم يكن فى حياته اليومية على وعى كامل بهجوم أى نوع المشاعر، فهذه ليست طريقته، لكن أحداث اليومين السابقين بدت

أنها قد جعلته بشكل فجائى متلامسا مع الحياة الحقيقية، كما لو أنه كان يعيش داخل بالون كل هذا الزمن ثم دفع دفعا خارجه فوجد أمنا الأرض أمامه. ربما كان قد أخبرك منذ أسبوع فائت أنه لا يوجد شيء ما لا يعرفه عن زوجته، وإن مشاعره نحوها ليست ذات شأن عظيم- مع ذلك، تأكد له ما كان يعلمه عن نفسه دائما، وهو أنه لا يكن لها أن نوع من المشاعر.

لكن اليوم، وهو بلا شك أسوأ يوم مر عليه فى حياته، وهذا الرعب الذى تلامس معه، جعله مضطرا أن ينظر لكل الأشياء بعيون جديدة. هى على الأقل جعلته ينظر إلى زوجته باعتبارها جزءً منه، وأنها قد تعرضت للأذى مثله تماما، ولحقها هى أيضا الإهانة والعار مثله، لذا فهى فى حاجة للرعاية والعطف أكثر من أى وقت مضى. إنه شعور جديد، حنان غريب، ورقة عجيبة.

رحب هو بهذه المشاعر وحياها بعد تلك المقابلة الغبية مع هوج. يا لها من مسكينة زوجته آمى! إنها غارقة فى هذه المشكلة مثله تماما - هما أخيرا محبوسان فى نفس الصندوق.

"نعم، هو هوج"

وهو ينظر إليها بطريقته الجديدة لاحظ أنها هى أيضا قد تغيرت. كان منظرها كأنما هى ممثلة وقد وضعت طبقة كثيفة من اللون الأبيض على وجهها، بينما عيناها تدوران فى مآقيها بغرابة شديدة، مع شكل جديد لاعتدال جسدها جعلها تبدو أطول من المعتاد، قالت:

"حسنا، ما هو موعد القطار الذى سوف تستقله راحلا إلى لندن؟"

"أى قطار؟"

"نعم، لكى ترى فولك"

"لن أذهب لأرى فولك"

"لن تذهب إليه؟"

"لماذا اذهب إليه؟"

"لماذا؟ أنت تسألني؟...لكي توقف إجراءات هذه الزواج البغيض..."

"لست أنتوى أن أمنع وقوعه"

كانت هناك لحظة صمت، بدت هى فيها كأنها تستدعى كل أعصابها لكى تستطيع أن تتحكم فيها، أما التواء أصابعها وهى قابضة على قماش فستانها، فكان هو الحركة الوحيدة التى ندت منها:

"من فضلك، هل من الممكن أن تخبرنى عما انتويت فعله، فعلى كل حال أنا أمه أيضا"

بدأت بعض مشاعر الرقة التى أحس بها نحوها أولا تزداد، لذا كان من الصعب عليه أن يتقدم نحوها، لكن رعبه من أى شكل درامى جعله يحجم ويبقى فى مكانه.

"عزيزتى آمى. لقد قضيت يوما مريعا، بل هو يوم فظيع ولم يتوافر لى الوقت الكافى لكى أفكر فى كل شىء. أريد أن أكون عادلا. أريد أن افعل ما هو صواب. لا أعتقد أننا سوف نكتسب شيئا برحيلى إلى لندن، هناك شىء وحيد وأضح الآن أمام ناظرى، عليه أن يتزوج هذه الفتاة طالما أنه قد اصطحبها معه، لكننى مضطر أن أقول كلمة حق فى مصلحته، أقول أنه بالفعل ينتوى أن يتزوجها. هو يقول إنه لم يمسها بسوء، وعلينا أن نصدقه فى هذا الشأن. ربما يكون فولك إنسانا مهملا، أنانيا، طائشا، لكنه لم يكن طوال عمره إنسانا خائنا، إذا ذهبت إليه الآن فسوف ندخل فى معركة حامية، وربما يحدث أمر يستحيل علاجه، وحتى إذا اقتنع بالعودة، فالخطأ قد وقع بالفعل. يجب أن يكون عادلا مع الفتاة. كل أهل المدينة يعرفون الآن أنها ذهبت معه، فقد انشغل والدها بإذاعة هذه الأخبار.

لم تنطق مسز براندون. لقد اكتشفت الحقيقة المرة بعدما قرأت خطاب فولك، أدركت الآن أن كل أفكارها لم تعد مشغولة بفولك، لكن كل ما يشغلها هو موريس. لقد ازدرى بها فولك، لم يعبر فقط عن أنه لا يريدها معه، بل ورحل مع فتاة عامية إلى لندن. شعرت فجأة أن قلبها قد تقسى نحوه، هى لا تشعر بالغضب منه، ولا يخطر ببالها الآن، ففعلته هذه قد محت وأزالت أخر صلة تربطه بها.

هى الآن لا ترى أمامها سوى موريس، عقلها مشغول به بالكامل بدرجة عظمى من التركيز لدرجة أنه فى إمكانها أن تجذبه إليها، كأنه منوم، لكى يجثو تحت أقدامها. أما زوجها، بيتها، بولشستر، كل هذه الأشياء، هى ليست سوى خيالات معتمة. قالت:

"إذن أنت لن تفعل شيئا؟"

"على أن أنتظر، أعلم جيدا أننى عندما أتصرف بسرعة، ويصبح هذا فى غير مصلحتى..."

توقف عن الحديث، نظر إليها بشك، ثم بتردد عميق واصل حديثه "كلنا منغمسون فى هذه المشكلة يا آمى، ربما كنت منغمسا فى التفكير فى ذاتى وفى عملى كثيرا فى الماضى، لكن علينا الآن أن ننظر إلى مشاكلنا سويا"

أجابت "نعم". لكن هى فى الواقع كان كل فكرها منصبا على موريس.

***

## الفصل الثامن

# الرياح تهب على المنزل

فى وقت متأخر من ذلك النهار، غادرت هى هذا المنزل. إنها أمسية غريبة. يبدو أن هناك طقسين مختلفين اكتسحا شوارع بولشستر، أولا ظهر الجمال العاقل ليوم من أيام شهر مايو، لون السماء الأزرق الباهت الذى يختفى قليلا داخل لون أصفر باهت، حيث يبدو العالم وكأن هناك روح مرحة تستلقى داخل فقاعة من زجاج، تعكس ضوء باهرا من سطحها اللامع. فى حضن هذا الضوء، رقدت المنازل، الأعشاب، حجارة الرصف كما لو أنها قد تعرضت لريشة رسام وألوان مدهشة تماثل تلك التى تغطى الألعاب الخشبية، تلمع تحت سماء ساطعة.

هى أمسية عادية من أمسيات بولشستر، لكن خلالها، نشطت بعض الرياح الصاخبة تشبه أعاصير شهر يناير، باردة، عنيفة، تهدد بسقوط الأمطار بصوتها الزاعق. هجمت هذه الرياح على كل المدينة، أحيانا كانت تحمل معها، كما يبدو، بعض السحب المذعورة، فى لحظات يختفى ضوء مايو ويصبح الهواء باردا، بينما هناك قطرات من المطر تشبه الشهب تسقط، وهى تومض بألوان مختلفة- ثم فجأة تسترد السماء مرة أخرى لونها الأزرق، ولا تشاهد أية سحابة فى الأفق، ولا يلمع سوى الرصيف. أحيانا يحمل الريح أكثر من سحابة واحدة فى مساره، ثم صحبة من قطع السحب، تظهر فجأة فوق الأفق، كأنما هم جماعة من العمالقة بيض الوجوه يتطلعون على حافة العالم، ثم فى ارتباك محتشد يتجمعون سويا، ثم تبدأ رحلة هروبهم، ينفصلون، ينضمون، يتشابكون، يتضاءلون، يتسعون، يبلعون اللون الأزرق، ويهددون أن يبتلعوا داخلهم زعفران السماء، ثم يختفون بسرعة مدهشة، تاركين خلفهم الدفء والألوان فى خط مسيرهم.

لم تلاحظ آمي براندون تلك المدينة الغناء، سمعت وهي تغادر المنزل الساعة، وهي تدق السادسة والنصف مساء. هناك داخل أعماق ضميرها اللاواعي، وهو يؤدي نشاطه اليومي المعتاد، همس لها أن زوجها سوف يتعشى الليلة في نادي المحافظين وأن جوان سوف تظل مدة طويلة في منزل آل سامبثون لتحضر الوليمة الخاصة ببدء موسم لعبة التنس. لا أحد في حاجة إليها - وكما هو الحال في الماضي، لا يحتاجها أحد. لكن نفسها غير الواعية هي التي همست لها في خضم هذا التيار العنيف الذي غطست في تياره خلال تلك الشهور القليلة، فهي لا تعلم شيئا ولا تهتم بشيء.

ما يكفيها الآن هو أن تكون حرة لكي ترعى رغباتها، تلك الرغبات الجامحة المسيطرة المدمرة التي عرفتها للمرة الأولى في حياتها المنتظمة الميتة، لكن هي لم تصل إلى تلك القناعة باستخدام وعيها الكامل النشط - إنها لا تفكر في أي شيء سوى أن عليها أن ترى موريس، أن تكون مع موريس، أن تلتقط من موريس تلك المشاعر التي يمكن بها أن تسكت ذلك الجوع المؤلم الذي لا يكف عن طلب الشبع والمزيد، هو شعور لا يغادرها إطلاقا الآن.

في الأسابيع الماضية، أصبحت غير مهتمة إطلاقا برأي المدينة فيها أو عدد من يرونها وهي تخطو عتبة بيت موريس، هي تحتقرهم جميعا، بل هي لا تحتقرهم سوى لأنهم يكنون لزوجها هذا الاحترام المبالغ فيه، تحتقرهم بالأكثر لأنهم لا يرون الكثير فيها، يعتقدون أنها إنسانة مملة، بلا حياة ترعى في جوانبها، نكرة ليس هناك شعلة حياة تحتدم في روحها، بل وربما لم تشتعل إطلاقا.

إنها أبدا لا تثرثر أو تتناقل الأخبار معهم، لا تعتقد أن الثرثرة والرغي هو النظام المعيشي اليومي لكل مواطن في هذه المدينة؛ هي ليست فضولية فيما يختص بأي شيء أو بأي شخص، سواء بحياته، أخلاقه أو دوافعه.

لا يوجد إحساس بالذاتية فى هذا العالم يعتبر كاملا مثل خيبة الأمل التى تشعر به امرأة لا تتمتع بأى قدر من الخيال والتصور.

أسرعت مخترقة شوارع المدينة، كما لو أنها مشغولة بمسالة ذات أهمية قصوى، إنها لا ترى شيئا أو تسمع شيئا، بل لم تشاهد مس ملتون وهى جالسة بجوار نافذتها نصف المفتوحة تتمتع بنسمات المساء.

فتح لها موريس الباب بنفسه، بدا عليه اندهاش بالغ عندما شاهدها. عندما أغلق الباب وساعدها على خلع معطفها، قال وهما يسيران حتى غرفة الاستقبال:

"هل هناك شىء ما قد حدث؟"

لاحظت على الفور أن الغرفة كئيبة وليس بها أحد.

"هل مس بورنت هنا؟"

"لا، لقد رحلت إلى رافائيل لتقضى أسبوعا كأجازة، من يهتم بى الآن هى الطباخة.

"الدنيا برد" ضمت كتفيها ويديها وأخذت ترتعش.

"فعلا الدنيا برد، السبب هو ذلك المطر. هل أشعل المدفأة؟"

"نعم"

انحنى وأشعل النار فى بعض الأوراق، ثم عندما اشتعلت النار دفع بالأريكة إلى الأمام:

"الآن اجلسى، وقولى لى ما الموضوع؟"

"ألم تسمع شيئا؟"

"نعم"..

ضحكت بمرارة "كنت أظن أن كل المدينة قد عرفت بموضوعنا"

"عرفت ماذا؟"

"لقد هرب فولك إلى لندن مصطحبا معه ابنة صامويل هوج"

"صامويل هوج؟"

"نعم، صاحب حانة "الكلب والسمكة" الواقعة فى منطقة سى تاون"

"هرب معها؟"

"بالأمس فقط. وقد أرسل لنا خطابا قال فيه إنه رحل إلى لندن ليكتسب معاشه هناك، وأنه أخذ معه هذه الفتاة وسوف يتزوجها الأسبوع القادم"

شعر موريس بالذعر:

"بدون كلمة أو تحذير؟ دون أن يحادثك فى هذا الأمر؟ شىء شنيع! وابنة هذا الرجل... أننى أعرف عنه شيئا.. هو أسوأ إنسان فى البلدة"

تبع ذلك فترة الصمت، فالتأثيرات التى أخذت بلب موريس هى نفسها التى أطبقت على قلب مسز براندون، فمنذ البداية كان أكبر عنصر جذبه إليها هو وحدتها، كذلك الإهمال الذى تعرضت إليه وحاجتها لمن يحنو عليها ويشاطرها المشاعر الفياضة.

لقد رأى فيها امرأة لم تتلامس مع الحب منذ عشرين عاما، بالرغم أنه فى صميم طبيعتها هى تشتاق لهذا الحب، وحتى لو لم تعامل بقسوة، لكنها كانت بالقصد تتعرض لإهمال غريب يشبه القسوة ذاتها. ليس حقيقيا أنه خلال الشهور الماضية قد كره هو براندون، لكنه شعر تدريجيا انه يحتقر هذا الرجل ويدينه، فطبيعته شبه الأنثوية كانت تنكمش وتتجاذب فى نفس الوقت مع ذكورية براندون الواضحة.

كان من الممكن له أن يحب هذا الرجل، لكن لأن الظروف وقفت حائلا أمام ذلك، لذا أصبحت مشاعره نحو براندون قريبة من الكراهية.

ثم، مع مرور الأسابيع، أوضحت له مسز براندون أن عصب حياته هو ابنها فولك- وربما لم يمثل لها ذلك الشيء الكثير، لكن فقط حفظ قلبها المتعطش من الفناء والموت. أما الآن، وقد اختفى فولك من الصورة بشكل قاس، لذا ليس لها أحد فى الدنيا سواه، لذلك عندما داهمه شعور بالغ بالعطف والرقة وهو ينظر إليها الآن، اشتعلت رغبه أن يسرى عنها، وفاجأته هذه القوة العجيبة، لكنه بصعوبة بالغة استطاع أن يمنع نفسه من أن يجلس بجوارها على الأريكة ليواسيها.

بدت أمامه ضعيفة للغاية، بلا سند أو نصير، فى قمة الرقة، قال:

"آمى، سوف أفعل ما استطيع من جهد، أبذله من أجلك"

كانت ترتعش، جزئيا بسبب مشاعرها الجياشة، وجزئيا بسبب البرد، وجزئيا بسبب دراما الموقف: "لا، لا أريدك أن تفعل أى شيء لمصلحتى، يجب أن تكون بعيدا عن مشاكلنا- هى أمور على أن أتحملها بمفردى. الخطأ هو خطأى أن آتى إليك، لكن فكرتى الأولى التى طرأت على ذهنى هى أننى فى أمس الحاجة إلى الصديق، كنت فى الواقع أنانية..."

قاطعها "لا، لم تكونى أبدا أنانية. أننى فخور لأنك أتيت إلى هنا، فأنا هنا لهذا الشأن.أنا صديقك. أنت تعلمين أنه بعد مرور كل هذه الشهور أننى كذلك، وما هى مهمة الصديق؟"

عندما أدرك أن تقدمه أصبح خطرا، ويكاد أن يصبح موقفه عاطفيا، استمر قائلا بهدوء: "قولى لى - وإن كان ليس حق فى السؤال - ما الذى فعله زوجك فى هذا الموضوع؟"

"فعل؟ لا شىء بالطبع"

"لا شيء؟"

"لا، كنت أظن أنه سوف يذهب إلى لندن ليرى فولك، لكنه قال إنه يشعر بان هذا ليس ضروريا. قال إنه طالما أنه قد هرب مع تلك الفتاة، فإن أفضل شيء يصنعه هو أن يتزوجها. هو لا يبدو عليه أى نوع من الضيق بسبب ذلك. إنسان غريب، وبعد مرور كل هذا السنوات، أقرر هنا أننى لم أفهمه إطلاقا"

قال موريس بتعجل "أننى اشعر بالذنب أيضا. منذ عدة أسابيع ماضية سمعت ثرثرة تذكر اسم ابنك مقترنا باسم فتاة ما، وتعجبت حينذاك هل أخبرك أم لا، لكن فى تلك الظروف يصعب على المرء أن يقرر ما إذا كان واجبا أن يتحدث أم لا، فهناك العديد من الشائعات التى يستمع إليها الإنسان فى تلك المدن الصغيرة. فكرت فى هذا الموضوع كثيرا، لكنى قررت فى النهاية أنه ليس من حقى أن أتدخل"

"إننى لم أسمع شيئا. دائما هى العائلة التى تكون آخر المستمعين. ربما يكون زوجى على حق، ربما لا يوجد هناك ما يتوجب عمله. أرى الآن أن فولك لم يهتم بنا على الإطلاق. طالما خدعت نفسى، والآن وبعد عملته هذه، أصبحت الشكوك تراودنى بشأن أى شيء أو أى شخص، حتى بالنسبة للصداقة التى تربطنا سويا- وهى اعز شيء فى حياتى - الشيء الوحيد فى حياتى"

صوتها كان يرتعش ويهبط، لكنه حتى ألان استطاع أن يمنع نفسه لكى لا يعبر إلى الطريق الآخر.

"هل لا يوجد شيء يمكن أن أفعله لك؟ أعتقد أنه ليس مناسبا أن أذهب إلى لندن لرؤية ابنك وإقناعه بالعودة. اننى على معرفة ضئيلة به...."

هزت رأسها بحماس "لا يجب أبدا أن تتدخل فى هذا الموضوع - على الأقل أستطيع أن أفعل شيئا فى هذا الموضوع - وهو أن أبقيك بعيدا عنه"

"كيف سوف يكتسب معاشه هناك؟"

"كتب قائلا إنه سوف يتجه إلى موضوع تحرير الصحف. هو واثق من نفسه، وهذه هى شيمته دائما. عندما أمعن النظر فى الماضى، أرى أننى كنت دائما هائمة فى خيالات غبية متخيلة أننى سوف أكون ذات نفع له. ألان أرى أنه لم يكن أبدا فى حاجة لى أبدا"

فجأة نظرت نحوه بحدة "كيف حال أخت المرحومة زوجتك؟"

أحمر وجهه "أخت زوجتى؟"

"نعم"

"إنها ليست بصحة جيدة"

"ماذا...."

"شيء يصعب تحديده، قال الطبيب إنها فى حاجة إلى الهدوء ويجب أن ترحل وتستقر فترة بجوار شاطئ البحر. المشكلة هى أعصابها"

"أعصابها؟"

"نعم، هى كثيرا ما تتعصب، ويصبح نومها مزعجا"

"هل تعاركتما؟"

"أنا وهى، نعم"

"لماذا؟"

"أوه، لا أدرى. إنها لا ترضى كثيرا عن تصرفاتى كما أعتقد"

نظرت فى وجهه "لا، أنت تعلم أن تلك ليست هى الحقيقة، كان خصامكما بسببى"

لم ينطق بشىء

"لقد تخاصمتما بسببى. هى تكرهنى منذ البداية"

"لا"

"نعم، بالطبع أنا لاحظت ذلك، إنها تغير منى. لقد أدركت بسرعة، أكثر من أى شأن آخر، كيف أننا فى حاجة لبعضنا البعض. قل الحقيقة"

قال ببطء "إنها لا تفهم، هى إنسانة غبية"

"إذن أنا التى كنت السبب فى خصامكما، وأن تفقد الصديقة الوحيدة لك فى حياتك"

"لا، أنا لا أفقد صداقتها، فقط علاقاتنا قد تغيرت، هذا كل ما فى الأمر"

"لا، لا. أنا أعرف الآن أننى كنت السبب فى استبعاد أقرب الناس إليك"

فجأة أدارت رأسها على ناحية من الأريكة ووضعت رأسها بين يديها وانخرطت فى بكاء مر. وقف هو للحظة، متوترا ممسكا بأعصابه، كأنما هو يحارب آخر معاركه البائسة، ثم حدثت الهزيمة. ركع أمام الأريكة، لمس شعرها، ثم خدها، فتحركت نحوه قليلا، فوضع يديه حولها.

"لا تبكى، لا أتحمل ذلك. لا يجب أن تقولى بأنك قد أخذت شيئا منى، هذا ليس فيه الحق. لقد منحتنى كل شيء..كل شيء. لماذا نناضل أكثر من ذلك؟ لماذا لا نأخذ ما أعطى لنا؟ زوجك لا يهتم بك، وأنا ليس لدىّ أحد، وهل أعطانى الله الكثير حتى لا أهتم بهذا؟ لماذا وضع كل هذا فى قلوبنا إذا لم يقصد أن ننهل منه؟ أننى أحبك، لقد أحببتك منذ اللحظة الأولى التى وقع بصرى عليك. لا استطيع أبدا أن أبتعد عنك، انه يشبه هجرى لنفسى ذاتها. نحن اثنان فى واحد، ولسنا كل واحد بمفرده....."

التفتت نحوه، ثم جذبها إليه أكثر وأكثر، وبآهة كلها سعادة وارتياح استسلمت له.

لم يكن هناك سوى سحابة واحدة وسط سماء ذات لون أخضر داكن، سحابة لونها برتقالى قرمزى، شكلها يشبه السفينة. وبينما الشمس تستعد للمغيب، هبت بعض الرياح، ثم أصبحت السحابة بلون قرمزى كامل، مرت فوق المدينة ثم ماتت وتحولت على شرائط من ذهب تختفى تباعا.

ربما لم يكن هناك واحد فى المدينة كلها، مثل مس ملتون التى انتظرت بصبر بالغ أمام نافذتها المفتوحة، تراقب نشاطاتها وأعمالها.

* * *

## الفصل التاسع

# المعركـــة

كل إنسان يعلم، فى وقت أو آخر من رحلة الحياة، أن هناك هدوءًا غير متوقع غريب يحل كأنما هو الثلج الذى ينهمر بسخاء على بلدة ما، بعد وقوع أزمة ما أو اضطراب معين. هنا يبدو العالم كأنه قد تعرض لكارثة عظمى سوف تغير من حاله ومن مساره، لكن العالم لا يتغير أبدا.

تمر الساعات كالمعتاد وتتوالى الأيام ولا يشعر احد أن هناك حدثًا جللاً قد وقع فى يوم من الأيام... فقط بعد مرور عدة شهور أو ربما بعد كر عدد من السنوات، ينظر الإنسان إلى هذا الحدث الذى وقع فى اليوم الفلانى ويقرر أن الحياة قد تغيرت بعده والقيم تبدلت، وتحولت درجات العالم لتتخذ لنفسها زاوية جديدة.

هذه كلها أمور تافهة، لكن هذه التفاهة لا تصبح كذلك إلا عندما نختبرها بأنفسنا للمرة الأولى. يبدو أنه ليس هناك ما يمكن أن يوصف بالتفاهة فى عرف براندون وهو يمارس خبراته الجديدة. فاليوم الذى فيه استلم خطاب فولك، بدا أنه قام بإزاحته ودفع به إلى عالم جديد؛ عالم مظلم وغامض ملئ بكل أنواع الشياطين والعفاريت المرعبة. فى اليوم التالى مباشرة لورود هذا الخطاب، بدا الأمر كأن لا شيء قد حدث بالمرة. كان يسير فى شوارع المدينة والكل يحييه ويتصرفون معه بشكل طبيعى، وليس مضطرا أن يتعامل مع تلك الأشكال السخيفة، ولا يحتك مثلا بفنان سكير، أو يصادف تلك الابتسامة البغيضة المرتسمة على وجه هوج، كل الناس كانوا كما هم.

هوذا رايل كالمعتاد، متوافق ومطيع، بنتك ميجور فضولى لكنه خانع، مسز كمبرمير كلها مرح وفرح، بل وتخيل أيضا أن فوستر قد أصبح أكثر لينا واعتدالا معه أكثر من المعتاد، فهو من أجل هذا العالم المفتوح المنبسط، نذر نفسه وجهده لخدمته، لذا لم يجد بأسا من أن يعترف لنفسه أن لا شيء قد تغير. ولأنه ليس خبيرا بعلم النفس، لذا تقبل الناس كما هم؛ عندما يبتسمون إذن هم مسرورون، وعندما يكشرون، إذن هم غاضبون.

الآن هناك مهام كثيرة عاجلة ملقاة على كتفيه، لذا أزاح موضوع فولك جانبا. هو موجود بالفعل فى انتظاره، لكن لعل الزمن كفيل بامتصاص مفاعيله.

ركز كل جهده بنوع متجدد من النشاط وبثقة جديدة فى النفس بكل ما يختص بالكاتدرائية، باحتفالات اليوبيل القادمة، بكل الحياة العامة للمدينة.

مع ذلك، كان لهذا اليوم المريع تأثيره البالغ عليه. بعد ثلاثة أيام من هروب فولك، جلس على مائدة الإفطار ومعه جوان:

"ماما تعانى من صداع هذا الصباح، لذا لن تأتى لتفطر معنا"

بالكاد هز رأسه وهو يرفعها من جريدته، بعد فترة صمت قالت هى:

"ما الذى سوف تفعله اليوم يا والدى؟ آسفة لأننى قطعت عليك استرسالك فى قراءة الجريدة، لكنى اليوم أن مدبرة المنزل وعلى أن أجهز وجبات اليوم"

"سوف أتغذى فى كاربلدون"، قالها وهو يزيح الجريدة جانبا

"مع الأسقف؟ شيء لطيف! كنت أتمنى لو كنت معك. إنه عجوز رائع"

"هو يريد أن يستشيرنى فى بعض شئون الخدمات الكنسية أيام احتفالات اليوبيل"

"ألن يغضب القس رايل بسبب ذلك؟"

"لا أهتم بذلك. هو خطأه لأنه لا يحسن تدبير عمله بكفاءة"

"اعتقد أن الأسقف يشعر بوحدة بغيضة فى قصره هذا، هو بالكاد يحضر الآن إلى بولشستر بسبب ما يعانيه من مرض الرومانتزم. لماذا لا يفكر فى تقديم استقالته؟"

"لقد حاول ذلك عدة مرات، لكن هو رجل محبوب والناس لا يريدون له أن يغادرهم"

"لا أتعجب من ذلك" قالت ذلك وعيناها تلمعان "وحتى لو لم يشاهده المرء على الإطلاق، فهو أفضل من غيره. إنه عجوز محبوب"

"حسنا، أنا لا أؤمن أنه يجب على الإنسان أن يستمر فى عمل هو غير قادر على الوفاء بالتزاماته. مع ذلك، سمعت أنه سوف يصر على الاستقالة مع نهاية العام"

"كم عمره الآن يا والدى؟"

"سبعة وثمانون عاما"

دائما ما تكون هناك نبرة وفاء عندما يتحدث الأرشدياكون عن الأسقف، فهو يعلم أن الرجل قديس، حياته كله طهر ونقاء وبساطة وإيمان راسخ وشجاعة لا تقهر، وليس هناك ما يعيبه. ربما تكون تلك البساطة التى فطر عليها هذا الرجل هى التى جذبت إليه براندون، فنحن على كل حال نعيش فى عالم يهتم بما يجرى فى عالم الأعمال، وأن ثقة الأسقف البالغة بكلمة كل إنسان والارتكان على شرفه، تبدو أحيانا مضحكة. مع ذلك، ما إن يجرؤ أحد على مهاجمة حضرة الأسقف حتى يتصدى له براندون ويدافع عنه دفاع المستميت، لكن أيضا ما أن يستمر أحدهم فى مدح الأسقف، حينئذ ينبرى إليه براندون ويلقى بكلمة أو اثنتين كنوع من التحذير.

مع ذلك، هو الآن لم يكن منشغلا هكذا بالتفكير فى الأسقف، كان يفكر فى ابنته، يملأه العجب وهو يحدق فيها عبر المائدة، ما الذى تعنيه خيانة فولك بالنسبة لها؟ هل كانت بالفعل تحبه؟ هى لم تظهر أبدا ما الذى يعنيه أخوها هذا بالنسبة لها. هى لها بالطبع أصدقاء، لها حياتها الخاصة فى المدينة، تعتز أيضا بكرامة ورفعة عائلتها مثلهم. كم هى جميلة هذا الصباح! فجأة كان على وعى كامل بمقدار الحب والإخلاص الذى منحته إياه لسنوات عديدة، بالرغم من مقدار قلة اهتمامه بها. لكن هو ليس بالوالد السىء- بسرعة كان يؤكد لنفسه هذه الحقيقة، لا يمكن لأحد أن يتهمه بذلك، إلا انه كان دائما فى حالة دائمة من المشغولية، لذا لم يتح له أن يراقبها كما يجب. إنها امرأة الآن، لها استقلاليتها وثقتها فى نفسها! لكنها ما زالت تبدو فى عينيه تلك الطفلة الصغيرة! تذكر فجأة تلك الأمسية فى العربة عندما قبضت على يديه. كم هى ضنينة فى طلباتها وتطلعاتها، وقليلا ما تقف حائلا فى الطريق!

عاد إلى جريدته، لكنه أدرك أنه غير قادر على التركيز. عندما انتهى من إفطاره قام واتجه نحوها. نظرت إليه وكلها ابتسام، ثم وضع يديه على كتفيها.

"أم... نعم... ما الذى سوف تفعلينه اليوم يا عزيزتى؟"

"عندى أمور كثيرة، هناك أولا مجموعة العمل فى الإعداد لاحتفالات اليوبيل فى الصباح، ثم هناك شىء أو شيئان سوف احضرهما لوالدتى من البلدة"

تردد قليلا ثم قال "هل قال أحد - واحد من أصدقائك فى المدينة - تحدث عن فولك؟"

"لا يا والدى - ولا كلمة" ثم أضافت كأنما تخاطب نفسها "يا لك من مسكين يا فولك"

أبعد يديه عن كتفيها، قال غاضبا "إذن أنت تشعرين بالأسى من أجله"

"ليس بالضبط الأسى، لكن- أرجو أن تغفر لى"

"تأكدى أننى سوف أفعل كل ما هو عادل وصالح"

قامت وواجهته "أبى، الآن وقد رحل فولك. ألا ترى أنه واجبا أن تطلقنى أنا أيضا؟"

"أطلقك؟"

"نعم، فأنا الآن امرأة ولست طفلة. أنت لا تريد أن تعترف بذلك. لقد أخبرت والدتى منذ عدة شهور أنه فى استطاعتى أن أفعل الكثير من أجلها، لكن هى لا تدعنى افعل سوى أقل القليل، وهى لن تتغير أبدا. لكن أنت، يجب عليك يا والدى أن تدعنى أساعدك فى كثير من الأمور، أستطيع أنا...."

أجاب مبتسما "فى كثير من الأمور؟ أى أمور؟"

"لا أعلم. عليك أن تحدد أنت. أريد القول إنه واجب عليك أن تعتبرنى عنصرا مهما فى هذا المنزل الآن. ليس عليك أن تتجاهلنى أكثر من ذلك"

"هل فعلا أتجاهلك؟"

قالت ضاحكة "بالطبع"

"حسنا سوف نرى" انحنى وقبلها ثم غادر الغرفة.

غادر المنزل متجها إلى المحطة ليلحق بالقطار المتجه إلى كاربلدون وهو راض وسعيد. بالطبع كان هو متعبا، كانت الصدمة التى تعرض لها منذ ثلاثة أيام قد زودته بمشاعر "تحذيرية" حامت فوق رأسه كأنما هى دفعة من الهواء الحار، منذرة بتوافد ألم ممض مفاجئ...لكن طالما أن دفعة الألم لم تفد... فكر، بسخرية، من أن يعرض نفسه على الدكتور باديفوت العجوز، لكن هذا الطبيب ليس سوى حمار كبير، فكيف يمكن لرجل مثل باديفوت دائما ما ينطق بكل ما هو هراء فى

نادى المحافظين، يمكن أن يحسن عمله؟ أيضا أصبح هذا الرجل كهلا، لكن براندون أيضا لا يثق فى الأطباء الشبان.

كان يشعر بالمرح والانسجام وهو واقف على رصيف المحطة. أخذ يسير هنا وهناك على الرصيف، يداه خلف ظهره، رأسه مرفوعة على أعلى، وقبعته العالية تلمع. رفع ناظر المحطة قبعته تحية له، مبتسما وقف وتبادل معه كلمة أو اثنتين، كم هو إنسان رائع كورتس هذا، يعرف عمله جيدا. أيضا لاحظ ذلك الشاب السمين الذى جلس داخل كشك بيع الصحف والكتب وقد رفع قبعته تحية له. وقف براندون يتصفح عناوين الجرائد، لاحظ أن هناك اهتمام بالغ باحتفالات اليوبيل، شاهد كتاب معنون "حياة ملكتنا الطيبة، تاريخ الإمبراطورية،١٨٣٧:١٨٩٧" ثم لاحظ وجود عدد كبير من الروايات الشعبية التى كانت تتحدث عنها جوان، شاهد معروضة رواية "آل مسارين" تأليف الكاتبة أودا. باه! كلام فارغ بالطبع، كيف يتاح للناس وقتا لقراءة كل هذه التفاهات؟ "حسنا، نعم يا مستر والر. يوم جميل فعلا، شهر مايو دائما هو رائع، ومناسب تماما لوقوع احتفالات اليوبيل، هذا ما أتمناه بالطبع، وسوف يصاب الناس بخيبة أمل إذا هطلت الأمطار...."

اشترى جريدة "أخبار الكنيسة" وعبر المكان حتى مكان الخط المفرد. لم يجد هناك أحد واقف سوى فلاح وامرأة ريفية ومعها ابنها الصغير. الشكل الجانبى لهذا الفلاح ذكره بشخص ما. من هو؟ هذه الخدود المنتفخة، وذلك الشعر ذا اللون الترابى تحت القبعة الشعبية. فجأة أحس فجأة بصدمة، كما لو أنه واقف فوق حبل مشدود فى منتصف الهواء، بينما الحبل يهتز تحته. هوج....حول نظره سريعا وواجه الخط الحديدى الخالى. يجب أن لا يفكر أبدا فى هذا الشخص، يجب أن لا يدعه يسيطر على أفكاره. هوج- دافرى، هل ما حدث داخل الكاتدرائية كان حلما؟ هل فعلا حدثت تلك المقابلة الشنيعة؟ رفع يديه إلى أعلى، وكأنما هو بذلك يمزق تفاصيل هذا المنظر ويلقى به مبعثرا فوق خط السكة الحديد. هو من النوع الذى يستطيع أن يسيطر على نهر أفكاره، ويستطيع أن يفعل مخزنا صغيرا تلو الآخر

حتى لا يشاهد ما لا يعجبه، وما لا يريد أن يشاهده، لا يريد بالتالى أن يتعرف عليه.

قدم القطار الصغير، بطيئا، كله أسف. ركب براندون عربة الدرجة الأولى الوحيدة ودفن وجهه فى جريدته. حالا، شكرا لقدرته وموهبته الخاصة بالاهتمام بأمر واحد فى وقت واحد، فإن الموضوع الذى عرضته الجريدة كموضوع للمناقشة استغرقته بالكامل- ما الذى يمكن أن يشغله أكثر من هذا الموضوع! كما لو أن صحة العماد لا تعتمد بشكل مطلق على....

كان هو غائبا تماما فى موضوع قراءته؛ بينما ينفث القطار الصغير دخانا هائلا، لذا لم يشاهد شيئا من المناظر الرائعة التى كانت تترى- فالريف، فى صباح يوم من أيام شهر مايو، يبدو فى قمة الجمال حيث تتابع الحقول ثم تغطس وسط جداول مياه رقراقة، بينما تتابع الأسوار فى صفوف بلون أزرق وقرمزى داكن. هى مناظر انجليزية غنية وتقريبا تبدى تعاليا إذا تم مقارنتها بأى مثيل لها. وبالرغم من انتشار السحب، كان الهواء معتدلا فى منتصف النهار، كانت الأبقار ذوت اللون البنى والأحمر الداكن تبحث عن الظلال الرمادية الباردة للأسوار.

هنا يستقر سلاما على مدى الدهور والأزمان، بينما الشمس تمد يدا حانية كأنما هى تداعب أصدقاء لها منذ القدم.

محطة كاربلدون الصغيرة ليست سوى كشك خشبى صغير، بينما الغابات تجرى وتنبسط خلف التل. وراء المحطة، هناك خط من الحقول الخضراء تسير حتى تصل إلى حافة مياه نهر بول. صعد براندون التل ثم اخترق الغابة، بعدها عبر سلسلة من الأسوار حتى وصل إلى حدود القصر. أخذ يمتع ناظريه بمنظر هذا البناء العتيق بأحجاره الحمراء القديمة ونوافذه المربعة اللطيفة، مع برج الأجراس وأكنان الحمام. منظر القصر يوحى بالاحترام والراحة، بمداخنه المربعة

الوقورة التى تقع خلفا حيث تشعبت فروع أشجار البلوط القديمة الحكيمة، هذا القصر بالذات يثير فى نفسه أعمق المشاعر.

إنه ينحنى أمام هذا القصر وإليه يستسلم. هنا يتواجد شيء يستحوذ على كل اهتماماته وهو فى قيمة الكاتدرائية التى طالما أحبها وأغرم بها؛ وبدون فخار لا داعى له، يجب أن يعترف لنفسه، انه إذا رأى القدر أن هذا هو الوقت المناسب، حينئذ سوف يحين الوقت الذى فيه يشغل هو هذا القصر ذاته، ويكون بالفعل مستحقا له. بدا له الأمر، وهو يجذب الجرس الحديدى ثم يستمع لرنينه العميق وهو يسرى داخل المنزل كله، كأنما القصر قد فهم ما يحتاجه بالفعل، لذا تنهد ارتياحا وهو يشاهده قادم.

فتح أبلفورد، رئيس الخدم الباب، وهو صديق قديم للأرشدياكون- رجل عجوز شعره أبيض يصبغه بوقار جليل.

قاد براندون إلى غرفة المكتب قائلا "سيادته سوف ينزل لمقابلتك بعد لحظات". لاحظ الأرشدياكون أن هناك شخصا آخر ظهره إليه منتظرًا أيضا. التفت هذا، اكتشف براندون أن هذا الشخص لم يكن سوى...روندر!

ما أن وقع بصر براندون عليه حتى داهمه على الفور ذلك الشعور مرة أخرى، والذى كان يعود إليه الآن مرارا وتكرارا، من أن هناك مؤامرة فى انتظاره، تود أن تهجم عليه وتفتك به. هو شعور خطر أن يخامر أى إنسان، بالأخص إذا داهم شخصا فى بساطة وسذاجة براندون.

روندر! أنه آخر شخص كان براندون يود مشاهدته سواء فى ذلك الزمان أو المكان! فزيارته إلى كاربلدون اليوم لم تكن غير مخططة بالكامل، ولكى نكون أمناء، نقول أنه لم يكن صادقا تماما عندما أخبر ابنته أن الأسقف يود حضوره إليه لاستشارته فى موضوع ما، فهو بنفسه كتب للأسقف خطابا قويا يؤكد فيه أن خدماته الخاصة باحتفالات اليوبيل لم توضع فى موقعها السليم، وذكر أيضا فى

خطابه أن القس فورسايث مناسب تماما لكى يشغل موقع قس بايبس سانت أنتونى، ولمح أيضا إلى بعض أنواع الإهمال التى لاحظ تواجدها فى اجتماعات المجلس "بسبب تأثيرات وافدة جديدة ومؤسفة". وقد وصله رد كتبه سكرتير الأسقف، المدعو بوننتج، قائلا أن الأسقف يدعو براندون ليشاطره الغذاء. لذا يمكن القول إن براندون هو الذى كان يود أن ينصح الأسقف وليس العكس. لقد سبح براندون فى الخيال وشاهد نفسه وقد وضع رأسه بقرب رأس الأسقف لمدة ساعة أو ساعتين، لا يقاطعهما أحد. إنه دائما ما كان يهنئ نفسه بأنه يعرف كل دواخل الأسقف بشكل جيد ويعرف كيف يتعامل معه بالطريقة التى تناسبه؛ لكن لكى يتحقق هذا؛ فإن الخصوصية والانفراد بالأسقف هى ضرورة حتمية، وتواجد شخص ثالث سوف تكون معطلة إلى أقصى حد. إذن فوجود روندر اليوم ليس سوى كارثة. فى الحال اقنع براندون نفسها أن روندر هذا، بجسمه الضخم وابتسامته البغيضة قد سمع بموعد هذا الاجتماع وصمم أن يكون ثالثا. بالطبع لم يستمع إلى ذلك إلا عن طريق السكرتير بوننتج.....

تلوت وانقبضت أصابعه عندما فكر كم يكون الأمر مبهجا عندما يقصف رقبة بوتنج الطويلة البيضاء هذه.

بالطبع، يكمن خلف هذا الموقف العاجل، كان شعوره يدله بأن روندر فى حالة من الابتهاج الكامل بسبب فضيحة فولك، ولعله مصمص شفتيه السميكتين، وراقب بعينيه المستديرتين السمينتين، بينما أصابعه الضخمة تلعب وتوسع فى الجرح.

مع ذلك، الآن وقد علم الأرشدياكون بكل صفات وقدرات روندر، لذا هو مضطر أن يتظاهر. التظاهر والتصنع هو من أقسى الأمور بالنسبة له، ولا تتناسب أبدا مع طباعه وأخلاقه، لكنه الآن هو مضطر أن يتصنع.

ابتسم ابتسامة مغتصبة "ها! روندر، لم أتوقع رؤيتك هنا"

أتى نحوه روندر وكل ابتسام وترحيب "لا، أخبرك الحق، أنا عن نفسى لم أتوقع أن أكون هنا، فقط حدث أنه فى الليلة الماضية وصلتنى مذكرة من الأسقف طالبا حضورى لأتغذى معه اليوم. قال فيها أيضا أنك أنت أيضا سوف تكون حاضرا"

أوه، إذن يونتتج ليس هو الملوم، أنه الأسقف ذاته. يا له من رجل عجوز مسكين! المشكلة هى فى الجبن، لعله خائف من الحقائق التى ربما يجد براندون نفسه مضطرا أن يدلى بها. جبن فى سنه الكبيرة هذه ؟....

"يوم جميل، أليس كذلك؟"

"فعلا جميل، يبدو أننا سوف نتمتع بوقت رائع أثناء احتفالات اليوبيل"

"هذا ما أرجوه فعلا، سوف يصاب الآلاف بخيبة أمل كبرى أذا أمطرت السماء"

"فعلا، أرجو أن تكون مسز براندون بصحة جيدة"

"اليوم كانت تعانى من صداع، لكن ليس هذا بالأمر الخطير"

"حسنا، كنت أتعجب ما إذا كنا سوف نشهد رعدا وبرقا فى السماء، أشعر أن الجو قد تغير"

"هو دائم التغير، لا سيما فى جنوب جليبشاير، وهذا ما لاحظته دوما"

"ما نحتاجه بالفعل هو عاصفة رعدية لكى تنقى الجو تماما"

"هذا ليس من المحتمل أن يحدث، فالأمور تظل هكذا معلقة أيام وأيام دون أن يحدث شيئ"

"أنا أتعجب من ذلك، فليس هناك تلال محيطة تمنع ذلك، ولا يوجد أى تل له ارتفاع كبير فى كل جنوب جليبشاير"

"بالطبع كما تعلم، بولشستر تقع فى منخفض، ما عدا الكاتدرائية، ودائما ما كنت أحسد آل سانت ليث بسبب ارتفاع قلعتهم"

"بصراحة موقع هذه القلعة ممتاز، هم يتمتعون دائما بالنسيم العليل"

"فعلا، أينما أكون هناك، ألاحظ أن الرياح تهب"

هذا الحوار المهذب توقف مع دخول تشارلز بونتنج، هذا الرجل كان رفيع القوام وطويل، دائما ما يتحدث بصوت غناء مرتفع النبرة. هو بلا شك يكتسى بنوع من الوقار المصحوب ببعض اللمحات الأنثوية من حركات ولفتات، وهو بئر للأسرار المختصة بشؤون الأسقفية والأسقف، وهو إنسان طيب ومتحمس ومخلص لرئيسه وراعيه.

"ها..ارشدياكون. ها.. القس روندر. حضرة الأسقف سوف ينزل لكما سريعا. لقد كلفنى أن أبلغكما شديد اعتذاره لأنه لم يكن فى استقبالكما، هو بالفعل مشغول بإنهاء موضوع له أهمية كبرى"

مع ذلك، دخل الأسقف بعدها بلحظات. هو شخص ضئيل الجسم وهزيل، يسير متوكئا على عصا. شعره طويل كثيف لونه أبيض ثلجى، خدوده شاحبة وعيونه ذات لون صينى أزرق، لديه تلك الموهبة التى من النادر أن نلحظها فى الآخرين، وهى أنه فى الحال، يستطيع أن يملأ المكان الذى يحل فيه بإشعاعات ووهج روحى. روحه تلك هى الجمال فى حد ذاته وفيها قوة لا تخشى أى بأس، تشع دائما فى ثنايا جسده بضياء لا يستقصى. لا أحد يخامره أى شك فى صلاح وعظمة أخلاق وصفات هذا الرجل. ربما يتحدث الناس ويذكرون كم هو رجل عجوز وضعيف وليس فى استطاعته أبدا أن يفى بمستلزمات وظيفته، وربما يذكرونه بالعيب أيضا، من إنه فى منتهى البراءة عن متابعة طرق العالم اللولبية، وأنه كثيرا ما يضع ثقته فى أمور أو أشخاص ربما يحجم طفل صغير عن التسليم بها- هذه الأشياء ربما تكون قد حدثت، لكن لا رجلا أو امرأة أو طفلا نظروا إلى

هذا الرجل وترددوا من أن يتحققوا أنه إنسان يسير دائما فى ظل خوف الله، ولا يلتصق به أبدا شر أو خداع. وهذا ما عبر عنه المحامى العجوز جلاسجو عندما قال "إذا كانت هناك نار لاستقبال الخاطئين فى السماء، فأنا واحد منهم، ولا أهتم بذلك. وربما تكون هناك جنة أو لا تكون، لكنى متأكد أن الأسقف بورسيل سوف يكون واحدا من المتربعين فيها".

صوته قوى وناعم، يسكن فى قلب هذا الصوت نوع من اللعثمة القليلة التى تتبدى بين الحين والآخر بوهج متردد بل وطفولى أيضا. وبينما هو واقف هنا، معتمد على عصاه، يبتسم لهم، كان يبدو كأنما هو طفل صغير، بينما ظهر كل من براندون وروندر وبونتتج كأنهم جماعة من الأشرار غطاهم غبار العالم وطرقه الشريرة.

قال "أرجوكم أعذرونى لأننى لم أكن فى استقبالكم. اننى أتحرك ببطء الآن...الغذاء جاهز، دعنا ندخل.

عبر الرجال الأربعة الصالة حتى وصلوا إلى غرفة الطعام، حيث وقف رئيس الخدم أبلفورد بكل احترام، كأنما هو سوف يقدم لهم عرضا مدهشا. غرفة الطعام هذه ذات سقف منخفض، بها مدفأة قديمة بطوب أحمر والجدران بلون أبيض صاف. على الحائط، علقت صورة وحيدة، هى نسخة من رسم للفنان دورير "الفارس والشيطان"، النوافذ الواسعة تطل على حديقة غناء ذات لون أخضر تزهو تحت الشمس، أما ظلال الأشجار فلونها قرمزى.

جلسوا جميعا متجاورين على مائدة طويلة من خشب البلوط. الأسقف نفسه لم يكن معاقرا للخمر، لكن كان يوجد على المائدة خمر البورت والكلاريت، القطعة الوحيدة الملونة على المائدة كانت عبارة عن وعاء زجاجى لونه أزرق داكن ملىء بالفواكه. أخذت الشمس تتراقص على الأرضية المنقوشة بأشكال ورسوم مختلفة.

لا يستطيع براندون أن يتذكر مثل هذه المأدبة المأساوية فى هذا الغرفة. لا يتذكر أبدا أنه تناول طعاما له مثل تلك الذكريات المؤسفة. كان الأسقف يتحدث معهم بأسلوبه السلس الطيع، حكى عن أشجار الخوخ والبرقوق التى سوف تزين حديقته عما قريب؛ عن أشجار التفاح والكمثرى فى حديقته، عن الفكاهات التى يحكيها لها الطبيب العجوز باديفوت عندما يأتى ليفحص تطور مرضه بالروماتزم. ثم أخذ يمزح بلطف بسبب الدقة البالغة التى ينتهجها سكرتيره بونتنج، ومدى كراهيته للإزعاج والضوضاء الشديدة، ثم تقدم برجاء إلى رئيس الخدم بأن يبلغ مدبرة المنزل، مسز برنتون، كم كانت شوربة السمك رائعة. كان يحس بالانطلاق، لكن فى أيام أخرى، كان براندون هو الذى يلقى بالكرة لكى يلتقطها هو، ومهما كانت نوعية الضيف الآخر، فبراندون هو القائد مهما كان بطؤه وتمهله، لكنه دائما ما كان يمد الأسقف بالاحتياجات النقاشية بطريقة كلها كفاءة ولباقة.

أما اليوم، فمن قام باستلام هذا الدور هو روندر؛ منذ بداية المأدبة، وبدون مباهاة أو تصنع، وبطريقة طبيعية للغاية، كان هو قائد الميدان. ولكى نفهم حقيقة الموقف كاملة، يجب أن نعلم أن مستر بونتنج، منذ عدة سنوات، كان يرعى فى قلبه نوعًا من الاحتقار للأرشدياكون. لا يمكن لنا أن نحدد الزمن الذى بدأت فيه أمارات هذه الكراهية- ربما حدثت بعد واقعة مداهنة بغيضة أقدم عليها براندون؛ مستر بونتنج هذا لا ينسى شيئا أبدا، وكراهيته مسجلة، لدرجة أنه يمكن أن يقال إنه كره حتى لون أزرار معطف الأرشدياكون. لذا استطاع اليوم، وبسرعة بالغة، أن يدرك أن هناك من هو أهم من براندون موجود وسطهم؛ أو ربما يكون قد علم بمجريات الأمور التى حدثت فى بولشستر خلال الثلاثة شهور المنقضية، أو لعله عرف بما حدث خلال الأيام الثلاثة الماضية.

مهما كانت الأحوال، ومنذ اللحظة الأولى، أبدى اهتماما أكبر ومبالغ فيه بآراء روندر، وجذبه إلى ميدان المناقشة والحديث بأكثر من طريقة، بتدخلات مثل "صحيح! بجد هذا حدث! ألا تظن ذلك يا قس روندر؟ أو "ما هى خبراتك فى هذا

الموضوع بالذات" أو "يا سيدى الأسقف، القس روندر أخبرنى انه على علم كامل بهذا المكان" فى نفس الوقت، تجاهل تماما أية ملاحظة يمكن أن تصدر من براندون.

لم يكن هناك أحد يمكن أن يستغل هذا الموقف بذكاء أكثر من روندر. فى الحقيقة، صرح الأسقف، الذى هو المضيف اليوم، بعد مغادرة روندر بقوله "إنه بالفعل إنسان قدير، فعلا ممتاز. من حظنا الطيب أن انضم لأبرشيتنا إنسان لطيف وكله علم ومعرفة".

لا احد يفوق روندر فى سرد الحكايات والطرائف، وهى طرائف تتوافق مع ذوق الأسقف، ليست مغرقة فى العالمية، أيضا ليست مغرقة فى أمور الدين والعقيدة، مسلية بدون أن تكون فاضحة، خفيفة ومضحكة، لكنها كثيرا ما تدل على علم غزير وخبرات عميقة ومعرفة كاملة بشئون البلدان الخارجية. لم يضحك الأسقف أكثر من هذا اليوم "يا سلام! يا سلام!" بل وهطلت الدموع على خديه وهو يضحك على حدوتة السيدتين الأمريكيتين فى سيناء "حكاية مدهشة فعلا...فهمت المغزى يا بونتنج؟ قصة مضحكة بالفعل! بينما لمعت دمعة ضاحكة على خد الأسقف "فى الحقيقة يا حضرة القس، لم أسمع حكاية مدهشة مثل هذه من قبل"

كانت فكرة براندون العامة هى أن تصرفات روندر مع الأسقف فاضحة بكل المقاييس. مسكين حضرة الأسقف! هو لا يلاحظ أى عنصر فكاهى فيما يحكيه هذا الرجل. أراد أن يوضح وجهة نظره بأن انتبه بالكلية للطعام الذى أمامه، رافضا حتى الإفصاح عن ابتسامة وحيدة. لكن لا أحد كان منتبها له، ولاحظ ذلك وهو ممرور، حتى الأسقف لاحظ ذلك، لذا التفت إليه أخيرا قائلا: "لكن قل لى يا أرشدياكون. لقد نسيت تماما. لقد كتبت لى عن موضوع الموسيقى التى سوف تصاحب احتفالات الكاتدرائية باليوبيل. أنت كتبت قائلا أن رايل سوف يربك كل شىء، أليس كذلك؟"

أحس براندون بالغضب يمسك بتلابيبه. كيف يحق للأسقف أن يفضى بتفصيلات موضوع ذكره له فى خطاب شخصى، بدون أن يطلب السماح بذلك، ثم يذيع تفاصيله هكذا على الملأ؟ أكثر من ذلك، لم يود أبدا أن يعلم روندر أنه كان يحفر وراء رايل بهذا الشكل. إنه لا يشعر بأى نوع من الخجل لأنه فعل هكذا، لكن يوجد هنا ما يمكن أن يستغله روندر ويصنع منه شيئا. على أية حال، كل ما يهم هو المبدأ، فهل يعتبر روندر الآن هو كاتم أسرار الأسقف؟

لم يكن من طباعه وقدراته أن يخفى مشاعره، وهذا ما بدا عليه الآن، وذلك ما لاحظه بونتنج وكله سرور، بدا على براندون كأنما هو طالب فى المدرسة تعرض للعقاب.

"لا، لا يا سيدى"، قالها وهو ينظر عبر المائدة فى اتجاه بونتنج، كان يود فى هذا اللحظة أن يضع قدمه فوق فم هذا الرجل المبتسم "لقد فهمتنى خطأ، اننى لا أشكو من أى شىء، فالمرتل رايل يعلم عمله جيدا"

قال الأسقف وهو محتار "أنت بالتأكيد ذكرت شيئا أخر فى خطابك، كان هناك شىء آخر يا بونتنج، ما هو؟"

"نعم يا سيدى، كان هناك شىء آخر، لكن لا أعتقد أن الأرشدياكون كان يعنى تماما ما كتبه"

"هل تقصد أنه قد وجد أن المرتل ليس بهذا القدر من الكفاءة؟ " قالها الأسقف وهو ينظر إلى فنجان القهوة بتحسر، ثم هز رأسه "ليس اليوم يا أبلفورد- ليس اليوم"

قال براندون "أوه، لا. بالطبع لا. ربما تكون أذواقنا مختلفة بخصوص اختيار الموسيقى، هذا كل ما فى الأمر. أنا ليس لدى أدنى شك من اننى "دقة قديمة"

قال الأسقف وهو يلتفت ناحية روندر "ما رأيك فى نوعية الموسيقى فى الكاتدرائية يا حضرة القس؟"

"أوه، اننى أعلم القليل عن الموسيقى عامة، بل ولا تعتبر معرفتى بها ذات شأن مثل الأرشدياكون. أنا متأكد أنه على حق عندما قال أنه يفضل الموسيقى القديمة التى اعتاد الناس عليها وأحبوها. فى نفس الوقت أعترف أننى لا أجد أن رايل هو مجدد للغاية، لذا بالإضافة إلى جهلى بدقائق هذا الموضع، فأنا مقامى هنا كان منذ فترة بسيطة"

"قال الأسقف بارتياح "هذا حق. إذن ليس هناك خطأ جسيم ارتكبه رايل"

فى تلك اللحظة حضر ابلفورد الذى غاب للحظات، عاد ومعه خطاب سلمه للأسقف قائلا "هذا الخطاب ورد من بايبس يا سيدى، أحضرها أحدهم راكبا"

ما أن تم النطق بكلمة "بايبس" حتى ساد صمت رهيب فى الغرفة. قام الأسقف بتمزيق الظرف وقرأ الخطاب. قام نصف قومة من مقعده وبصيحة فجائية كلها حزن وأسى:

"أرجو أذنكم للحظات، سوف أتحدث قليلا مع حامل هذا الخطاب. مسكين موريسون.. أخيرا.. لقد رحل عنا - بايبس!....

الأرشدياكون، بدون وعى انتفض من مقعده واخذ يحملق فى روندر. بايبس! أخيرا خلى هذا المكان.

بعد لحظات أحس بخجل شديد، ففى تلك الغرفة المشمسة، كان اللون الأخضر اللامع للعالم الخارجى يزهو بألوانه فوق الجدران البيضاء النقية، تتحدث عن الحياة وخلود الجمال.

من الصعب أن يفكر الإنسان فى الموت وهو فى هذا المكان، لكن يجب على الإنسان أن يفكر ويتمعن فيه، ثم هناك، موريسون، ذلك الإنسان الطيب الذى طالما عشق الحياة وكل ما فيها، وكان يفكر فى السماء عندما لا يكون مشغولا.

كان رجلا يعشق الرياضة، لديه عدد كبير من كلاب الصيد الأصيلة، كان مهتما بإحياء رياضيات الصيد التى اشتهرت بها جنوب جليبشاير، كان لطيفا حتى فى السنوات الأخيرة المرعبة التى زحفت عليه أرذل أنواع الأمراض وهاجمت حلقه وجعلته فى عذاب مقيم تهدده بالموت فى أية لحظة، هذا المصيبة هزته بالفعل، لكنها لم تبعث بالخوف فى قلبه. استدعى براندون فى خياله شكل هذا الرجل الضاحك دائما، وانحنى إجلالا لمقدار تفاؤله وجلده، ثم، وكما يحدث لكل إنسان، فى تلك اللحظات، أخذ يفكر فى نهايته هو،ثم، وقد حيا موريسون بما فيه الكفاية، عاد إلى الأعمال الكبرى الخاصة بالحياة.

تجمعوا كلهم فى الصالة. لقد عرف الأسقف موريسون هذا جيدا، كان يحبه، ولا يشغل باله الآن سوى الرجل ذاته، أما موضوع خلافته فهذا أمر لا يمكن أن يخطر على باله الآن. وبينما وقف هكذا وسطهم كأنه خيال أبيض فى أبيض، مترنحا وهو ممسك بعصاه فى الصالة، بدا عليه أنه بعيد تماما عن الباقين، فهو الآن فى منتصف الطريق الذى سبقه إليه موريسون.

رأى كل براندون وروندر أنه لازما عليهما أن يغادرا، بالرغم أنه فى أى يوم عادى، يبقيان ويتنزهان لمدة ثلاثة أرباع الساعة فى الحديقة إلى أن يحين موعد قيام قطار الساعة الثالثة والنصف المغادر لمحطة كاربلدون. وقد قام بونتنج بحل هذا الإشكال عندما تقدم نحوهما قائلا:

"حضرة الأسقف يأمل أن تسمحا للسائق "باست" أن يقلكما حتى بولشتسر بعربته. على أية حال هو ذاهب إلى بولشستر لإحضار بعض الأشياء".

هما بالطبع وافقا، بالرغم أنه من الأفضل لبراندون أن يحدث أى شيء فى العالم غير أن يجلس بجوار روندر فى عربة ضيقة لمدة أكثر من ساعة. أيضا هو لا يحب السائق "باست" الذى كان سائقا للأسقف لأكثر من عشرين عاما، وهو من مواطنى جنوب جليبشاير، ويتميز بالعناد والكبرياء والاستقلالية.

لكن لا مفر من ذلك. بعد ربع ساعة، وجد القسيسان أنفسهما فى مقابلب عضهما لبعض داخل عربة ضيقة للغاية، لذا كان ضروريا أن تتلامس ركبتاهما.

كان مزاج براندون، فى ذلك الوقت، فى أسوأ حالاتها. كل شيء تعرض للانهيار بسبب تواجد روندر. كل شيء سار بشكل سيء - الطريقة التى بها تعرض خطابه للسخرية والتندر، الأسلوب الذى اتبع من إهمال لحديثه أثناء المأدبة، الرضى الكامل الذى بدا على وجه بونتتج بسبب كل صدمة يتعرض هو لها؛ لكن كل هذا الأمور لا تقارن أبدا بحقيقة أن روندر كان حاضرا عندما وصلت أخبار وفاة موريسون. لو كان بمفرده مع الأسقف، إذن لأتيحت له فرصة كبرى حينئذ سوف يعلم تماما كيف يواسى الأسقف، وكيف يختار الكلام المناسب ليصل إلى مبتغاه، كيف يستطيع أن يدير الحوار بحيث يستطيع فى نفس الجلسة أن ينصب ركس فورسايث فى المكان الذى خلى.

بينما ركبته تحتك بساق روندر، تحرك فى قلبه وتر الغضب كأنما هو ماء يغلى فى أبريق. نفس منظر ظهر "باست" الذى لا يتحرك، أضاف كثيرا إلى درجة توتره.

قال روندر أخيرا بعد أن مرت بضع دقائق دون تبادل أى حديث "إنها عربة صغيرة للغاية، ولاحظ أننا اثنان من ضخام الأجساد"

هذه المقارنة كانت ظالمة بالفعل، فجسم روندر لين وسمين، بل وسمين جدا، لكن جسد براندون هو فى أفضل حال. من المعروف أن الرجال ذوى الأجساد

الرياضية يكنون احتقارا فائقا لكل من هو سمين وطرى. لم يعلق براندون، بينما يحاول روندر أن يكون محببا ولطيفا.

"شيء صعب أن يستمر الإنسان رفيع القوام فى هذا الجزء من العالم، أليس كذلك؟ كل صباح عندما أتطلع على نفسى فى المرآة، أكتشف أننى أصبحت أتخن من اليوم السابق، لذا أقول لنفسى "سوف أمتنع عن أكل العيش والبطاطس وأحتسى الماء الحار" ماء حار! شيء مقرف. أكثر من ذلك، هل لاحظت يا أرشدياكون، أن من يتبع نظام الحمية يصبح مصدرا لضيق كل أصدقائه ومعارفه. إذا مثلا حضر مأدبة ورفض أن يأكل البطاطس، تجد المضيفة تقول له "لماذا يا مستر سميث لا تأكل من بطاطسنا! هى من زراعة حديقتنا! لذا يضطر أن يشرح لهم أنه يتبع نظاما غذائيا معينا، بعدها تجد كل الحاضرين على المائدة وقد انطلقوا يحكون كيف أنهم يوما اتبعوا نظاما للحمية وكيف أن البعض منهم حقق نجاحا أو فشلا، بذلك تخربت العزومة بالنسبة لك ولهم. أليس كذلك؟ ما الذى تفعله أنت عندما تشعر انك قد اكتسب وزنا زائدا؟"

قال براندون بأكثر أساليبه تعاليا "لا أعتقد أننى اكتسبت يوما وزنا زائدا"

ابتسم روندر "بالطبع لا أعنى هذا حدث لك يوما. على أية حال، اهتزاز هذه العربة سوف يخفض من وزننا الكثير، لكنى أتفق معك، هو موضوع متعب، حيث لا يمكن الهروب من تصرفات القدر، ونحن ضخام الأجساد كتب علينا الكثير"

حدثت فترة صمت طويلة، وقد حاول براندون أن يغير من وضع ساقية بكل الطرق الممكنة، لكنه لم يستطع تفادى التصاقه بركبتى روندر، أخيرا قال:

"أعذرنى لأننى اصدم فيك كثيرا يا حضرة القس"

ابتسم روندر "أوه، هذا لا شيء. فهذا السير يتعبك أنت أكثر منى كما أعتقد، فأنت أخف وزنا...يا له من إنسان رائع أسقفنا هذا! رجل عظيم. فعلا هو كذلك. هناك شيء ما فى بساطة هذه الرجل وتفانيه ينقصنا جميعا"

"أعتقد أنك لم تعرفه منذ زمن طويل "، قالها براندون وهو مؤمن أنه لا يقل شأنا عن الأسقف.

"لا، لم يحدث"، كان روندر مسرورا؛ لأنه استطاع أن يحول الدفة مع براندون "لم أحضر إلى كاربلدون من قبل، إننى اقدر له أنه دعانى بينما هو له صديق قديم مثلك"

فترة صمت أخرى. أخذ روندر يجول بناظريه؛ بعد ظهر هذا اليوم كان حارا، لذا تكونت بعض قطرات العرق على جبهته، واحدة منها انزلقت ودخلت عينه. الطريق كان متربا والأسوار العالية تخفى المناظر، لذا ساهم التوتر الذى خلقته شدة الحرارة كذلك الغبار والشعور بأنهما محبوسان هكذا ربما لباقى عمرهما، والركبة ملتصقة بالركبة، والطريق لا يريد أن ينتهى، كل هذا جعل روندر لا يحس بالارتياح، وعندما تنتابه تلك الحالة يصبح إنسانا خطرا. نظر نحو الوجه العنيد للأرشدياكون قائلا:

"مسكين موريسون. إذن فقد رحل هذا الرجل عنا. اننى لم أعرفه سابقا، لكن هو بالتأكيد كان إنسانا رائعا، والآن يعتبر موقع بايبس خاليا"

لم ينطق براندون، أضاف روندر:

"المفروض أن يتخذ قرار عاجل فى هذا الموضوع. أستمحيك عذرا، إنها ركبتى مرة أخرى، أتمنى أن يجدوا رجلا صالحا يحل بدلا منه"

قال براندون وهو يفرد يديه على ساقيه "ليس هناك سوى اختيار وحيد"

أجاب روندر وقد بدت مظاهر البراءة على وجهه "حقا! ا أرجوك إذا لم يكن هناك سر فى الموضوع، من هو؟"

"ليس فى الأمر أى سر، من الواضح أن أنسب رجل يملأ هذا المكان هو القس ركس فورسايث"

"حقا! لكن يبدو أننى لست متابعا جيد للأخبار. أرجوك أخبرنى عنه"

قال براندون وهو ينظر نظرة قاسية نحو روندر "ليس أنا من يخبرك عنه، لكن من المكن أن تحصل على معلوماتك من أصغر طفل فى المدينة". لم يكن فى هذا القول أى قدر من الأدب، لكن بهذا لا يهتم روندر. حدثت فترة صمت مجددة، ثم قال روندر بأسلوبه اللطيف:

"سمعت احدهم يذكر اسم "ويستون"

"ماذا! "، رد براندون بصوت يكاد أن يكون صياحا "ذلك الذى ألف كتاب "العقائد الأربعة"؟

"أعتقد أنه هو"، قالها روندر بهدوء وهو يحك ركبته قليلا.

"هذا الرجل! هذا الملحد! العدو الأول للكنيسة، هذا الذى لا يتورع أن يدمر أية مؤسسة تشيدها الكنيسة!"

"معقولة! لا أعتقد أن الوضع سيء بهذا القدر"

"وضع سيء، قل وضع أسوأ، أكثر سوءا! أفهم من ذلك أنك لم تقرأ ولو كتابًا واحدًا له؟"

"حسنا، قرأت كتابا أو اثنين له"

"قرأت له ومع ذلك تذكر اسمه هكذا؟"

"هناك عدة طرق للنظر فى مثل هذه الأمور....."

"طرق متعددة للنظر فى كلام شخص ملحد؟ شكرا يا حضرة القس. فعلا شكرا، أشكرك لأنك عبرت عن رأيك هكذا بمنتهى الصراحة"

(فكر روندر: هذا الرجل عبارة عن حمار كبير! انه سوف يفقد أعصابه فى منتصف الطريق، بينما يستمع السائق لكل كلمة ينطق بها)

"أرجوك يا حضرة الأرشدياكون، لا تأخذ حديثى بمعناه الحرفى، ما أقصد قوله هو أنه لكى تحكم على "ويستون" من أنه ملحد، إذن يجب أن تنظر للمسالة من كل جوانبها"

"طبعا لا، وستون لا! " قالها براندون وهو يهتز غضبا، لن تجد رأيين مختلفين بشأن هذا الرجل، من ليس معنا فهو علينا....."

"حسنا، فليكن كما قلت، ليس هناك ما يضاف لذلك"

"لا، بل هناك ما يضاف. أنا سعيد لأنك ظهرت على حقيقتك أيها القس. كنت أتعجب منذ مدة طويلة، متى تحين تلك الفرصة السعيدة. منذ حضورك إلى هذه المدينة وأصبحت أنت مدمرا لكل النظم، مخربا لمؤسساتنا، متلفا لكل ما استطاعت أن تحققه الكاتدرائية خلال عمرها الطويل. أرى من واجبى أن أخبرك بذلك، وهى مهمة لا يمتلك أحد الشجاعة لأن يخبرك بها...."

"حقا! لكن ألا ترى أن هذا ليس هو المكان المناسب؟"، قالها روندر وهو يشير بيديه ناحية الظهر العريض للسائق "باست"، والى العرين الذى يربط الحصانين الذى يرتفع ويهبط كأنما هو برميل تتلاعب به أمواج البحر.

لكن براندون لم يعد حريصا أو حكيما أو عاقلا. لا يشاهد أمامه الآن سوى خدى روندر الورديتين وتلك النظارة المستديرة الضخمة، التى تبدو وكأنها تلتقط كلماته بازدراء ثم تبسطها بلا اهتمام "بل هو الوقت المناسب، إذا كانت تظن انك تستطيع أن تحضر إلى هنا، غريب تماما عن البلد، وأن تفعل ما تشاء، فأنت على خطأ أكيد. يوجد الكثيرين الذين يهتمون بمصالح هذه المدينة ويحرسونها ويحمونها. لقد أعماك الغرور، واسمح لى أن أخبرك أنه قد آن الأوان أن تتحلى بقدر قليل من التواضع وتقدر نفسك التقدير الصحيح"

غمغم روندر، وهو يناضل ليبتعد عن ركبة براندون "بصراحة، هذا ليس هو المكان المناسب"

صرخ الأرشدياكون "نعم، إذن فالإلحاد ليس له شأن كبير فى رأيك! لا شئ إطلاقا! لكن كن على حذر يا سيد! أنا أحذرك!"

اضطر روندر أن يبتسم مجبرا "أنت الذى يجب أن تكون على حذر، وإلا سوف تجد نفسك خارج هذه العربة"

كانت هذه الابتسامة هى الإهانة الكبرى النهائية. قفز براندون من مكانه يخبط بقدميه "حسنا، يمكن لك أن تضحك كما تشاء، يظهر انك تستمع لنكتة. لكن أطمئنك، أنت لا تستمع إلى نكتة. نحن أعداء، أعداء منذ اللحظة التى خطت فيها قدماك هذه البلد"

"خذ حذرك يا أرشدياكون، أنت بالفعل سوف تقع من العربة"

"حسنا، سوف اخرج منها كلية. إننى أرفض أن أرافقك فى هذه الرحلة. نعم ارفض. أرفض"

"لكن أنت لا تستطيع أن تكمل المشوار سيرا، نحن نبعد عن بولشستر بمقدار ستة أميال"

"سوف أسير! نعم سوف أسير! قف. قلت لك قف"

لكن السائق "باست"، وطبقا لملامح ظهره، كان بريئا فى مظهره، غير ملتفت لهذا الصراع الذى يدور خلفه، كأنما هو واحد من تلك الطيور التى تزاحمت فوق الأشجار، لذا استمر فى السير.

"قلت لك قف، ألا تسمع؟ " تحرك الأرشدياكون إلى الأمام وجذب السائق من ياقته:

"قف! قف! ". اضطر السائق أن يقف.

التفت "باست" بوجه مندهش وعيناه تكاد أن تخرجا من مآقيهما.

قال براندون وهو ينزل "إنها الحرب، وهذا ما أخبرك به، نعم هى الحرب!"

"لكن اسمح لى يا أرشدياكون، لا يمكن لك أن تنزل هنا"

"امش، امش"، قالها وهو وقف على جانب الطريق يهز مظلته.

سارت العربة، ثم اختفت مع منحنى فى التل.

حل نوع من الصمت المفاجئ، بدأ الغضب يضرب فى رأس براندون على هيئة أمواج متتالية عاتية. ثم اختفت هذه تدريجيا، وبينما ركبتاه ترتعشان، سمع أصواتا جديدة، طيور تغنى فوق أغصان الشجر، نسائم لطيفة تهز قمم الأشجار، لا أحد يبدو على مدى البصر. داهمه فجأة شعور بأنه يريد أن ينفجر بكاء. ما ذاك الذى نطق به؟ ما الذى فعله؟ أنه لا يتذكر ما قاله، هى واحدة أخرى من هجمات طباعه الحادة...

داهم الألم رأسه - كأنما هو سيف مغروز.

وجد حجرا فجلس فوقه. شعر بالألم يغزوه كأنما هو عدو شخصى له. فى نهاية الطريق، بدت بعض الأشكال تتحرك، هوج، دافرى- وهذا العالم الآخر- ثم ثار غبار على شكل سحابة.

ما الذى كان يفعله؟ رأسه! من أين يفد هذا الألم؟

شعر بأنه رجل عجوز،مريض وضعيف. ود لو كان الآن داخل منزله. قام وببطء تسلق التل، بينما هناك عدو صامت يبدو انه يسير وراءه متابعا كل خطاه.

* * *

## الكتاب الثالث

# الاحتفال باليوبيل

### الفصل الأول

## يوم الخميس، ١٧ يونيو: توقعات

تأكيدا هو أمر صعب على المراقب للأحداث التاريخية التى تقع فى زمنه أن يحدد أوقاتًا بعينها يستطيع بها أن يحدد بدقة بدايات الفترات المتتالية. لكنى ازعم أن أى مواطن لى، إذا أمعن التفكير قليلا سوف يتفق معى أن احتفالات اليوبيل التى وقعت فى صيف عام ١٨٩٧ كانت هى آخر عرض تم فى مدينتنا، تظهر بكل وضوح وجلاء الروح المتفردة لمدينتنا بولشستر. هى روح قديمة سكنت واستقرت فى شوارعها وسجلت نفسها فى حوائطها وأسقف مبانيها لمئات من السنين والأعوام، شىء له تحديد خاص، مثل تلك الرائحة التى تسود منطقة سى تاون، صوت أجراس الكاتدرائية، نعيق الغربان التى تحوم حول هذا الصرح العظيم وفوق قمم أشجار المنطقة السكنية الملحقة.

ربما بالنسبة لقارئ واحد، يعتبر هذا تاريخ مثيرًا للشجن عندما يكتب عن انتهاء وأفول هذه الروح - ليس من بولشستر بمفردها، لكن فى كثير من المدن الإنجليزية الصغيرة، فمنذ حرب البوير عام ١٨٩٩ حتى الحرب العالمية التى اندلعت عام ١٩١٤، تمتد وتنتشر تلك الفترة المدمرة. هذا التدمير يمكن أن نميزه فى الطبقات الجديدة التى تزايدت عندها النقود بغزارة، وانتشار كل من التليفونات، والتلغراف، الموتورات وأخيرا السينما.

"تدمير"؟ هذه ربما تكون كلمة ثقيلة على السمع، نحن نعلم أن تلك ليست سوى قفزة من مرحلة إلى أخرى فى عالم الأبدية، فى الدورة البشرية، حيث يبدو الأمر ببزوغ قرية صغيرة، تحيطها الأشجار، وتدافع عنها بعض التلال المحيطة، بينما ترتفع فى المنتصف صخرة عالية تنتصب فوقها الكاتدرائية، الرهبان، قلعة

البارون، حكم الإقطاع؛ ثم يظهر الأساقفة العظام، قوة الكنيسة التى تتعاظم للغاية؛ ثم يفد عصر التجارة والتجار؛ ثم العصر الأليزابثى بمغامراته العديدة؛ ثم تحل فترات من الراحة والرخاء خلال القرنين السابع والثامن عشر، حيث تنتشر الاهتمامات المحلية والثقافات المحدودة والمعتقدات الدينية البسيطة، مع بقائهم- داخل - منازلهم - يحتفلون بمناسبات ينقصها قدر كبير من الخيال والتجديد.

خلال كل القرن التاسع عشر، كانت هذه الروح تتمهل، بلطف تصد عنها العالم الخارجى، تزجر المعتقدات الجديدة، تكبح الحركات المغامرة....وبينما تنظر كل من الصخرة والكاتدرائية إلى الأدوار الموكلة إليهما، كانا أيضا يراقبان البحر البعيد وهو يلمع فى الأفق، وهو ذلك الذى سوف يهجم يوما على السدود، ثم يفيض بعنف ويغرق الحقول البعيدة، فى النهاية، وبهجمة شرسة سوف يزحف ويغطى كل المراعى وهذه الوديان الخضراء الخصبة وتلك التلال القميئة، فى ذلك اليوم، لن يظل فوق قمة الفيضان سوى الصخرة والكاتدرائية فقط لا غير.

كان هذا هو احتفال بولشستر باليوبيل. ربما كان هناك وعى بتلك الملكة العجوز الضئيلة الحجم وهى تمتطى عربتها الملكية تزرع شوارع لندن، لكن فى الأساس، قامت مدينتنا بصرف النظر عن ذلك، مدعية أن كل تلك الاحتفالات هى لذاتها. لمدة أسبوع كامل سوف تؤكد ذاتيتها، سوف تعلى فى احتفالاتها شأن الكاتدرائية التى هى فخر المدينة الأول، وإن كانت هى فى الواقع تخشاها. يحتفلون أيضا بتلك الصخرة التى بنيت فوقها الكاتدرائية، وبكل الرجال العظام الذين ينتمون لها منذ أزمان موغلة فى القدم، وبالنهر المحيط بها.

هذا الأسبوع بدا، لكل من نظر إليه من بعيد، هو وقت كله نوع من الجنون، أيام شيمتها كل ما هو وحشى بدون إبداء أسباب معقولة، رجال، وسيدات وأولاد، أحبوا هذا الأسبوع، لكن عندما أمعنوا النظر فى مجريات أحداثه، تلبسهم نوع من الخوف والجذع، ما الذى جرى لهم؟ من ذاك الذى ضحك عليهم؟

الشيء الغريب الذى حدث خلال هذا الأسبوع لا يمكن تحديد مفاعيله، لا أحد يمكن أن توجه إليه الاتهامات. لكن الحياة بعد انتهاء هذا الأسبوع، تدلل على أن الكثيرين لم تعد أحوالهم كما كانت فى الماضى.

فى فترة بعد ظهر يوم الثلاثاء، ١٧ يونيو، وقف روندر فى شباك غرفة مكتبه وأخذ ينظر نحو حديقته الصغيرة، نحو الورود الجميلة، وجدران الحديقة الحمراء، على قمم الشجار التى هبطت مع التل، كلها جميعا كانت تلمع تحت ضياء شمس الظهيرة. كان ينظر إلى أسفل، هو لا يشاهد شيئا، استغرق عميقا فى أفكاره الخاصة، كان يشعر بعدم ارتياح روحى ومعنوى. ترك النافذة، صنع بأصابعه بعض العلامات التى تعبر عن مدى توتره وعدم ارتياحه. أخذ يزرع الغرفة جيئة وذهابا، يقف بين الحين والآخر كأنه غائب عن الوعى، منهمكا فى استعدال مكان بعض الكتب خرجت عن مكانها الصحيح، وأحيانا يخبط فى مقعد أثناء سيره. أخيرا وبكل وزنه، هبط على مقعد جلدى عميق لا يرى شيئا أمامه.

كان يشتعل غضبا، ومن أكثر الأشياء التى يكرهها فى حياته، هو أن يكون أسيرا لهذه الحالة بالذات. لقد استمر غضبه لعدة أسابيع الآن، بدا الأمر كأنه قد أصيب بنوبة برد شديدة، وكان يصحو كل صباح متوقعا أن تختفى مشاعر الغضب، لكنه يكتشف أنها لم تنته، وليس هناك مظاهر أنها سوف تنتهى.

أثناء جلوسه هكذا، لم يكن يفكر فى احتفالات اليوبيل، وهو الشاغل الوحيد الذى استقر فى أذهان كل سكان بولشستر، كل رجل وامرأة وطفل- انه لا يفكر إلا فى شخص واحد، هو براندون، والذى معه، وبنوع من الاشمئزاز الشديد، أصبح الآن بشكل عنيد، غاضبا منه. كم هى عدد السنوات التى مرت عليه عندما قرر يوما أن الغضب والكراهية هى نوع من العواطف التى عليه أن يتجنبها كل إنسان حكيم، وبكل ما يكلفه ذلك خصما من كبريائه، من مخزون صبره وثقته بنفسه. كل شيء يمكن أن يتحقق بدون التمسك بهذه الضعفات، لقد ظل لعدة سنوات طويلة

يعلم ويدرب نفسه إلى أن استطاع أخيرا أن يصل إلى مستويات عليا فى هذا الشأن، لكن من هذا الارتفاع الشاهق، وجد نفسه ينزل على جذور رقبته.

لقد مرت الآن ثلاثة أسابيع منذ مأدبة الغداء التى أقيمت فى كاربلدون، وبطريقة أو بأخرى، كانت تلك المعركة التى وقعت فى الطريق- تلك الخناقة المضحكة المبكية- لقد أصبحت تفاصيلها معروفة لكل أهالى البلدة. هل هو براندون الذى أذاع خبرها؟ أم هو السائق؟ مهما كان، الكل عرف بها وأغرقوا جميعا فى الضحك. ضحكوا جميعا! من أجل هذا بالذات، هو لم يغفر لبراندون ما فعله، فهذا الرجل بطباعه الطفولية وغروره الجاهل حوله ذلك إلى أن أصبح من الشخصيات المضحكة. ويبدو أن الناس يضحكون بالأكثر من براندون أكثر منه، لكن المنظر كله أصبح نوعا من العروض الهزلية. الأكثر من ذلك، هذه الحادثة، بالرغم من تفاهتها، وضعت العلاقات بين الرجلين وسط أضواء زاعقة. بدا الأمر كأنه قد تم الإعلان رسميا إنهما الآن خصمين وقد خلع كل منهما ملابسه استعدادا، بينما يتجمع الناس حولهما مقطوعى الأنفاس، يشاهدان أقوى مباريات الملاكمة فى حياتهم. إنها العلانية التى كرهها روندر، إنه لا يكره براندون، هو فقط يحتقره.

الآن هوذا الغبى قد سلط الأضواء عليهما، وقد حدث همس شاع- من أى مصدر، هو لا يعلم- أنه بفضل تأثيرات روندر، هرب فولك ابن براندون من المدينة مصطحبا معه ابنة هوج. قيل إن الولد كان معجبا للغاية بروندر وأنه قد زاره قبل الهروب مباشرة لتلقى نصيحته. لقد علم براندون بأمر هذه القصة وبدأ فى إذاعتها معلنا أن روندر قد دمر ابنه.

أخيرا أصبح -هناك تنافس رهيب بين الخصمين فيما يختص بموضوع بايبس سانت أنتونى، وبالنسبة لهذا الموضوع أيضا، فإن المدينة، أو قل المنطقة المحيطة بالكاتدرائية انقسمت إلى فريقين. هنا أيضا جعلت العلانية المغرم بها براندون من الخصوصية أمرا مستحيلا.

شعر روندر بالخجل كما لو أنه قد ظهر عاريا بلحمه السمين أمام كل أهالى بولشستر. فى هذه المعركة العلنية، لم يكن هو فى كامل توازنه، فقواه الداخلية كانت تنهض وتتصارع داخله بدرجات مخيفة.

الناس يضحكون...لذا هو لن يسامح براندون طوال عمره.

فى فترة ما بعد الظهر هذه، كان هو مقبلا على إغلاق نافذته استعدادا لتحضير عظته، عندما سمع طرقا على بابه، قال متعجلا "أدخل". ظهرت الخادمة:

"من فضلك يا سيدى، هناك سيدة تريد أن تقابلك"

"من هى؟"

"هى أعطت اسمها، إنها مس ملتون"

توقف عن العمل، أخذ ينظر إلى الأوراق أمامه، أضافت الخادمة:

"قالت إنه لن تستبقيك أكثر من دقيقة يا سيدى"

"حسنا، دعيها تدخل"

هوذا القدر يدفعه مرة أخرى. لماذا أتت إليه هذه المرأة؟ هل يمكن له أن يدعى بأن أية خطوة من خطواته فى هذا السبيل، يمكن أن تكون من تخطيطاته؟ لماذا، هو لا شأن له نهائيا بتطور هذا الموضوع على الإطلاق.

منظر مس ملتون وهى واقفة على عتبة الباب، ملأ مشاعره بنفس إحساسات التقزز التى داهمته يوما عندما شاهدها فى المكتبة. فى يومنا هذا، كانت ترتدى فستانا قطنيا لونه أبيض حائل ومكرمش، وتغطى يديها بقفازين من الحرير الوردى، فى مكان أحد الأصابع كان هناك قطع واضح كانت أيضا تحمل مظلة وردية اللون وفوق رأسها قبعة عريضة على حوافها عدد من الورود، لكن وجهها بالهالات الحمراء المحيطة بعينيها وبشرتها المليئة بالنمش، كذلك حجمها الضخم، كل هذا لم يكن متناسبا مع ردائها الشبابى.

بدا واضحا أن القدر لم يتعامل معها حسنا منذ أن طردت من المكتبة؛ هي تسير قدما نحو محطة الفناء بأكثر مما تعي.

روندر، وهو ينظر إليها، كان واعيا إلى أن أخطاءها هي التي تسببت في حالتها هذه. هي بالفعل تنقصها الكفاءة. كان قد وعدها أن يعطيها بعض الأعمال التي تؤديها خلال الأسابيع الماضية، أن تنسخ شيئا، ترتب بعض المراسلات، لكنها أساءت التصرف في كل عمل أوكل لها.هي جاهلة، مهملة، مغرورة ومعتزة بنفسها، لكن هذا لم يدخل السرور في قلب روندر عندما أدرك أن براندون كان على حق في طرد هذه السيدة من المكتبة العمومية وهي الوظيفة التي احتفظت بها وقتا طويلا.

أخذت تستعرض الغرفة التي جلست داخلها بتعبير يختلط فيه العناد والتواضع المزيف، تقريبا كانت عيناها مغمضتين.

"مساء الخير يا قس روندر، أشكرك للسماح لي برؤيتك، لن أستبقيك طويلا"

"حسنا، ما الموضوع يا مس ملتون؟ أنا في الواقع مشغول جدا. كل المسائل المختصة بالاستعداد لاحتفالات اليوبيل، مع ذلك كيف أخدمك؟"

"نعم، يمكن أن تساعدني يا سيدي. انه موضوع خطير وأريد نصيحتك"

"حسنا، اجلسي هناك وقولي لي ما هو الموضوع؟"

غزت الشمس الغرفة، قام هو وجذب الشراعات، جزئيا لأن الجو كان حارا، وجزئيا لأن شكل مس ملتون أفضل وهي في الظل.

كان واضحا أن مس ملتون تجد صعوبة في بدء حديثها، بدأت في ابتلاع ريقها ودعك القفازات الحريرية، الواحد ضد الآخر.

"أجرؤ على القول بأننى أخطأت فى هذه المسألة، وربما الكثيرين قد يفكرون هكذا، لكنى لم آت لأعتذر. إذا كن تقد اقترفت خطأ، فهناك آخرون اقترفوا أخطاء أصعب"

"من فضلك، أدخلى فى الموضوع"، قالها وهو نافذ الصبر.

"حسنا يا سيدى، هذه هى رغبتى أيضا. يجب أن تعلم يا سيدى أنه بعد رفتى الظالم من الكتبة، قمت باستئجار غرفتين عند مسز "باست" التى تؤجر غرفا، وكما تعلم يا سيدى أن مسكنى يقع أمام منزل مستر موريس."

"حسنا؟"

"حسنا يا سيدى. لم استقر هناك سوى فترة قليلة عندما قامت مسز باست، وهى أقل النسوة تدخلا فى خصوصيات الناس، ولفتت نظرى إلى حقيقة غريبة، فعلا حقيقة عجيبة"

توقفت مس ملتون، نظرت نحو حجرها، على حقيبة سوداء قديمة وضعتها هناك.

"حسنا؟"

"هذه الحقيقة هى أن مسز براندون، زوجة الأرشدياكون، كان ما عادتها أن تحضر يوميا لكى ترى مستر موريس!"

قام روندر من مقعده "الآن يا مس ملتون، دعينى أكون واضحا تماما معك. إذا حضرت إلى هنا لكى تزودينى بمزيد من أخبار الفضائح التى تخص شخصًا آخر أو أشخاصًا فى هذه المدينة، فأنا لا أود الاستماع إليها. لقد حضرت إلى المكان الخطأ. فى الحقيقة أنا أتعجب من أنك تسمحين لنفسك أن تتجسسى من نافذتك على حركات الآخرين. هذا تصرف سيء. أعتقد أنه ليس هناك أى مبرر لأن يستمر حوارنا هذا"

"من فضلك يا قس روندر. لا، هناك حاجة لذلك"، لم تبد يةسبب ما فعلت. كنت أتوقع ذلك. فى نفس الوقت أؤكد لك أننى لم أكن أتجسس على أحد، فأنا لا أستطيع أن أتفادى ذلك طالما أن نافذة غرفتى تطل على منزل مستر موريس. لا تتوقع منى ونحن فى عز الصيف أن لا أجلس أمام نافذتى. أيضا إذا كانت زيارات مسز براندون هى كل ما حدث، إذن بالتأكيد ما كنت قد حضرت إليك لأضيع وقتك الثمين، فأنا أعلم تماما مشغوليات حضرتك. الموضوع له أهمية كبرى أن آتى إليك طالبة النصح. وإذا امتنعت أنت عن ذلك، إذن على أن أذهب إلى مكان آخر، وأشعر أنه الأفضل للجميع أن تصلك هذه المعلومات بدلا من شخص آخر"

لاحظ أنها زادت من درجة عزيمتها وتصميمها بالمقارنة بالوقت الذى أتت فيه أولا. أنها ترى أن بوضوح الوسيلة التى يمكن بها أن تحقق خطتها، فهناك تهديد واضح فى آخر جملة نطقت بها. وبينما هى تحدجه خلال الأضواء الظليلة، شعر كأنما هو يرى فيها روح خسيسة مليئة بكل أنواع الكراهية والعناد والغيرة.

قال بقسوة"بالطبع لا أستطيع أن أمتنع عن تلقى ثقتك بى"

"نعم، لقد كنت كريما معى دائما يا قس روندر، كما كنت مع الكثيرين فى بلدتنا هذه. أشكرك". نظرت إليه بنفس النظرات القاسية التى كان يرمقها بها "، سوف أختصر بقدر الإمكان، طبعا لن أخفى عليك أننى لن أسامح الأرشدياكون أبدا عما فعله معى، وهذا شىء طبيعى، فعندما ينزع أحد أكل عيشك بلا سبب، بالطبع لن تنسى ذلك- إذا كنت بالفعل إنسانا- أنا لا أدعى اننى أكثر أو أقل من أى إنسان. لا أنكر أننى كنت أتعجب من هذه الزيارات المتكررة لمسز براندون، فقد كان هناك شىء غريب فى طريقة تصرفات هذه السيدة. بالصدفة البحتة أصبحت أنا صديقة لطباخة مستر موريس، وهى مسز بيكر، هى سيدة فاضلة، وهذا أمر طبيعى طالما أننا نحن جيران، وكانت هى أيضا صديقة لمسز باست. أنا لم أسال أبدا أسئلة محرجة، لكن أخيرا اعترفت لنا مسز بيكر إنها غير مستريحة إطلاقا لما يحدث داخل منزل مستر موريس وإنها تفكر فى تقديم استقالتها. عندما سألناها ماذا

يعنى هذا، قالت أن مسز براندون تحضر يوميا إلى المنزل ثم تحبس نفسها مع مستر موريس داخل غرفة مغلقة. أخبرتنا أيضا أن أخت المرحومة زوجة مستر موريس، مس بورنت، كانت هى أيضا تعترض عما كان يحدث. قلنا لمسز بيكر أن تستمر فى عملها مهما كانت الأسباب فى الوقت الحالى"

توقفت مس ملتون عن المتابعة. لم ينطق روندر بشىء

"حسنا يا سيدى، لقد ساءت الأمور أكثر لدرجة أن مس بورنت رحلت، وأثناء غيابها ظلت مسز براندون تحضر بشكل منتظم. لقد أخبرتنا مسز بيكر أنهما لا يهتمان إطلاقا بمن يشاهدهما سويا"

عندما كان روندر يحدق فيها، أدرك أنه يعلم القليل عن النساء، لقد كره فى نفسه ذلك، مماثلا لما كان يتحققه عند اكتشافه لجهله أو ضعفه فيما يختص بأمر ما، لكن ما كان مرسوما فى وجه محدثته تلك كثير من الدوافع: الطمع، الانتقام والأكثر غرابة غضب العذراء، هذا كله غريب على خبراته.

"حسنا يا سيدى، لقد استمر هذا الوضع لبضعة أسابيع، ثم عادت مس بورنت، لكن كما قالت مسز بيكر، استمر الوضع حرجا. ولكى أصل إلى لب موضوعى، أقول إننى كنت فى زيارة لمسز بيكر فى أمسية يوم ما. الجميع كانوا بالخارج، بالرغم أن مستر موريس كان متوقعا حضوره لتناول العشاء. سمعنا صوت جرس الباب، قالت لى مسز بيكر "اذهبى يا عزيزتى افتحى الباب"، كانت هى مشغولة فى ذلك الحين بإعداد الطعام. ذهبت وفتحت الباب، هناك وجدت خادمة مسز براندون التى أعرفها من بعيد. قالت لى "لدى خطاب لمستر موريس". قلت لها اعطنى إياه، بان عليها قليل من التردد، فقلت لها إنها إذا لم تعطنى الخطاب فعليها أن تعود به؛ لأنه لا يوجد أحد فى المنزل غيرى. هذا بالطبع أقنعها، ثم أخبرتنى أن الموضوع خاص جدا ويجب أن أسلم الخطاب شخصيا لمستر موريس بأسرع وقت ممكن. ثم تركت معى الخطاب ورحلت. هى لم ترنى

من قبل، كما أعتقد، ولا تعلم أننى لا أنتمى لهذا المنزل". توقفت، ثم فتحت عينيها الضيقتين على اتساعهما، كأنما تراه للمرة الأولى فى حياتها، ثم قالت بنعومة، والآن هذا الخطاب معى"

فتحت شنطتها السوداء ببطء، نظرت داخلها، ثم أخرجت قطعة من الورق منها، ثم أقفلت الشنطة بصوت حاد.

"احتفظت بهذا الخطاب؟"

"نعم احتفظت به. أعرف أن الكثيرين سوف يدعون أن فعلتى هذه كلها خطأ، لكن هل هى فعلا خطأ؟ هذا هو السؤال. لكن على أية حال، هذا موضوع خاص بينى وبين خالقى، من فضلك اقرأ هذه المذكرة يا سيدى". أعطته الخطاب، وبعد لحظة تردد قرأ ما فيه، لكن الورقة لم تكن مؤرخة أو موقع عليها، وفيها:

**يا أعز الناس، أرسل لك هذا مع خادمة أنا أئتمنها، أقول لك أننى لا أستطيع أن أحضر إليك الليلة. آسفة جدا ومحبطة أيضا، لكنى سوف أشرح لك كل شىء عندما نتقابل غدا، هذا لكى لا تنتظرنى عندما أتأخر عليك**

"ليس لك أى حق أن تحتفظى بمثل هذا الخطاب"، قال ذلك وهو جد غاضب. أثناء حديثه كان يرمق الورقة، شعر كم هو غريب وعجيب طبائع النساء، والمخاطر التى يجازفن بها! كل الحماقات التى يرتكبنها بكل رضى بسبب نزوة أو خاطر مفاجئ!، أضاف:

"لكن ما الذى يؤكد أن تلك الورقة بخط مسز براندون؟"

"بالطبع أنا أعرف خطها جيدا، هى كثيرا ما كنت ترسل لى مذكرات عندما كنت أعمل فى المكتبة"

حل عليه الصمت، كان يفكر فى هذين على ضوء هذا الخطاب، إذن فهما بالفعل حبيبان. هذه السيدة البسيطة العادية التى لا يمكن أن توحى لا بالحب او الغرام وهى أيضا فى منتصف العمر الآن! ما الذى شاهدوه فى بعضها؟ ما الذى شعرا به لكى ينزلقا فى أفعال هكذا بائسة وغبية، فهل هناك عالم طاهر نظيف خارج مجال أمثاله من البشر؟

وهو غير دار، وضع الخطاب على المائدة، فى الحال قامت هى بخلع قفازها وأمسكت بالخطاب ووضعته فى شنطتها.

"لماذا أحضرت لى هذا الخطاب؟"، كان ينظر نحوها بنوع من الاشمئزاز لم يحاول أن يخفيه.

"أنت أول إنسان أتحدث معه فى هذا الموضوع، ولم اذكر أى شيء عنه لمسز بيكر. وقد كان هذا الخطاب فى حوزتى منذ عدة أيام. لم أكن أدرى ماذا أفعل"

"هناك شيء وحيد وسليم وحق. يجب أن تفعليه، وهو أن تحرقى هذا الخطاب"

"ولا أقول أى شيء لأى إنسان؟ أوه يا حضرة القس، بالطبع هذا ليس فيه أى حق. لا أود أبدا أن يعرف الناس انك قدمت لى مثل هذه النصيحة. لأن يظل القس موريس فى وظيفته، ينظر نحوه الناس وهو يزجرهم بسبب هذه النوعية من الخطايا. لا يا سيدى، لا أعتقد أن هذا فيه أى نوع من الحق"

أجاب غاضبا "هذا موضوع ليس لنا فيه أى شأن، ليس من اختصاصنا"

قامت من مكانها "حسنا يا سيدى. أشكرك بسبب إبداء رأيك هذا. إذن فهذا الموضوع ليس من شأننا. لكن سوف يهتم به الأرشدياكون بالقطع. يجب أن يطلع على هذا الخطاب. كنت أظن أنك ربما ترغب أن تحدثه....."، ثم توقفت.

"أنا ليس لى أى شأن بهذا الموضوع، لقد ارتكبت خطأ شنيعا بالاحتفاظ بهذا الخطاب. أنت ترعين شرا فى قلبك يا آنسة ملتون وسوف تندمين على ذلك فى النهاية. تقولين إنك حضرت لى لأنصحك. إذن أعطيك إياها. احرقى هذا الخطاب وأنسى تماما ما تعرفينه"

تحولت بشرتها إلى لون رمادى غريب وهو يتحدث معها، قالت:

"هناك آخريون فى هذه البلدة يا قس روندر يشعرون بنفس ما أشعر به ولا يدرون بذلك. لقد فكرت أنه من الحكمة أن أخبرك عما اعرفه، لكن لأنك لا تريد أن تساعدنى، إذن فأنا لى طرق أخرى. أشكرك للنصيحة، التى مع ذلك، لا أظن انك تريدنى أن أنفذها"

بنظرة أخيرة شملته بها تحركت ببطء وغادرت. شعر أنها قد تركت خلفها أثارا طينية على كل الجدران وأثاث الغرفة. أغلق الشباك وأخذ يتمشى فى الغرفة وهو يدعك يديه فى بعضها خلفه، وهو كاره لكل شيء.

أخذت عبارات الخطاب تتردد فى ذهنه مرة تلو الأخرى:

"أعز الناس...أنا أتمنها...أشعر بالإحباط...أعز الناس"

هذان الاثنان! تصور موريس بوجهه الضعيف وعينيه الذابلتين وملابسه القديمة وطريقته المترددة وشعره الناحل- ومعه مسز براندون، وهى الإنسانة العادية التى لا تلفت النظر ولا يلاحظ أحد شيئا يخصها- ما الذى ترتديه، ما الذى تقوله، أو تفعله، لا شيء!

هذان الاثنان! الشبحان! فى حالة من الحب والعشق وعلى استعداد لأن يفقدا كل شيء السمعة، والمركز، والعائلة فى مقابل أن تتحقق رغباتهما ونزواتهما!

بنوع من الارتعاش، تحولت أفكاره ناحية مس ملتون. لقد أتت إليه لأنها ظنت أنه يمكن أن يتشارك معها فى انتقامها. هذا، أكثر من أى شيء آخر، جعله

يشعر بالألم!. أن يهبط إلى مستواها، أن يتآمر معها، يصنع المصائد والفخاخ...أخ! يا له من وضع قاس وغير منصف بالنسبة له، فهو إنسان كريم وحقانى، كيف يمكن أن يتشارك فى مؤامرة وضيعة مثل هذه؟

غسل يديه فى غرفة ارتداء الملابس الصغيرة القريبة من المكتب، وأخذ يدعكها بقوة كأنما احتكاك يده بيد مس ملتون قد علق بهما. شعر أنه يكره أن يجلس هكذا وحيدا. نزل إلى الدور الأرضى، هناك وجد ألين ستايلز تشرب الشاى مع عمته وتستعد للمغادرة.

تساءل "أترحلين يا ألين؟"

كانت فى أوج حالات روحها المعنوية وقد ارتدت قبعة خضراء جميلة.

"نعم، يجب أن أرحل. لقد بقيت هنا مدة طويلة وقضينا أجمل وقت نتحدث عن مسز ماينارد وما تعانيه من مرض السل. أعتقد انه ليس هناك أى أمل بالنسبة لها، كما أخشى، شيء محزن فعلا. هى لديها أربعة أطفال؛ لكن كما أخبرتها بالأمس، على الإنسان أن يستعد دائما لحدوث أسوأ الأمور، وإنه لن يفضل أى مال لإعالة هؤلاء الأطفال الصغار بعدما ترحل، ولا أعرف ما الذى سوف يفعلونه"

"بالطبع قمت أنت باللازم، وحاولت أن ترفعى من معنوياتها"

"حسنا، اننى لا أفهم فى هذه الأمور، فهى ككل المصابات بمرض السل تظن أنها سوف تشفى يوما. بالطبع لن يتحقق هذا إلا إذا كان عندها نقود تستطيع بها أن تسافر إلى دافوس مثلا أو أى مكان آخر للاستشفاء، لكن هى مفلسة ولا أمل أمامها على الإطلاق"

"إذا كنت سوف تسيرين فى الشارع الرئيسى، سوف أسير معك جزء من الطريق"

"سوف يكون هذا أمر لطيف" قالت ذلك وهى تقبل مس روندر "مع السلامة يا حبيبتى، لقد قضيت وقتا جميلا معك. ألن يكون الجو فظيعا إذا أمطرت الأسبوع القادم؟ ببساطة سوف يتدمر كل شيء من استعدادات الاحتفال. لا أظن أن الجو سوف يكون صحوا، لكن من يعرف؟"

خرجا سويا. منطقة الملحقات كانت هادئة ومهجورة. كان هناك جرس يدق بعيدا فى المدينة يعلن عن بدء صلوات المساء. قال روندر "اعتقد أنه جرس الكنيسة التى بها القس موريس". كان الضوء يمتد كأنما هو ستارة من الحرير الملون عبر اللون الأخضر الذى خضب المربع الذى تقع داخله الكاتدرائية؛ كان هذا الصرح العظيم فى منطقة الظل، يلفها الضباب خلف الشمس، وتتحرك من ظل إلى آخر كما لو كانت تقع تحت الماء.

ما أن سارا قليلا حتى قالت ألين:

"ما الموضوع؟"

"الموضوع؟"

"نعم، يبدو عليك بعض مظاهر القلق وهذا من النادر أن يحدث معك، لذا أنا أتعجب"

تردد قليلا، نظر نحوها، بل تقريبا توقف عن المسير. انها مصيبة كبيرة أن تختار الين ستايلز هذه اللحظة بالذات لكى ترضى فضولها الغريب؛ كان ينتوى أن يسير معها جزء من الشارع الرئيسى ثم يتركها بقرب شارع أورانج ليزور فورستر. انه سوف يودعها هنا...ثم خطر على باله خاطر فجائى. سوف يستمر بالسير معها، لذا قال ضاحكا:

"ألا تلاحظين أن فضولك متعب يا ألين؟ فأنت إذا لم يكن لك قلب مخفى فى مكان ما فى جسدك، إذن لأصبحت لا تطاقين. أنا متأكد أن هذا القلب موجود بالفعل"

"ردت ضاحكة "، وأنا كذلك، أنا بالفعل أهتم بأخبار الناس. لمَ لا؟ هذا يمنعنى من الشعور بالضجر"

"لا يوجد شىء يمكن أن يتعب أى إنسان أكثر من سؤاله لما هو أسير لهذا المزاج أو ذاك. أتركينى بمفردى وسوف أسدد كل احتياجات فضولك ببعض من أخبارى. قولى لى، هل يتحدث الناس هذه الأيام كثيرا عن العلاقة التى تربط ما بين مسز براندون ومستر موريس؟"

هذه المرة بدا على وجهها مظاهر الاندهاش الشديد. فى مناسبات عديدة، أدرك أن هذه السيدة مغرمة بالثرثرة والجرى وراء أخبار الفضائح، وهو الآن يثيرها، كان هو كأنما يعظها أن لا تشرب الخمر، ثم تضبطه وهو يعاقرها.

"أوه. كل إنسان يتحدث بالطبع، بالرغم من تظاهرك بأنك لا تذكر أبدا الفضائح، لكن أنت تعلم أخلاق ناس المدينة، إلا أن حديث الناس بهذا الخصوص قد قل كثيرا، فهم جميعا يركزون الآن على احتفالات اليوبيل."

"كل ما أود أن أعرفه، ما مدى معرفة براندون بهذا الموضوع؟ وهل سوف يهتم إذا عرف؟"

"انه لا يدرى شيئا. لا شىء إطلاقا. انه دائما ما ينظر إلى زوجته كقطعة أثاث، ليست كقطعة أثاث نادرة أو حتى مفيدة، لكنها على أية حال من ضمن أملاكه، لذا ينظر إليها كشىء ثابت فى مكانه. هو لا يحلم أبدا أنها من الممكن أن تعصاه، لكن من الواضح أن هروب ابنه ثم معركته معك تستحوذ على كل اهتماماته. هو لا يتحدث لا يأكل، لا يفكر، إلا فى هذين الموضوعين فى رأسه"

"ما الذى تظنين سوف يحدث إذا...إذا اكتشف أن هناك فى الأمر شيئا، وأنها بالفعل تخونه؟"

"ماذا؟ وهل هناك دليل؟"، قالت ذلك بحماس شديد. توقفت عن السير، هذا الحماس جعله يتردد: "لا - لا شيء. بالطبع لا يوجد، كيف لى أن أعرف إذا كان يوجد دليل أو لا يوجد؟"

قالت بتصميم "أنت الشخص المناسب ليعرف ذلك..مهما كان عدد الناس الذين استغفلتهم، لكن لا يجب أن تعتبرنى واحدة منهم، إلا أننى يجب أن أخبرك كصديق لصديق بأنك ارتكبت أول خطأ فى حياتك عندما جعلت معركتك مع براندون هكذا على العلن"

أخذ يتعجب مرة أخرى، كما حدث معه كثيرا سابقا بسبب عبقريتها المدهشة فى اكتشاف ما يمكن أن يقوله الصديق للصديق وبه يثير أشد غضبهم واستيائهم. إلا إنها على كل حال، تمتلك قلبا من ذهب، ولها معاييرها الخاصة، لكن كم هو جنس غريب هذا الجنس النسائى!.

"لست على الإطلاق أعتبر ملوما بأن أصبحت أخبار معركتى معه على الملأ، إنها شخصية براندون الغبية كذلك عادة الثرثرة التى درج عليها أهالى هذه المدينة"

"حسنا"، شعرت هى بالانتعاش لأنها استطاعت أن تثيره وتضايقه، وهذا يبدو عليه "هذا يعنى أن الظروف هى التى هزمتك. للمرة الأولى كانت هذه أقوى منك. إذا أعجبك هذا التفسير، إذن كن راضيا به"

"الآن يا ألين، بالطبع تريدين أن افقد أعصابى؛ لأننى لم أرض كل فضولك، اهمدى إذن، فكثيرا ما كنت تحاولين سابقا ولم تنجحى"

ضحكت ووضعت ذراعها فى ذراعه "نعم، دعنا لا نتعارك. أليس الجو رائعا الليلة والكل فى حالة من الانتعاش والسرور. اننى أشعر بالسرور عندما أجد الناس مبسوطين فرحين، هؤلاء الغلابة، فقط هم الناجحون والذين يشعرون أنهم بهذه الدرجة من الأهمية، وهم الذين أرغب أن أدفع بهم إلى أسفل سافلين. عندما أكتشف أننى متحاملة على شخص ما، أعرف توا أننى فعلت ذلك لأنه يحاول أن يتشامخ ويرتفع أكثر من قدره الحقيقى، لذلك أقول لك، كن على حذر، فأنا لست متأكدة، فربما النجاح يذهل عقلك"

"تقولين النجاح؟"

"نعم. لا تبد هكذا بريئا. أنت لك بضع شهور هنا، مع ذلك أصبحت أنت الوحيد الذى يعمل له حسا. لقد هزمت براندون من الجولة الأولى، وشيء سخيف أن تتظاهر أمام صديقة قديمة لك بان تدارى على ذلك. لكن أقولها لك مرة أخرى، كن على حذر"

"اعتقد أنه واجبا أن تتركينى جانبا للحظة، وفكرى فى شخص آخر، ما أريد فقط معرفته بالفعل هو ما مدى معرفتك بمسز براندون؟"

"معرفة؟"

"نعم. أعنى، هل يمكن أن تتحدثى معها؟ تخبرينها بطريقة ما، بأن تكون على حذر، وأنها تتعرض بالفعل إلى الخطر. النساء يعلمن كيف يفعلن ذلك...فى الواقع، أنا ذاهب لمقابلة شخص ما"

توقف، هل هو فعلا يريد أن يقابل شخصا؟ لما هذه المشاعر الرقيقة تجاه مسز براندون؟ هل هذا بسبب اشمئزازه من مس ملتون، فهو لا يستطيع أن يرى شخصا واقعا فى قبضة هذه الشريرة؟

"أحذرها؟ إذن هناك بالفعل خطر يهددها"

"فقط كما قلت، إذا كان الناس يتحدثون عنها. إننى اشعر بالأسف تجاهها"

وصلا إلى النقطة التى فيها سوف يفترقان:

"لا، أنا لا أعرفها لهذه الدرجة، ولن تتقبل منى بالطبع أية نصيحة، ولا من أى شخص آخر، إنها تشعر بالاعتزاز بنفسها أكثر مما تتصور، وأعتقد أنها أيضا لا تهتم ما إذا كانت معرضة للخطر أم لا، بل وترحب بهذا الحالة. هذا هو اعتقادى"

"مع السلامة إذن. لن أطلب منك أن تعتبرى حديثنا هذا سرا، فأنا لا أعتقد أنك قادرة على ذلك حتى إذا رغبت. لكن كل ما أطلبه منك هو أن تكونى رقيقة نوعا"

"ولماذا أكون رقيقة؟ وأنت فى الحقيقة لا ترغبنى أن أكون كذلك"

"أنا لا أريد؟"

"نعم، إنها جزء من اللعبة التى تلعبها. إذا لم تكن كذلك، إذن أنت تغيرت بالفعل. لذا أقول لك، ربما تكون أنت المعرض الآن للخطر"

أثناء سيره بمفرده فى شارع اورانج، أخذ يتعجب بسبب تلك الدوافع الطارئة التى جعلته متعاطفا مع مسز براندون. إنه طالما أراد أن يشعر كل الناس بالسعادة والوفاق فى حياتهم، فالحياة تصبح أسهل حينذاك، لكن إذا كان أحدهم قد أخبره بالأمس أنه سوف يكون متعاطفا مع مسز براندون، تلك الشخصية الباهتة العادية، إذن لكان قد ضحك بقوة.

ثم جمال هذه الساعة جعله لا يفكر فى شىء آخر، فالشارع أمامه كان يتسلق ليبلغ عنان السماء، يشبه صفحة من الذهب الخالص، عند قمته يقع النصب التذكارى منتصبا متحديا الهواء المتذبذب، شكله فخور، عال، متباه. فجأة شاهد من

تسير أمامه، إنها مسز براندون، تسير مسرعة بخطوات مرتبكة، بشكل يضاد لكل مظاهر الروعة والجمال.

شعر أن أفكاره قد تداخلت مع رتم خطواتها، بدت وكأنها متواجدة هنا رغما عن إرادتها، شعر هو أيضا أن وجوده هنا أيضا هو ضد رغبته، وإنه ليس له أى شأن سواء فيما يختص لا بالزمان أو المكان.

لحق بها، بدت عليها مظاهر الدهشة، نادى عليها "مسز براندون"، رفعت وجهها الفئرانى، البسيط المتردد، بعينيها الرماديتين. هو كان يعرفها لماما، ويعلم أنها لا تحبه على الإطلاق، لكن هو لا يهتم. لقد أصبحت فى ناظريه كإنسانة جديدة منذ أن عرف كل هذه المعلومات الخاصة بها - فهى غضوبة، هوائية بل ورومانتيكية أيضا.

"مساء الخير يا قس روندر"، لم تبتسم أو تخفف من خطواتها.

"أليست هى أمسية جميلة، وإذا استمر هذا الطقس حتى الأسبوع القادم، سوف نكون محظوظين بالتأكيد"

"فعلا، فعلا"، قالتها بعصبية، وهى تحدق فى الشارع أمامها.

"أعتقد أن الاستعدادات قد اكتملت"، استمر فى استخدام صوته الحنون الذى يستخدمه عندما يتخاطب مع الأطفال والسيدات العصبيات "سوف يكون هناك تجمع عظيم من الناس إذا استمر الطقس هكذا. هناك عدد كبير من الناس يتدفقون من كل أنحاء القطر، قيل لى إنهم ينامون فى أى مكان يجدونه مناسبا، فى الحقول مثلا. هذه المدينة سوف تفخر بنفسها"

"نعم، نعم"، أخذت تنظر حولها كأنما تبحث عن وسيلة تهرب بها "أنا سعيدة لأنك ترجو أن يكون الطقس جيدًا. فعلا أنا سعيدة، واعتقد أنه سوف يكون هكذا. أرجو أن تكون مسز روندر بصحة جيدة"

"فى أحسن حال، أشكرك"، ما الذى يراه موريس فيها؟ وهى ترتدى ملابس ليست من مقاسها، وفستانها الذرى يزحف مع تراب الشارع، وقبعتها الضخمة الثقيلة فوق رأسها، وخصلات شعرها الهاربة المشوشة، وانفها اللامع! استمر فى القول "طبعا سوف تحضرين الحفل الراقص فى قاعة المدينة"، شعر بالراحة لأنهما وصلا إلى قمة الشارع، "سوف يكون أفضل حفل راقص منذ أيام جين أوستن"

"جين أوستن؟"

"حسنا، أقصد زمانها، كما تعلمين، عندما كان الرقص من الأمور الهامة. يجب أن يكون لدينا حفلات راقصة عديدة طالما أن لدينا عددًا كبيرًا من الشبان والشابات الآن"

"نعم، أنا أتفق معك، ابنتى سوف تحضر هذا الحفل الراقص"

"أوه، هل هذا حقا؟ أعتقد أنها سوف تستمتع بوقت جميل، إنها فتاة رائعة، الكل معجب بها"

انتظر، لكن يبدو أنه ليس لديها ما يمكن أن تضيفه،ثم،كما لو أن هناك من يدفعها من الخلف، مدت يدها....

"وداعا يا قس روندر"

قال لها وداعا، راقبها لفترة وهى تسرع الخطى فى الشارع، بينما تجر فستانها وراءها، وقبعتها تصعد وتهبط مع كل خطوة. نظر نحو تمثال ذلك الرجل الواقف بمعطفه وقبعته الطويلة وهو واقف فوق قمة الصرح، وقد غادره الضياء، لونه الآن ليس قرمزيا بل لونه رمادى قاتم. هو، بالتأكيد أيضا، كانت له غرامياته، دماء ودموع، غضب وعذاب من أجل إنسانة أخرى. كم هو صعب للغاية أن يبتعد الإنسان عن هذه الموضوعات، وقيادة حياة مريحة هو من الأمور البالغة الصعوبة.

وهو يتسلق حارة جرين، اندهش لأنه شعر أن الجو حار، أما الأشجار التى تعلقت فوق رأسه، يبدو أنها جمعت لنفسها كل حر النهار، كل مظاهر الطبيعة تضافرت لكى تثير حنقه بالأكثر. ما أن درج فى شارع بودجر، حتى لاحظ أنه فى أسوأ حالاته، مزدحما وكله روائح منفرة، وبه قدر عظيم من الضوضاء.

فى هذا المكان عند التل الأبعد، سمح للغجر أن ينصبوا خيامهم، ومن خلال هذه البوابات، سوف يخترق الفلاحون دفاعات هذه المدينة، وفى الجانب الآخر الأكثر انخفاضا، تقع منطقة سى تاون على ضفاف نهر بول، هناك سوف يتوافد البحارة والصيادون والتجار. شارع بودجر هذا كان يزخر بكل استعدادات أسبوع الاحتفالات القادم. أما الآن فقد تجمع الناس فى الشوارع مستمتعين بالأمسية الصيفية الجميلة، يتصايحون، يضحكون، يتغنون ويتعاركون. كانت إنارة الشارع بنافثات الغاز تعطى هالات تضاد ظلال السماء الصيفية، تأثيراتها تعود بنا إلى الأيام المجيدة للعصور الوسطى، وهذا التأثير تعمق بما ترسمه ظلال الكاتدرائية التى غطت على الألوان الزرقاء الخفيفة.

الآن، وبالرغم من ذلك، لم يكن روندر مشغولا بالتفكير فى المدينة. كان يركز فكره وجهده على المقابلة التى سوف تكون مع فوستر. فقد علم أن فوستر قد زار بالفعل القس ويستون ليعرف رأيه فيما يختص بتعيينه فى موقع بايبس سانت انتونى. فى الواقع، روندر يفهم الرجال أكثر من فهمه للنساء. لقد فهم فوستر جيدا، وعرف مقدار تدينه وطموحاته، وأنها هى كل مصادر دوافعه، لكن كان هناك شيء ما فيه لا يفهمه، ليس فقط أن فوستر لا يحبه - هو يشك من أن فوستر قد أحب إنسانا، ما عدا الأسقف- بل وربما هو نفسه لا يحب ذاته. الآن فإن القاعدة الأولى فى التعصب هى أن تكون منغمسا بكليتك فى الدافع الذى يسيطر عليك بحيث لا يتبقى لك أى قوة لأن تصنع اعتبارا لنفسك خاصة. بالتأكيد فوستر هذا هو واحد من غلاة المتعصبين، لكنه أيضا لا يعطى اعتبارا لنفسه، بل هو يحتقرها، وروندر لا يثق فى شخص يحتقر نفسه، لسبب بسيط هو أنه هو نفسه لا شيء، وهذا لا

يشعره بالراحة عندما يحدث فى مرات أن يتملكه العجب عما إذا كان هو بالفعل ما يظنه فى نفسه؟ هذه اللحظات التى لا تمتد فتراتها طويلا، هو يكرهها بقوة ومرارة، ولا يحبذ أن يجدها عاملة فيمن هم غيره. فوستر هو من المتعصبين، ولن يرى بأسا أن يضع الحمص داخل حذائه ويسير حتى أورشليم، وإذا قرر ذلك، فهو للتو واللحظة سوف يهجر أية مشغوليات كان يركز عليها ليحقق هدفه الأسمى، لكن روندر لا يفكر إطلاقا أن يسير أو حتى يسافر إلى أورشليم.

كان الهدوء يشمل منطقة سكن القسس بالمقارنة بشارع بودجر. الظلام كان سائدا هناك، وليس هناك سوى لمبة واحدة مضاءة، بينما حجارة الرصف غير متساوية الارتفاع، أما الأنوار التى تظهر من خلال النوافذ القديمة، فقد كانت تبدو كأنها شبه سرية ولا تمثل أى نوع من التواصل، بينما ظهرت أبراج الكاتدرائية طويلة للغاية فى ضوء الغسق. لن يحل الظلام كاملا إلا بعد نصف ساعة، لكن هذه المساكن القديمة بنوافذها الصغيرة، كان الضوء الصادر منها متهافتا وضعيفا.

تسلق السلالم المؤدية إلى مسكن فوستر. كالمعتاد، شىء ما جعله يتوقف أمام باب فوستر ويتنصت. لاحظ أن كل الأصوات الصادرة من هذا المبنى القديم تأتى إليه، ليس فقط أصوات البشر وحركاتهم، لكن أيضا صوت البيت القديم ذاته والاحتجاجات التى تصدر من درابزين السلم، همسات الأبواب المتمنعة، تأوهات نوافذ تغلق، كذلك أزيز الجدران المرتعدة.

هذا المنزل سوف ينهار قطعا مع أول عاصفة هوجاء. هذا ما فكر فيه. فجأة دقت أجراس الكاتدرائية معلنة مرور نصف الساعة. كان هذا الصوت يرن داخل المنزل كله. أخيرا ماتت أصوات الأجراس واستأنف المنزل تنفسه المعتاد.

كان فوستر يرمش كأنما هو بومة عجوز. بدون كلمة قاد ضيفه إلى غرفته غير المهندمة. أخلى مقعدا من الأوراق والكتب وأجلسه عليه.

قال روندر "حسنا؟"

كان فوستر فى حالة من الاستثارة الكاملة، لكنه بدا فى نظر روندر عجوزا أكثر مما كان هو حالة الأسبوع الماضى، فهناك دوائر سوداء تحيط بعينيه، وخدوده متهدلة إلى أسفل، شعر رأسه الرمادى غير ممشط ويبدو أنه سوف ينحل كله قريبا- فى مكان، هناك شعر طويل، وفى أخر تظهر دائرة الصلع البيضاء الخالية من الشعر. أما عيناه فهما مشتعلتان بضياء غريب، فيهما تسكن أنوار الحياة الأبدية.

مرة أخرى، قال روندر مستفسرا "حسنا؟"

صاح فوستر "سوف يحضر، نعم سوف يحضر، وما لم أتوقعه هو أن أجده بهذا الحماس الشديد. لقد وافقنى على الفور. بالطبع هو يعلم أنه ليس لدى صفة رسمية، وأنه ليس هناك الكثيرون الذين يوافقونى الرأى، وهو مستعد أن تسير الاتجاهات فى الطريق المعاكس، لكنى أخبرته أنه سوف يكون هناك فرصة ضئيلة لحدوث ذلك إذا تضامنا جميعا. انه لم يسأل أسئلة كثيرة، هو يعلم بكل الظروف هنا، ومنذ رأيته آخر مرة، لاحظت أنه تطور كثيرا إلى الأحسن- أصبح أكثر حكمة، أكثر نظاما، أكثر ثقة بنفسه- وهى أشياء لم أكن.....، توقف ثم استأنف "لا أظن أننى شعرت بالحب تجاه شخص ما، لكن هذا الرجل دخل قلبى من أوسع أبوابه، فهو وارث للحياة الأبدية، وقائد...."

قاطعه روندر "نعم، لكن بالنسبة للتفاصيل، هل تناقشتم فى ذلك؟ هل يعلم مقدار المعارضة بشأنه؟"

لوح فوستر بيديه احتقارا "براندون؟ وماذا يهمنا بشأنه؟ لماذا، حتى فى الأسبوع الذى غادرت فيه، لاحظت أن أسهمه قد انخفضت للغاية. يد الله تعمل ضده، وكل شىء يسير فى الاتجاه الخاطئ بالنسبة له. اننى أكره الخوض فى المسائل الخاصة بالفضائح، لكن هناك همس يدور فى المدينة كلها فيما يختص بزوجته. اننى بالفعل أشعر بالرثاء للرجل، لو لم يكن بهذه الدرجة من الخطورة."

قال روندر بحماس "أنت مخطئ فى هذا يا فوستر، براندون لم ينته بعد، معظم المدينة تقف معه، كذلك معظم مرتادى الكاتدرائية. إنهم يقفون وراء ما يظنون، أو ما لا يظنون أنه - الأفكار العتيقة، الأصولية، العقائد التأسيسية التى تستطيع أن تضع يدك عليها، الموسيقى الرديئة، التقاليد البالية، التشاؤم والإهمال. ليس براندون هو من نقف ضده، هى القيم التى يمثلها.

وقف فوستر والتفت نحو روندر "أرجو أن تغفر لى، إذا عبرت عما يعتمل داخل نفسى. اننى رجل اكبر منك سنا، وفى كل الأحوال أنا دائما ما أعبر عما أفكر فيه، وهذا ما تعلمه عنى. لقد أخطأت يا روندر عندما سمحت لمعركتك مع براندون أن تكون من الشئون العامة فى بلدنا هذه"

انطلق روندر غاضبا "تقول سمحت! كما لو أنه لم يكن هذا ما حاولت قدر جهدى أن أمنعه، لكن هذا المغفل انطلق وأخذ يذيع على الملأ كل أحزانه. أعتقد أنك سمعت عن الخناقة التى حدثت بيننا ونحن قادمان من كاربلدون، بل وكل المدينة علمت بها. لم يكن هناك منظر أسخف منه. لقد توقف فى منتصف الطريق وأخذ يصيح كالمجانين، أنا متأكد أنه جن بالفعل! كنت هادئا معه إلى أقصى حد، لكن من الصعوبة بمكان التعامل مع هذا الشخص، غروره وعناده لا يطاقان"

ليس هناك ما يثير المرء فى فوستر أكثر من عجزه على الاستماع إلى الاعتذارات، فهو دائما ما يزيحها جانبا كأنما هى لا تستحق الاهتمام.

"لم يكن واجبا أن تجعلها مسألة شخصية، فالناس سوف يتحيزون سواء معك أو عليك، وهذا ما هو حادث الآن فعلا. لم يكن واجبا أن يحدث هذا بينكما"

قال روندر غاضبا "أخبرك أن هذا لم يحدث إطلاقا! "، ثم بمجهود خرافى استطاع أن يتمالك نفسه، فقال مبتسما "إننى لا أعلم ما الذى جرى لى مؤخرا. كنت دائما ما أفتخر بأننى من النوع الذى لا يشترك أبدا فى منازعات. على أية حال، لن

أتخانق معك. أنا متأكد انك على صواب. شيء مؤسفٍ أن تتحول الاختلافات لتصبح شخصية. سوف أنظر فيما يجب أن أفعله"

لكن فوستر لا يهتم كثيرا لا بالاعتذارات أو التبريرات:

"كانت تلك غلطة كبرى، وهناك لك أيضا أخطاء أخرى. أنت لك طموحات شخصية يا روندر. نحن جميعا نعمل لتحقيق مجد الله ولا نهتم أبدا بمصالحنا الشخصية"

ابتسم روندر "أنت قاس على. لكن فكر كما تشاء. لا أعتقد أن لدى طموحات شخصية، كل ما فى الأمر هو أنه من الصعوبةَ بمكان أن يضع الإنسان كل جهوده لمناصرة قضية معينة، ثم لا يبدو ذلك كأنه يخدم أهدافه الشخصية. أنا أحب السلطة، ومن لا يحبها؟ لكنى على استعداد بالتضحية بكل نجاح شخصى فى مقابل الانتصار فى المعركة الرئيسية"

صاح فوستر "ننتصر! ننتصر. بالطبع يجب أن ننتصر! ولن تتاح هذه الفرصة مرة أخرى أمامنا أبدا! إذا فاز علينا براندون هذه المرة، إذا فسوف تتأجل المعركة ليحقق الانتصار فيها جيل آخر، وهو الذى يتحقق على يد رجل مثل ويستون إذا أتى إلى هنا! سوف يظهر القوة كما يجب أن تكون!

فجأة طرأ على ذهن روندر للمرةَ الأولى الخاطر الذى سوف يطارده كثيرا فى المستقبل، هل من الحكمة أن يعمل لحضور شخص ربما يمثل تهديدا لقوته هو؟ لكنه استبعد هذه الفكرة من رأسه، انه سوف يتعامل مع ذلك عندما يحين وقته. فى الوقت الحالى، يكفى تواجد براندون...

قال روندر " والآن إلى التفاصيل...

جلس على المائدة المزدحمة بالأوراق، بقيا هكذا لمدة ساعة ونصف، وربما يندهش الملاحظ عندما يتعمق فى هذا المسالة، ويدرك أن روندر هو الذى له القول الفصل. أما فوستر فقد خبا الضياء من عينيه، وتبع روندر كأنما هو الأعمى، يوافق عل كل اقتراحاته، متعجبا من هذا الوضوح والنظام الذى يصاحب خططه. منذ ساعة ماضية، وقد ارتدى ملابسه الوطنية، كان لا يخشى إنسانا على الأرض، يشعر نحو روندر بمشاعر نصفها احتقار ونصفها الآخر شك وارتياب. أما الآن، فهو أسير بين يدى الآخر، حيث استطاع أن يدرجه داخل حدود عالم لم يكتسب حقا فى أن يشاهده أو يراه.

دقت ساعة الكاتدرائية معلنة التاسعة مساء. قام روندر مستبعدا أوراقه وهو يتنهد تنهد الارتياح والرضى، هو يعلم أن عمله هو الكمال فى حد ذاته.

"أعتقد أننا لم ننس شيئا. سوف يجد بنتك-ميجور نفسه مأسورا قبلما يدرى عن الأمور شيئا، وهكذا رايل. دعنا ننفذ هذا الخطة الأسبوع القادم وسوف نكسب معركتنا بالتأكيد"

"نعم، نعم، تصبح على خير" وكاد أن يدفع روندر خارجا.

فكر روندر وهو يهبط السلالم "لا أظن أن عقله قد أستوعب كل ما قلته"

عند قمة شارع بودجر، توقف قليلا. كان الشارع صامتا، لون السماء فى الأفق أخضر باهت، وقرمزى فوقه. كان الضوء ما زال قويا، لكن، على اليسار، امتدت الحقول الشاسعة، بينما الغابة على البعد بلونها الأسود. فى الأحراش التى تتواجد قبل الغابة، سمع أصوات معسكر الغجر، نساء تتصايح، جياد تصهل، كلاب تنبح

وبعض الأضواء تلمع هنا وهناك كأنما هى عيون حمراء. كان هناك على البعد أشكال خيام لونها عاجى وخلفها السماء الخضراء، سمع صوت امرأة تغنى يصاحبها أصوات رجال يردون عليها، والأغنية تتصاعد نبراتها عبر الوادى الضيق.

كل همسات عالم غاز كانت تتردد هناك.

***

## الفصل الثانى

# يوم الجمعة، ١٨ يونيو: خيال يقابل خيالا

فى مساء يوم الجمعة هذا، حوالى الساعة السادسة والنصف، ما أن بلغ الأرشدياكون براندون قمة الشارع الرئيسى، حتى رأى الله!

ليس هناك شىء غريب أو عجيب فى هذا الأمر، فهو لديه اعتقاد جازم طوال حياته أن علاقته مع الله هى علاقة وثيقة للغاية، فالله يعلم ويفهم كل رغباته واشتياقاته.

ربما، يمثل هذا المفهوم عن هذه العلاقة الوثيقة التى نمت وترعرعت خلال سنوات طوال من العمل والنجاح، كانت هذه القاعدة هى أساس فخر ورفعة الأرشدياكون. نحن دائما ما نترجم بسهولة كل ما نعرفه عن اعترافنا بفضل الله، وذلك عندما نظهر ونجلو إعجابنا بأنفسنا.

عندما كان هو منهمكا فى العمل الدائب طوال الأعوام الماضية بكل حماس وحمية، كان واعيا هو، بأبسط صورة، أن "الله يسير معه خطوة بخطوة". دائما ما كان يستشعر بدفء وحرارة تشمله شاعرا أن هناك مصاحبة متجددة؛ تجعل الأرشدياكون قادرا على أن يطل من عليائه نحو زملائه الأقل حظا فى الحياة. هو يشعر أنه لا يستحق كل هذه النعم، لكن مع ذلك، هو الذى وقع عليه الاختيار!

فى تلك الأمسية، كان هو فى حاجة ملحة لمن يسرى عنه. لم يحدث فى حياته من قبل أن سارت الأمور معه بهذا القدر من الخشونة، كما فى وقتنا الحالى بدا له ألأمر، منذ ثلاثة أو أربعة شهور فقط، سار بدون أن يعى فى خضم أحراش قطر جديد مرعب ومخيف.

هناك خاصية بعد أخرى بدأت فى التبدل، ووجوه مألوفة اتخذت لنفسها أشكالا غير مألوفة. كل خطوة يخطوها الآن يحيط بها الخطر الداهم، وسوء حظ يتلوه آخر متعلقا بأذياله، كانت تلك فى مراحلها الأولى خفيفة بل ومضحكة، ثم أتى بعد ذلك موضوع هروب فولك، لذا تحولت الأخطار واتخذت لنفسها صيغة جديدة محيرة، نعم محيرة! إنها الكلمة المناسبة لوصف حالته! أصبح كأنما هو رجل يتَحرك داخل حدود أرض مألوفة لديه، لكن الضباب الكثيف يلفها بعباءته فيغطيها ويخفى تماما معالمها، وعندما يفحصها بدقة وتأنى، يكتشف أنه لم يرتكب أبدا خطأ، يمكن أن يعاقب عليه.

إنه لم يتغير أبدا، لكن وجه المدينة هو الذى تغير. هجره الابن، وحتى زوجته منذ عشرين عاما تغيرت هى أيضا.

إذن ليس غريبا أن ينسب كل هذا الحظ السيء إلى العنصر الجديد الذى برز فجأة فى حياته خلال هذه الشهور الماضية، وهو الإنسان الوحيد الذى تم الإعلان عنه بأنه العدو الخصم، فهذا الشخص، فى الطريق العام، وبطريقة مفضوحة، أمام شهود، أهانه وشتمه. ذاك الرجل الذى ما أن وطأت قدماه أرض بولشستر حتى ما فتئ يضحك عليه ويسخر منه.

نعم هو روندر! روندر! هذا الاسم لا يغادر مخه أبدا، يرقد هناك يتحرك ويتلون حتى فى أحلامه، يضحك ويسخر حتى والأرشدياكون فى قلب صلواته الخاصة.

فى الحقيقة، هو فى أشد الحاجة إلى معونة الله هذه الأمسية بالذات، وهنا، فى قمة الشارع، شاهده، رآه متجليا، متشكلا فى كل الألوان يزهو تحت هالات تلك الأمسية الصيفية، يملأه بالدفء والطمأنينة، يمده بدفق من الشجاعة الجديدة، يحيط به ويحوط عليه فى حب وحنان.

ربما ينطق المتشككون يقولون إن الأرشدياكون لم يعد صغيرا فى السن، وقد أجهده تسلق الشارع الرئيسى المتدرج الارتفاع، وإنه وقف ليلتقط أنفاسه قبلما يمر ليصل إلى منطقة الملحقات، بينما الأضواء تتراقص أمام عينيه، كما يحدث لأى فرد يكون قاطع الأنفاس، بينما الأرض تدور به قليلا تحت ضغط دقات قلبه المزعجة، بينما كل ضوضاء المدينة تلعب فى أذنيه.

ربما هذا ما ينطق به المتشككوين وبراندون يعلم ذلك؛ فخبراته كانت وفيرة فى الماضى، وحتى الآن، لأن يصنع أو يرتكب أى خطأ.

كان الشارع كله مزينا بالأعلام استعدادا للحدث العظيم، وبين محلين، علق علما كبيرا من الحرير الأصفر كتب عليه بحروف حمراء كبيرة "ستون عامًا لحكم ملكتنا المحبوبة، باركها الله!"

بجوار الأرشدياكون؛ فوق باب المكتبة، ذاك الذى دخله يوما هاربا، كان معلقا علما أحمر وابيض وازرق، مكتوب عليه "بارك الله فى ملكتنا، نرجو لها العمر الطويل"

على طول الشارع، علقت الأعلام والرايات المختلفة الأشكال، ترفرف فى هواء الصيف المنعش، كأنما هى تتساءل عما إذا كان الناس يفضلون هواء أكثر دفئا.

لا يشعر الناس أن الجو دافئا. الكل فى الخارج يروحون ويذهبون، يضحكون، يزمرون، يتسامرون، وقد ارتدوا أفضل ثيابهم، بالرغم أن اليوم هو يوم الجمعة وليس الأحد. كانت المحلات تقفل أبوابها واحدا تلو الآخر، والجماهير تتزايد أعدادها، وترى جملة من الرجال والنساء وقد تشابكت أيديهم، أربعة منهم على الأقل، يسيرون هكذا فى وسط الشارع. فى الحقيقة، لقد مر وقت طويل- منذ عشر سنوات- أن شاهدت بولشستر مثل هذا الفرح والمرح.

كل هذا كان يحدث خلف الأرشدياكون، أما أمامه فهناك القنطرة حيث تنمو حشائش ميدان الكاتدرائية التى تبدو كأنها مرآة تعكس ضوء المساء، حيث يختلط اللون الأزرق الخفيف مع اللون الأبيض اللؤلؤى يتخللها ظلال من لون أخضر.

كان السلام شاملا، لا شيء يتحرك. هناك عبر هذه القنطرة خيل إليه أن الله فى انتظاره ليحيى خادمه الأمين بالابتسام والترحاب.

حاول براندون، كما يحدث معه كثيرا، أن يقترب أكثر من هذا المنظر، لكن تلك الرؤيا اختفت فجأة، يبدو أنها استمرت، فى هذه المناسبة بالذات، أقصر من أى وقت من قبل.

أحنى رأسه، وقف للحظات تحت القنطرة يتلو صلاة بسيطة كأنما هو طفل صغير يتقدم بطلباته وهو واقف عند ركبتى والدته، ثم، وفى تغيير مدهش يمكن التعبير عن طبيعته المعقدة بأنه نوع من الرياء، لكن بالنسبة له هو الإخلاص بعينه، لذا تحول فى لحظة إلى ذلك القس الغاضب الدنيوى، الذى يتصارع مع أعدائه، يدافع عن نفسه، لأنهم يرغبون أن يتخلصوا منه.

مع ذلك، فإن التحول هذه الليلة لم يكن كاملا كالمعتاد. لم يكن سعيدا، يشعر بوحدة قاتلة. بدون وعى منه كان يشعر بالخوف يمسك بتلابيبه، خائفًا من ماذا، هو لا يعلم، كما يحدث للطفل عندما تنطفئ شمعته. وبحالته التعسة تلك، اشتاق أن يعود إلى منزله. هروب فولك جعله للمرة الأولى منذ زواجه يفكر بجدية فى زوجته. إنها كانت مغرمة بفولك وبالطبع تشعر بالوحدة من دونه. خلال تلك الأسابيع الماضية، كان يتلمس بطريقة عرجاء أن يظهر نحوها قدرًا من المشاركة والتعاطف الذى يشعر به.

لكن هذه المشاعر لا ترد إليه بسهولة بعد سنوات طوال من عدم الاستخدام؛ فهو دائما ما يشعر بالارتباك وعدم الارتياح عندما يود أن يعبر عن حبه لآخر.

أيضا، هو يخاف منها، كان يخشى أنه إذا أظهر عطفا كبيرا نحوها، حينئذ تتحول لتصبح عاطفية، ثم تلقى بذراعيها حوله وتمطره بالقبلات.. شيء من هذا القبيل.

ثم مؤخرا، لاحظ أنها تغيرت؛ منذ يوم الأحد هذا الذى فيه رفضت أن تذهب معه إلى الكنيسة - شيء غريب فعلا! النساء عموما يتصفن بالغرابة! مختلفات تماما عن الرجال، كما يشبه الاختلاف ما بين الانجليز والفرنسيين.

لكنه يرغب الليلة أن يتقرب إليها. بشكل غامض، بعيدا عن قلب أعماقه، كان هناك شيء ينهض يخبره أن هناك خطأ ما قد ارتكبه كل هذه السنوات السابقة التى بعدت فيها عنه. لذا يجب أن يجذبها إليه مرة أخرى! وهذا أمر سهل للغاية، فمن الوجهة التحليلية للأرشدياكون، هو يؤمن أنك بمجرد أن تصفر بشفتيك حتى تجد المرأة وقد أسرعت بالقدوم نحوك متعجلة.

لكن هو فى هذه الليلة بالذات اشتاق أن يجد من يبعث فى قلبه الطمأنينة، أن يعثر على من يخبره بأن كل الأمور تسير فى طريقها المعتاد وأن كل المتاعب التى تزاحمت حوله هى خيالية ولا وجود لها فى الحقيقة.

عندما وصل منزله، وجد أنه ليس لديه سوى وقت قليل لكى يرتدى ثيابه استعدادا للعشاء. لذا طار إلى أعلى، ثم، عندما أغلق بابه ووجد نفسه داخل غرفة نومه، اضطر أن يتوقف قليلا، واضعا يده على قلبه. لمَ يدق قلبه بهذا العنف! كأنما هو حيوان مفترس يود أن يتحرر من قفصه. أيضا كانت ركبتاه ترتعشان، فعلى كل حال هو لم يعد ذلك الشاب.

هذه الشهور التى مضت، كانت مليئة بالمتاعب التى نزلت عليه كالصاعقة، ويا لها من أيام كلها خزى وعار! كان سعيدا لعدم وجود أحد هنا ليشاهده. هو الآن فى الحاجة إلى كل طاقته لينتصر فى المعركة القادمة. نعم، هو سعيد بالفعل لأن لا أحد يراه الآن. سوف يطلب من الدكتور باديفوت أن يفحصه، بالرغم أن الرجل عبارة عن حمار كبير. شرب كوب من الماء، ثم ببطء أخذ يرتدى ملابسه.

هبط إلى الدور الأرضى ودخل غرفة مكتبه. زوجته كانت هناك، واقفة بجوار النافذة تحدق فى منطقة الملحقات. تحرك بخفة نحوها، ثم بلطف وضع يده على كتفها. هى لم تسمع باقترابه منها، التفتت ثم ندت منها صرخةَ رعب حادة، واجهته وهى تحملق فيه، عيناها ممتلئان خوفا. هو، من جانبه، فوجئ بما حدث معها، لذا بادلها التحديق، شاعرا بالخوف والإحراج بسبب انزعاجها هذا.

صدر منها بعض العبارات المتقطعة "ماذا... من...؟ لم يكن واجبا أن تفعل معى ذلك، بعثت الرعب فى قلبى"

كان صوتها ملئ الغضب، وطوال فترة زواجهما، لم يشعر من قبل أنها غريبة عنه بهذا الشكل. شعر أنه قد دنا إلى امرأة مجهولة فى الشارع، وإنها هى التى هاجمته بسبب اهتمامه بها. فى الحال انكمش داخل قوقعته كما كان يفعل دائما عندما يشعر بالارتباك.

"يبدو يا عزيزتى أنك ظننت أنى لص دخل عليك... أليس كذلك؟ إننى اندهش من هذا الذعر الذى انتابك"

كانت ما زالت تحدق فيه بقوة، كأنما لم تتعرف حتى الآن على شخصه. يداها كانت مقبوضتين، أنفاسهما تتردد سريعا كما لو كانت فى سباق للعدو.

"لا.... لم يكن واجبا... شىء سخيف... تحضر بهذا الشكل"

"حسنا، حسنا "، قالها مغيظا " لمَ العشاء ليست جاهزا حتى الآن؟ لقد مرت عشر دقائق عن موعده المعتاد"، قال ذلك وهو منتفخ الأوداج.

عبرت هى الغرفة، بدون أن ترد عليه. فجأة هجرته حالةَ الفخار إلى تلبسته. تحرك نحوها، ثم وقف أمامها كأنما هوتلميذ بليد ينظر نحوها مبتسما ابتسامة قلقة:

"الحقيقة يا عزيزتى، لا أتخيل أن أدخل غرفة بدون أن يشعر بى أحد، طبعا لا يمكن"، ثم أضاف صاخبا "أخبرى أى أحد أننى عبرت الغرفة وأنت لا تسمعينه، سوف لن يصدقك".

انحنى ثم قبلها، لمسته تلك دغدغت خدها، لكنها لم تتحرك من مكانها. شعر وهو يضع يده على كتفها أنها ترتعد.

"يبدو لى أن أعصابك ليست على ما يرام، غريب أنك ما زلت ترتعدين! لماذا لا تدعين باديفوت يفحصك؟"

"لا، لا"، أجابت سريعا "شىء سخيف منى...". بمجهود خرافى استطاعت أخيرا أن تبتسم له.

"حسنا، ما هى أحوالك الآن؟"

"أحوالى؟"

"نعم، بالنسبة للاستعداد لقدوم اليوم العظيم. هل كل شىء تم الاستعداد له كما يجب؟"

بدأ بعد ذلك يخبرها، بطريقته المملة المعتادة، كل تفصيلات الأحداث التى عهدها خلال الساعات القليلة الماضية.

"ما إن بلغت محلات "شاربل"، حتى تذكرت أننى لم أخبر "نكسون" عن المقاعد الإضافية التى سوف نرصها فى خلفية صحن الكاتدرائية، لذا اضطررت أن أعود....

دخلت جوان. لقد أصبحت حاجته ملحة هذه الليلة لمن يسانده ويقف معه، فهو لم يجد دعما من زوجته التى التفتت على الفور إلى ابنتها. فكر هو، يا لها من فتاة جميلة، وهى قادمة هكذا عبر الغرفة المضاءة بذهب المساء العميق الذى شع على شكل شرائط من الضوء اخترقت الظلال المعتمة والأركان.

فجأة، تبدت تلك اللحظة كأنما هى خلاصة ذلك التقارب الذى حدث بينهما خلال الستة شهور السابقة، لكن عندما اقتربت منه، وهو كثيرا ما تفوته الملاحظة، أدرك أن ابنته أيضا تعانى من شىء ما.

كانت تبتسم، لكن ابتسامة ينقصها قدر كبير من السعادة، فجأة شعر أنه قد أهملها كثيرا وتركها تحارب معاركها بمفردها. هى ترغب فى حبه وعطفه عليها، كما هو يرغب فى ذلك أيضا. وضع ذراعيه حولها وجذبها إليه. هذه الحركة لم تكن معتادة فيه وغير متوقعة إطلاقا، لدرجة أنها ترددت قليلا، ثم وهى تنضح بالسعادة اقتربت منه وأسندت رأسها على كتفه. هما الاثنان، للحظات، نسيا تماما مسز براندون.

سأل جوان "أتشعرين بالتعب؟"

"نعم، لقد كنت أعمل فى حياكة هذه الأعلام الغبية طوال فترة ما بعد الظهر، واثنان منهما لم يكتملا بعد. لذا علينا أن نذهب مرة أخرى صباح الغد"

"هل كل شىء جاهز للحفل الراقص؟"

"نعم، فستانى رائع. أه، يا أمى. قالت لى مسز سامبثون ما إذا كان ممكنا أن يجلس اثنان من أقاربها على أريكتنا فى الكاتدرائية صباح يوم الأحد القادم؟ إنها لم تعلم أنهما قادمان وهى محتارة لذلك. وسوف أخبرها غدا ما إذا كان هذا فى إمكانها أم لا"

كلاهما التفت ناحية مسز براندون، التى انسحبت وجلست بجوار النافذة تحدق فى الكاتدرائية التى تقع الآن داخل الظلال السوداء. أجابت:

"نعم يا عزيزتى، سوف يكون هناك مكان اضافى متاح، فليس هناك سواى أنا وأنت..."

كان فى جيب فستان جوان خطاب، وأثناء توجههم لتناول وجبة العشاء، كان فى استطاعتها أن تشعر بالخطاب وهو يحدث صوتا وهى تتحسسه، إنه خطاب من فولك، وفيه ما يلى:

**عزيزتى جوان- لقد كتبت لوالدى، لكنه لم يرد على. هل يمكن أن تبحثى ما الذى فكر فيه بشأن خطابى هذا، وما الذى ينتوى أن يفعله؟ لا أستطيع سوى أن أعبر لك أنت اننى بالفعل اشتاق له بقوة ومستعد أن أضحى بأى شىء لكى أراه ولو لخمس دقائق. أؤمن أنه لو رآنى فإننى سوف أكتسبه لصفى فى الحال، وإلا أصابنى الحزن الدائم إذا حدث العكس. لقد تزوجت ونحن نعيش الآن فى غرفتين صغيرتين بعيدا عن شارع بيكر. أنت طبعا لا تعلمين شيئا عن لندن، لكن أخبرك أن مسكننا جميل وهو قريب من المنتزه وبجواره عدد من المحلات التى تبيع لوازم رخيصة. السيدة التى نستأجر منها الغرف هى سيدة طيبة، ولدى الآن عمل يكفى إبعاد الذئاب عن عتبة الباب. اننى أعلم الآن أكثر من أى وقت مضى أننى فعلت ما هو صواب، وسوف يدرك والدى ذلك فى يوم من الأيام. كيف حاله؟ بالطبع رحيلى بهذا الشكل قد صدمه، لكن هذا كان هو السبيل الوحيد المتاح أمامى. عندما تكتبين لى، أرجو أن تبلغينى عن أخبار صحته. إنه لم يكن أبدا فى حالته العادية قبل أن ارحل مباشرة. الآن، يا جوان، أكتبى وأخبرينى عن كل شىء، ومن ضمن ذلك أن والدى مشغول تماما بعمله لدرجة أنه ليس لديه الوقت الكافى لكى يفكر فى...**

**أخوك المحب: فولك**

هذا الخطاب الذى وصل هذا الصباح، أعطى لجوان فرصة لأن تستغرق فى تفكير عميق. لقد أثر فيها هذا الخطاب بشدة. حتى هذه اللحظة، لم يظهر فولك أبدا أنه كان يفكر فيها إطلاقا، أما الآن فهو يعتمد عليها ويرغب فى مساعدتها. فى نفس الوقت، لم يكن متاحا لها أى سبيل لأن تعلم ما هى اتجاهات وميول والدها، فاسم فولك لم يعد يذكر فى هذا المنزل منذ عدة أسابيع ماضية، و، بالرغم أنها على علم بأن هناك علاقة وثيقة بدأت فى النمو بينها وبين والدها، لكنها ما زالت تشعر بالخجل منه وأن هناك حاجزًا ضخمًا يفصلهما عن بعض. هى، أيضا، كان لها متاعبها الخاصة، وقد حاولت قدر جهدها أن تنسى متاعبها، لكن هذه كانت تظهر وتلوح مرة ومرات، تواجهها وتطالبها أن تجيب عنها.

الآن هى وضعت متاعبها جانبا وركزت كل جهودها على والدها.

أثناء مراقبتها له أثناء العشاء، شعر فجأة أنه قد كبر فى السن؛ استقر فى ذهنها الآن شعلة منيرة كما لو أنها قد تحققت أنه بالفعل هو فى حاجة ماسة لها. على كل حال، إذا كان مصيرها فى الحياة أن تعيش عانسا- هذا، فى تلك اللحظة الدرامية من حياتها الشبابية، بدا كأنه هو المصير الحتمى- لكن هناك، أمام عينيها، من تستطيع أن ترعاه وتحنو عليه.

شعرت قبلما تهبط للعشاء أنها قد أصبحت عجوزا وشكلها قبيح وغير جذابة إطلاقا. عبر مائدة العشاء، استبعدت إلى الأبد، كما تخيلت، كل الأمل فى التعلق بأذيال الجمال والجاذبية، هى سوف تقتصر على أن تحب والدها وهو يحبها، وكل رجل آخر، فليختف من أمام وجهها. لكن هى لو علمت حقا، إذا لأدركت أنها كانت فى قمة الجمال هذه الليلة. هناك شىء آخر لم تدركه، هو أن أمها قد التقطت لها صورة تحت ضوء الشموع، كانت تشعر بالصدمة، بل وبتعبير آخر، تعانى من الغيرة المؤلمة، فالأم وهى تسعى وراء آخر ظلال الحب، كانت تشعر أنها عجوز منهكة، وأن رمية المقامرة قد تحدد مصيرها حتى قبل أن ترمى بالزهر.

بعد العشاء، "انجعص" براندون داخل أعمق مقعد فى غرفة مكتبه ودفن نفسه فى تصفح جريدة "التايمز" التى صدرت بالأمس. قرأ قليلا، لكن الكلمات لا تعنى له شيئا، كله عن الاحتفال باليوبيل! الاحتفال باليوبيل!. لقد تعب من هذه الكلمة. بالتأكيد هم يبالغون فى هذا الموضوع، وما أن يحل اليوم العظيم، فإن كل إنسان سوف يشعر أنه فى حالة من التعب لدرجة...

وضع هذه الجريدة جانبا، ثم التقط جريدة "بنش"، هنا أيضا، نفس الكلمات- "كيف تستطيع الاستمتاع بمشاهدة مراسم الاحتفال" بقلم صحفى ما تخيل الموقف، بالطبع يجب أن تخرج مبكرا لأن حركة المواصلات.....

نكتة - جنك: لم أعد أقابلك هنا كثيرا يا بلنك، لماذا؟

بلنك: حسنا، لا. اننى لم أحجز لوج لى فى دار الأوبرا هذا العام، أجرت بدلا منه نافذة أستطيع منها أن أشاهد احتفالات اليوبيل.

كل الجريدة كانت مليئة بأخبار وتعليقات خاصة باحتفالات اليوبيل.

سقطت هذه الجريدة أيضا من يده. خلال الأيام السابقة لم يكن لديه وقت لتصفح الجرائد، وقد تصور، كما حدث مع أى مواطن بولشسترى، أن هذا الاحتفال هو خاص بتلك المدينة. شعر فجأة أن مدينته تلك ليس لها شأن يذكر، ولا يوجد أى إنسان فى العالم يهتم ما إذا كانت سوف تشارك فى الاحتفال أم لا، لا أحد....

قام من مكانه وذهب إلى النافذة، جذب الستائر جانبا وأخذ ينظر نحو أضواء الغسق الوردى، ذلك الذى صبغ الهواء بلون خمرى. دقت الساعة معلنة التاسعة إلا ربع.

فى السماء، كان يلمع نجمان صغيران، لهما عينان ساخرتان، يغمزان له فوق البرج الغربى. بهاجس فجائى وقطعى لا يدرى منشأه، أسرع نحو الصالة، وجد قبعته وعصاه، فتح الباب الخارجى بهدوء، كأنما يخشى أن يوقفه أحد، حالا

وجد نفسه يسير فوق الأعشاب التى تمتد أمام ميدان الكاتدرائية، يحدق فيمن حوله كأنما هو هارب من حلم مخيف.

ذهب إلى الباب الصغير، وجد مفتاحه، دخل الكاتدرائية، تاركًا المزرابين يبتسمان وراءه، وقد عادت إليهما الحياة، فبدت ملامح شريرة تتشكل فوق قسماتهما مع كل اختلاف للضوء على وجوههما.

دخل الكاتدرائية، كانت هناك خيالات عديدة تتوهج، كأنما هناك نيران تتقد خلف الأعمدة الكثيفة. وهو يسير كان يخبط فى المقاعد التى تكومت فى الهيكل الجانبى، وبالرغم أنه كان معتادا على المكان، لكنه كان يشعر بنوع غريب من الاستثارة هذه الليلة. خلال كل هذا الصمت الشامل، شعر أن هناك حياة تتحرك، بدا له الأمر تماثيل الفرسان ذو الدروع، السيدات ذوات الصدور، عدد من أشكال كيوبيد بخدودهم المنتفخة وأفواههم المطبقة، الملائكة بأجنحتهم الصلدة، جميعهم يراقبونه. وبالرغم أن الوقت كان متأخرا، لكن كان هناك ضوء يشع من النافذة الشرقية الكبرى، يسقط على شكل شرائح من اللون القرمزى والأخضر. كل شىء أمامه غير محدد. شعر أن هذا المكان ملزم بأن يبادله الحب والوداد، فكل اشتياقات روحه وحياته هى هاهنا. لقد عرف الليلة، كما لم يعرف من قبل، تلك الحياة التى يعيش ويحس بها هذا المكان. أثناء بقائه هنا، بلا حراك وسط الصحن، راودته بعض الشكوك، فربما وبعد كل شىء، هو وذلك المكان، كانا قد أقسما على التوحد والإخلاص بعضهما لبعض، لكن إذا سحب منه هذا، فما الذى سوف يتبقى له؟ لقد هجره ابنه، أما زوجته وابنته، فهو يشعر أنهما من الغرباء، وإذا هجرواه هما أيضا، إذن....

هذا الشعور الضاغط من الوحدة كان أكثر من احتماله، أحس أن كل هذه الأجساد العارية والعيون التى لا تبصر، تحملق فيه بنظرات كلها دهاء واحتقار وسخرية. إنه لم يعهد مثل هذا الشعور من قبل، وتعجب ما إذا كانت مصائب الشهور الماضية قد أثرت بالفعل فى عقله.

إنه لم يشك لحظة خلال العشرة أعوام السابقة فى مدى قوته وتحكمه فى كل ما هو أمامه، ومن جهتهم، لم يكن يتلقى منهم سوى العرفان بالجميل والشكر الجزيل؛ لكن الآن، فى ذلك الهواء البارد والأشكال التى تراءت أمامه بلون أخضر قاتم، بدا عليها جميعا أنها لم تعد تهتم به أو له.

بتؤدة وحذر، صعد إلى مكان الخورس وجلس على مقعده العالى الذى اعتاد الجلوس عليه، كل ما استطاع أن يتحقق منه- وقد سيطرت عليه قوى لا يدرك كنهها- هو تابوت الأسقف الأسود، وقد تحول لون الحجر الأزرق إلى اللون الأسود، كان الشكل يبدو كأنه قوقعة داخلها شكلا خبيثا. فجأة اختفى الضوء كله؛ انطفأ اللون القرمزى والأخضر الذى كان ينتشر فى كل الصحن، لقد أظلمت النافذة الشرقية، فقط هو الهيكل الأبيض والأشكال الأكثر بياضا فوقه، هى التى تراقصت وألقت شذرات من الضوء فوق اللون الرمادى الثقيل. بينما ينسحب الضوء، بدا الأمر كأن الكاتدرائية تزداد ارتفاعا، حتى شعر براندون أنه ليس سوى شكل ضئيل بالقياس. لاحظ أيضا أن الأعمدة التى انتصبت صاعدة من الأرضية قد ارتفعت إلى مسافات لانهائية. فجأة أحس بالبرد يلفحه، وراعه نوع من الخوف لم يعهده فى نفسه من قبل. شعر كأنما هناك عيون تراقبه، لذا تدحرج من مكانه وأسرع جريا يكاد أن يقع قاصدا الباب. خيل إليه أن هناك من يقلد صوت خطواته، بل وكان هناك همس يدور خلفه، وأشكال متعددة خلف الأعمدة تلوح له وهو يخرج. بدا الأمر كأنما هو يطرد طردا.

وهو فى الخارج، وسط هواء المساء، عاد إلى عالمه مرة أخرى. راودته مشاعر قوية أن يعود مرة أخرى إلى داخل الكاتدرائية لكى يطرد تلك المخاوف والخيالات التى ساورته، لكى لا تطارده فيما بعد وتتشبث فى وجدانه. وجد نفسه يسير سالكا الطريق الضيق الذى يؤدى إلى شاطئ النهر، خلفه كانت الكاتدرائية، على يمينه شارع بودجر وساحة مساكن القسس، أمامه ذلك التل وبعده النهر، وفى نهاية المطاف، يرى على البعد خيام الغجر وأضواؤها تلمع وتبرق. هنا كان الهواء

منعشا باردا ورقيقا، نظر إلى أعلى، فشاهد ملايين النجوم تزحم المساء. بالرغم من هذه المناظر الرائعة، لكن شعور الانقباض لم يفارقه، أيضا ازدادت مشاعره بالوحدة. كان يشتاق إلى صحبة ابنه فولك، كان يزجر نفسه لأنه لم يصمد أمام ابنه بما فيه الكفاية، لكن حتى مع نشوب معركة حامية، فإن هذه أيضا ما كان قد غير شيئا فيما حدث. فولك لم يعد فى حاجة إليه، الآن هو لديه حياة جديدة، أصدقاء جدد وعمل جديد.

فكر براندون "المشكلة هى تنحصر فى أعصابى، يجب أن أزور الدكتور باديفوت ليفحصنى". شعر فجأة أن هناك شخصًا، أو لعلهم عدد من الأشخاص يتابعونه منذ خروجه من الكاتدرائية. التفت فجأة كأنما هو سوف يواجه شخصا يهم بالهجوم عليه، ومن وجده وراءه لم يكن سوى صامويل هوج.

"مساء الخير يا أرشدياكون"

قال براندون غاضبا "لماذا تتبعنى هكذا؟"

"أتبعك يا أرشدياكون؟"

"نعم، كنت تتبعنى. لقد لاحظت ذلك مؤخرا، إذا كان لديك أى شىء تود الاستفسار عنه، أكتب لى"

"أتبعك! يا الله، لا بالطبع. ما الذى يجعلك تظن أننى أفعل هكذا؟ وهل يحرم على الإنسان أن يتمتع بهذا الجو اللطيف فى تلك الليلة المنعشة بدون أن يتهم بأنه يتبع آخر؟

"أنت تعلم أنك تتعمد مضايقتى"، رفع براندون من قامته، لكن كراهيته لهذا الوجه الباسم بعروقه الوردية وعينيه الجاحظتين، أثرت كثيرا فى أعصابه، لذا وجد يديه تتحرك وتلوح لاشعوريا " كنت تحاول مضايقتى منذ عدة أسابيع خلت. لن

أتحمل هذا أكثر. إذا استمر هذا الوضع أكثر من ذلك، سوف اضطر للجوء إلى البوليس"

بصق هوج فوق الأعشاب، ثم قال وهو يبتسم "الآن، هذا بالفعل شىء غريب. أن يشعر الإنسان بالتعب من عمله ثم يخرج لينعم بنسمات الهواء العليل، يتهم بأنه مصدر ضيق للآخرين؟ الآن يا حضرة الأرشدياكون، هل صادف أنك قد اشتريت هواء هذه المدينة، أنه إذا كان هذا قد حدث بالفعل، فإننى سوف أكون سعيدا لو أعلمت- كذلك الكثيرين سوف يسعدون مثلى؟"

قال براندون وهو يتحرك "حسنا، إذن، إذا لم تذهب وتغادرنى، سأفعل أنا هكذا"

"لا داعى لكل هذه العصبية الشديدة، لا سيما ونحن نعتبر أقرباء بل وإخوة، طالما أن ابنك قد تزوج بالفعل بابنتى"

شعر براندون أنه يهبط، يهبط، يهبط. هو يتحرك الآن فى عالم فيه كل الأشكال مرعبة، غبية وقبيحة، تستطيع أن تدعى عليه، أن تلمسه، ولها الحق أن تتبعه وتصاحبه أيضا.

"انك لن تحصل على أى شىء منى، إنك تضيع وقتك سدى"

"أضيع وقتى؟"، ضحك هوج "أنا أسلى نفسى. أعلمك أننى لا أريد منك شيئا، كل ما أتمناه هو أن نرى بعضنا، نتسامر مع بعض قليلا. اننى معجب بك يا أرشدياكون، كما يجب أن يكون عليه الحال بين الأقرباء، أليس كذلك؟ أحب أن أرى رجلا فخورا مثلك يختلط ويساير واحدا مثلى. هذا بالتأكيد هو صالح لى ولك"

تصاعد غضب براندون- وهو غضب يصعب السيطرة عليه- حتى تركز كل جسده فى قبضتيه. هذا الغضب يصنع فيه ما يشاء، يزلزله ويهده ويتشكل على

هيئة تيار قوى ينبع من قلبه إلى أن يصل حتى دماغه. هو الآن لا يرى أمامه سوى هذا الوجه المتوهج الساخر، وهذه العيون الضيقة....

لكن ساعة هوج لم تحن بعد، فجأة وجده يلمس قبضته مبتسما:

"حسنا، تصبح على خير يا أرشدياكون، سوف نتقابل مرة أخرى"- ثم غادر.

مثلما اشتعل غضبه سريعا، هكذا خمد، تاركا إياه يرتعد ويهتز، بينما هذا الألم الشنيع يمزق رأسه، وقلبه يكاد أن يقفز ويستقر داخل دماغه، يضرب كأنه دقات فوق طبلة، ثم يسقط متثاقلا مكدودا عائدا إلى مكانه الأول. وقف مكانه منتظرا أن يهدأ. لقد تعرض للإهانة بشكل يائس ومخجل. إنه لا يستطيع أن يستمر هنا، عليه أن يرحل من هذا المكان كله. يرحل؟ يساق بعيدا بسبب هذا المتشرد؟ أبدا! أنه سوف يواجههم جميعا، يظهر لهم أنه يفوقهم جميعا وأنه جدير بأن يقف صامدا أمام مؤامراتهم وخستهم.

لكن هدوء وسلام الأمسية وعظمة النجوم، بدأت تدريجيا تغزو قلبه. إنه مخطئ، بل ومخطئ جدا. غروره وفخره بنفسه سوف يدمرانه. بلمحة فجائية، أدرك حاله. لقد اعتمد بالكامل على قوته، وضع نفسه فى صف واحد مع خالقه. فى الحال داهمه فيض من التواضع سيطر على حواسه، لذا أحنى رأسه وانهمك فى تقديم صلوات خاشعة.

بعد فترة، استدار متجها نحو منزله. كانت السماء كلها مرصعة بالنجوم، بينما بدت نيران الغجر على البعد بنور باهت، بين الحين والآخر، كان يصله صوت بعيد يغنى. ما أن بلغ ركن الكاتدرائية مستعدا ليبلغ منطقة الملحقات، وصل إلى أسماعه صوت غريب. وقف مكانه يتسمع. فى البداية لم يستطع تحديد ما كان يسمعه- فجأة استطاع أن يتحقق، فقريب منه كان هناك رجل ينتحب.

هناك شيء فى تعبير حزن هذا الرجل يبدو غير لائق. هذا النحيب كان مؤثرا بينما هو يجاهد أن يسيطر عليه وينهيه.

براندون، وهو يقترب أكثر، شاهد شكل جسم إنسان يسند رأسه داخل انحناء فى ركن الكاتدرائية، كان ظل هذا الرجل منضما على نفسه، كأنما بفعله ذلك هو يود أن يخفى عذابه.

تحرك براندون بكل حذر، لكن خطواته اصطدمت ببعض الأغصان البارزة فأحدث صوتا. توقف النحيب. استدار الشخص.

انه موريس! نظر كلاهما إلى بعض للحظة، تحرك موريس كظل من الظلال واختفى فى غياهب الغسق.

* * *

## الفصل الثالث

# يوم السبت، ١٩ يونيو: الحفل الراقص

كانت جوان فى غرفة نومها تستعد للحفل الراقص. الساعة الآن السادسة والنصف، والحفل لن يبدأ قبل التاسعة والنصف؛ وكان مستر ممفيت، مساعد الحلاق المعطر الذى يعمل فى محل كوافير الشارع الرئيسى قد حضر مبكرا، حيث لديه عدد كبير من رؤوس الآنسات سوف يتعهدها بالتصفيف هذا المساء. جلست جوان أمام المرآة الطويلة، فوطة فوق كتفها، تنظر إلى نفسها وهى فى أوج حالات الانبساط والانشراح.

ربما، ليس لائقا أن تشعر بهذا القدر من السعادة، فهى تشعر فى أعمق أعماق ضميرها أن فعلها هذا خاطئ، مع كل هذه المتاعب التى تجابه بيتها، هوذا فولك قد رحل تتبعه الفضائح، والدها لا تبدو عليه مظاهر السعادة، تصرفات أمها غريبة الشكل، لكن هى تلك الليلة لا تستطيع أن تمنع نفسها، فالإثارة هى الشغل الشاغل لكل أهالى المدينة انتظارا لحلول هذا الأسبوع الرائع، ثم هناك الحفل الراقص، أيضا هى تحتفل بمناسبة حلول أول حفل راقص لها، وتعلم جيدا أنه هو سوف يكون حاضرا هذا الحفل، حتى وهى تعلم أنه يحب واحدة أخرى، إلا أنه من المؤكد سوف يراقصها مرة واحدة على الأقل؛ كل هذه التوقعات كانت أقوى من احتمالها- كانت سعيدة، سعيدة، سعيدة، عيونها ترقص، أطراف أقدامها ترقص، روحها ترقص بفرح غامر. إذا صادف ووقف أحدهم خلفها ونظر فوق كتفها، سوف يشاهد انعكاسا فى تلك المرآة لأجمل مخلوقات العالم. بدت هذه الليلة فى

شكل شابة صغيرة بشعرها الأسود المرفوع إلى أعلى، عيناها مفتوحتان عن آخرهما تعجبا، رقبتها وكتفها أبيضان وفى منتهى البياض والنعومة، خلفها على السرير، يرقد فستانها، وفوق السجادة القديمة هناك زوج من الأحذية من نسيج فضى، فى الحقيقة، هما أفضل ما حصلت عليه حتى الآن، صورتهما كانتا تنعكسان على المرآة كنقطتين من الفضة. بينما تحدق فيهما، ارتفع لون خدودها أكثر من المعتاد. هى لا تستحقهما؛ فى الواقع هى لم تدفع ثمن الحذاء حتى الآن، هو أول شىء طوال حياتها قامت بشرائه على الحساب. كل من أبيها وأمها لا يدريان شيئا بخصوص هذا الحذاء، لكن هى رأته فى نافذة عرض محلات هاريوت ولم تستطع مقاومة فكرة الحصول عليه.

إذا، بالرغم من كل شىء، كان من المقرر أن ترقص معه، وحتى إذا أرسلت للسجن بسبب عدم قدرتها على الوفاء بثمن الحذاء، فهذا لن يهمها إطلاقا. لقد فعلت الشىء الممكن الوحيد.

لذا عندما نظرت فى المرآة وشاهدت تألق شعرها الأسود واللون الأحمر يصبغ خدودها وبياض كتفها وحذائها الفضى، شعرت بأنها فى قمة السعادة- سعادة مختلطة بنشوة يشوبها بعض المخاوف.

أيضا كانت مسز براندون فى غرفة نومها، جالسة على مقعد ظهره منتصب، تحدق أمامها. جلست فى هذا الوضع مسافة طويلة، لا تصدر منها أقل حركة. لعلها كانت ميتة. يداها الرقيقتان، بعروقهما البارزة الزرقاء، كانتا تقبضان بقوة على حجرها، هى كانت تتغذى، تتغذى وهى محمومة، تتغذى بوجد خالص، وهى تقلب وجوه أفكارها فى موريس. سوف تراه هذا المساء، سوف يتحدثان سويا. يرقصان معا، سوف تتشابك أيديهما، لن ينطقا إلا بالقليل؛ سوف يواسيان بعضهما، يبتعدان عن كل بشر، مع ذلك سوف تضمهما تعاسة بائسة.

تعجبت، فهى تماثل ذلك الفار - الذى - وقع - فى المصيدة، عن سر هذه التعاسة. هل هناك سعادة يمكن أن تتحقق لها فى أى مكان آخر؟ هل عليها دائما أن تشتاق أكثر مما يمكن أن تحصل عليه، هل هذه العواطف الجياشة التى دنت منها بالفعل جاءت متأخرة؟ هل هذه هى الحقيقة؟ أليس هذا هو نوعًا غريبًا من الحمى، شبحًا، نوعًا من الهلوسة؟ هل ما تراه أمامها دائما هو موريس؟ ألا ترى أمامها أى إنسان غيره. هل يجب أن تتمسك به ليروى عطشها المحموم؟. عندما ضمته بين ذراعيها، استطاعت أن تسرى عنه وتحنو عليه، لكن إلى متى تستطيع أن تفعل ذلك؟ أليس هو أيضا يشعر بالتعاسة. هل قضى عليهما أن تستمر حالتهما هكذا؟ ألا يثقل ضميره تلك الخطيئة التى ارتكبها، وإنه هو، كما يظن، قد جعلها تخطئ...عند ورود هذه الفكرة على ذهنها، اندفعت من مقعدها وأخذت تجول فى الغرفة، تغمغم بصوت عال "لا، لا. أنا الملومة، هو خطأى أنا وليس هو، سوف أحميه وأرعاه، يجب أن يشعر بالسعادة والسرور.

ثم سقطت فوق السرير ودفنت وجهها بين يديها.

كان براندون فى مكتبة ينهى كتابة بعض من خطاباته، لكن خلف اهتمامه بما يكتب، كان عقله يتحرك كما يفعل الحيوان الذى ينشغل باستطلاع منزل غير مضاء. كان يفكر فى زوجته، وفى نفسه أيضا، حتى وهو يكتب تلك الجملة "...لذلك يبدو لى يا عزيزى رايل، أنه بالنسبة لتحديد بدء الخدمة بالساعة الثامنة، أنه....."، كان ضميره الداخلى يهمس له "كم أنت تفتقد فولك! كم يبدو المنزل خاليا وهو ليس فيه! كنت تظن أنك سوف تواصل حياتك بلا حب، أليس كذلك؟ أو على الأقل، لم تكن واعيا أن هذه الحب يلعب دورا جوهريا فى حياتك. لكن الآن، هوذا الانسان الوحيد الذى أحببته بجماع قلبك اختفى، وها أنت تلاحظ الآن أن الموضوع ليس بهذا القدر من البساطة، فالحب يلزمه من يعمل من أجله، يضحى فى سبيله، يهتم به، يغذيه ويرعاه. أنت الآن فى حاجة لمن تحنو عليه، وها أنت مندهش من

ذلك...نعم، هناك زوجتك- آمى....أنت أيضا للأسف تعتبرها أمرا مفروغا منه، لكنها ما زالت معك، ما زال هناك وقت.

وضع قلمه جانبا، وأخذ يحدق أمامه، كل ما يحتاجانه سويا هو أجازة. هذا هو التفسير الشافى لكل ما يعنيه من صداع، من انفلات أعصاب، من الاستغراق فى مشاكل يصبها عليه واحد مثل روندر.

ما أن ينتهى موضوع بايبس سانت أنتونى، فإنه سوف يأخذ زوجته ويسافران إلى الخارج، كلاهما فقط، هناك يقضيان شهر عسل ثانيًا بعد فوات كل هذه السنوات. اليونان، ايطاليا...من يعلم؟ ربما أيضا يرى فولك فى رحلة العودة وهو يمر على لندن...فولك...

نسى خطاباته، أخذ يحدق أمامه ويخبط بقلمه على المائدة.

سمع خبطا على الباب، دخلت الخادمة تقول "هناك سيدة تود أن تراك يا سيدى، تقول أنه أمر هام، و، قبلما يسأل عن اسمها، حتى فوجئ بدخول هذه السيدة الغرفة ثم تغلق الباب وراءها. غشيته حيرة عمن تكون. كانت ترتدى فستانا قطنيا متغضنا، تحمل فى يدها مظلة لونها وردى، فوق رأسها قبعة كبيرة من القش مزينة بعدد كبير من الورود. آه، نعم! بالطبع! هى مس ملتون، أمينة المكتبة السابقة. كان شكلها مزريا، طالما كرهها، والآن ساوره اندهاش بالغ من الطريقة العجيبة التى اقتحمت به منزله ثم مكتبه!

نظرت نحوه عبر الغرفة بعينيها نصف المغمضتين، قالت:

"أستمحيك عذرا يا أرشدياكون براندون أن أدخل عليك بهذه الطريقة فى وقت غير مناسب، لكن عذرى له أهمية قصوى وأود أن أنقله إليك"

قال متخشبا "أنا آسف للغاية يا مس ملتون، من المستحيل أن أراك الآن مهما كان موضوعك. إذا حددت موعدا كتابة، سوف أرى ما الذى يمكن أن أفعله فى مسألتك"

مع تردد صوته، أغلقت عينيها أكثر "آسف يا أرشدياكون، أنا متأكدة أنك قطعا سوف تستمع ما أود أن أنقله إليك"

رفع رأسه ناظرا نحوها. بصدور هذه الكلمات منها، شعر على الفور أن هناك يدًا خفية قوية تدفعه ليغرق فى مستنقع، فيه سوف يكون رفقاؤه بعض الحيوانات القذرة الزاحفة، أمثال هوج، دافرى ثم هذه الآنسة...

تساءل وكله اشمئزاز "ما الذى تعنين، ما الذى يمكن أن تخبرينى به؟"

ابتسمت، عبرت الغرفة واقتربت منه وهى تضع يدها على حقيبتها السوداء التى علقتها على ذراعها، قالت "لقد احترت كثيرا بخصوص الإجراء السليم الذى يجب أن اتبعه، اننى امرأة أمينة ومخلصة فى عملى يا أرشدياكون، مع ذلك فقد طردت من عملى بواسطة هؤلاء الذين من المفترض أن يعرفوا أكثر من غيرهم. لقد وفدت إلى هذا العالم دونما صدور أى خطأ من جانبى، بينما هناك آخرون يجب أن يخجلوا من أعماق قلوبهم بسبب الطريقة المهينة التى تعرضت لها. مع ذلك، اليوم أنا لا أتحدث عنهم..."، توقفت عن الحديث.

"أرجوك يا مس ملتون، أخبرينى بمشكلتك فى أسرع وقت ممكن، لدى عمل كثير"

"حاضر"، تنفست بقوة واستأنفت " لقد وصل لعلمى بعض المعلومات، وكان من الصعب على أن أقرر ما هو التصرف السليم، بعد تردد، ذهبت إلى القس روندر، الذى أعلم يقينا أنه إنسان عادل"

ما أن سمع اسم روندر، حتى تحركت شفتى الأرشدياكون، لكنه لم ينطق بشيء.

"جعلته يفحص المعلومات التى توصلت إليها، وسألته عما أفعل. بالفعل قدم لى نصيحة هوذا أنا اتبعها الآن"

"هل نصحك أن تحضرى لى؟"

هنا رأت مس ملتون أن النطق بكذبة يمكن أن يخدم أغراضها.

"نعم، نصحنى أن آتى إليك وأن أسلمك هذا الخطاب، وهو بالفعل يخصك"

أخرجت الورقة من شنطتها ولوحت بها أمامه، أضافت بينما عيناها لا تغادران وجه الأرشدياكون "يجب أن أخبرك أن هذا الخطاب قد وصل إلى يدى بالصدفة. لقد كنت فى منزل مستر موريس وتسلمت هذا الخطاب عن طريق الخطأ"

ردد براندون "مستر موريس، ما شأنه فى هذه المسألة؟"

أخذت مس ملتون تدعك قفازيها معا، قالت "لقد كانت مسز براندون صديقة حميمة لمستر موريس منذ فترة طويلة. كل المدينة كانت تتحدث عن هذا الأمر"

فجأة، بدت الساعة تدق معلنة مرور ساعة. لم يحدث تبادل لأى كلمة.

قال براندون بصوت هادئ "أتركى هذا المنزل على الفور، ولا تدخليه بعد ذلك إطلاقا. إذا حدث وأزعجتنى مرة أخرى، إذن سوف يكون للبوليس شأن آخر معك"

قالت هى بنفس الهدوء "قبلما أذهب يا أرشدياكون، عليك أن تقرأ هذا الخطاب. أؤكد لك أننى لم آت إليك لمجرد تبادل الكلمات، فأنا ملزمة كغيرى أن أرضى ضميرى. اننى لا أطلب شيئا فى مقابل هذه المعلومة، بالرغم أن لى حقا كاملا فى ذلك، إذا وضعنا فى الاعتبار الطريقة المهينة التى تعرضت لها فى

طردى من العمل. اننى أعطيك هذا الخطاب ومن حقك أن تدمره فورا، حينئذ سوف يكون ضميرى مستريحا. لكن، إذا لم ترد أن تقرأه- حسنا، إذن هناك آخرون فى المدينة يهمهم أن يطلعوا عليه"

أخذ الخطاب منها، ثم قرأ:

**يا أعز الناس، أرسل لك هذا مع خادمة أنا أئتمنها، أقول لك أننى لا أستطيع أن أحضر إليك الليلة. آسفة جدا ومحبطة أيضا، لكنى سوف أشرح لك كل شيء عندما نتقابل غدا، هذا لكى لا تنتظرنى عندما أتأخر عليك**

كان الخطاب بالفعل بخط زوجته.

"أعز الناس...لا أستطيع أن أحضر الليلة..." انه بخط زوجته! بالتأكيد هو، ورووندر اطلع عليه؟

نظر إلى مس ملتون "هذا ليس خط زوجتى. طبعا تعلمين، كما أرجو ذلك، أنك قد وضعت نفسك فى مأزق حرج بتصرفاتك الرعناء"

"تصرفاتى الرعناء يا أرشدياكون؟ لقد فكرت فى الموضوع كثيرا، لا أعلم إذا كنت قد أخبرتك بأننى تناولت هذا الخطاب من يد خادمتك، وهى كثيرا ما كانت تأتى إلى المكتبة ومعها كتب. وأنا أعرف شكلها تماما"

فكرته الوحيدة الآن هو أن يبذل جهودا تفوق طاقة البشر لكى يسيطر على أعصابه. لكن موجة الغضب بدأت فى عملها المعتاد، أخذت تضغط على جلد جبهته بعنف مهددة أن تفجر دماغه، كل ما تمناه الآن هو أن يقوم من مكانه ثم يطبق فى رقبتها، أيضا اشتاقت يده، بل وبدأت حياة تتحرك فى أصابعه، كأنما تريد أن تتصرف بمفردها وعلى مسئوليتها.

كان واعيا، أيضا، مرة أخرى، أن هناك شركا تنصب حبائله ليقع فيه، هو شرك جهنمى تشترك فيه كل عناصر الطبيعة والناس والأرض، والشمس، والسماء، أيضا كل إنسان فى المدينة، حتى أصغر طفل فيها.

ظهر عليه أنه يرى ما هو خلفه، بعيدا عن مداركه، بنيان إنسان ضخم ينظم ويرتب كل تفاصيل المؤامرة، شخص يماثله، له لحية كثيفة، مشوشة، بلا شكل محدد.... إنهم يحاولون أن يقضوا عليه وهو مشتبك فى حبائل الشرك، لكنه مع ذلك سوف يهرب منها، بكل هدوء وسيطرة على النفس سوف يهرب، ولن يجعل احتدام العواطف أن تكشفه الآن.

لذا، بالرغم من اهتزازه قليلا، فإنه نطق بكل هدوء مرددا:

"هذا ليس هو خط زوجتى، أنت تعلمين عقاب التزوير، لا تقل عن الأشغال الشاقة"

ابتسمت فى وجهه.

"أنا متأكدة يا أرشدياكون أن ما احتاجه هو تحقيق كامل؛ فنوعية هذه الشرور منتشرة كثيرا فى مدينتنا هذه، وعلى المسئولين أن يدركوا ذلك. لقد صنعت ما أعتقد أنه واجبى"

تعلقت عيناها على وجهه، لقد تبين لها الآن، خلال تلك اللحظات بالذات، أن انتصارها قد كمل، وهو ما اشتاقت إلى إتمامه منذ شهور طوال. حركاته كانت هينة، صوته لا يرتفع، لكن وهى تراقب وجهه، أدركت أن العذاب قد وجد له مستقرا فى داخله، كأنما هو ضيف يحل ولا يغادر، ويكون مقره هو وراء عيونه، هذا الضيف سوف يستمر بقاؤه حتى نهاية العمر، لذا شعرت فى الحال بالرضا الكامل.

"لقد قمت بواجبى يا أرشدياكون، الآن أتمنى لك أمسية طيبة"

انحنت قليلا ثم غادرت الغرفة وأغلقت الباب وراءها.

جلس هو محملقا فى الخطاب....

تحركت قاعة الاجتماعات العامة كما لو كانت سفينة تمخر فى بحر الغروب. علق على السقف ثريتان ضخمتان لونهما فضى، هما بمفهوم معين، يعتبرا من أشهر كنوز المدينة. هما يعملان الآن بالغاز. مع ذلك، كانتا مظللتين لدرجة أن الضوء الذى كان يصدر منهما يشع ناعما يانعا. حول القاعة، وتحت صور مشاهير المدينة المزدانة بالبراويز المذهبة، كان الضوء مخبأ تحت حوائل ذهبية. الجدران لونها أبيض عاجى، وفى "رواق العازفين" صفت الأعلام المختلفة التى كانت تتحرك وئيدا، وفى نفس هذا الرواق، كانت الفرقة الموسيقية متجمعة تعزف نفس الألحان التى كان يستمع إليها الأهالى منذ مئة عام. كانت الأرضية اللامعة مغطاة بأشكال متحركة، الكل تجمع هناك، تحت الرواق، جلست الليدى سانت ليث، شعرها أبيض مرفوعا إلى أعلى فوق وجهها الطفولى، وقد ارتسم على ملامحها نظرة مندهشة متعالية، كما يظهر على وجه طائر وقواق الذى يتعجب ما إذا كانت القطعة التى قدمت له، هل هى قطعة من السكر أم هى بعض الإهانات؟! على كل جانب بجوارها، جلست ابنتاها، ليدى روز وليدى مارى، مظهرهما محتشم ولطيف.

قريبا منها، فى صف بشوش يحفل بالمزيد من الثرثرة والابتسامات، جلس أهم أفراد المجتمع. كان هناك أفراد عائلة "ماريوت"، كبير العائلة هو من "مابل دورهام"، سمين، فى الستينيات من عمره، لطيف؛ يجلس بجوارهم الكولونيل ووثرتون، ذاك الذى اشترك فى حرب القرم، ثم سير هنرى بايلز بأنفه الضخم القرمزى؛ بعده الميجور جارنت الضئيل الحجم، وهو أرق عزب فى كل المنطقة؛ عائلة ماركيز الذين يمتلكون قدرا عظيما من النبالة والأصل أكثر مما يمتلكون من

مال؛ مسز سامبثون فى فستان لونه بنفسجى، ما زالت تعانى من بعض النوبات العصبية؛ مسز كمبرمير، مغلفة فى فستان ذهبى جميل؛ مسز رايل، المتواضعة فى رداء من الحرير الرمادى؛ ألين ستايلز فى لون الكريز؛ مسز ترودون، مسز فوريستر، مسز دا-أركى؛ ذقونهن تكاد أن تتلامس وهن يتبادلن أدق أسرار المجتمع؛ دكتور باديفوت، وهو ما زال ينهج بسبب آخر رقصة اشترك فيها؛ بنتك-ميجور وهو يدق بحذائه الجلدى الفاخر على الأرض متماشيا مع الألحان، متمنيا أن يشترك مرة أخرى؛ العمدة برنستون وبجواره مسز برنستون، غير مستريحة لأنها وضعت حول جيدها عقدا كثيفا حافلا باللآلئ، بدت كأنها رقبة كلب أليف؛ القس مارتن؛ دينسون ناظر المدرسة، وآخرون كثيرون.

فى تلك اللحظة بالذات، عزفت الموسيقى رقصة البولكا. كان العزف مدهشا، حتى أن الكل وقف وأخذوا يتمايلون مع النغمات.

لكن أين جوان؟ جوان كانت ترقص مع المحترم ركس فورسايث، وهو المرشح لأن يشغل منصب قس منطقة بايبس سانت أنتونى. إذا كان أحدهم قد أخبرها منذ أسبوع فائت أنها سوف ترقص مع هذا الظريف مستر فورسايث أمام أهم جمع من نبلاء مدينة بولشستر، وأن ترقص دون أن ترتعد، فإنها بالتأكيد كانت قد سخرت منه. لكن ما الذى يمكن أن تفعله الإثارة أو السعادة؟

تعلم هى جيدا أن مظهرها جذاب، وتصلح أن ترقص مماثلة لأى شخص آخر هنا، وأن جونى سانت ليث قد طلب منها أن تشاركه فى رقصتين، ثم طلب المزيد. تقدم بطلبه هذا وهو واقف بجوار الآنسة الجميلة كلير دوبنى، التى كانت تشع وتبرق وهو داخل فستانها الفضى وقد انتصبت قريبة منه. إذن، ما الذى يهمها من أى فورسايث فى العالم كله؟ مع ذلك، هو إنسان ظريف، وفعلا فى منتهى الأناقة، يبدو فى شكله كأنه جواد مطهم، جهز للاحتفال وصوته بالفعل كان فيه قدر من الحمحمة، أما حديثه الذى كان يعبر إليها من فوق كتفها فهو جدير بأقل قدر من المتعة، لقد اكتشفت أنه من الصعوبة بمكان أن تفكر فيه كرجل دين.

كان... يجب أن- تراني- وأنا... أرقص... البولكا

تا- رام- تي- توم- تي- تا

نعم هي ترى، وهو يرى. كان لطيفا للغاية عندما يمتنع عن الحديث.

"أنت ترقصين ببراعة يا مس براندون"

"أشكرك، هذا هو أول حفل راقص لي"

"من كان - يظن ذلك؟" تا - رام - تي - توم - تي - تا، لحن رائع!"

كانت تلمح كل شيء وهي تدور، رداء مسز كمبرمير الذهبي، الشعر الأبيض لليدي سانت ليث- المسكينة ليدي ماري- الشيء المحزن أن لا أحد استطاع أن يفعل شيئا بخصوص مشكلة بشرتها. كلها نمش. جوان تحبها، فهي تقدم خدمات عظمى لفقراء منطقة سي تاون، وهذا كان يمثل للمسكينة عناء مضنيًا إنها بطبيعتها إنسانة خجولة. رقصتها التالية سوف تكون مع جوني، إنها تدعوه الآن باسم جوني بدون ألقاب، ولماذا لا تدعوه هكذا في سرها؟ آه، هناك والدتي، وحيدة، هوذا مستر موريس قادم ليتحدث معها. شيء لطيف أن يفعل هكذا. هو إنسان طيب ويعجبها حقا. مع ذلك، هو أيضا إنسان خجول. يبدو أن ألطف الناس يتصفون بالخجل- ما عدا جوني بالطبع الذي لا يتصف أبدا بالخجل.

توقف العزف و، هما مقطوعا الأنفاس، ظلا للحظات قبل أن يعثرا على مقعدين. الآن حانت اللحظة التي لا تحبها أو ترتاح لها، ما الذي يمكن أن تقوله لمستر فورسايث؟

جلسا في الممر الطويل خارج قاعة الرقص- كانت الأرضية تمتد على شكل شريط طويل من تحت أقدامهما لتصل إلى مسافات بعيدة يصعب تمييزها- أو لعلها، كما فكرت جوان، هي تشبه الينبوع المائي، على الجانبين جلس الراقصون، يهزون أقدامهم طربا، يبدو عليهم جميعا أنهم في تمام اليقظة والانفعال.

استفسرت جوان من ذلك الصديرى الأسود اللامع الذى جلس بجوارها "هل أنت سعيد بعملك الحالى؟"

"أوه، كما تعلمين..." صهل مستر فورسايث "كل شيء تمام، الأسقف العجوز هو إنسان طيب"

"الأسقف كليماتس؟"

"نعم، ليس هناك عمل كثير أؤديه هناك كما تعلمين، لكنى فى الواقع لن أظل هناك كثيرا. لا، لا أعتقد...؛ شيء محزن أن يتوفى القس موريسون بهذه الطريقة فى بايبس"

فى الحال أدركت جوان أن المحترم فورسايث يريد منها أن تمده بالمعلومات الجديدة، لكن هذا بدا فى نظرها نوعًا من التجسس – نعم هو تجسس على والدها- لذا اقتصرت فى قولها:

"بالتأكيد، أنت تحب ركوب الخيل، أليس كذلك؟"

"أنا مغرم به "، حمحم بذلك فورسايث كأنما هو مهر صغير امتطته جوان "ألست أنت كذلك؟"

"أنا لم اركب على ظهر حصان طوال حياتى، نفسى أجرب ذلك"

"لم يحدث ولو مرة واحدة فى حياتك؟"، كان يحملق فيها غير مصدق "لماذا، لقد كنت فوق ظهر الفرس قبلما أبلغ الثالثة من العمر- ركوب الخيل هو شيء مفيد لرجل الدين"

"أعتقد أن الوقت قد حان لبدء الرقصة التالية، هل تسمح وتصحبنى حتى والدتى؟"

كانت واعية تماما، وهما يسيران فى القاعة بكل النظرات الملتهبة التى صوبت نحوها. رفعت رأسها إلى أعلى وعيناها تلمعان، سوف ترقص الآن مع جونى، عليهم أن ينظروا كما يشاءون.

سلمها مستر فورسائث إلى والدتها وغادرهما. جلست جوان وهى ترتب فستانها، ثم أخذت تشمل بناظريها بحيرة العنبر التى امتدت هكذا أمامها، تلك التى كانت تبرق فيها الثريتان كأنهما جزيرتان صغيرتان. نظرت نحو والدتها، فجأة شعرت بالأسى من أجلها. لا شك أن الموقف سيكون مثيرا للملل عندما يبلغ الإنسان عمرا متقدما مثل والدتها، وأن تحضر مثل هذا الحفل الراقص - لا سيما إذا كان للإنسان عدد محدود من الأصدقاء، فأمها لم تكن حريصة على تنمية صداقات مع الآخرين.

"هل هو مستر موريس هو الذى كان يتحدث معك منذ قليل؟"

"نعم يا عزيزتى"

"أنا معجبة به، هو إنسان طيب"

"نعم يا عزيزتى"

"أين والدى؟"

"هو هناك...يتحدث مع الليدى سانت ليث"

نظرت جوان عبر القاعة، رأته هناك، طويل القامة، عظيم الهامة وفى قمة الأناقة، لذا خفق قلبها فخرا.

"ألا يبدو رائعا يا والدتى؟"

"من؟"

"والدى"

"رائع؟"

"نعم، ألا يبدو رائعا هذا المساء؟ أكثر روعة منهم كلهم مجتمعين"

(جونى لم يكن رائعا فى مظهره، لكنه أفضل من ذلك كثيرا)

"أوه- يبدو رائعا، إنه إنسان أنيق"

شعرت جوان مرة أخرى بتلك الرعشة الخفيفة التى اعتادت عليها عندما تتحدث مع والدتها. هو انسحاب فجائى من التعاطف والود، تماما كما لو أنها تود أن تزيح جوان بعيدا عنها.

لكن ولا يهم، لقد عزفت الموسيقى مجددا، الآن، هوذا جونى قادم! أحدهم كان قد أطلق عليه يوما لفظ "التختوخ"! ربما يكون هو ممتلئ نوعا لكن مظاهر القوة تتبدى عليه..تحركت معه، لقد بدأ الفالس.

غمرتها مياه حلوة - مياه هدهدتها وهزتها، ضمتها وربتت عليها، كانت واعية بذراعيه - هى لا تنطق بحرف، وهو كذلك، مرت أعوام من السعادة.....

بعد انتهاء الرقصة، لم يصطحبها إلى رواق عام مكشوف، كما فعل فورسايث، لكنه ارتقى معها سلما خلف مكان العازفين ودخلا غرفة صغيرة، باردة ظليلة، حيث، فى مقاعد وثيرة لطيفة، جلسا بمفردهما. كان هو يشعر بقدر من الخجل لذا اخذ يلعب فى قفازاته- قالت (لكى يتواصل الحديث) "كيف تبدو مس دوبنى جميلة ورائعة"

"هل تظنين ذلك؟ إنها لا تعجبنى بالمرة، لقد أصابنى الملل من رؤيتها، إنها بالفعل تبعث على الملل، ودائما ما تدفعها والدتى ناحيتى لتقع فوق رأسى. لقد ظلت ضيفة عندنا منذ دهور، هى تود أن تتزوجنى لأنها غنية، لكن نحن لدينا الكثير، وأنا على أية حال لن أتزوجها أبدا، حتى ولو كنا مفلسين، ولأنها هى بصراحة مملة، أيضا لأننى- فجأة أصبح صوته عاليا آمرا - سوف أتزوجك أنت"

شيء ما - لعله طير من طيور الجنة، نسمة هواء ملونة فائقة الجمال، بساط منقوش بأشكال سحرية - حضر وأرجح جوان لتصعد فوق شجرة عالية محملة بتفاح من ذهب.

هناك تأرجحت- وقلبها يغرد، أتى صوته إليها مجددا:

"لأننى سوف أتزوجك أنت"

"ماذا؟"

"سوف أتزوجك. لقد عرفت ذلك منذ الثانية الأولى التى شاهدتك فيها، فى ذلك اليوم عند الكاتدرائية- منذ اللحظة الأولى التى عرفتك فيها. كنت أود أن أسألك على الفور، لكن فكرت أنه يجب أن افعل ذلك بشكل مقبول، لقد زرت باريس وروما، لكن أنت كنت تشغلين فكرى طوال الوقت- كل دقيقة، بعدها صنعت والدتى مشكلة معى بخصوص الآنسة دوبنى- وأنا لم أكن هنا- لذا فكرت أن أحضر للوطن لأخبرك بأننى مصمم على أن أتزوجك أنت"

"أوه، لكن أنت لا يمكنك فعل ذلك"، كانت جوان تتدحرج هابطة من قمة شجرة التفاح "أنت وأنا؟ لماذا، ما الذى سوف تقوله أمك؟"

"المسألة لا تختص بما سوف تقوله أمى، هى بالطبع سوف يتملكها غضب جامح ولفترة طويلة- لكن هذا لا يهمنى، فأمى هى أمى وأنا هو أنا نفسى".

قالت بسرعة "الموضوع شبه مستحيل، من كل جهة، ألا تعلم ما الذى فعله أخى؟ اننى فخورة بأخى فولك وأحبه؛ لكن أنت اللورد سانت ليث، بينما فولك قد تزوج من ابنة هوج، ذلك الذى يمتلك محلا للخمور فى منطقة سى تاون"

"لقد سمعت عن ذلك، لكن ما الذى يهم فى هذا الموضوع؟ هل تعلمين ماذا فعلت السنة الماضية؟ لقد عبرت المحيط الأطلنطى كعامل فى قارب كبير- لم تعرف والدتى بهذا إلا بعد عودتى وتملكها غضب شديد بالطبع! لكن العالم يتغير

الآن، وسوف تختفى كل مظاهر الاختلافات بين الطبقات، صدقينى. أنظرى إلى الأمريكيين، كلهم يعتبرون من أفراد الشعب! وسوف نشابههم يوما..لكن لم كل هذا؟ سوف أتزوجك وأنت سوف تتزوجينى. أنت تحبيننى، أليس كذلك؟"

قالت بصوت خفيض "نعم"

"حسنا، أنا أعلم ذلك. سوف أقبلك الآن". وضع ذراعه حولها وقبلها بكل رقة "أوه، كم أحبك، وسوف أكون هكذا دوما معك"

قالت باندفاع "لكن يجب أن نكون عمليا، كيف يمكن لنا أن نتزوج وكل شيء يعمل ضدنا؟ أنا ليس لدى مال، وأنا لست شيئا مذكورا فى المجتمع، كذلك أمك....."

"الآن، أرجوك، أتركى والدتى جانبا، دعينى أدبر هذا الموضوع بنفسى – أنا أعرف كيف"

قالت بكل حزم "لن أخطب لك، ولن يحدث هذا لأجيال قادمة- على الأقل ليس قبل عام من الآن"

"قال بعدم اهتمام "هذا لا يهم. ويمكن أن تحددى الموعد الذى يناسبك، لكن لا أحد سوف يتزوجك غيرى"

كاد أن يقبلها مرة أخرى، لكن مسز برستون حضرت للمكان بصحبة شاب.

وهما يخرجان، قال لها "الآن تقدمى وتحدثى قليلا مع والدتى. لا تخافى من شىء. فقط قولى لها (بو!)، كما تفعلين مع الإوزة، وسوف تجيبك على الفور"

"لا تخبر أحدا...."

"عنا؟ حسنا، سوف يكون هذا سرا بيننا فى الوقت الحالى، لكننا سوف نتقابل كل يوم، واليوم الذى لا نتقابل فيه تكتبين لى. اتفقنا"

ما إذا وافقت أم لا، لم يكن واضحا لأنهما اختلطا بسحابة من الناس، وبعد لحظات، سوف يواجهان الكونتيسة العجوز.

كانت الكونتيسة تشعر بالابتهاج وفى أفضل مزاج، فالناس جميعا حولها يتملقونها ويجاملونها، أيضا كان هضمها يعمل بانتظام، فالحبوب الجديدة التى وصفها الدكتور باديفوت كانت مدهشة. لذا استقبلت جوان بكل الحبور وهنأتها بسبب مظهرها الجذاب، ثم سألتها عن أختها الكبرى، لكن عندما أخبرتها جوان أنه ليس لها أخت، ظهرت ملامح الغضب على وجهها، كما لو أنه من الأهمية بمكان أن تبرز أخت لها فى التو واللحظة تلبية لطلب الكونتيسة. لكن على أية حال، كانت الليدى مارى لطيفة للغاية معها ودعتها أن تجلس بجوارها قليلا، فكرت جوان "اننى أرحب أن تكونى أختى فى يوم من الأيام إذا....إذا...." ولم تسترسل فى فكرها هذا.

بعد ذلك انضمت إلى المجموعة التى تتكون من مسز كمبرمير وألين ستايلز. بدا لها الأمر، أو لعلها تخيلت- أنهم كانوا منشغلين فى بحث موضوع ليس لها أن تسمعه. ظنت أنهم قد غيروا من اتجاه حديثهم وحيوها بنوع من الحرارة المبالغ فيها، للمرة الأولى فى هذه الأمسية أحست بظلال بسيطة تحل فوق سعادتها الغامرة.

كانت مسز كمبرمير رقيقة للغاية معها، كما لو أنها، الآن، قد أفاقت من مرض مزعج. كان صوتها عريضا، يداها كثيفتان وشعر رأسها يشبه الأسلاك المعدنية، كل هذا كان يتماشى مع فستانها الذهبى، هذا جعل جوان تبتسم.

قالت مسز كمبرمير " تبدين سعيدة يا عزيزتى"

"بالطبع، أليس هو أول حفل راقص أحضره؟"

انهمكت مسز كمبرمير فى رفس فستانها، كما تفعل عروسة التمثيل الصامت:

"حسنا، حاولى أن تغترفى من المتعة طالما هى متاحة. أنت جميلة فعلا، بل وأجمل فتاة فى هذه القاعة، وهذا ما كنت أذكره الآن لمس الين"

كانت الين ستايلز منهمكة الآن فى التسرية عن زوجة العمدة، تلك التى كانت تجلس وحيدة لا تشعر بالراحة (هذا إذا أضيف إلى ذلك رغبتها الشديدة فى النوم) وهى جالسة على مقعد ذهبى اللون صغير.

استدارت ألين لتقول "كنت أخبر مسز برنستون الآن بأننا يجب أن نكون حريصين مع الأولاد الذين يظهر عليهم أنهم قد أبلوا من مرض السعال الديكى. لقد أصيب ابنها الصغير به، وهى تقول إنه قد شفى. لكن هذا هو الوقت، كما أخبرتها، هو نفسه الذى فيه يتوفى تسعة أولاد من عشرة - فقط بعدما تظنين أنه قد نجا من هذا المرض"

التفتت إليها مسز برنستون وفى عينيها ذعر حقيقى "لقد أزعجتنى للغاية يا مس ستايلز! وأنا التى تركت تومى الصغير يفعل ما يشاء بعدما عادت إليه شهيته المعتادة، وبدا أن الخطر قد زال"

"حسنا، إذا لاحظت أن الحمى قد عادت إليه عندما تعودين للمنزل الليلة، إذن لا تندهشى، ومع كل الإثارة التى صنعتها احتفالات اليوبيل، سوف يكون لها تأثير سيئ عليه"

فى تلك اللحظة دخل القس روندر، وقع نظر جوان عليه، شاهدت نظارته المستديرة وفمه المبتسم دائما وخدوده المنتفخة، كما لو أنه كان ينفخ بالونات لمتعته الخاصة. شعرت على الفور بعودة نفورها السابق. هذا الرجل هو عدو والدها، لذا فهو عدوها أيضا. كل المدينة تعلم أنه كان يحاول أن يدمر والدها لكى يأخذ مكانه، وأنه ضحك عليه وسخر منه.

كان شعورها حادا لدرجة أنها شعرت برغبتها أن تتقدم وتخربش خدوده هذه.كان يبتسم لهم جميعا، فى الحال اشتبك فى مصارعات لفظية مع مسز

كمبرمير ومس ستايلز، إنهم معجبون به، وسمعت الجميع يمدحونه. حسنا، هى لن تتبع هذا العظيم، هى تكرهه.

الآن هو واقعي يتحدث معها، بل وكان بهذا القدر من الوقاحة لأن يطلب مراقصتها:

"آسفة، فأنا مرتبطة بالنسبة للرقصة التالية وما بعدها يا قس روندر."

"حسنا، ربما فيما بعد، ما رأيك لو تضيفيني"

عيناها السوداوان تحتقرانه

تظاهرت أنها تفحص قائمتها "أخشى أنه لن يكون هناك وقت بعد آخر رقصة"

تحدثت معه بكل برود على قدر استطاعتها. شعرت أن عيون مسز كمبرمير ومس ستايلز مركزة عليها. كم هى غبية! لقد أظهرت أمامهما ما هى حقيقة مشاعرها، الآن سوف يزداد مقدار ضحكهما فيما يختص بمساندتها لوالدها فى معاركه. لم لا تظهر عدم اهتمامها بأى شىء؟

كان هو مستمرا فى الابتسام، ولا يبدو عليه أنه محرج بسبب صفاقتها. قال شيئا- بكل أدب وذوق- ثم حضر الشاب شارلز دا - أركى لكى يصطحبها للرقصة التالية.

بعد ساعة، امتلأ كأس سعادتها. لقد رقصت خلال تلك الأمسية أربع مرات مع جونى؛ لا شك أن كل فرد كان يتحدث عنهما، ولعل الليدى سانت ليث الآن فى قمة غضبها.

ربما لن يتحقق لها مثل تلك الساعة فى حياتها المقبلة، فهذا العرض الذى تقدم به جونى كان مستحيلا- بكل المقاييس هو مستحيل، لكن ما هو ليس مستحيلا،

وهو ما كانت متأكدة وواثقة منه، أنها تحب جونى بكل جماع قلبها وروحها وبلا أدنى شك، وسوف تحبه حتى يوم وفاتها. الحياة لن تكون فيما بعد بلا هدف وخالية، طالما هى تحمل هذا الكنز فى قلبها.

فى نفس الوقت، لا تستطيع أن تنظر إليه ويساورها أى شك من أنه هو أيضا واقع فى غرامها- وأن هناك شيئًا بسيطًا ومباشرًا فيما يختص بجونى، ونفس الشيء يمكن ملاحظته فى كلبه أندرو، هو أن كلماته، التى هى فى الأصل قليلة ومرتبكة، لكن هى مقنعة ومخلصة تماما.

لذا، وهى تشعر بالدوار بسبب السعادة التى شملتها، صعدت السلالم التى تقع خلف رواق العازفين وفكرت أن تهرب للحظات وتدخل الغرفة التى فيها طلب جونى يدها، وأن تجلس هناك لتهدأ قليلا. نظرت داخل الغرفة. كان هناك شخص واقف هناك، ينظر أمامه. لاحظت على الفور أنه يعانى من شيء ما، يده منقبضة ووجهه مقضب وكله ألم وحزن، ثم أدركت أن هذا لم يكن سوى والدها.

لم يتحرك من مكانه؛ كان يبدو كأنه كتلة من الحجر تلمع فى الظلال. وقف مرعوبا لا يتحرك. تقدمت منه خطوات ووضعت يدها على كتفه.

"أوه، والدى، ما الذى حدث؟"، لاحظت أن جسده كان يرتعد تحت لمستها- وهو أنبل إنسان على وجه البسيطة. وضعت ذراعيها حول رقبته، قبلته فى جبينه التى كانت منداة بالعرق، جسده كان يهتز من رأسه حتى أخمص قدميه. قبلته مرة ومرات وركعت بجواره.

ثم تذكرت أين هما. ربما يحضر احد- لا يجب أن يراه أحد هكذا، همست له وقبضت على يديه بين يديها.

قال "دعينا نذهب لمنزلنا يا جوان، أريد أن اذهب للبيت"

وضعت ذراعيها حوله، ثم سويا هبطا السلم الصغير.

* * *

## الفصل الرابع

# يوم الأحد ٢٠ يونيو: فى غرفة النوم

كان براندون يتحدث مع المرتل فى نهاية قاعة الرقص، لكن فجأة ظهر فى وسطهم روندر، لذا ارتدى براندون أسلحته على الفور، هذا ما فكر فيه، وضد أية رغبة يمكن أن تسوقه إليه هذه الليلة، فجأة تملكته رغبة طاغية أن يرتكب جريمة قتل. كانت رغبته باتة مسيطرة، كأنما هى مد حارق، استولت عليه من قمة رأسه حتى قدميه. لم يعد الأمر مختصا هذه المرة بالكلمات، بالأحاسيس، بالأفكار، لكن بمدى تشبعه بهذا الرجل الآخر، الذى ملأ قلبه، وعينيه، وفمه، ومعدته وقلبه. بعد مرور ثانية واحدة كان من الممكن أن يهجم على هذا الوجه الضاحك وتلك الأطراف المستديرة؛ ربما كان قد قبض على هذه الرقبة البيضاء السمينة ثم يضغط عليها بكل قوته..ثم يضغط ويضغط.

لذا استدار دون أن ينطق بحرف، بل وجرى بالفعل مغادرا المكان عبر الممرات، لا يرى أحدا، غير مبال لا بالأصوات أو العيون، يرتقى السلالم بدون أن يشعر، ثم أخيرا، بدون أن يدرى، يجد نفسه ملاذا فى تلك الغرفة، يجلس هناك، يداه على وجهه، يرتعش. بدأت تلك الرغبة الجامحة فى الانسحاب منه تدريجيا تاركة إياه كأنه لوح من الثلج. ثم رفع عينيه ليجد أمامه ابنته، لذا تشبث بها- كان ممكنا فى تلك اللحظة أن يتشبث بأى إنسان - طالبا الأمان.

هل هو فعلا أصيب بالجنون؟! طوال تلك الليلة ظل راقدا فى سريره، يبحث فى نفسه، بهذه الطريقة يمكن أن يقدم الناس على القتل. لم يعد لديه ادعاء بأنه قادر على التحكم فى جسده. لقد تركه الله وسلمه للشياطين ليعبثوا به.

هوذا أولا ابنه، ثم زوجته، ثم الله. شعوره بالوحدة كان مريعا. لم يعد فى استطاعته أن يفكر. عليه أن يتمعن فى هذا الخطاب وما يجب أن يفعله. لم يعد قادرا على التفكير. لقد أصبح لقمة سائغة فى فم الشياطين.

بعد انتهاء صلوات الصباح فى الكاتدرائية اليوم التالى، سيطر عليه فكر وحيد. عليه أن يذهب ويرى الأسقف. لقد حضر الأسقف من كاربلدون لكى يحضر احتفالات اليوبيل ومقامه الآن فى مقر العميد. تحدث معه براندون للحظات بعد انتهاء صلوات الصباح، سأله عما إذا كان فى إمكانه أن يراه لمدة نصف ساعة بعد الظهر لكى يعرض عليه موضوع فى غاية الأهمية، لذا طلب منه الأسقف أن يحضر إليه الساعة الثالثة بعد الظهر.

وهو جالس فى مكتبة العميد، كانت الكتب تزحم الرفوف وتمتد مابين النوافذ العالية – شعر براندون للمرة الأولى منذ عدة أيام بنوع من الهدوء والسلام يشمله، أما الأسقف العجوز فقد جلس على مقعد وثير بذراعين. وكان قد استقبله بمحبة ظاهرة وعميقة، كأنما هو يستقبل ابنه الحبيب.

بدأ براندون فى القول وهو يهز قدميه بين مقعده كما يفعل التلاميذ "يا سيدى، لم يكن سهلا على أن أحضر إليك اليوم، وليس لدى فى العالم كله ما أتحدث معه فى مسألتى سواك، وحتى هذا يمثل أمامى صعوبة كبرى."

قال الأسقف بكل لطف "يا ابنى، اننى رجل عجوز، وليس أمامى سوى عدة شهور أعيشها، وعندما يقترب الإنسان من الموت كما فى حالتى، يحب الإنسان كل شىء وكل إنسان، لذا لست محقا إذا شعرت بالخوف."

فى قلبه، شعر الأسقف بمدى التغيير الذى حدث لهذا الرجل الذى، خلال سنوات عدة، كان يأتى إليه وهو مملوء بالثقة فى النفس والحضور الكامل.

استمر براندون فى القول "لقد تعرضت لمتاعب عديدة مؤخرا، لكننى لن أزعجك بها، حيث أعلم، كما يجب أن أعلم، أنه للمرة الأولى التى فيها أفقد

السيطرة، وإننى اتجه سريعا نحو كارثة محققة، ربما تجلب العار على وعلى الكنيسة أيضا"

"اخبرنى عن متاعبك"

"منذ تسع شهور، كنت أشعر اننى فى قمة لياقتى وسعادتى ونفعى للآخرين، كنت واثقا من نفسى، صحتى كانت فى أفضل حال، عائلتى ترفل فى السعادة، ولى العديد من الأصدقاء...فجأة تغير كل شيء. لا أود يا سيدى أن أظهر أمامك كإنسان مزيف فى أى كلام أنطق به، لكن يبدو أنه فى مدى ليلة واحدة كل شيء تبدل أمامى. بدأ الأمر بأن تعرض ابنى للطرد من جامعة أكسفورد. وأنا لدى فقط أبن وحيد، كما تعلم حضرتك، وهو كان، وما يزال بعد كل ما حدث، هو عزيز على قلبى"، توقف براندون.

"نعم، هذا أعلمه"

"بعد ذلك، كل الأمور ساءت معى. وفدت على أمور صغيرة، أمور دقيقة للغاية- واحدة بعد الأخرى- فقد وفد إلى المدينة شخص وضع نفسه فى الحال كمعارض لى"، توقف براندون على الفور.

"نعم، وهذا أعلمه أيضا"

"فى البداية، لم أتحقق من ذلك. كنت مشغولا بأعمالى. لم يحدث من قبل أن اهتممت بأفكار الآخرين، فى ماذا يفكرون أو يخططون، فهناك عمل كثير مطلوب تنفيذه فى الدنيا أفضل من ذلك، لكنى اضطررت أخيرا أن أفكر فى نوعية هذه المعارضة التى يفرضها على هذا الشخص، لقد وفدت أمامى على شكل مئات من الأشكال الصغيرة. مثلا تغيرت اتجاهات مجلس الكنيسة تجاهى. لا أود أن أطيل فى قصتى يا سيدى حتى لا أتعبك. ولكى اختصر، أقول إنه فى يوم ما، هرب ابنى وذهب إلى لندن مصاحبا ابنة مالك حانة لاحتساء الخمور. كانت تلك ضربة موجعة تلقيتها. منذ تلك الحادثة لم أعد هو نفس الرجل، لكن بالرغم من ذلك كنت

مصمما أن لا يزحزحنى هذا عن القيام بعملى، أنا أحب هذا الولد، هو لم يتصرف أبدا بنذالة مع تلك الفتاة، هو الآن متزوج منها ويعمل فى لندن. لكن لو كانت هذه هى اللطمة الوحيدة...."، توقف، أخلى حلقه ثم التفت متحمسا نحو الأسقف، وبصوت زاعق نوعا:

"لكن هى لم تكن الوحيدة! لم تكن الوحيدة يا سيدى! فعدوى لم يكف عن نصب الفخاخ لحظة واحدة، فهو الذى نصح ابنى أن يهرب مع تلك الفتاة. هو الذى حول اتجاهات كل أهل المدينة ضدى؛ إنهم يضحكون ويسخرون منى الآن! الآن هو...الآن هو..."، للحظة فقد صوته، وأجهد نفسه لكى يستعيد توازنه، ثم استكمل بهدوء "نحن فى معسكرين مختلفين بالنسبة لموضوع بايبس، بل نحن مختلفان بشأن أى موضوع. هو إنسان قدير، وواجب على أو أوفيه حقه. هو قادر أن يرسم ويخطط...بينما أنا..."، ضرب براندون يديه بكل يأس فوق ركبتيه، بعدها صاح:

"ليس الموضوع مقتصرا على هذا الرجل فقط! ليس هو فقط، يبدو أننى أتعرض لمؤامرة واسعة النطاق، شيء تسمع وتسمح به السماء، لقد أدار الله وجهه عنى، بينما أنا الذى خدمته بكل إخلاص طوال حياتى، لم يخدمه أحد بجماع قلبه مثلى، هو كان دائما الوحيد فى فكرى. كان تحقيق مجده هو غرضى الأسمى فى الحياة. منذ تسعة أشهر، كان لى أصدقاء، أتمتع بصحة جيدة، لدى عائلتى– الآن، هوذا صحتى تتدهور، أصدقائى يتخلون عنى، أحقر إنسان فى المدينة يسخر منى، ابنى هجرنى،و،و..."، توقف ووضع يديه على وجهه.

قال الأسقف "يا صديقى العزيز، لست أنت الوحيد فى ذلك. كلنا تعرضنا لمثل هذه التجارب، ويجب أن نتعرض لها...."

"تجارب؟ لماذا أجرب؟ ما الذى فعلته وكان غير مرضٍ أمام الله؟ ما هى الخطيئة التى ارتكبتها؟ ما هى الخيانة التى وقعت فيها؟ لكن هناك شيء آخر يجب أن أخبرك به يا سيدى – وهو السبب الذى جعلنى أحضر إليك اليوم. فأنا والقس

روندر- يجب أن تعلم عمن أتحدث- تخانقنا خناقة كبرى ونحن فى رحلة عودتنا من دعوتك لنا على الغداء فى كاربلدون. هذه المعركة أصبحت بطريقة أن بأخرى على كل لسان فى المدينة. روندر هذا كان يدعى أنه يحبنى، لكنه الآن لا يستطيع أبدا أن يخبئ نواياه الحقيقية تجاهى. هذا الموضوع أصبح هو همى الوحيد الآن، حاولت بقدر امكانى أن أمنع تسلط تلك الفكرة على حواسى، فأنا أعلم جيدا خواطر ذلك، لكن كان هناك شيء آخر. زوجتى..."، توقف "زوجتى وأنا يا سيدى، عشنا مع بعض فى سعادة مطلقة لمدة عشرين عاما، على الأقل أنا الذى تخيلت أنها سعادة مطلقة، ثم بدأ يصدر منها بعض التصرفات الغريبة. لم تعد هى نفسها، لعل مشكلة ابننا قد أثرت فيها، بدا عليها أنها تحاول أن تتفادانى بقدر استطاعتها. وعندما تضافر هذا مع باقى ما أعانى منه من متاعب، شعرت كأننى أستغرق فى حلم مرعب، كما لو أن أثاث منزلنا وشكل الشوارع ذاتها قد تغير وتبدل. بدأت أخشى أن أكون قد جننت بالفعل، أصبحت الآن أتعرض لنوبات من الصداع الفظيع الذى يجعلنى غير قادر على التفكير. ثم، فى الليلة الماضية، أحضرت لى سيدة خطابا. أتمنى يا سيدى أن تكون على ثقة تامة بأن زوجتى مخلصة لى تماما، مخلصة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معان. بدا الخطاب كأنه بخط يدها. فى هذا الشأن أقول أن القس روندر له يد فى هذا الموضوع. لقد اعترفت لى هذه السيدة أنها ذهبت بهذا الخطاب إلى القس روندر وإنه نصحها أن تحضر به إلى"

صدرت من الأسقف حركة، فأكمل براندون:

"أنت بالطبع لن تذكر أى شيء من هذا للقس روندر. أتيت لك بشكل خاص لكى تصلى من أجلى، وأنا سوف أستمع لنصيحتك، لكن هذه ليست شكوى رسمية ضد هذا القس، فهذا شأن سوف أعمل ما يلزم فيه بمعرفتى. لكن حدث أنه فى الليلة الماضية، وقد امتلأ ذهنى بما جاء فى هذا الخطاب، وجدت نفسى فجأة بجوار القس روندر، لذا انتابنى شعور ضاغط وقوى بأن..."، توقف وهو يرتعش، ثم صاح وهو يفرد يديه على اتساعهما:

"أوه يا سيدى، أرجوك صل من أجلى! ساعدنى! لا أعلم ماذا أفعل، لقد سيطرت على قوى الجحيم!"

تبع ذلك فترة صمت طويلة، ثم قال الأسقف:

"لقد قلت لى أن لا أقول شيئا للقس روندر، وبالطبع سوف أحترم رغبتك، لكن أول شيء أود أن أخبرك به هو أننى أظن أن ما تخاف منه قد حدث بالفعل- من أن تجعل الفكر المسيطر عليك هو الذى يقودك ويسوقك كما يشاء- طرق تعامل الله مع البشر هو موضوع غامض ويصعب سبر غوره ويفوق تصوراتنا وقدراتنا؛ لكن كل منا، فى حياتنا، عرفنا وتلامسنا فى وقت من الأوقات عندما ظننا أن كل شىء قد أنقلب ضدنا- عملنا، من نحبهم، صحتنا، بل وحتى إيماننا بالله. يا صديقى العزيز، أنا عن نفسى عهدت هذه الأزمات كثيرا فى حياتى. مرة، وأنا شاب صغير، ضاع على موعد هام كنت مهتما به للغاية، حدث ذلك بسبب ظروف قهرية، ثم أتضح بعد ذلك أن فقدانى لهذا الموعد كان هو أفضل ما حدث فى حياتى. مرة أخرى يا عزيزى، شعرت أنا وزوجتى أن محبتنا قد فترت وسيطرت على حينذاك أسوأ الإغراءات- لكن مع نهاية هذه الأزمة، عدنا نحب بعضنا بعضا أكثر من ذى قبل. مرة، وكانت تلك أصعب فترة فى حياتى، واستمرت لفترة طويلة- خيل إلى أننى قد فقدت كل إيمانى بالله، ثم ببطء بالغ استطعت أن أتلامس معه وأعيد صلتى به كما لم يحدث معى من قبل. الآن، حتى وأنا فى سنى الكبير هذا، ما زالت الإغراءات تلوح لى أحيانا وتعاكسنى. كل ما أتمناه الآن هو أن أموت، وتجربتى الآن تنحصر فى أننى أنظر للرجال والنساء كأنما هو خيالات تتحرك ولست على أى صلة بهم. اننى اشعر بالضعف وأريد دائما أن أستغرق فى نوم عميق.... لكى محبتى لله تستمر، فالحقيقة الأولى الناصعة هو محبة الله لكل البشر- وكل شىء بعد ذلك ليس سوى أوهام وخيالات ولا يمت للحقيقة فى شىء. ارفع رأسك يا ابنى، وتحمل كل ما يأتى عليك بصبر، الله لن يتركك أبدا وسوف يقف بجوارك حتى النهاية. هذا كله ليس سوى نوع من التدريب لك، ربما لكى

يظهر لك أنه قد أهملت أهم الأمور فى حياتك. من هذا التجارب التى هجمت عليك سوف تتعلم منها كم أنتَ فى حاجة إلى الآخرين، فى حاجة لأن تحبهم، وإنهم يجب أن يحبوك، أهم درس نخرج منه فى هذه الحياة....

تقدم الأسقف بطيئا ووضع يده على كتف براندون- حل نوع من السلام على قلبه، ليس بسبب الكلمات التى استمع لها، لكن من لمسته هذه فقط، لمسة يد ضعيفة نحيفة مرتعشة. امتلأت الغرفة كلها بالسلام - أصبح روندر فجأة بلا أهمية تذكر، ومنظر الكاتدرائية تضاءل فى خياله.. لفترة شعر بالراحة.

حتى نهاية هذا اليوم، وحتى حلول المساء، ظل هذا السلام ملازما له متشبعا به، دخل إلى غرفة النوم متأخرا هذه الليلة. كانت مسز براندون فى السرير، مستيقظة، تنظر أمامها، لا تتحرك. جلس على مقعد بجوار السرير، مد يده وامسك بيدها.

"عزيزتى آمى، أريد أن نتحدث قليلا"، استقرت يديها الصغيرة الساخنة بين يديه " لقد شعرت بقدر كبير من التعاسة مؤخرا، لاحظت أيضا أنك أنت أيضا لست سعيدة. اننى أتمنى لك كل السعادة، وسوف أفعل أى شيء فى مقدورى ليتحقق لك ذلك"

قالت دون أن تنظر إليه "لا، لن يحدث هذا، لو كنت فى فكرك لما ساءت أحوالنا- ولما تركنا فولك!". صوتها العدائى جعله يتوتر بدون إرادته، شعر فجأة أن تعب، مرهق، داهمه شعور ضاغط أن يتجه إلى غرفة ارتداء الملابس ويستلقى هناك على الأريكة ويستغرق فورا فى النوم، قال:

"أنت تظلمينني يا آمي، لكن سوف لا نتجادل فى ذلك. أريد فقط أن اعرف، لماذا بعدما قضينا سويا عشرين عاما فى سعادة وهناء كامل، أن هناك أمرا ما تدخل وسطنا، أو يبدو كذلك، أريد أن أستجلى هذا لنعود إلى سيرتنا الأولى"

نعود إلى سيرتنا الأولى! عندما استمعت إلى هذه العبارة الساخرة الضاحكة، التفتت إليه تتفحصه كأنما هى لا ترى كل ما فيه.

"لم تظن أن هناك فى الأمر شيئا؟ "، وجهت سؤالها هذا بكل لطف ورقة.

"بالطبع أنا استطيع أن ألاحظ"، أمسك يدها بأكثر قوة، كأنما هذا اللطف الذى بدر منها قد مس مشاعره "عندما يعيش إنسان مع آخر فترة طويلة، بالتأكيد يستطيع أن يعرف متى يكون الآخر تعيسا. بالطبع كان هروب فولك بهذه الطريقة قد جعلك تشعرين بالحزن والأسى، نفس الموضوع أحزننى أنا أيضا"، أخذ يدعك يدها بحنان. سألته وهى ما زالت تحدق فيه:

"هل فعلا أزعجك رحيل فولك؟"

نظر نحوها مندهشا "أزعجنى؟ لماذا...؟ لماذا..."

استمرت هى فى الحديث "إذن لما لمَ تذهب خلفه إلى لندن؟"

كان السؤال مفاجئا وغير متوقع، لذا لم يجد أمامه سوى أن يردد

"لماذا...."

"أوه، حسنا، هذا الموضوع لا يهم الآن"، قالت ذلك وهى تستدير مبتعدة.

"ربما أكون قد ارتكبت أخطاء. اعتقد اننى ارتكبت العديد من الأخطاء خلال تلك السنوات الأخيرة. إننى أرى أمورا كثيرة للمرة الأولى. فى الحقيقة كنت منهمكا بالكامل ومنشغلا بعملى، لم أكن أفكر فى غيره. كنت أعتبر انه أمر مفروغ أن تشعرين بالسعادة، لأننى أنا كنت سعيدا، الآن أريد أن أصحح كل هذه المزالق، أرجوك أخبرينى عما تشعرين به ويقلقك"

لم ترد. انتظر فترة طويلة. أسلوبها هذا طالما كان يغضبه. قال أخيرا وقد فاض به:

"أرجوك يا آمى، أخبرينى عما تحملينه ضدى"

"ليس هناك فى قلبى أى شىء ضدك"

"إذن لما تسير كل الأمور بطريقة خاطئة فيما بيننا؟"

"كل الأمور خاطئة؟"

"أنت تعلمين ذلك- منذ ذلك الصباح الذى فيه رفضت الذهاب معى لحضور الصلاة الصباحية"

"كنت أشعر بالتعب فى ذلك اليوم"

"إنه أكثر من موضوع تعب"، خبط بقبضته منفعلا فوق غطاء السرير "آمى، أنت لا تتعاملين معى بصراحة - يجب أن تتحدثى معى، أصر على ذلك"

التفتت إليه مرة أخرى:

"ما الذى تريدنى أن أقوله لك؟"

"لماذا تشعرين بالتعاسة؟"

"هذا إذا كنت بالفعل تعيسة"

"أنت كذلك"

"لكن أفرض أن قلت لك عكس ذلك؟"

"أنت كذلك، أنت كذلك "،كان يصرخ فى وجهها.

"حسنا، أنا كذلك"

"لماذا؟"

"ومن ذاك الذى يشعر بالسعادة، إلا الأغبياء الذين لا يفكرون فى شىء"

"أنت تودين التخلص منى"، أمسك بيدها مرة أخرى "إننى الملوم يا آمى بسبب أمور كثيرة، لكن الناس تتحدث". سحبت يدها منه بقوة:

"الناس تتحدث؟ من؟ لكن كأن هذا الأمر له أى أهمية"

"نعم هو يهم. لقد أصبح الموضوع لا يطاق وانتشر أكثر مما ظننت"

نظرت نحوه، ثم بسرعة أبعدت وجهها عنه:

"من ذاك الذى يتحدث، وما الذى يقولونه؟"

"إنهم يقولون....."، لم يكمل، فمنذ أن وصله هذا الخطاب المشئوم هو لم يتحقق عما إذا كان الناس يتحدثون أم لا، "لا تظنى يا آمى للحظة واحدة أنه من الممكن أن أهتم بما يتقولون به، ما كنت أزعجك به إذا لم يكن خاصا بموضوع آخر- سوف أذكره لاحقا، لكن إذا صلحت الأمور بيننا فلن أهتم به أبدا بما يتحدث به العالم كله"

"إذن دعهم يقولون ما يشاءون"

عدم الاكتراث هذا لسعه، إذن هى لا تهتم بشيء، لا يهمها ما إذا صلحت الأحوال بينهما أم لا، فكلتا الحالتين سيان عندها، إنها لا تهتم به على الإطلاق...هذا الإدراك طعنه بعنف كما لو أن أحدهم ضربه بقوة على ظهره. لعدة سنوات، كان يعتبر أن علاقتهما الزوجية هى أمر مفروغ منه.... بشكل غامض أحس أن هناك شكل شخص ما يقترب منه- له كيان ضخم، أسود، ضبابى، يسحب الضوء من النوافذ، هذا الشخص أصبح ملازما له يوما بعد يوم.

أخذ يطيل النظر نحوها، ثم بتصميم وعجلة قال:

"أحدهم سلمنى رسالة يا آمى، قال أنها رسالة منك"

لم تتحرك أو تنفعل. بعد فترة صمت طويلة قالت "دعنى أراها"

بحث فى جيوبه ثم أبرزها، مدت يدها لكى تمسك بالرسالة. أخذت تقرأ ببطء ثم سألت :

"هل تظن أننى كتبت هذا؟"

"لا، بالطبع لم تفعلى"

"لمن تعتقد الرسالة موجهة؟"

"لموريس، قس سانت جيمس"

هزت رأسها، "آه، نعم. نحن بالفعل أصدقاء، لذا اختاروه، طبعا هذا خطاب مزيف، تزييفه متقن"

قال باهتمام وقد شعر براحة عميقة ولم يحاول أن يحلل أسباب ذلك "الشىء الغريب الذى لا أفهمه، لمَ يهتم شخص أن يفعل هذا- المخاطرة والعواقب...."

"أنت لديك أعداء. أنت تعلم ذلك، هؤلاء الذين يغيرون منك"

قال بعنف "هو عدو واحد، روندر، لقد ذهبت هذه المرأة بالخطاب إليه أولا"

"المرأة، أى امرأة؟"

"المرأة التى حضرت لى ومعها هذا الخطاب، هى مس ملتون- وهى البائسة التى كانت تعمل سابقا فى المكتبة"

"وهى التى ذهبت به إلى القس روندر؟"

"نعم"

"آه!"

قالت بصوت هادئ "ما الذى سوف تفعله بهذا الخطاب؟"

"سوف أفعل ما تريدينه. أود أن أسلك أى سبيل متاح حتى أحضر من قاموا بهذا التزوير إلى العدالة، سوف....."

قاطعته متعجلة "لا، من الأفضل أن تهمل الموضوع تماما. ما الذى يمكن أن نستفيده من متابعة هذه المسالة؟ إنها سوف تركز كل العيون نحونا- يجب أن يختفى هذا فهو واضح التزوير. لماذا، ألا تستطيع أن تدرك ذلك؟"، فجأة أمسكت بالخطاب أمامه:

"إنه حتى لا يشبه خطى، انظر إلى حرف السين والميم، أنا لا أكتبهما بهذه الطريقة"

"أبدا، أبدا...فعلا، وقد أدركت ذلك على الفور"

"إذن أنت أدركت أنه خطاب مزور؟"

"نعم، إننى لم أشك لحظة"

تنهدت، ثم استندت على المخدة وقد لازمتها رعشة خفيفة، قالت:

"يا لبؤس هذه المدينة وما يفعلون. أوه! يا ليت يستطيع الإنسان أن يهجرها ويبتعد عنها"

قال بحماس "نعم، وهذا ما سوف يحدث وما نحتاجه بالفعل. أن نحصل على أجازة. كنت أفكر فى هذا الموضوع. لقد تعبنا كلانا. عندما تنتهى احتفالات اليوبيل سوف نسافر إلى الخارج. ايطاليا، اليونان، سوف نحصل على شهر عسل ثان. أوه يا آمى، سوف نبدأ حياة جديدة. اننى فعلا ألام- اعطنى هذا الخطاب، سوف أحرقه. اننى أعرف عدوى، لكنى لن أفكر فيه أو فى أى شخص آخر، لن أهتم إلا بنا، سوف أكون زوجا صالحا لك إذا سمحت لى بذلك"

أعطته الخطاب وهى تحملق فيه كما لو ترغب أن لا يفوتها أي تعبير يمكن أن يرتسم على وجهه:

"انظر إليه قبلما تدمره، هل متأكد انه خطاب مزور؟"

"بالطبع هو كذلك"

"وإنه ليس بخط يدى؟"

"أبدا"

"أنت بالطبع تعلم اننى مخلصة لك، واننى لن أكون غير صادقة معك سواء فى الفكر، أو الكلمة أو الفعل"

"بالطبع، كما لو أننى لا أعرف...."

"وإننى أرحب أن أسافر معك إلى الخارج؟"

"نعم، نعم"

"وإننا سوف نتمتع بشهر عسل ثان؟"

"نعم، نعم، وهذا ما سوف يحدث"

"أنظر جيدا لهذا الخطاب. أنت مخطئ، هو ليس خطابا مزورا. أنا محررته"

لم يجبها، ظل يحملق فى الخطاب كأنما هو تلميذ صغير ضبط وهو يسرق، كررت القول: "هذه السيدة كانت على حق، أنا التى كتبت هذا الخطاب"

قال وهو يحدجها بنظرة عاصفة "لا تضحكى على، هذا الموضوع فى منتهى الجدية"

"أنا لا أضحك. أنا كتبته وقد أرسلته بيد جلاديس. إذا ذكرت لها التاريخ سوف تتذكر"

أخذت ترقب وجهه، لقد تحول فجأة إلى اللون الرمادى، كما لو أن أحدا قد بسط قناعا رماديا فوق ملامحه الأصلية. فكرت "ربما يقتلنى الآن، لست آسفة".

همس، وقد انحنى قريبا منها، كأنما هو يخشى أن لا تسمعه "أنت التى كتبت هذه الخطاب إلى موريس؟"

"نعم"، فجأة قفزت من السرير وأصبح نصفها خارجه "لا تفكر أبدا أن تؤذيه، هل تسمعنى؟ ولا أن تمد عليه إصبعا! إنها ليست غلطته، وليس له أى شأن فى هذا الموضوع. هو فقط صديق لى. اننى أحبه، لكن هو لا يحبنى. هل تسمع؟ ليس له شأن فى هذا!"

همس براندون "أنت تحبينه؟"

"لقد أحببته منذ اللحظة الأولى التى رأيته فيها. كنت فى حاجة لمن أحبه منذ عدة سنوات- مرت سنوات وسنوات، أنت لا ولم تحبنى، كنت أظن أن فولك يمكن أن يحبنى، لكن هو أيضا لم يفعل، لذا أخيرا عثرت على الشخص الذى يمكن أن يحبنى وأن يكون حنونا على. هو بالفعل كان طيبا معى، أطيب إنسان على وجه الأرض. لقد أدرك أننى أحس بالوحدة، لذا سمح لى بأن أتحدث معه وأن أذهب إليه- لكن كل هذا ليس من فعاله، هو فقط كان طيبا..."

"فى بداية الخطاب كتبت تقولين - يا اعز الناس-"

"كان ذلك غباء منى، وقد نبه على أكثر من مرة أن لا أكتب عبارات عاطفية. هو إنسان صالح وأنا امرأة سيئة. وأنا سيئة لأنك أنت الذى جعلتنى هكذا"

أمسك براندون بالخطاب ومزقه إلى أجزاء صغيرة ثم نثره على غطاء السرير، قال وهو ينحنى "لقد خنتينى"

لم تتراجع، بالرغم أن الوجه الرمادى كان قريبا للغاية منها "نعم هو رفض ذلك أولا..كنت أنا التى أردت...اننى أكرهك، لقد كرهتك منذ سنوات عديدة"

أطبق بيديه على كتفيها "لماذا؟"

"بسبب غرورك وشعورك بالعظمة والكبرياء، لأنك لم تفكر فىّ إطلاقا، لأننى كنت دائما عبارة عن قطعة أثاث فى نظرك- بل وأقل من ذلك- لأنك كنت راضيا عن نفسك وغبيًا فى نفس الوقت. نعم، لأنك كنت غبيا لا ترى شيئا، لا تفهم شيئا، فقط راض عن نفسك، وعندما عبرت المدينة عن سرورها بسبب أفعالك ونشاطك، كنت أنا أضحك، لأننى أعلم حقيقتك. كان يراودنى فكر يقول "سوف يكتشفون يوما حقيقته"، الآن قد آن الأوان ليدركوا ذلك. أخيرا عرفوا حقيقتك. أنا سعيدة! أنا مسرورة!"، توقفت بينما صدرها يرتفع ويهبط تحت قميص نومها، صوتها كان ثاقبا وتقريبا كان يبدو كأنه صراخا.

وضع يديه على كتفيها العظميين ودفعها ناحية السرير، تحركت أصابعه نحو رقبتها وبكل وزنه ركع فوق السرير، كان فوقها.

همست "اقتلنى، نعم اقتلنى، سوف أسر بذلك"

فى تلك اللحظة، كانا يحملقان فى بعضهما باستفسار، كما لو كانا اثنين من الغرباء يتقابلان للمرة الأولى، تقابلت يداه حول عنقها وركبته فوقها.

شعر بحلقها النحيف بين يديه، وصوت يهمس فى أذنيه "هذا حسن، اضغط أكثر، شعور رائع، رائع!"

فجأة، عيناه تعرفتا عليها. سقطت يداه. زحف متراجعا، ثم وجد طريقه، كأنما هو أعمى، وخرج من الغرفة.

* * *

## الفصل الخامس

# يوم الثلاثاء، ٢٢يونيو: ١ـ الكاتدرائية

بزغ نهار اليوم العظيم، وقد صاحبه بذخ سماء زرقاء صافية، وكم من ـؤوس أطلت من عدد لا يحصى من النوافذ هذا الصباح! وفى بولشستر، كان نظر للأمر كأنه نوع من التقدير الخاص الذى حصلت عليه هذه المدينة، فهذه لسيدة العجوز (الملكة فيكتوريا) تستحق بلا شك أن يرحب بها وهى تتنزه فى فضل الأجواء كما ترغب وتشاء، لكن مدينتنا القديمة لا تهتم كثيرا بذلك.

سواء تستحق أو لا تستحق، فإن المدينة كلها نهضت احتفاء بهذه المناسبة. ان الشارع يحفل بالأعلام والرايات والمشاعل؛ حتى فى منطقة سى تاون الشعبية، لهرت أيضا الأعلام الصغيرة الرخيصة التى انشغل الباعة المتجولون بترويجها ـلال الأسبوع الماضى. منذ الصباح الباكر، كان من الممكن أن تستمع لصرير لأراجيح الدوارة فى أرض المعارض، لكن الفضل كله يعود إلى أجراس كاتدرائية التى صلصلت بقوة الساعة التاسعة صباحا، هنا استيقظ معظم سكان ولشستر لكى يتمتعوا بأمجاد هذا النهار.

تقريبا، أعتقد أن كل الأرواح فى هذا الصباح كانوا يقسمون يوم الاحتفال ذا بشكل غير واع إلى ثلاث فترات. فى الصباح الباكر، التوجه إلى الكاتدرائية حضور الناس، ظهرا الاحتفالات الاجتماعية، على هيئة رجل إلى رجل وامرأة ى امرأة. فى المساء، حضور احتفال المشاعل والألعاب النارية والصواريخ التى وف تشعل السماء، بعدها يبدأ الانغماس فى الشرب وممارسة شتى أنواع التعبير ن الحب.

بالتأكيد هناك الكثير من العيون التى اتجهت ناحية الكاتدرائية، عيون اعتادت لأعوام طويلة أن تتجه ناحية نشاطات أخرى. سوف تكون هناك خدمة كنسية رائعة، علما بأن الأسقف العجوز هو الذى سوف يلقى العظة، ولعلها سوف تكون هى آخر فرصة ظهور علنى له. ومن الأنحاء الغامضة لمنطقة سى تاون، حتى سكان القصور الفاخرة التى تراصت على طول شارع أورانج، ومن المناطق الشعبية المجاورة للسوق، تدفق التجار، البائعون، البحارة وكباتن البحر. ومن البرارى الواسعة، وفد جمع كبير من الغجر، وقد زينوا آذانهم بالأقراط الذهبية، ومن يدرى؟ ربما هناك أجراس صغيرة علقت فى أطراف أقدامهم السوداء.

فى وقت مبكر، باشر كل لورنس وكابوت مهام عملهما. من المحتمل الغالب أن تكون تلك المناسبة هى آخر يوم عظيم يحضره لورنس. كان فى إمكان كابوت أن يتخيل نفسه هذا الصباح وقد خطا فى أقدام هذا الرجل العجوز، فهذا الرجل العتيق لم يكن فى حالته الطبيعية هذا الصباح، فهو كما هو معلوم، مصاب بالروماتزم والنقرس، وما الذى لم يدركه بعد؟ وفوق كل شىء، هو ذلك الألم الذى يشعر به وهو يكبل مراكزه الحيوية، هو ألم لا يمكن تعريفه بأنه ألم، هو فى الحقيقة إحساس غامض بعدم الارتياح بشكل منذر ومزعج فى آن واحد.

فى الأيام العادية، وبالرغم من استهجانه، كان لورنس يسمح لكابوت أن يقوم ببعض الأعمال الموكلة إليه، بينما يضطر هو أن يبقى فى سريره، لكن اليوم لا، ألف شكر! فى يوم مثل هذا، فإنه قادر أن يقاوم الشيطان ذاته ولا يهتم أبدا بحربته الحمراء المشتعلة نارا ! لذا تجده الآن منتصبا داخل ردائه القرمزى، مزدانا بلحيته البيضاء كالثلج، قابضا على صولجانه بقمته المذهبة، يشرف ويفحص الأماكن التى سوف تشغلها فرقة المرتلين، ويتأكد أن كل الأعضاء الإضافيين لهم أماكن مخصصة، وفوق كل شىء هو أن عرش الأسقف العالى المجاور للهيكل لا يطوله ولو ذرة صغيرة من غبار. لقد لاحظ كابوت، بكل اندهاش، كل مظاهر الموت وهى تزحف على ملامح زميله العجوز، فجأة، وهو مندهش أيضا، أحس بالأسى

الحزن من اجله. لسنوات عدة، اشتاق أن يخلف هذا المغفل العجوز، وكثيرا ما ان يلعنه فى سره بسبب آلاف مظاهر العظمة والتكبر، كذلك الهفوات والخناقات غبية. أما الآن، وفجأة، يشعر بالأسف من أجله! ما الذى جرى له؟ لكن هو صراحة لم يكن بهذا القدر من السوء، وهما على كل حال زميلان منذ عمر كمله....

مبكرا هذا الصباح، بدأ زحف الناس على الكاتدرائية، معظمهم من زوار نرى المحيطة، ويتخذون لهم مجلسا فى آخر الصحن ثم يغرقون فى صمت شامل سط إضاءة ضئيلة، ليس عليهم سوى أن يحملقوا، متعجبين، متوقعين. فى أوقات نرى، بعض منهم كان يتجرأ ويتقدم ليفحص التوابيت والفضيات والنوافذ مرسومة، نعم، يتحركون بكل أفراد العائلة، مصاحبين معهم حقائبهم المتخمة ساندويتشات والبرتقال، لكن هذا ليس مسموحا به هذا اليوم، أه، لا يمكن أبدا يا زيزى! عليهم فقط أن يحضروا أو يغادروا، لكن إذا دخلوا فهم ملتزمون أن يظلوا امتين، وإذا حدث أن أحدهم أطلق كركرة ضحك خبيثة، إذن هناك كابوت وعليه ، يفعل اللازم.

تدفقت الأنوار، وبدأت ترسل بقعا وبحيرات ضوئية بلون ابيض، أزرق رجوانى على الرايات والأعمدة- كانت جبارة فى قوتها، رائعة فى فعالها، لقد تعدت الكاتدرائية....

سارت مسز كمبرمير بوقار بالغ هذا الصباح متجهة من منزلها إلى كاتدرائية، وبالرغم من هذا اليوم الجميل، كانت تشعر أنها قد أصبحت عجوزا، نياء مثل الاحتفال باليوبيل يؤرخ للإنسان- وليس هناك شك فى ذلك. نعم، لقد ربت سن الخمسين. أصبح الآن ثلاثة أرباع عمرها خلفها، وما الذى يمكن أن رضه بشأن هذا الزمن الذى انقضى؟ زواج فاشل، وصحة جيدة ومرح، مع

بعض الأصدقاء، لكن فى النهاية الوحدة وحدة تشبه تلك التى يتعرض لها كل إنسا
فى هذا العالم الغريب. يا لها من مسكينة هذه المرأة العجوز! حسنا، ليس أمامه
سوى أن تتعاطف مع كل أجناس البشر. آجى كمبرمير ليست إنسانة عاطفية، و
ترى العالم بشكل مزيف، لكن فجأة كانت على وعى وهى تمشى تحت السما
الزرقاء أنها لم تكن عطوفة، هى تعمل فقط للحصول على مزيد من المرح بأكثر
من حاجتها لذلك...حسنا، لمَ لا؟ إنها تهتم بكلابها أكثر من أى مخلوق عل
الأرض، تؤدى تَمريناتها الرياضية كل صباح، لكن مع ذلك هى فى الخمسين مر
العمر!

أدركت حينذاك، ما إن وصلت إلى بوابة آردن، وهى مندهشة من نفسها
أنها طوال هذا الوقت لم تكن تفكر فى نفسها، لكنها كانت منغمسة فى التفكير ف
براندون وعائلته- آل براندون! يا لها من مسألة غريبة! الآن تكاد المدينة أن تنفجر
من أجنابها بسبب الإثارة التى بعثتها موضوعات تلك العائلة! فالمدينة بوجه عا
تعلم (لكن كيف حدث هذا، لا أحد يعلم) أن هناك خطابًا غامضًا كتبته مسز
براندون إلى مستر موريس، وأن مس ملتون التى كانت يوما أمينة للمكتبة قَ
حصلت على هذا الخطاب بوسيلة ما وأحضرته إلى القس روندر، أما الخطو
التالية، التالية! أوه، أخبرنا بها! المدينة كلها تقف الآن على أطراف أصابعها
وشعر رأسها يقف حتى نهايته. دعنا نرى! نعم، دعنا نرى! لا تدع أقل تفصيل
تفوتنا بخصوص هذه المسألة الغريبة!

فعلا مسألة غريبة! أولا هوذا الولد يهرب بصحبة تلك الفتاة؛ ثم تقوم مسز
براندون، وهى أهدأ إنسان على وجه الأرض وأكثرهم إثارة للملل، منذ سنوات
وسنوات، بإلقاء قبعتها فوق الطاحونة وتتصرف كأى مجنونة؛ أيضا قيل أن جوني
سانت ليث واقع فى غرام الابنة، وأن أمه العجوز فى قمة غضبها، وأن براندو
يتمنى أن يقطع رقبة روندر. روندر! توقفت مسز كمبرمير عن السير، جزئيا لكى
تستمتع بمنظر الأعشاب اللامعة، التى امتدت كأنما هى سجادة تبدأ من الاتسا

الرمادى العظيم للكاتدرائية. روندر! انه إنسان رائع! لقد هزمها هذا الرجل بالرغم منها. كيف حدث هذا؟ على مدى سبع شهور هزم كل فرد فى المدينة! يا له من متحدث لبق، واعظ مفوه، يا له من دماغ عملى! هى لا تحبه. المديح فيه يمكن أن تسمعه صادرًا من كل فم، لكن هى فى الحقيقة لا تحبه. ما زال براندون العجوز هو المفضل عندها، هو صديقها العزيز منذ عشر سنوات؛ لكن ليس هناك شك أنه قد أصبح غير متوافق مع الزمن، وهذا ما أوضحه روندر! فلا فائدة من العيش فى ظلال الثمانيات. لكن هى على أية حال، تحبه ولا ترضى أن يغرق فى التعاسة- هو فى الواقع إنسان تعيس، وهذا من الممكن أن يلاحظه أى إنسان. أكثر من أى شيء آخر، هى لا تود أن تشاهده يفعل شيئا بطريقة غبية- لكن هو قادر على ذلك، بسبب طباعه الغريبة العنيفة، هو ليس قويا كما يبدو عليه! لقد عبر عن مشكلة هروب ابنه بشكل مستفز – الآن هوذا مع زوجته أيضا!

كانت خلاصة فكر مسز كمبرمير، قبلما تنضم إليها ألين ستايلز وجوليا برستون، هى "لو كان لدى زوجة بهذا الشكل، إذن لسمحت لها أن تذهب وترحل مع أى إنسان تريده، بل وسوف أدفع له نقودا لكى يفعل ذلك!"

بالطبع كان الخبر اليقين لدى الين ستايلز "يا عزيزتى، ماذا تظنين هى آخر الأخبار!، يقال أن الأرشدياكون يهدد بأنه سوف يسمم كل أعضاء المجلس إذا لم يسمحوا لركس فورسايث أن يحتل موقع بايبس، وأن الليدى سانت ليث قد أمرت جونى أن يقوم برحلة إلى جزر الكنارى من أجل صحته، وإنه عقب على ذلك بقوله إنه يرحب أن يراها مضروبة بالرصاص! وأن مس ملتون تبيع نص الخطاب بألف جنيه للقادم أولا!"

أوقفتها مسز كميرمير بحدة "اهتمى بأحوالك أنت يا الين، كل هذا الموضوع لم يعد نكتة تحكى، أما بالنسبة لجونى سانت ليث، فهذا يوضح ذوقه الحسن، فلا توجد فتاة أجمل أو ألطف من جوان براندون. هو محظوظ بالفعل إذا اقترن بها"

قالت الين ستايلز بطريقة هادئة " لا أود أن أكون قليلة الأدب، لكن هذه العائلة وما يحدث فيها يغلب أى لسان. من الأفضل أن نلحق بلورانس قبلما يمنح مقاعدنا لآخرين"

حضرت جوان مع أمها وعبرتا منطقة الحشائش. كان فى جيبها خطاب وصلها من اللورد جونى، هذا هو نصه:

**العزيزة، العزيزة جدا جوان- أود أولا أن تتأكدى من أننى لا أهتم إطلاقا بأى قول تحكينه أنت أو أمى أي إنسان. والدتى غضبى، بالطبع هى كذلك. هى غضبت من قبل مليون مرة، وسوف تغضب مليون مرة بعد ذلك، لكن هذا لا يعنى شيئا. إنها تفضل أن تكون غضبى، فهذا نافع لها، وكلما كانت غاضبة منك، كلما تحسنت معاملتها لك، إذا فهمت ماذا أعنى. ما أريد أن أوصله لك هو أنك لن تستطيعى تغيير شىء ما. بالطبع إذا لم تكونى محبة لى، فهذا شأن آخر، وقد حاولت بالأمس أن تخبرينى بأنك لا تحبيننى للمصلحة العامة، لكن هذا صدر منك بأسلوب ركيك. لا تتحدثى أبدا عن أخيك، فهو إنسان صالح وسوف أحاول أن أقابله عندما أكون فى لندن الشهر القادم. لا تتحدثى أبدا عن عزمك عدم رؤيتى مرة أخرى، فأنت لست قادرة على تنفيذ ذلك. أنا مستعد أن أنتظر أى وقت، لكننا سوف نتزوج فى النهاية ونعيش أسعد حياة سويا!**

**حبيبك جونى**

وما الذى يمكن أن تفعله بشأن ذلك؟ هى بالطبع لا تعتبر متماشية مع مقاييس حضارة زمانها هذا. إنها سوف تخبر والدهاK لقد صممت أن تفعل ذلك

بمجرد أن تراه أقل انشغالا بشئونه الخاصة؛ لكن أن تقول بأنها لا تحب جونى، أدركت أن هذا يفوق قدراتها، وأن خوفها بأن يلحق به الدمار إذا تزوجته، هذا يتعارض بالفعل ما تشعر به نحوه من حب غامر، وهذا كان له شأن كبير فى رفع مقدار ثقتها بنفسها. إنها لا تفهم إطلاقا حبه هذا، شىء مدهش بعد كل هذا الإهمال الذى لاقته من أهلها، لكن هذا ما حدث بالفعل؛ فهو بكل خبراته فى الحياة أحبها أكثر من أى إنسانة أخرى فى العالم، إذن هناك بالتأكيد شىء ما يعتبر جذابا. أما عن أمه، طالما هو يحبها، فهى مستعدة أن تواجه أى إنسان.

لذا، فى هذا الصباح الجميل، كانت هى تطفر سعادة، وكونها ما زالت طفلة فى مشاعرها، فإنها أغرمت بهذه الاستثارة. شىء رائع أن تحتفل بهذا الوقت الجميل عندما يتضافر هذا مع أروع أوقات عمرها! شىء رائع أن يكون الطقس بهذا القدر من الجمال، وتلك الأجراس التى تدق وترفس، ومن كل إنسان ارتدى أجمل ملابسه، من اليوبيل الذى جهز نفسه لأن يحتفل به الناس فى هذا الوقت بالذات! هل هو بالفعل لم يطلب يدها إلا مساء السبت الماضى؟ بدا لها أن هذا الحدث العجيب قد وقع منذ قرون وقرون!

أخذت جوان تثرثر بكل حماس مع بيتى كالندر، ثم تبادلت التحيات مع بنات دا - أركى، بعدها مع مسز بنتك - ميجور. لقد افترضت أن الجميع يتحدث عنها، حسنا، دعهم يتقولون، فليس هناك شىء تخجل منه. بل على العكس. إنها لم تلاحظ صمت والدتها، لكن هى بالفعل لاحظت أن منظر والدتها قبلما يغادران المنزل ما يدل على أن الأم مريضة. لا شك أنها قد قضت ليلة صعبة من صداعها الفظيع المعتاد. لم يحضر والدها الإفطار. لقد أصبحت كل أمور منزلهم فى أسوا حال منذ أن طرد فولك من جامعة أكسفورد، لقد اشتهت أن تضع يديها حول رقبة والدها وتضمه إليها، وخلف سعادتها، منذ ليلة الحفل الراقص، كانت تتوق وتسوقها رغبة ملحة أن تدلل والدها، تمسح عنه أحزانه، تحبه بكل جماع قلبها، وهذا ما سوف تفعله بالتأكيد بمجرد انتهاء أسبوع الاحتفالات هذا.

فجأة، ظهر جونى سانت ليث برفقة والدته وأختيه، يستعدون للدخول من الباب الغربى! يا له من موقف! ثم هوذا جونى يترك عائلته ويتقدم نحوهما رافعا قبعته مبتسما! كم هو شكله رائع يطفر بالسعادة! وكم بدا عليها هى من مظاهر الولع، لو كانت تعلم ذلك!

"صباح الخير يا مسز براندون"

لم يبد على مسز براندون قد تذكرت من هو، ثم فجأة التقطت ذاكرتها من جيبها:

"أوه، صباح الخير يا لورد سانت ليث"

جوان من طرف عينيها، شاهدت الليدى أمه، وقد رفعت رأسها عاليا بقبعتها المرتفعة الغريبة وهى تجرجر أذيالها.

"إنه طقس رائع، أليس كذلك؟ صباح الخير يا جوان"

"صباح الخير"

"أليس هو يوم جميل؟"

"أوه، نعم، هو كذلك"

"هل سوف تحضرين حفل إطلاق الصواريخ الليلة؟"

"إنهم يمرون خلال مبانى الملحقات كما تعلم"

"بالطبع، سوف يكون حولنا خمسة مراكز لإطلاق الصواريخ والألعاب النارية، والدتى تخشى أن تلحق النار بقلعتنا"

ضحك كلاهما- كانت السعادة تطفر منهما لدرجة أنهما لا يدريان لمَ يضحكان.

لحقت بهم مسز سامبثون، فسار كل من جونى وجوان أماما، ولم يتبق سوى خطوتين ليدخلا الكاتدرائية:

"هل استلمت خطابى؟"

"نعم"

"أنا أحبك، أحبك، أحبك"، قال ذلك فى همس أجش.

"جونى- هذا لا يصح - أنت تعلم - لا تستطيع..."

دخلا الكاتدرائية.

ظهرت مسز بنتك-ميجور مع مس روندر يسيران فوق الحشائش، لم يكن ضروريا أن يسرعا لأنهما يعلما أن مقاعدهما محجوزة لهما. كانت مسز بنتك-ميجور تنظر إلى مس روندر بصفتها واحدة من عجائب الزمن، بسبب ما تحكيه من أمور صائبة، أيضا بسبب الموضات القديمة التى تصمم على ارتدائها حتى الآن، علما بأن إنسانًا يتحدث بطلاقة، هو فى عين مسز بنتك-ميجور أعجوبة.

كانت مسز بنتك - ميجور تمعن فكرها فى موضوع فضيحة براندون، لكن هى من عادته الا تدع صوتها "اليسارى" أن يعلم شيئا عما يشغل فكرها "اليمينى". وبشكل سرى، كانت كثيرا ما تشغل فكرها بأمور خاصة بالجنس- ما الذى يفعله الناس حقا؟ هل يستمتعون بما يفعلون، هل هى كان مقدرا لها أن تستمتع بنفس الأمور لو أن الحياة قد ساقتها إلى اتجاه آخر بدلا من أن تقع من نصيب بنتك ميجور.

لكن أبدا، ثم أبدا لن تتحدث فى مثل هذه النشاطات، إنها الآن تفكر فى مسز براندون وموريس. قالوا إن أحدهم وجد خطابا فاضحا، يا له من أمر عجب!

فجأة قالت مس روندر "إنها الوحدة التى تجعل الناس يفعلون أمورا عجيبة"

حملقت فيها مسز بنتك-ميجور، شعرت كأن هناك أحدهم قد ضربها بعصا فوق ظهرها، هل هذه المرأة ساحرة؟ شيء مدهش!

قالت بانفعال "أستميحك عذرا"

قالت مس روندر بصوت واضح " كنت أتحدث عن واحدة من خادماتنا، التى ربطت نفسها فجأة مع مساعد للجزار شكله سيء، كله نمش ودائما ما يتلجلج فى الحديث، بينما هى فتاة جميلة، لكن هو الخوف من الوحدة الذى دعاها أن تفعل ذلك، تريد أن تمارس ما يضغط عليها من عواطف"

"يا الله!" مسز بنتك - ميجور لم تمارس فى حياتها أبدا تلك العواطف المحتدمة، وهى لم تشتق لذلك أبدا، لكن هى على أية حال لديها كلب اسبانيل صغير، تحبه بكل إخلاص وتفرغ كل عواطفها فيه.

"نحن جميعا نحس بالوحدة- كلنا- حتى النهاية"، قالت مس روندر ذلك وكانت تعنى شخصا معينا، كانت تفكر فى ابن أخيها "لن أندهش إذا ما أحست الملكة بالوحدة اليوم، أكثر من أى وقت آخر فى حياتها!"

حينئذ، شاهدا ذلك الرجل البغيض، دافرى وهو قادم يحجل، إنه أيضا وحيد، لكنه يستأهل ذلك بسبب إدمانه الخمر والأمور الأخرى. انه إنسان شرير! ارتعشت مسز بنتك، انها تتعجب كيف يجرؤ أن يحضر إلى الكاتدرائية، لا يجب السماح له، لا سيما فى هذا اليوم بالذات، ما الذى سوف تقوله الملكة لو عرفت؟

كل من السيدتين ودافرى عبروا الباب داخلين فى نفس الوقت.

الآن الكل فى الداخل. أخذ الجرس الكبير يضرب أنغاما من الوزن الثقيل فى بئر مائى، كان الضوء يتدفق من خلال النافذة الوردية، وقد بدا عدد كبير من

الحاضرين يتمايلون كالظلال تحت طبقات من الماء العنبرية اللون، التى تتحول لتصبح قرمزية، ثم من اللون القرمزى إلى الأرجوانى ثم إلى اللون الأخضر القاتم.

لقد ضاع التفرد، وها هى ذى الكاتدرائية لا يشغل ذهنها سواء الملوك أو الملكات، ولا الحركات التقدمية أو الرجعية، فقط هى لا تفكر إلا فى ذاتها، وتلك الحياة التى بعثت فى أوصالها، فيظهر تعاليها وعظمتها وقوتها...قوة خلودها الذى هو ليس إطلاقا من صنع البشر.

بدأ قرع الطبول، وحولت أصواتها إلى صيحة نصر مبين. كانت الأنغام ترتفع نبرتها، تتلقفها الأعمدة، وتلك ترتفع بها إلى الذرى فتلتقطها أطراف وأركان هذا الصرح العظيم.

"انظر إلى عظمتى واكتمال مجدى! لقد خلقتنى لعبادة الله القدير!"

قرأ روندر الإصحاح الأول.

أخذ الأهالى يتهامسون "هذا هو روندر، القس الجديد- أوه، انه إنسان بارع، جدير بك أن تسمعه وهو يعظ !"

كل من درج على ملاحظة كل شيء، لاحظ أن روندر كان يقرأ وهو مملوء ثقة فى النفس، أكثر مما كان حاله منذ ثلاثة شهور، يبدو الحال أنه يعلم الآن مركزه الحقيقى وسوف يحتاج الأمر إلى من هو أقوى منه لكى يزحزحه من مكانه. نعم، وهذا سوف يحدث يوما لا محالة!

أما براندون، فكان عليه أن يقرأ الإصحاح الثانى. كالعادة، قام بطيئا من مكانه فى الرواق، ثم تمهل للحظات قبلما يرتقى متجها إلى منبر القراءة، أخذ الغرباء يتهامسون، الواحد للآخر "أنه قس أنيق، شكله رائع". بدا عليه نوع من التردد قبلما يصعد، كما لو أنه قد تعثر فى درجة. ببطء شديد أخذ يقرأ الكلمات الافتتاحية، وببطء استمر فى القراءة.

نظر نحوه الدكتور باديفوت وهو جلس فى الصفوف الجانبية، فكر "هناك شىء ما يعيق هذا الرجل". فجأة توقف براندون عن القراءة، أخذ ينظر حوله، كأنما هو يبحث عن وجه معين، ثم ببطء استأنف قراءته حتى انتهى.

بدلا أن يستدير عائدا إلى مكانه، مال إلى الأمام قليلا، قبض على المنبر بيديه، بدا الأمر كأنه يبحث عن شخص ما. فكر باديفوت "هذا الرجل يبدو أنه قد أصيب بذبحة صدرية". ببطء وحرص، كأنما هو يتحرك فى ظلام دامس، استدار متلمسا طريقه هابطا، وبرأس منحنٍ، استطاع أن يعود إلى مكانه.

اتى الدور بعد ذلك على سيادة الأسقف ليلقى العظة، كل فرد تمنى لو لم تكن طويلة. بعض السحب المارة حجبت الضوء وراء النافذة الشرقية، لذا تضاءلت الألوان الوردية وتحولت إلى رماد. ثم لعلع صوت الأرغن بصوت زاعق بينما يحاول الرجل جاهدا أن يخلع نفسه من عرشه. ببطء، ببطء تقدم ناحية الرواق، وعندما ظهر فوق الصحن، تركزت كل الأذهان الحاضرة مرة أخرى، وطارت العصافير خلفا، وسكن الهواء عند رؤية هذا الرجل العجوز، تلك الحقيبة الصغيرة من العظام المهتزة المتحركة، فيه ظهر واضحا كل تواريخ العالم، أعظم من الاسكندر، أجمل من هيلين طروادة، أحكم من غملائيل، أقوى من أرتاكسيراكس، فهو الذى نسج أسرار الحياة الخالدة الواضحة للعيان.

شعره أبيض، وجهه رمادى، يداه كأنما هما مخلبا طائر، وكما يعثر الطفل على مهده، هكذا صعد هو إلى المنبر. هو الآن أقرب مقصدا إلى السماء، بينما الأرض تمثل الظلام بالنسبة إليه.

"فليكن المولى معك"

"ومع روحك أيضا"

كان صوته واضحا يسمعه الجميع، تحدث لفترة بسيطة - أخبرهم عن الملكة، من إنها كانت ملكة صالحة لشعبها على مدى ستين عاما، وأنها كانت

تخاف الله. أخبرهم أن هذا الصلاح هو سر من أسرار السعادة! وأن الله قريب منا أكثر مما نتصور، وليس علينا سوى أن نطلبه فيوجد. قال"أعتقد أنه لن يتاح لى بعد ذلك أن أحدثكم من هذا المكان. اننى رجل عجوز، وربما فكر بعضكم بأننى أعجز من أن أودى عملى المطلوب منى هنا- والبعض طلب منى أن استمر. لقد أحببتكم جميعا، وسوف أشعر بوحدة وفراغ عندما أبتعد عنكم. أيضا، ملكتنا العزيزة هى أيضا سيدة عجوز، لعلها وسط احتفالها بالنصر، تشعر أيضا بالوحدة. إذن صلوا من أجلها، ثم صلوا من أجلى قليلا، من أنه عندما أتقابل مع الله، أن يغفر ذنوبى، وأن اصنع فعالا أفضل مما صنعت وأنا على الأرض. أحيانا تقدم لنا الحياة الأحزان، وأحيانا ما يحل الظلام والقتام فى مسيرتنا، لكن فى النهاية، هناك مصدر دائم للجمال والروعة، لذا علينا دوما أن نشكر الله ونحمده"

ركع ثم صلى، كلهم صلوا معه، دافرى ومسز كمبرمير، ألين ستايلز وموريس، ليدى سانت ليث ومسز براندون، جوان ولورانس، روندر وفوستر.

كلهم، فى لحظة، اتحدوا جميعا روحا وجسدا، ركعوا فباركهم الرجل العجوز من مكانه عند المنبر.

ترنموا جميعا "الآن فلنشكر الرب إلهنا"، ثم حل بعد ذلك طقس منح البركة.

* * *

### الفصل السادس

## يوم الثلاثاء، ٢٢ يونيو: ٢ـ المعرض

فيما كان براندون يغادر الكاتدرائية، تقدم نحوه روندر. براندون، برأس منحنٍ، سلك طريق القلايات، وهو طريق يمكن أن يوصله إلى منزله بسهولة، كلاهما كانا بمفردهما فى الظلال، كأنهما فوق خشبة مسرح.

"أستمحيك عذرا يا أرشدياكون، يجب أن أتحدث معك"

رفع براندون رأسه، وحملق فى روندر قائلا:

"ليس لدى ما أقوله لك. لا أريد أن أتحدث معك"

"إننى أعلم ذلك"، فى الحقيقة، كان وجه روندر منقبضا يرتسم عليه ملامح لم تشاهد عمته مثيلا لها من قبل. تحرك براندون لا يلتفت يمينا أو يسارا، لحق به روندر:

"أشعر ما تشعر به نحوى، لكن اليوم - إلى حد ما - وبعد هذه الخدمة الكنسية، أشعر أنه ليس لائقا أن تستمر اختلافاتنا سويا بدون أن نتحدث مع بعض. ليس الأمر سهلا بالنسبة لى، لكن...." توقف عن الحديث. ارتعش صوت براندون وهو يرد:

"ليس لدىّ ما أقوله لك، ولا أود أن أتحدث معك، لقد نصبت نفسك عدوا لىمنذ أن وطأت قدماك هذه المدينة. عملى - ثم عائلتى...."

"إننى لست عدوا لك، بالحق لست عدوك. لا أنكر أننى عندما حضرت إلى هنا لاحظت أنك أنت أهم شخصية فى المكان كله، لكنك تختلف كثيرا عنى فى

مجالات التفكير بالنسبة لمواضيع متعددة وهامة، وأنت الرجل الأمين، لا أعتقد أنك تسمح أن أتنازل عما أن مقتنع وأؤمن به معتقدا أنه يدخل ضمن واجباتى ومسئولياتى. أما عن هذه المعركة التى دارت بيننا فى الطريق، فأنا لم أسع إليها أبدا. إننى كنت معجبا بك منذ البداية، لكن مسالة مثل موضوع بايبس، جعلتنا فى معسكرين مختلفين، إلا أننى أؤمن أن هناك نوعًا من التوافق بيننا فى كثير من المسائل، بحيث من الممكن أن نصبح أصدقاء، نعمل....."

توقف براندون "هل أتى إليك ابنى قبلما يسافر إلى لندن، أم لم يأتِ؟"

تردد روندر "نعم، لكن...."

"هل طلب نصيحتك أم لم يطلب؟"

"نعم هذا حدث، لكن...."

"هل نصحته أن يسلك نفس السبيل الذى نفذه بعد ذلك؟"

"لا، بشرفى لا، لم يحدث. لم أكن أعرف ما هى حقيقة المشاكل التى كان يعانى منها، ولم أطلب منه أن يشرح لى....، هو لم يخبرنى، تحدثنا فى عموميات..."

"ألم تسمع قبلما يحضر إليك بعض التقولات عنه؟"

"سمعت بعض الحكايات السخيفة..."

"حسنا، إذن"

"لكن أنت يجب أن تسمعنى يا أرشدياكون، اننى بالكاد كنت أعرف ابنك. لم أقابله سوى مرة واحدة فى منزل أحدهم، ولم أتحدث معه سوى لمدة خمس دقائق، وهو نفسه الذى طلب أن يحضر إلى ويقابلنى، لم أستطع أن أرفض طلبه، فقد كنت معجبا به، وبكل بساطة رغبت من أجله أن أعرفه أكثر. عندما حضر، لم يجلس

معى طويلا، كان حديثنا كله منصبا على أمور تختص بالعقائد والدين، مثل الإيمان ومعرفة الله ومعنى الحياة، وليس شيئًا آخر"

"ألم يقل لك، عندما غادرك، أن ما أخبرته به قد ساعده على اتخاذ القرار المناسب؟"

"نعم"

"هل لم تكن تعلم وأنت تحدثه أنه ابنى، وأن أى إجراء يتخذه من الممكن أن يؤثر فى حياتى وسعادتى؟"

"بالطبع كنت واعيا بأنه ابنك، لكن...."

"هناك سؤال آخر أود أن أطرحه يا قس روندر، هل أتى إليك شخص ما حاملا رسالة مدعيا أنه بخط زوجتى"

مرةَ أخرى تردد روندر:

"نعم"

"هل جعلتك تقرأ هذا الخطاب؟"

"نعم"

"هل سألتك أن تنصحها بما يجب أن تفعله؟"

"نعم...لكن أنا قلت لها...."

"هل قلت لها أن تحضر هذا الخطاب لى أنا؟"

"لا، بحياتى يا أرشدياكون، أبدا. قلت لها أن تدمر هذا الخطاب وأن تصرفها هذا ليس سوى عمل خسيس"

"هل صدقت أن هذا الخطاب هو بخط زوجتى؟"

"لا"

"إذن لماذا وأنت تعلم أن هذه المرأة تزرع المدينة كلها حاملة خطابا مزورا، مهددة بذلك سعادتى وسعادة عائلتى، لماذا لما تحضر لتخبرنى بذلك؟"

"يجب أن تعلم يا أرشدياكون أننا لم نكن على وفاق حينذاك، وقد اشتبكنا قبلها مباشرة فى خناقة غريبة الشكل، والتى أصبحت بطريقة غامضة حديث المدينة كلها. لم أكن متأكدا من نوعية الاستقبال الذى سوف تخصنى به إذا حضرت إليك"

"حسنا، هناك سؤال إضافى أود أن أسأله، هو أنك منذ أن وطأت قدماك هذه المدينة وأنت تضع الخطط لتكون معارضا لى فى موضوع تعيين الشخص المناسب لموقع بايبس. لقد لاحظت أين أقف أنا، لذا على الفور اتخذت الطريق المعاكس. منذ تلك اللحظة أخذت تجول كل المدينة تقابل كل أنواع البشر، تجذبهم إليك سواء بالمداهنة أو تقديم الاقتراحات المختلفة لكى يساندوك، هل تنكر ذلك؟"

ضد إرادته وقدرته على التحكم فى أعصابه، بدأ الغضب يتملك روندر:

"اننى كنت أضع وأنصب خططا، كما تدعى، هذا أنكره تماما وأستنكره. إنها كلمة مهينة. حقيقة الأمر هى أن معارضتى فى موضوع بايبس كانت معروفة منذ البداية للجميع. كنت معارضا لك لأننى أؤمن أن الخط الذى اتبعته هو لمصلحة كنيستنا هنا، لم يكن هناك أي نوع من المشاعر الشخصية فى هذا الموضوع"

ارتفع صوت براندون فجأة "أنت تكذب، كل ما رويته الآن هو عبارة عن كذب. أنت عدو لى وعدو للكنيسة أيضا، وبمعونة الله، فإن خططك وتدبيراتك وتزييفك سوف تقهر جميعا. يمكن لك أن تنزع منى زوجتى وأولادى، يمكن لك أن تدمر عملى هنا الذى جاهدت فى تشييده منذ عشر سنوات بكل جهد وإخلاص، لكن الله جل جلاله هو أقوى منك ومن تدبيراتك وسوف يقف ضدك ويهزمك. إننى عدو

لك يا قس روندر حتى النهاية، لذا خذ حذرك، لقد انغمست فى مواضيع ربما يكون للقانون شأن بها. خذ حذرك، خذ بالك واحذر!"

سار بعدها سريعا متجها إلى منزله.

أتى ضيوف على الغداء، وكانت قد وجهت إليهم الدعوة منذ أسابيع سابقة. هو بالكاد استطاع أن يتعرف عليهم. واحد منهم كان مستر مارتن، الآخر هو الدكتور الشاب ترودون، أيضا السيدة العجوز مسز بورلى وذلك الآنسة بارستر. بالكاد تعرف عليهم بالرغم أنه تحدث معهم بنفس طريقته المعتادة، لذا لم يلاحظ أحد شيئا. أيضا كانت مسز براندون تتحدث معهم بنفس طريقتها المعتادة، هذا يعنى أنها بالكاد تحدثت معهم. وفقط خلال فترة ما بعد الظهر هذه، عندما كان الدكتور ترودون يحتسى الشاى فى بيت العميد، أكد هو لجوليا برستون أن كل الأحاديث والإشاعات الدائرة هى فى حقيقتها مزيفة وغير حقيقية، وأن الأرشدياكون لم يبد فى أحسن حال كما هو فى أيامنا هذه. كان شيئا ظريفا أن يتذكر ذلك فيما بعد!

هم عبارة عن ظل من الظلال! عندما غادروا جميعا منزل براندون، كان الموقف يشبه كأنهم لم يحضروا إطلاقا، صوت أحاديثهم المتنوعة ماتت مع دقات الساعة وحركة الأطباق وزحزحة المقاعد.

دخل هو إلى مكتبه وأغلق بابه عليه. جلس هناك داخل قلعته الحصينة. كبس نفسه داخل مقعده الأثير وكل الأشياء داخل المكتب تجمعت حوله وهو ترمقه بنظرات كلها ود وحب عميق:

"نحن ما زلنا هنا فى انتظارك. نحن أصدقاؤك القدامى، ونعرف قيمتك الحقيقية، ولن نتغير أبدا مهما يحدث فى العالم من أمور"

وهو جالس، استغرق فى نوم عميق. كان يشعر بتعب مميت. إنه لم ينم لحظة واحدة الليلة الماضية. فى الحال، غرق فى لجة عميقة لا قرار لها، شعر أنه يصعد ثم يصعد، يرى أمامه جبلا عاليا قمته مغطاة بالثلوج الكثيفة. يجب أن يواصل الصعود لأن حياته تعتمد على ذلك. شعر كأنما هو عار تماما، الرياح تضرب جسده كأنها السياط، والدنيا بردها ثلجى، لدرجة أنه كان يشعر بأن أنفاسه تطعنه وهو يزفر بها. استمر فى تسلق الجبل فتعرضت يداه وركبتاه للجروح والإصابات. فجأة ظهر أعداؤه على الجانبين، بنتك ميجور وفوستر، مساعد الأسقف ونساء، وحتى أطفال. الكل كان يضحك منه ويسخر به، خلفهم وقف هوج وذلك الفنان السكير، أيديهم تشير نحوه، ثم اقتربوا منه وأخذوا يخربشون جلده ويلكمون وجهه، ثم، فجأة، ظهر من خلف التل وجه قمرى كامل- انه روندر.

استيقظ وهو يصرخ. كانت الشمس تفرش المكتب. وفى فرحه بهذا الضياء الجميل، وتأكده أنه جالس بمفرده وحيدا، هذا جعل الدموع تتساقط سخينة من عينيه ارتياحا وفرحا.

عادت إليه أفكاره سريعا. لقد حصل عقله على الصفاء بسبب استغراقه فى النوم، بالرغم ما صاحب ذلك من أحلام مزعجة. إنه الآن يفكر بوضوح وجلاء، وكل الحقائق رتبت نفسها أمامه. لقد أخبرته زوجته، تقريبا وهى تتفاخر بشكل إجرامى أنها قد ارتكبت جريمة الزنا، هو الآن لا يفكر إطلاقا فى موريس.

بالنسبة إليه، هو يعتبر جريمة الزنا من المعاصى الكبرى - هو عن نفسه، كان دائما مخلصا لزوجته، بالرغم من أنه ربما لم يحبها على الإطلاق. هو رجل ذو بنيان قوى وروح وثابة، وطبيعيًا، لا سيما أيام الشباب، كان على وعى كامل بمدى جبروت النزوات والإغراءات الجنسية، لكن انشغاله فى هذا الوقت بأعماله المتعددة الأغراض، أنقذته مما يمكن أن تفعله أوقات الفراغ بالنسبة للآخرين. مع ذلك، يمكن بكل ثقة القول إنه مهما كانت الإغراءات قوية، فإنه ما كان مقدرا أن يستجيب لها، فهذه الخطيئة فى نظره هى عبارة عن تعدٍ على حق الله تعالى.

إنه لا يدعى امتلاك طهارة القديسين، لكنه يمتلك ثقة ويقين ذاك الذى سلم إرادته بالكامل إلى إرادة الله، وأقسم أمامه أن لا يكسر أبدا وصاياه.

لكن مع ذلك، بالرغم من الرعب الذى شعر به بسبب اعترافات زوجته، كانت مشاعره مختلطة، توهمه بأعظم المخاوف من أجلها، فقد عاشت معه طوال تلك السنوات، وكان هو راعيها وحارسها وزوجها أيضا.

لقد أصبحت روحها الآن فى خطر داهم، إلا إذا استطاع بوسيلة أو بأخرى أن ينقذها، والمفترض أنه هو الوحيد القادر على الوفاء بذلك، وهذا الأمر له أهمية عظمى الآن، فالخطر الذى تتعرض له هو خطر داهم، كأنما هو هجوم حيوانات مفترسة تود أن تقضى عليها.

خطر داهم؟ لكن هى سقطت بالفعل. إنه لا يستطيع أن ينقذها، لا شىء يمكن أن يفعله لأن تمتنع عن تنفيذ خطيئتها. ما إن رسخ هذا الفكر فى دماغه، حتى تملكه يأس قاتل، واخذ يئن بصوت عال، مانعا وصول الضوء إلى عينيه بكلتا يديه.

تبع ذلك تكذيب جامح؛ كل ما ذكرته هو كذب صريح. فعلت ذلك لكى تغضبه وتعبر عن احتقارها له. لذا قفز من مقعده واتجه مسرعا نحو الباب، سوف يعثر عليها ويخبرها بأنه عرف الآن أنها كانت تكذب عليه، وإنه لا يصدق إطلاقا أنها.....

فى منتصف الطريق توقف. إنه يعلم أنها نطقت بالحقيقة. عندما نظر كليهما إلى بعض، أدرك أنها تنطق بالحقيقة، لذا شعر فى الحال أن هناك حاجزًا زجاجيًا وحاط صد قد ارتفع بينهما- حاجز زجاجى يكشف كل شىء خلفه، وحائط صد يفصل بينهما إلى الأبد.

كان عقله الآن يتلوى كأنما هو ثعبان يفرد ويثنى جسمه وسط مخه الملتهب نارا. انتقل على الفور جهة موريس. عليه أن يعثر على موريس فى التو واللحظة

- بدون أى تأجيل، نعم فى الحال، فى الحال!. لكن ما الذى يمكن أن يفعله معه؟ هو لا يدرى. لكن يجب أن يواجهه وأن يتعامل معه- هذا الإنسان البائس المجرم، المغفل الباكى، أن يقدم على...يقدم على....! توقفت الصورة هنا. لا يتراءى أمامه الآن لا زوجته أو موريس، فقط يرى قبعة كهنوتية عالية، وياقة مرتفعة كأنها الحائط، وضحكة داعرة وباب يغلق.

داهمه مرة أخرى ذلك الصداع الرهيب، وبدأ قلبه يدق بعنف يكاد أن يقفز من مكانه. لكن ولا يهم. يجب أن يعثر على موريس. لا شىء آخر. ذهب ناحية الباب، فتحه، وتحرك بحذر فى الصالة كأنما هو قد اقتحم منزل شخص آخر بغرض سرقة المنزل.

بينما هو يعبر الصالة، كانت مسز براندون تعبرها أيضا. شاهدا بعضهما ووقفا يحدقان، كادت أن تنطق بشىء، لكن كان هناك شيئ فى وجهه جعلتها فى حالة من الرعب البالغ، كان الخوف شديدا لدرجة أنها التفتت إلى الخلف وصعدت السلم سريعا، وهى تكاد أن تتكفئ على السلالم، بينما تردد بعض الكلمات لنفسها وتعيد فيها. لم يتحرك من مكانه. راقبها حتى اختفت.

شىء ما جعله يسرع بتغيير ملابسه. ارتدى بنطلونه ومعطفًا قديمًا وقبعة قديمة أيضا. قضى وقتا طويلا فى غرفة الملابس ينظر إلى المرآة، يحملق فيها كأنما هو يود أن يعثر على نفسه. أثناء تفحصه لنفسه، خيل إليه أن هناك شخصًا ما خلفه، لذا اخذ يبحث عن صورته فى المرآة، لكنه لم يعثر على شىء. تحرك بحذر وخرج من المنزل بعدما أغلق باب الصالة السميك خلفه بكل حرص؛ كان المساء يتقدم حثيثا، ولاحظ أن ظلال الأمسية الصيفية يتنقل من مكان إلى آخر.

لقد انتوى أن يذهب على الفور إلى منزل موريس، لكن شعر أن رأسه يكاد أن ينفجر، لذا فكر أن يتمشى قليلا حتى يجلو تفكيره، هذا هو ما يحتاجه بالفعل، أن يسيطر على نفسه! فهذه هى خطتهم الذكية، أن يجعلوه يفقد قدرته على التحكم فى

نفسه، لكى يظهر أمام الجميع أنه لم يعد مناسبا لأن يعهد إليه القيام بمهام وظيفته. يجب أن يسيطر على كل حواسه، صوته، وجسده وأفكاره، لذلك عليه الآن أن يسير فى أكثر الأماكن قتاما، وأن يسلك أصغر الشوارع، إلى أن يسترد أنفاسه مرة أخرى. لذا اختار أن يسلك الطريق الملتوى المظلم الذى يهبط تدريجيا من الكاتدرائية ثم يسير خلف منطقة مساكن القسس حتى يصل إلى شارع بودجر وبعدها يصل حتى نهر بول.

كان الظلام حالا هنا، حتى فى تلك الأمسية الصيفية الجميلة، لم يقابل أحدا فى مسيره، فقط كان يستمع إلى الصيحات والأجراس، صوت أغانى تتردد بعيدا. من رحم التل المقابل، استمع للأصوات المختلطة فى أرض المعارض. عند نهاية الطريق، وقف لحظات ينظر ناحية شاطئ النهر؛ هنا يجرى نهر بول بسرعة وحماس، كأنما هو نهر ريفى، عبره مستخدما الكوبرى الذى يصل بين ضفتيه، لكنه كان يسير كأنما هو فى حلم. أخذ يحملق فى التل الذى يقع على الجانب الآخر، انه الآن لا يفكر فى شىء على الإطلاق؛ فقط كان يشعر بألم ممض يخترق قلبه، وبوحدة قاتلة ترافقه. الوحدة! يا لها من عذاب! لا أحد بجانبه، لا أحد يتحدث معه، كل عين ترمقه بسخرية- حتى الله سبحانه، يخفى نفسه عنه وراء جدران وتلال.

أثناء صعوده الطريق، كانت أرض المعارض تقترب منه، عبر طريقا فوجد أمامه شخصا يطلب إحسانا، فأعطاه شلنا ثم تحرك للأمام. انه يحب الاختلاط بالجماهير، وهو يريدهم الآن، يريد أن يذوب وسطهم شريطة أن لا يلحظه أحد.

هناك بضع آلاف قد تجمعوا هناك- لكن مع ذلك، كثيرون تعرفوا عليه، إنه الأرشدياكون. من كان يظن أن يحضر المعرض؟ هو إنسان مرموق- لكن ها هو الآن وسطنا. نعم هو الأرشدياكون ذاته، ذلك الرجل الطويل بقبعته اللينة. نعم، لقد لاحظ بعضهم ذلك. لكن هناك الآلاف لم يلاحظوه، كان المعرض ممتلئا بكثير من الغرباء الذين وفدوا من جميع أنحاء القطر، بحارة وغجر. مزارعين ومومسات،

نساء لسن أفضل مما يجب أن يكن عليه، أيضا فتيات يعملن فى المحلات والأكشاك، وزوجات فلاحين محترمات، وبنات ريفيات من كل الأنواع! هم بالآلاف، ومعظمهم لا يعرف عن الأرشدياكون شيئا.

هذا هو المعرض العام، هو أعظم ما تتباهى به بلدتنا! وأعظم ما يمكن أن تراه فى أى مكان.

وكما هو الحال مع أشياء أخرى، فإن الاحتفال باليوبيل يؤرخ لفترة معينة، ولن تشاهد معارض تفوق معارض زمان فى الروعة والجمال- وعلى عاتق العلم الحديث أن يوضح لنا ذلك. معرضنا هذا كان يشتمل على كل العناصر التى تشعل الخيال، وكل ما يصاحب المعارض العامة تجده هنا- الأختان السمينتان (هناك يافطة معلقة خارج خيمتهم تحذر الزوار من دفع واحدة منهما بطرف المظلة لكى يتأكد من أنها سمينة أم أنها تدعى ذلك). أيضا تجد تريكسى، وهى تلك السيدة الصغيرة بلا يدين أو قدمين وتكتب باستخدام أسنانها، أيضا تعثر على ألبرت الكبير، أقوى رجل فى أوروبا، الذى يستطيع أن يحمل أثقالا تفوق قدرة أى إنسان آخر فى المعرض، هناك أيضا المقاتل ادوارد بطل الملاكمة فى كل المقاطعات الجنوبية؛ كذلك سيرك هيبو العالمى، يحتوى على ست قرود، وأسدين، وثلاثة نمور وخرتيت؛ نجد أيضا كل ألعاب إطلاق النار بالمسدس، رمى الجلة، كل أنواع الحلويات لا تعثر على مثيل لها فى أى مكان.

كل هذه الأشياء موجودة هنا، لكن خلفها، فى الأطراف، هناك أمور غير اعتيادية تحدث. ادعى البعض أن هناك سفينة وفدت من الشرق ورست فى درايماوث، وأن هناك فرقة بهلوانات صينية وعددًا من البحارة الأجانب، بدلا من أن يتوجهوا إلى لندن كما رغبوا، قصدوا جميعا بولشستر. لكن كيف عرفت أنا ذلك؟ وكيف تيسر لنا أن نعلم عن أى شىء يفد إلى مدينتنا، وما الذى يهم فى هذا الموضوع؟ لكن أقول أنه فى تلك الفترة، كان يعيش فى منطقة سى تاون رجل صينى عجوز، حضر منذ أيام احتفالات اليوبيل، ظل هنا منذ ذلك الحين، يغسل

الأطباق ويتصرف بكل احتشام ولا تصدر منه رائحة الأفيون. واحدة من العناصر التى أضافوها إلى معارضنا هى عنصر اللون، فمعارضنا الحديثة تفتقر بالفعل إلى عنصر اللون. صحيح أن أحد أراجيحنا كانت تلمع باللون الذهبى، وفى وسطها تصدر الموسيقى، بينما يوجد هناك عدد من النسوة بوجوه ذات لون نحاسى وصدور ذهبية، وحقيقى أيضا أنه يوجد خارج نطاق السيرك والأختين السمينتين والمقاتل ادوارد، صورة رسمت باللون الأحمر والأصفر، لكن الآن، وعلى بعد ياردات من السيرك، كان هناك كشك معلق عليه أقمشة غريبة الشكل بلون قرمزى وأصفر وأرجوانى، وخلف الحاجز الخشبى، وقف رجل وامرأة، وجوههما بلون بنى، منهمكان فى صنع بعض الحلويات الغريبة التى يلفونها فى أوراق ملونة. فى الجانب الآخر من الأختين السمينتين، هناك محل لى هونج، وقد كتب اسمه فى أعلا المكان باللون الذهبى والأحمر، والمحل ملىء بالصور والألعاب المختلفة.

بعيدا، فى آخر مجموعة الأكشاك، توجد خيمة هاياكاوا البهلوان، يوجد فى خارجها ولد صغير يرتدى ملابس لونها زهرى، يدور ثم يدور على رأسه كالنحلة. فى الداخل، كل نصف ساعة، يؤدى هاياكاوا ألعابه المدهشة، يأكل النار، ويخترق نفسه بسيف فضى، يخرج فئرانا من بين أصابع قدميه ويسحب أشرطة قرمزية من أذنيه.

على بعض خطوات قليل هناك الأخوة جوميز، وهم من الأسبان، وجوههم سمراء وأحجامهم ضخمة، يسير بعضهم على سلك معدنى معلق فى الهواء، يقفزون وهم يتصايحون، ويصنعون أهراما وهم وقوف، عضلاتهم تلمع فى الشمس كأنما هى كور البلياردو.

خلفا والى الأمام، فى الداخل والخارج، كانت تتحرك أشكال غريبة الشكل من البشر، وأصوات غريبة تتصاعد حتى تصل إلى سمت سماوات هذا المساء، روائح طبخ غريبة، صوت أغانى غريبة تتصاعد فجأة ثم تموت بمجرد الاستماع إليها.

لم يكن براندون فى تمام وعيه وهو يتنقل من مكان إلى آخر داخل المعرض، حتى التفكير بموريس هرب منه، لم يعد قادرا على إعمال التفكير المنطقى، كان ذهنه محطما كأنما هو مرآة تهشمت إلى ألف كسرة. هو فى الحقيقة ما زال أسيرا للحلم، وقريبا سوف يصحو، بعيدا عن هذه الصيحات والضوضاء، سوف يجد نفسه كما اعتاد منذ سنوات عديدة جالسا فى غرفة الاستقبال بمنزله وساقاه ممدودتان أمامه، زوجته وابنته بجواره، ربما يكون مشغولا بمهام الغد والمدينة كلها حوله، الأصدقاء وكل من يتمنون له الخير، وليس هناك ألم يفجر دماغه، وبكل سعادة وتؤدة ينشغل بوضع كل شىء فى مكانه الصحيح....ويكون دائما سعيدا...سعيدا...آه! كم هى مفعمة بالسعادة تلك الحياة الحقيقية! وعندما يصحو من حلمه، سوف يتحقق من كل هذه الأمور ويشكر الله، فقط عندما يصحو.....

فجأة تعثر فى شىء، و، وهو ينظر أعلى، أدرك أنه يقف وسط منطقة مزدحمة بالناس. كانت هناك نار تزمجر فى مكان قريب، عبارة عن شعلات غازية تهمس برغم أن الأمسية كانت صافية ومنيرة، أما الصيحات والأصوات، بدت وكأن السماء ترتعد بعنف فوق رأسه.

أين هو؟ ما الذى يفعله هنا؟ لمَ أتى إلى هنا؟ يجب أن يعود إلى المنزل. لذا استدار لكى يواجه النار بألسنتها الملتهبة القريبة منه، كانت تشتعل خلف خيمة كبرى. أخذ براندون يحدق فيها كأنما هو قد انجذب بفعل ضيائها. ما الذى يرى فيها؟ ربما يشاهد رؤى؟ هل يرى الكاتدرائية ومنطقة الملحقات مع دائرة المنازل الرصينة القديمة المجاورة لها؟ لعله يرى أيضا منزله وغرفة نومه؟ هل يشاهد زوجته وهى تتحرك سريعا داخل الغرفة، تفتح وتغلق أدراجا، تتوقف قليلا لكى تتنصت، ثم تخرج وتقفل الباب وراءها، تتسمع مرة أخرى، ثم تهبط السلم، تتوقف قليلا فى الصالة لكى تضع شيئا على المائدة، ثم تخرج خارجا لتضمها الأضواء الخضراء لتلك الأمسية؟ أم أن هذا اللهب قد رسم أمامه صورة لمحطة قطار

مهجورة، كذلك الرصيف الطويل وقد أنارته لمبة وحيدة، ثم يشاهد شخصين يتقابلان، لا يتبادلان أية كلمة، يسيران لفترة فى صمت تام فى ذلك المكان المهجور، يتراجعان قليلا بينما يدخل قطار لندن السريع الذى يقف ونيدا أمام المحطة- إنها ليلة مناسبة للهروب - ثم يدفنان أنفسهما داخل لقطار كأنهما أرنبان دخلا المخبأ الحصين.

هل قادته تلك الرؤى ليعود إلى منزله المهجور، الذى يعتبر الآن خاليا إلا من تلك الساعات التى تدق بانتظام كالمعتاد، أم أنه يعى فقط ذلك الدفء وحياة النار، مع إحساس بصحبة مفاجئة مع المرأة التى كانت تغذى النار بالعصى والأخشاب الصغيرة، ثم ترفع قدرا من قلب هذه الشعلة؟ ربما كان يشعر بنوع من السلام الفجائى يلمس قلبه، بينما تتجلى النجوم بكل روعتها فوق قمة رأسه.

لكن هذا السلام الذى شعر به للحظات، صادف ما يقاطعه، سمع صوتا تعرف عليه على الفور قادما إليه من الناحية الأخرى من النار:

"لماذا، أهلا يا أرشدياكون. من كان يظن أن يجدك هنا بالذات؟"

أخذ براندون يحدق فى النار، استطاع أخيرا أن يميز محدثه، انه دافرى الرسام السكير.

استدار لكى يرحل، فى الحال كان دافرى بجواره:

"لا، لا تذهب. أنت فى منطقتى الآن وليست منطقتك، وأنت لست الآن ديك هذا المكان كما تعلم. آخر مرة تقابلنا فيها كنت تظن أنك تمتلك المكان...حسنا، لا تستطيع أن تدعى ذلك هنا. دافع عن نفسك يا أرشدياكون...دافع"

أجاب براندون:

"لست فى معركة معك يا مستر دافرى، وليس لدى ما أقوله لك"

"لست فى معركة؟ اننى سعيد بسماع ذلك. سوف أكسر لك دماغك أيها المنافق، نحن فى أرض محايدة الآن"

كان صوت دافرى حادا، بينما هو يتمايل على ساقيه. نظرت المرأة من النار وأخذت تراقبهم. أدار براندون ظهره فرأى أمامه صامويل هوج وبعض الرجال خلفه.

"ماذا، مساء الخير يا أرشدياكون"، قال هوج ذلك وهو ينحنى رافعا قبعته "يا له من مكان رائع نتقابل فيه"

قال براندون بصوت هادئ "هل تريد شيئا منى؟"، لاحظ أن هوج سكرانا.

"لا شىء، فقط أود أن أرشدك إلى مكان يمكن لك أن تهرب إليه. لقد كنت فى انتظار حدوث ذلك منذ أسابيع ماضية. انظروا إليه يا أولاد، ترون الآن أمامكم ذلك الرجل الذى انتهك عرض ابنتى- وهى من أفضل الفتيات - نعم، دمرها بالكامل، هو وابنه الملعون، ما الذى يمكن أن تقولوه يا أولاد، هل يحق له أن يتجول هنا كأنما هو ديك رومي لا يستطيع أحد أن يقترب منه؟"

ابتسم الرجال المصاحبون له وضيقوا الخناق أكثر على براندون. فجأة هجم دافرى عليه، فعاجله براندون بضربة قوية أوقعته أرضا.

صاح هوج "الآن عليه يا أولاد". فى الحال كان الجميع فوقه، ارتفع وجه هوج فاستطاع براندون أن يشاهد كل تفاصيله. ضربه براندون، ثم شعر بضربات موجعه تنهال عليه، وأحدهم يرفسه من الخلف، استطاع أن يشاهد النار وهى تتصاعد عاليا خلفه، وسمع أيضا تلك الصيحة الثاقبة التى صدرت من تلك المرأة، لاحظ أيضا أن شىء ما يقتحم عينيه، ثم شعر بتلاحم مفاجئ مع جسد عار دافئ وعينين شبه مغمضتين ترتفع وتنخفض أمامه، سمع بعد ذلك صرخة ثاقبة، ثم حل صمت مفاجئ. اعتمد بعد ذلك على ركبتيه باحثا عن قبعته فى ظلام دامس، سمع صوته بعيدا يغمغم "إنها قبعتى...يجب أن أعثر عليها...."

مسح جبهته، وظهر يده كان مغمورا بالدماء.

استطاع مرة أخرى أن يشاهد لهيب النار وسمع صوت المبتهجين حولها. أخذ يحملق، لم يشاهد إنسانا بقربه. رفع نفسه بمشقة بالغة، شاهد النجوم، ثم ببطء شديد، كأنما هو أعمى يتلمس طريقه فى الظلام، سار وهو يعرج حتى حافة الحقل، عثر على بوابة فعبرها، ثم انهار أرضا وهو يرتعش فوق سور من ظلام قاتم.

* * *

### الفصل السابع

## الثلاثاء، ٢٢ يونيو: ٣ـ احتفال المشعلات

حضرت جوان إلى المنزل حوالى الساعة السابعة مساء، حيث إن موعد العشاء يحل فى الساعة السابعة والنصف. قررت أن تذهب بعد العشاء إلى منزل العميد لكى تشهد من هناك احتفال المشعلات فى حديقة الدار. لقد قضت أفضل وقت بعد الظهر، كانت مسز كمبرمير طيبة للغاية معها مؤخرا، وقد اصطحبتها إلى معرض الزهور فى القلعة، هناك قضت وقتا رائعا، تتحدث وتسير مع جونى. لقد تحدثا سويا رغم أنف والدته واتفقا على كل شىء. نعم - بكل بساطة، كل شىء. أخبر كل منهم الآخر بأن حبه أبدى وأنه لا شىء يمكن أن يمسه أو يزحزحه - لا شىء!

جوان، من جانبها، ذكرت له أنها لن تقبل أن تخطب إليه قبل موافقة والدته، وإنه إلى أن يحين موعد خطوبتهما، يجب أن يتصرفا كأنهما ليسا بمخطوبين. هذا يعنى أنهما لا ينفردان وأن لا يكتبا لبعضهما خطابات لا يجوز أن يطلع عليها أحد. أكدت له جوان أيضا أنه إذا ادعى أحدهم أنها سوف تدمر مستقبل جونى، أو أنها فتاة سيئة متآمرة، أو أن الفتيات الصغيرات لا يفعلن مثلها، فهذا لن يحدث أبدا فرقا عندها، فهى تعلم من هى، أيضا جونى يعلم من هو، وهذا فيه الكفاية كلها بالنسبة لهما.

أيضا من جانبه، أكد جونى أنه سوف يكون صبورا لفترة من الزمان ويكون ملتزما بهذا الاتفاق، لكن هذا لن يطول كثيرا، وإنه لا يجب أن ترفض ارتداء خاتم صغير كان قد اشتراه لها. ليس من الضرورى أن تضعه فى إصبعها، يكفى فقط أن تبقيه بجانبها حتى تتذكره دائما.

لكن جوان اعترضت على ذلك، بقولها إن قبولها هذا الخاتم يعنى أنها قد خطبت له بالفعل، لذا أصرت أن يبقيه معه حتى يتم خطبتهما رسميا.

لذا حضرت إلى منزلها وهى تطفر سعادة لدرجة أنها وجدت نفسها مضطرة أن تخبر مسز كمبرمير بكل شيء. كانت هذه السيدة فى منتهى الرقة معها وأكدت لها أنها على حق كامل فى كل ما فعلته، وهذا جعل السيدة العجوز تعود بذاكرتها إلى أيام الصبا. أخبرت الفتاة أنها سوف تفعل ما فى وسعها لمساعدتهما، وعندما غادرتها عند قنطرة آردن، قبلتها كأنما هى ابنتها.

لذا وجوان تتوهج سعادة حضرت إلى المنزل. بدا المنزل فى نظرها صامتا خاويا بالمقارنة بالشمس الساطعة والضحك الذى عهدته فى معرض الزهور. ذهبت مباشرة إلى غرفتها فى قمة المنزل وغسلت وجهها ويديها ثم سرحت شعرها وارتدت فستانها الأبيض.

أثناء هبوطها السلم، دقت الساعة معلنة السابعة والنصف. فى الصالة تقابلت مع الخادمة جلاديس، قالت هذه:

"من فضلك يا آنسة، هل نعيد أطباق العشاء؟"

"لماذا، أليست ماما موجودة؟"

"لا يا آنسة، لقد غادرت المنزل حوالى السادسة مساء ولم تعد بعد"

"أليس الوالد هنا؟"

"لا يا آنسة"

"هل قالت أنها سوف تتأخر؟"

"لا يا آنسة"

"أوه – حسنا، يجب أن ننتظر حتى تعود والدتى"

"نعم يا آنسة"

شاهدت بعد ذلك خطابا على مائدة الصالة، التقطته، كان معنونا باسم والدها. إذن هى مذكرة تركها أحدهم. هى لم تفكر كثيرا فى هذا الشأن؛ فكثير ما كانت المذكرات تترك، لكن الخط كان مشابها لخط والدتها، لكن هى بالطبع لن تكتب مذكرة بهذا الشكل. دخلت جوان إلى غرفة الاستقبال. هنا كان الصمت شاملا وعدائيا. أخذت تسير ذهابا وإيابا، تنظر من خلال النافذة الطويلة متطلعة نحو الغسق البنفسجى. حضرت جلاديس لكى تغلق النافذة.

"ألم تقل ماما أى شىء عن موعد عودتها؟"

"لا يا آنسة"

"ألم تترك لى رسالة؟"

"لا يا آنسة، كان يبدو على والدتك أنها متعجلة"

"الم تسأل عن مكان تواجدى؟"

"لا يا آنسة"

"هل خرجت مع والدى؟"

"لا يا آنسة، لقد خرج والدك قبلها بربع ساعة"

سعلت جلاديس "من فضلك يا آنسة، أنا والطباخة نود أن نذهب لنشاهد عرض المشعلات"

"أوه، بالطبع يمكن لكما، لكن العرض لن يبدأ قبل التاسعة والنصف وسوف يمرون من هنا كما تعلمين"

"نعم يا آنسة"

التقطت جوان العدد الجديد من جريدة "كورنهيل" وحاولت أن تركز فيها، لكنها كانت تشعر بالقلق، فسعادتها هى التى صنعت فيها هذا، أيضا كان المنزل "غريبا" نوعا، كأنما هو فى انتظار وقوع نوع من الإجهاد، لذا يحتفظ بأنفاسه لنفسه فى توقع"

بينما جلست جوان تحاول أن تقرأ الجريدة، بدا لها الأمر غريبا أن لا تكون والدتها موجودة حتى الآن. إنها لم تكن بصحة جيدة مؤخرا، لاحظت جوان أيضا أن وجه والدتها كان شاهق البياض، ودائما ما كانت تسمع منها مؤخرا أنها تعانى من "صداع" عندما تسألها عن صحتها. تخيلت جوان أن أمها لم تعد كما كانت منذ أن رحل فولك. يوجد فى جيبها الآن خطاب ورد من فولك. أخرجته وأخذت تعيد قراءته.

بالنسبة إليه، كانت الأخبار مبشرة، هو الآن فى صحة جيدة، أنى زوجته إنسانة "رائعة"، عمله يسير على ما يرام، حزنه الوحيد ينحصر فى انشغاله بسبب غضب أبيه، ومرة بعد أخر، أخذ يرجو جوان أن تفعل شيئا بخصوص هذا الموضوع، وإذا لم تستطع فإنه سوف يجازف ويحضر بنفسه ليشتبك مع أبيه. كانت هناك فقرة وحيدة فى نهاية الخطاب ثبتت لها بعض القلق، حيث كتب "أعتقد أن والدى منسجم تماما مع ما يحدث فى احتفالات اليوبيل، ويمكن لى أن أتخيله الآن وهو يصول ويجول فى أبهاء الكاتدرائية كما لو أنه يمتلك كل حجر فيه. باركه الله! أخبرك يا جوان، أننى مشتاق للغاية أن أراه، فعلا وهذا حقيقى. والد آنى لم يقترب منا منذ حضورنا لندن، شىء غريب، كنت أظن أنه سوف يزعجنا فى وقت مبكر، لكنى أنا مستعد له إذا حضر. بهذه المناسبة، إذا ظهر على والدتى أية رغبة لأن تحضر إلى لندن، فابذلى كل جهدك لكى تمنعيها. والدى فى أمس الحاجة إليها، ومكانها الطبيعى هو أن تكون بجواره دوما لكى تعتنى به. ولدى أسباب وجيهة لأن اطلب منك ذلك....."

يا له من قول غريب يصدر من فولك! كان هذا هو الذكر الوحيد لوالدته فى الخطاب.

ابتسمت جوان لنفسها وهى تقرأ ذلك، ما الذى يظنه فولك بالنسبة لقدراتها؟ فوالدها ووالدتها لا يستمعان لها فى أى لحظة من اللحظات، ولا حتى هو، فولك، عندما كان بالمنزل. هم جميعا لا يعملون لها حسابا على الإطلاق- لا أحد، سوى جونى فقط. وضعت الخطاب جانبا وحاولت أن تحشر نفسها داخل إطار قطر سعادتها، لكنها لم تستطع. أمانتها لم تسمح لها بذلك، فالصمت أصبح الآن ثقيلا وعدائيا. يا ترى، أين أمها؟ موعد تناول طعام العشاء مر عليه نصف ساعة فى ذلك المنزل المنتظم دائما فى مواعيده! ما الذى يعنيه فولك بقوله أنه أمه ربما تفكر أى ترحل إلى لندن؟ بالطبع هى لا يمكن أن تسافر إلى لندن- على أية حال لن يكون هذه بدون الوالد، هل يمكن أن يتخيل فولك أمرا غير ذلك؟

بدأت تتحرك داخل الغرفة، متعجبة ومحتارة عما يمكن أن تفعله بخصوص أطباق العشاء. لقد مرت الآن ساعة كاملة. يجب أن تلغى الآن موضوع ذهابها إلى منزل العميد، لكنها أيضا كانت تشعر بالجوع، فهى لم تتناول الشاى فى معرض الزهور وأكلت القليل فى الغداء.

كانت تستعد لأن تذهب لتتحدث مع جلاديس، عندما سمعت جرس الصالة، ثم إغلاق باب- بعض المخاوف غير المبررة أمسكت بتلابيبها وجعلتها تتجمد فى مكانها- كانت هناك بالفعل خطوات فى الصالة، لكنها لم تكن هى خطوات والدها؛ انه دائما ما يسير بخطوات واثقة وعلى الفور يدخل إلى غرفة المكتب أو يرتقى السلم، أما هذه الخطوات التى تتسمع لها الآن فهى خطوات مترددة، تبدو كأنها خطوات إنسان لا يدرى شيئا عن المكان.

أخيرا ذهبت إلى الصالة، أدركت أنه بالفعل هو والدها يحاول أن يرتقى السلم. صاحت:

"أبى، أنا سعيدة بقدومك، لقد مر على موعد العشاء ساعات، هل أطلب أن يرسلوا لك العشاء إلى الدور العلوى؟"

لم يجبها، كذلك لم يلتفت نحوها. ذهبت حتى السلم، قالت مرة أخرى:

"هل أفعل هكذا يا والدى؟"

لكنه أيضا لم يرد. سمعته يغلق الباب وراءه. لذا عادت إلى غرفة الاستقبال والخوف يتملكها. كان هناك شيء ما فى ذلك الرأس المنحنى والخطوات البطيئة، جعلتها ترتعش خوفا، ثم أدركت أن الخوف كان ملازما لها منذ عدة أسابيع سابقة، لكنها لم تعترف بذلك لنفسها أبدا.

انتظرت فترة طويلة محتارة، ما الذى يجب أن تفعله، أخيرا تسلحت بكل شجاعتها. كانت مجبرة أن تفعل ذلك بسبب ذلك الصمت المعلق فوق المنزل، قامت وخبطت فوق باب غرفة ارتداء الملابس.

"أبى، ما الذى نفعله بخصوص العشاء؟ ماما لم تأت بعد". لكنها لم تحصل على إجابة.

سألت مرة أخرى "هل سوف نتناول العشاء الآن؟"

فجأة رد عليها صوت، كأنما هو منتظر على الجانب الآخر للباب

"لا، لا أريد عشاء"

هبطت مرة أخرى. أخبرت جلاديس أنها سوف تتناول شيئا، لذا جلست وحيدة على المائدة وأخذت تزدرد طعامها بعجلة واضحة.

هناك شيء خاطئ، كان والدها يحجب من أمام أنظارها كل شيء- الاحتفالات، أمها، حتى جونى. إنه يعانى من شيء ما، يجب أن تقدم له أية مساعدة ممكنة، لكنها كانت واعية يائسة بصغر سنها وقلة خبرتها فى الحياة.

انتظرت مرة أخرى، وعندما انتهت من عشائها، أخذت تمعن الفكر عما يجب أن تفعله. أوه! شيء غبى أن لا تدرك فى الحال التصرف الصحيح الذى يجب أن تتبعه. لذا صعدت حتى منتصف السلم، ثم أخذت تتنصت. لا صوت. مرة أخرى انتظرت وراء الباب. بيد مرتعشة، أدارت أكرة الباب، واجهها هو محملقا فيها. على جبهته كانت هناك آثار جرح لونه أسود، وعلى خده الأيسر قطع لونه احمر يبدو كأنه خربشة.

"أبى، أنت مصاب!"

"نعم، لقد وقعت فى الشارع، صدمت فى شيء ما، حسنا، ماذا تريدين؟"

"لا شيء يا والدى- فقط هم لا يزالون محتفظين بأطباق العشاء...."

"لا أريد شيئا، أين والدتك؟"

"إنها لما تحضر بعد"

"لم تحضر، لماذا، أين ذهبت؟"

"لا أعلم- أخبرتنى جلاديس أنها غادرت المنزل حوالى الساعة السادسة"

تجاوزها إلى الممر، نزل إلى الصالة؛ تابعته بارتباك. من نهاية السلم استطاع أن يلمح الخطاب الموضوع على المائدة. ذهب إليه مباشرة وقطع طرف الظرف، وأخذ يقرأ:

**لقد تركتك إلى الأبد. كل ما أخبرتك به يوم الأحد كان حقيقيا، ويمكن أن تستخدم تلك المعلومة كما تشاء، وسوف أتحمل أى شيء يمكن أن يحدث لى، على الأقل سوف أكون على يقين أننى لن أعيش معك تحت سقف واحد مرة أخرى. هذا يمثل قمة السعادة بالنسبة لى مهما كانت هناك أية تعاسة فى انتظارى. الآن، وأخيرا، لعلك سوف تتيقن وتعرف أن الوحدة هى أسوأ من جهنم**

**ذاتها، وهى جهنم التى جعلتنى أعانى منها مدة عشرين عاما. أنظر حولك لكى تلاحظ ما فعلته أنانيتك بمن حولك. سوف يكون جهدك بلا فائدة إذا حاولت أن تغرينى بالعودة إليك مرة أخرى، وأنا أرجو من الله أن لا أرى وجهك بعد الآن مطلقا.**

**آمى**

التفت، قال بصوته العادى "لقد هجرتنا والدتك"

عبر الصالة وأتى نحوها، أمسك كتفيها بقوة "الآن، يستحسن أن ترحلى أنت أيضا، هل تسمعين؟ كلهم تركونى، أمك، فولك، كلهم. لقد انهالوا على ورفسونى، تجسسوا على وسخروا منى. حسنا، انضمى أنت إليهم. هل تسمعين؟ لماذا تبقين هنا؟ لماذا تستمرين معى؟ هل تسمعين؟ هل تسمعين؟"

هى لا تفهم شيئا، تملكها رعب كأنما هو الريح الصاخب، انكمشت خلفه متشبثة بدرابزين السلم مغطية وجهها بيديها.

"أرجوك يا والدى، لا تضربنى، أرجوك لا تضربنى"

وقف محملقا فيها:

"إنها مؤامرة، لا بد أن تكونى أنت أيضا مشتركة فيها...حسنا، اذهبى إليهم، أخبريهم أنهم قد انتصروا، قولى لهم أن يحضروا مرة أخرى لكى يرفسونى. اننى فى الأرض الآن، لقد ضربت بما فيه الكفاية. اذهبى وأخبريهم بذلك - أخبريهم أن يأتوا ليستولوا على منزلى وملابسى. لقد غادرتنا والدتك - اذهبى وراءها إلى لندن"

استدار. سمعته يذهب إلى غرفة الاستقبال- فجأة، وهى لا تدرى ما الذى حدث، شعرت أنه واجبا عليها أن تتبعه وتعتنى به. لاحظت أنه قد جذب الستائر وفتح النوافذ بعنف.

"دعيهم يحضرون! دعيهم يحضرون! أنا.....أنا..."

فجأة التفت إليها وفتح كلتا زراعيه.

"لا أستطيع، لا أستطيع أكثر من ذلك"، سقط على ركبتيه ودفن وجهه فى كتف المقعد وهو يصيح: "أوه يا الهى، ارحمنى، لا أستطيع أن أتحمل أكثر من ذلك، أرجوك يا الهى أبق على سلامة عقلى- اترك لى هذا فقط. أوه يا الهى، أترك لى هذا فقط. لقد أخذت منى كل شيء، لقد ضربت وأهنت وهجرت. اننى أعترف لك بضعفى، أعترف بغرورى وكبريائى الفارغ، لكن كل هذا كان موظفا فى خدمتك، أترك لى سلامة عقلى، أغفر لى كل ما أخطأت به ضد أحكامك ووصاياك. أوه يا الهى، أنقذنى من الجنون، أنقذنى من الجنون"

فى تلك اللحظة، تحولت جوان لتصبح امرأة كاملة. هجرت فى التو كل حبها وحياتها ودفعت بعيدا بكل شيء.

ذهبت إليه، وضعت ذراعيها حول رقبته، قبلته، وأخذت تهدهده، وتضغط بخدها على خده.

"أبى العزيز، أبى العزيز. إننى أحبك كل الحب، لن أسمح لأحد أن يسيء إليك أبدا، حبيبى أبى العزيز"

فجأة، انهمر ضوء باهر غمر الغرفة كلها، لقد بدأ عرض المشعلات فى منطقة الملحقات وأضاءت الكاتدرائية وأصبحت كتلة من الضياء والنور؛ وفى التلال الخلفية، كانت الصواريخ تلمع وهى تنفجر فى عرض السماء، وتعرض أشكالا رائعة وجميلة.

لقد نهضت الكاتدرائية من رحم الظلام، وهى الآن تشعر بنشوة الانتصار وسط الذهب والنار.

* * *

## الكتاب الرابع

# الموقف الأخير

### الفصل الأول

## فى منزل روندر: روندر يتقابل مع القس ويستون

كل إنسان يتعرض فى وقت ما أو فى آخر، لتجربة مراقبة صديق أو حبيب وهو ينتقل فجأة من الجو الذى اعتاد عليه فى حياته اليومية لينغمس فى منطقة حافلة بكل الأزمات الدراماتيكية، حيث يصبح فيها لفترة معتمدا على أكثر من حجم الحياة فى مجال نضاله ضد العناصر الطارئة المناوئة، ثم يرتفع إلى مستوى السحب ليجابه آخر صراع ضد ظروف يائسة.

كانت هذه المشاعر سائدة فى أفئدة أهالى مدينتنا بعد احتفالات اليوبيل تجاه الأرشدياكون براندون، وكما قالت الآنسة ستايلز (وهى لا تقصد أن تكون قاسية فى حكمها)، "من حظنا السعيد أن مسألة تعيين الشخص المناسب ليحتل مقعد قس منطقة بايبس حدثت بعد احتفالات اليوبيل. إذا لم يحدث هذا فى ذلك الحين، إذن لأصيب الجميع بصدمة بالغة". هى هنا تذكر موضوع تعيين قس بايبس وتشير إلى موضوع سقوط وأفول وزحزحة عرش الأرشدياكون براندون، تشير أيضا إلى مسألة صراعه المأساوى مع البارع القس روندر.

كان لاختفاء كل من مسز براندون ومستر موريس، فيه قدر كاف من الإثارة لأى عام من الأعوام، وكما عبر عن ذلك كل فرد هنا، من أن زوجات الأرشدياكونات لا يهربن هكذا ببساطة مع رجال الدين الآخرين. هذا لا يحدث أبدا. ولم يحدث أبدا، كما يتذكر كل إنسان هنا، سواء فى بولشستر أو أى مكان آخر.

بالطبع، رجال الدين هؤلاء ليسوا إلا بشرًا مشابهين غيرهم تماما، كذلك زوجاتهم، لكن هم، على أية حال لا يظهرون إعلانا واضحا عن سقطاتهم؛ هم يعلمون جيدا نوعية مراكزهم، من هم، وماذا كانوا.

بمفهوم معين، نقول إنه لم يكن هناك إعلان عام، فقد رحلت مسز براندون إلى لندن كى ترعى بعض مصالح العائلة، وصادف أيضا أن مستر موريس كان غائبا، وأخت المرحومة زوجته ما زالت تعيش وسطنا كما لو أن لا شىء قد حدث. أكثر من ذلك، هذا الاستخفاء لم يصمد طويلا، وعرف كل إنسان هنا ما الذى حدث بالضبط، حسنا، إذا لم يكن هذا بالضبط، فعلى الأقل، كان لكل فرد السيناريو الخاص به فيما يختص بهذه المسألة.

من خلالها، وفوقها وتحتها وخلفها، كانت كلها تشير إلى شخصية الأرشدياكون، فهو لب المسالة، هو مركز الدراما. تناثرت أكثر من مئة رواية على لسان أهل مدينتنا تحكى عما حدث له أثناء فترة الاحتفالات باليوبيل. هل صحيح أنه أمسك مس ملتون من خناقها وألقى بها خارج منزلها؟ هل صحيح أنه خلع معطفه داخل الكاتدرائية وجعل روندر يعانى من عينين متورمتين سوداوين؟ (أضعف ما فى تلك الرواية هى أن روندر كان يسير دائما أمام الناس وعيناه سليمتان)، هل هو قد تشاجر مع مسز براندون لمدة ليلة كاملة، وأن جوان أكدت ذلك؟ لكن فوق كل شىء، ما الذى حدث فى المعرض الذى نصب بمناسبة الاحتفال باليوبيل؟ هل فعلا قام بعض الأشقياء بمهاجمة براندون وضربوه علقة العمر؟ هل صحيح أن صامويل هوج انتقم لنفسه بسبب خطف ابنته؟ لا أحد يعلم، ولا أحد عرف الحقيقة كاملة، الشىء الوحيد المؤكد هو أن الأرشدياكون مصاب فى جبهته وهناك قطع طولى فى خده، وأنه كان يتصرف بغرابة، حقيقى كان يتصرف بغرابة!

أخيرا أصبحت حالة "غرابة" تصرفات الأرشدياكون، التى تعلق بها كل سكان المدينة، قال الكثيرون إنهم لاحظوا أن "الغرابة" قد لازمته منذ فترة طويلة.

هم بذلك لا يتذكرون أنه منذ عام واحد كان هو أكثر الناس نشاطا وصحة ورجحان عقل فى كل المكان.

نجد مثلا الدكتور العجوز باديفوت ينوه بكل أنواع الإيماءات، الغمز واللمز ويذكر أسبابا طبية غامضة،و، أنه "لديه الكثير الذى يمكن أن يدلى به"، وإنه منذ عدة سنوات، قال عن براندون أنه......

حسنا، دعنا لا نلتفت إلى ما قاله هذا الدكتور، لكن بالفعل تغيرت أحوال الأرشدياكون وحدث ما توقعه الطبيب، لكن ربما يكون براندون طوال حياته هو ذلك الشخص الغريب، الذى تلاحظه وهو يغمغم لنفسه بينما عيناه تتجولان بشكل دائرى فى كل مكان كما هو الآن. ما الذى جرى "للفايكنج"؟ أين هو أفضل النماذج البشرية فى كل جليبشاير؟ أين هو الملك المتوج لبولشستر؟

فى تراب وغبار وكسر ماض مهشم، أصبح هو الآن "المسكين براندون العجوز"، "الإنسان غريب الأطوار"، "لا تستغرب ما يحدث له الآن بسبب ما تعرض له من مآس"، "هؤلاء الذين يبدو عليهم مظاهر القوة، سريعا ما ينكسرون"، "كم كان سعيدا ومغرورا بذاته ونفسه"،"آه، حسنا، لقد خدم زمنه؛ ما نحتاجه الآن هم رجال أكثر تحضرا"، "لا يمكن لك تنكر أنه كان دقة قديمة".

لم يكن الناس ملامين على طول الخط بسبب هذا التحول الفجائى فى مشاعرهم الآن، فقد كان لاحتفالات اليوبيل دور فى ذلك، فهى التى تسجل لأحداث فترة معينة، وعندما نمعن النظر فى تلك الفترة الماضية، يدرك المرء أن الانطباع العام كان صحيحا. حيث صاحب يوبيل عام ٩٧ أحداث عديدة، حرب البوير، وفاة الملكة فيكتوريا، انتهاء العصر الفيكتورى بالنسبة للكنيسة وأيضا بالنسبة للدولة.

لا أحد من أهالى بولشستر عام ٩٧ نظر إلى الخدمة فى الكاتدرائية، هذا الجرح الواضح فى خد الأرشدياكون، زيارة مسز براندون إلى لندن- أن هذه الأشياء كانت بالنسبة لهم عبارة عن كتابة على الحائط، فكل من يونيو ١٨٩٧

كذلك أغسطس عام ١٩١٤، لم تكن أوقاتا سعيدة بالنسبة إليهم، وهما تاريخان ارتبطا بمعان خالدة؛ فعيونهم كانت مركزة على التواريخ الشخصية لرجال ونساء كانوا يتحركون أمامهم.

هل كان براندون، وهو مسوق بفخره الكاذب ومدعيا أن الله يقف بجانبه دائما، يستدعى هذا أن يموت الجنود بالغازات الخانقة فى حرب ١٩١٤؟ هل يمكن أن نضع ارتباطات معينة بفعل كله حب وإيثار، مع فعل وحيد صدر من قلب لئيم ولسان كله غش؟

كان كافيا لمدينتنا القول بأن "براندون وطرقه" لم تعد مسايرة للعصر، وإنه لحظنا السعيد، قد وفد إلى مدينتنا رجل عصرى مثل روندر.

لكن مع كل هذا، نجد أن براندون فى أيام الرخاء هو فى شأن مختلف تماما عن براندون الذى يعانى ويتعذب. لقد عومل بطريقة مقيتة. وما الذى لم يفعله بكل حماس وحمية قلب لمصلحة المدينة والكاتدرائية؟

ومع ذلك، هل تصرف هذا الرجل روندر بطريقة ليست فيها التواء؟ إنه خارجيا يبدو منصفا وعبقريا أيضا، لكن من كان فى إمكانه أن يتكهن بما يجرى خلف هذه النظارات المستديرة؟ هناك حكايات كثيرة تمسه وتحكى عن مؤامرات وتخطيطات. ألم يصمم منذ حضوره الأول إلى بلدتنا أن يزيح براندون من مكانه؟ وفيما يختص بمسالة بايبس سانت أنتونى، بالطبع من الأفضل أن يتحضر هذا المكان ويكون تقدميا، لكن ألم يناصر روندر تعيين شخص طالما سخر من الأسفار المقدسة وقال أن لا توجد حيات أو تفاح فى جنة عدن؟ يا لك من رجل مسكين يا براندون!

كان روندر جالسا فى مكتبته منتظرا قدوم القس ويستون. لقد حضر هذا ليقضى ليلة فى زيارة صديقه القس فوستر. كانت زيارة خاصة غير معروفة سوى

لاثنين أو ثلاثة من رجال الدين من أصدقائه. هل يمكن أن يمنحه روندر نصف ساعة من وقته؟ أجاب روندر بأن سوف يكون سعيدا بمقابلته، وأن......"

كان روندر فى أفضل حالاته. أخذ يزرع الغرفة وهو يدندن لحنا معينا لنفسه، يتوقف كما هى عادته لكى يلمس شيئا على المائدة، أو يسوى وضع كتاب برز قليلا من الرفوف، أو يحملق عبر النافذة لفترة بسيطة يتطلع ناحية الحديقة الخضراء السابحة فى ضوء شمس مع بعد الظهر.

نعم، كان هو فى أفضل حالاته، مرت عليه عدة أسابيع وهو غير مستريح، لكن هذه الفترة قد انتهت، فقد كان حديثه الأخير مع براندون فيه فصل الخطاب. فى تلك المناسبة كان هو فى جانب الصواب كلية، بينما كان سابقا ـ تحت أنظار عمته وبعض نقاده، إلى حد ما، يقف فى جانب الخطأ. الآن هو قد حصل على التبرير الكافى. لقد أظهر قمة تواضعه أمام براندون (بالرغم أنه فى الحقيقة لم يكن هناك داع لاتباع ذلك)، واعتذر (بالرغم أنه فى الحقيقة لم يكن هناك ضرورة لذلك) - لكن للأسف، رفض براندون قبول اعتذاره وواجهه كأنما هو لص أو سارق- لقد فعل كل ما فى طاقته، بل وأكثر كثيرا مما تتطلبه المسألة. لذا فإن شعوره براحة الضمير، تلك التى هى عزيزة عليه، عادت إليه بكاملها، ومعها عادت كل مشاعر الحب لبراندون. يا له من رجل مسكين، زوجته تهجره، وتخلف عن عمله، مظهرا، كما حدث فى أسبوع الاحتفالات باليوبيل أن عقله (الذى لم يكن أبدا نشيطا بما يكفى)، الآن أصبح هامدا خامدا. يا له من رجل مسكين، حقا هو رجل مسكين! روندر وهو يتجول داخل مكتبته، تمنى أن يفعل شيئا لبراندون- أن يعطيه شيئا، أن يقدم له هدية كريمة، أن يذهب مثلا إلى لندن ليقنع زوجته أن تعود إليه. أى شىء يمكن أن يعيد إليه سعادته.

شىء محزن أن يشاهد وجه هذا الرجل المسكين وقد سحب وانسحب، وخطواته وقد أصبحت غير واثقة، كأنما هو يشك فى كل إنسان. فى كل مكان الآن، نجد روندر يكيل المديح لبراندون، يا له من عمل مجيد أنجزه هذا الرجل

لمصلحة هذه المدينة فى الماضى، وكم هى الكنيسة مدينة له؛ وما هو حال بولشستر بدونه فى ماضى أيامها؟

عندما قابل روندر مس برستون فى الشارع الرئيسى، قال لها "ربما يكون عمل الأرشدياكون قد قارب نهايته، لكن عندما أفكر فى مقدار ما تدين به الكنيسة إليه، حينئذ....". كان رد مس برستون "آه، يا حضرة القس، أنت هكذا دائما، تبحث عن الجمال وما هو حسن فى حياة الناس! أنت بصراحة درس متحرك ومجسم لنا جميعا. فعلى كل حال، أنت دائما ما تبحث وتفتش عن الجمال فيما هو مخيب للظن وحقير، وهذه هى مهمتنا جميعا!"

ليس هناك أى شك فى أن روندر قد قضى أسبوع الاحتفالات وهو فى أفضل حال، فهو وبكل طريقة حصل على تقوية وتأكيد لمركزه الذى هو كان فى الأصل راسخ - كنت تجده فى كل مكان، أضاف بحضوره معرض الزهور البهجة والمرح، أيضا وعظ أجمل العظات مساء يوم الثلاثاء، وخاطب حاملى المشعلات وهو واقف على عتبات منزله بأجمل الكلمات؛ وربت على رؤوس الأطفال فى حفل شاى العمدة التى خصصها لأهل المدينة. كان دائما ما يبذر المرح والفرح فى كل مكان يحل فيه. فما عمل ليتممه قد اكتمل، اكتمل بسرعة مدهشة.

لقد ثبت الآن مركزه، فهو الآن قائد كنيستنا فى بولشستر، ليس عليه الآن سوى أن يترك مسألة بايبس سانت أنتونى تسير فى طريقها المعتاد (كما يجب أن تسير)، فى هذا الحالة لن يرغب فى شيء آخر.

إنه مغرم بهذا المكان. هذه كانت مشاعره وهو يطل على حديقته متمنيا أن يقضى سنوات طوال ممتدة كلها سعادة وهناءبينما قلبه عامر بمحبته الغامرة لكل إخوته فى الإنسانية. كان يتمنى فى تلك اللحظة أن يمنح أحدا ما يرغبه، أن يهب بعض الأطفال نقودا، أن يدعو رجلا عجوزا ليشاركه الطعام، أن يقرض احدهم ما يطلبه من نقود، أن يرثى لأحد أو ينطق بكلمة مشجعة لإنسان حظه عاثر، أن.....

قالت الخادمة "مستر ويستون يا سيدى". عندما استدار روندر، فإن أدبه الجم منعه من أن يطلق صفارة اندهاش، هو لم يشاهد من قبل صورة فوتوغرافية لويستون، كذلك لم يصفه له أحد. هو كان قد سمع وقرأ عنه، تصوره رجلا طويل القامة، ناسكا نحيفا مشابها فى ذلك كل من دانتى وسافونارولا، شخصية عظيمة تمثل قمة الاحتجاج والتحدى. لكن هذا الرجل القادم نحوه كان ضئيل الحجم، نحيف القوام، بل وإلى حد ما مشوه، يبدو كأنه يمتلك كتفا أعلى من الآخر، أيضا يعرج قليلا. شكل وجهه قبيح، لكنه يمتلك عينين واسعتين ثاقبتين. فى الحقيقة، كانت تلك العيون أجمل ما فيه، تنطق بذكاء حاد ولطف بالغ. شعر رأسه غزير، كثيف اسود، يده وهو يصافح روندر يشعر بها قوية قوامها العظام.

"فى منتهى السعادة أن أقابلك يا قس روندر، لقد سمعت عنك الكثير". لاحظ روندر أن صوت الرجل يشبه صوت مسز كمبرمير "فيه بحة معينه"، هو صوت مرح كريم لكنه حازم وواضح تماما. به لكنة خفيفة بالكاد يمكن أن نتعرف على مصدرها الأصلى. قالت المراجع أن ويستون ولد فى لندن وأن والده كان قسا على مدينة لامبث لعدة سنوات؛ وقد اكتشف بعض البولشستريين المهرة أن واحدا من جدوده كان فرنسيا.

جلس الاثنان يواجهان بعضهما. فى الحقيقة، بدا ويستون غريبا بكتفه المرتفعة تلك وساقيه المتقاطعتين النحيفتين وشعره الأسود ووجهه الباهت. قال:

"أشعر كأننى لص أتى ليلا متلصصا، لكن فوستر أصر أن أحضر، بصراحة كان لدى بعض الفضول"

"هل بالفعل ترغب أن تأتى إلى بايبس إذا سارت الأمور كما نرغب؟"

" سوف أكون سعيدا بذلك، لكن من جانب آخر، لكنى لن أشعر بالحزن إذا بقيت فى مكانى، وهل هو من الأمور الهامة أين يكون مقر الإنسان؟"

"المهم فى الموضوع هو أن الحصول على موقع بايبس يؤدى بالفعل إلى الترقى فى الأوساط الكنسية هنا"

"الترقى؟ نعم"، كان يبدو أن ويستون يخاطب نفسه "هذا يشبه ذاك، وكلما حصل الإنسان على مزيد من القوة الخارجية، فهو غالبا ما لا يتمتع بها. مع ذلك، سوف أرحب إذا دعيت للخدمة هنا. لكننى أنا فى الواقع رغبت أن أقابلك لغرض معين"

"نعم؟"

"بالطبع أنا لم أجر أى نوع من الاستقصاءات عن احتمال حصولى على موقع بايبس، لكننى سمعت أن هناك معارضة شديدة لشخصى، وبالطبع سوف يحدث هذا، وأتفهم أيضا، أنه باستثناء صديقى فوستر، أنت أقوى المناصرين لى فى هذه المسألة، هل تسمح لى أن أسأل، لماذا؟"

"لماذا؟"

"نعم، لماذا؟. ربما تقول إنه ليس لى حق أن أسأل هذا السؤال، ويكفى فقط أن أعلم أن هناك أفرادا يودون أن أحضر إلى هنا، حيث أنه من المفترض أن هذا فيه الكفاية، لكن هذا لا يكفى أبدا بالنسبة لى. أنا لا أستطيع، لا أقدر أن أحضر إلى هنا مدفوعا بمظاهر خادعة"

"مظاهر خادعة!"، صاح روندر "أؤكد لك يا عزيزى مستر ويستون...."

"آه، نعم، أعلم ذلك، أعلم ما سوف تخبرنى به، لكنى قد سمعت الكثير هنا- فوستر من فرط حماسه صرح لى بالكثير- فتحققت أن هناك معركة دائرة، وما زالت مستمرة، بين الآراء الأكثر تحفظا وبين المدرسة الحديثة، ويبدو أننا أنا الذى أصبحت المرمى فى هذه المعركة- بالنسبة لهذا، ليس لى أى اعتراض، فهذه ليست هى المرة الأولى، لكن ما أود أن أسألك فيه يا قس روندر بكل جدية هو الآتى: هل

ناصرتنى لأنك مقتنع بأننى أفضل من يجب أن يحصل على هذا المنصب، أم لأنك - أعلم أنك سوف تسامحنى إذا شعرت أن هذا التساؤل غير لائق- رغبت أن تكتسب بعض النقاط الإضافية فى مجال تنافس شخصى؟"

هذا التساؤل كان وقحا بالفعل، لا شك فى ذلك. يجب الآن على روندر أن يكافح ضد أى غمز أو لمز يختص بمدى أمانته. ما الذى دعا هذا الغريب أن ينغمس هكذا فى استجلاء دوافعه. أخذ روندر يحملق باندهاش من وراء نظارته على تلك العيون اللامعة وكلها إصرار، أثناء فعله ذلك، حلت عليه مرة أخرى رياح غير مواتية. ما شأن هذا الرجل الذى يهاجمه الآن بهذا الشكل، يهاجمه حتى قبلما يحصل بالفعل على المكان؟ إذن، هل من الحكمة أن يأتى هذا الرحل أصلا إلى هنا؟ وهذه الراحة التى يرفل فيها روندر الآن، ألن تتأثر بقدوم هذا الإنسان إلى بايبس؟ أليس تعيين المغفل فورسايث هو الأفضل هنا؟

توقف روندر فجأة عن رغبته فى منح الأطفال نقودا، أن يقدم هدية إلى براندون. لقد بلغ توتره حده الأقصى.

قال ويستون بكل هدوء "أرجو أن تغفر لى إذا شعرت أننى قد تعديت حدودى، لكن يجب أن احصل على إجابة عما سألت عنه"

"يا عزيزى ويستون، بالطبع أنت أفضل إنسان يمكن أن يشغل هذا المكان، وما كان لى أن أرفع إصبعا واحدا فى مصلحتك إذا لم أكن مقتنعا بك"، أخذ روندر يهمس لنفسه، يا ترى، لما كل إنسان ينسب إليه دوافع لئيمة، أولهم كانت عمته، بعدها فوستر والآن ذلك الرجل! أضاف "أنت على حق عندما قلت أن هناك معارضة كبرى فى تعيينك هنا. لكن هذا أمر طبيعى، ليس عليك سوى أن تضع فى حسبانك الكتب التى ألفتها ونشرتها لتفهم ذلك، لذا حدثت بالفعل معارضة قوية من أكبر الرؤوس أصولية وتحفظا هنا، ولعلك سمعت أن الأرشدياكون هو قائدهم. لكن أستطيع أن أؤكد لك أن نصرنا أصبح أكيدا، وليس هناك شك فى ذلك.

الأرشدياكون هو إنسان فاضل، صنع الكثير فى مصلحة الكنيسة هنا، لكن هو ليس من أبناء هذا الدهر، دقة قديمة، عناده يمنعه من أن يتغير أو يتبدل، وحصل أنه قد تعرض مؤخرا إلى بعض المتاعب العائلية، كذلك بعض المتاعب الصحية، لذا تعتبر معارضته كأنها لا شيء."

"هذا انحدار غريب، لقد سمعت قبل ستة شهور أنه تقريبا أقوى إنسان فى كل المدينة"

هز روندر رأسه متأسيا "نعم، كان الانحدار بمعدلات سريعة، لكننى أعتقد أن مركزه هنا تأسس على واقعة أنه لم يكن هناك شخص قوى يقف أمامه، لذا كان حضورى إلى هذه الأبرشية - كشخص وافد من خارجها - سببا فى شحذ قوى الأفكار الحديثة والعمل على تقويتها."

قال ويستون وهو يرفع فجأة كتفه إلى أعلى ويدفع رأسه إلى الأمام:

"سوف أخبرك بأمر وحيد، أعتقد أن تلك التخطيطات التى تجرى فى حضن الكاتدرائية، هى من الأمور التى تدعو للرثاء. طبعا أنا لا ألومك البتة، فأنت وجدت نفسك فى الوسط، مضطرا أن يكون لك دور فيها، لكننى أنا لن اقبل هذه الوظيفة أبدا إذا كانت سوف تعطى لى نتيجة لبعض التخطيطات الخلفية، وسوف أعلم الجميع فى الحال أننى أرفض العيش هنا حتى ولو قدم لى العرض ألف مرة."

صاح روندر بحماس "لا. لا، أؤكد لك أن الأمور لم تسر أبدا هكذا، كانت هناك بالفعل بعض المؤامرات التى قامت بها المجموعة القديمة فى الكاتدرائية، لكن كل هذه قد انقضت وانتهت كما أتمنى، ولأن عددًا كبيرًا منا لا يود الاستمرار فى ذلك، لذا دعوناك لتأتى إلى هنا. أرجوك أن تصدقنى، هذه هى الحقيقة"

تابع ويستون بكل هدوء "ما كان واجبا أن أدلى بما نطقت به، ربما يكون هذا فيه نوع من الغرور، فأنت لا يمكن لك أن تجابه كل المؤامرات وروح القطيع الواحد الذى يمكن أن تجده فى أى مجتمع كاتدرائى، لذا أردت أن تفهم يا قس

روندر من أنا قبلما تعرض على هذا المركز. وأخشى أن تندم لاحقا لأنك ناصرتنى، فأنا إذا دعيت للحصول على ترقية فى رحاب هذه الكاتدرائية، فإننى لن أقبلها مطلقا، لكن إذا أتيت، فسوف أحضر لكى أناضل ضد الكاتدرائية، أناضل ضد أى شخص يمنع الناس عن الاطلاع الكامل على شخصية المسيح. أؤمن يا قس روندر أنه قبل مرور عدد محدود من السنوات سوف يصبح واضحا أمام العالم كله أن هناك شكلين للتدين- الشكل المرتبط بالسلطة والنظام، الآخر المرتبط بالروح والحق- وإذا كان لى أن أختار. بالطبع سوف أكون إلى جانب الوعى الروحى."

التدين بالروح! أخذ روندر يحرك ساقيه السمينتين قلقا، ما دخل هذا فى موضوعنا؟ المفترض أنهما يتناقشان فى موضوع منصب قس بايبس؛ تدين بالروح! حسنا، ومن لا يقف مناصرا لهذا الاتجاه؟ لكن دقائق أسرار العقيدة، لا يشغل بال روندر على الإطلاق، فهذا كله، وإلى حد بعيد، هذا ليس سوى كلام فى كلام.

أخذ روندر ينظر ناحية حديقته، يتطلع إلى شجرة فردت أغصانها كأنما هى مروحة تخبئ وراءها السماء الزرقاء - البيضاء وتحجب أشعة الشمس. شىء رائع! منظر جميل! يشبه فى روعته قطعة العنبر الحمراء الموجودة فوق مكتبه، منظر يشبه شكل صورة هوميروس الأعمى...كأنما هو صندوق من الزجاج الأخضر داخله قدر من الماء تتحرك من اتجاه لآخر، والأشكال على سطحها تتغير من ظلال قاتمة إلى غسق خفيف. منظر جميل ورائع! أخذ يحملق وقد انتقل بالفعل، بينما إحساسه بالراحة يتدفق داخل روحه كأنما هو المد العظيم.

قال "بالطبع"، ثم أدار كل رأسه ناحية ويستون "اننى بكل قلبى أؤيد كل المجددين، لكننى فى نفس الوقت أتفهم ذلك الخطر الجاثم أمام العقائديين خوفهم أن يهملوا ولو بوصة واحدة من الأقطار التى فتحها لهم بولس الرسول بتعاليمه. أخشى القول يا عزيزى ويستون بأننى دائما ما أنظر للحياة على شكل رجال ونساء، أكثر

من كونها عقائد ومعتقدات. كل ما أهتم به هو أن يسعد الناس ويكونان دائما على وفاق فيما بينهم. لذا إذا بزغ فكر أو معتقد جديد يؤيد فكرى هذا، حسنا، حينئذ...."، حرك يديه فى الهواء.

أجاب ويستون، كأنما هو يحدث نفسه "أعظم اهتماماتى هو المسيح ذاته، أجد أنه مختفى الآن وراء تلك البنايات الجبارة التى أقيمت من أجله، انه ضائع عن أعيننا وأنظارنا، يجب أن نستعيده، هو، ثم هو، ثم هو! أن نخدمه، أن نكون بقربه، أن نشعر بلمسة يديه فوق رؤوسنا، هذا يمثل كمال الحياة بالنسبة لى. الآن، من الصعوبة بمكان أن يقدم نحونا، وهذه الهوة تزداد من عام إلى آخر...."، قام من مكانه، ثم استأنف "لم آت هنا سوى أن أقول ذلك، ما أنا أخاف منه يا قس روندر هو الكاتدرائية ذاتها، ألا تشعر أنت بذلك أحيانا؟ هى تخلق فى داخلها روحا خاصة بها، وتعيش حياتها الخاصة، وتستشعر قوة بسبب الصلوات والعبادات التى تتم داخلها. ألا تشعر بذلك؟ هى التى أصبحت الإله ولها طقوسها وعبادها. إنها تستخدم الناس من أجل تحقيق أغراضها، وليس لخدمة أغراض المسيح، بل هى تكره المسيح. إنها جميلة جدا، عالية، تشعر بالغيرة كثيرا! فى استطاعتى أن أعبر عن حبى للمسيح فى هذه الحديقة أكثر مما يحدث فى الكاتدرائية"، التفت إلى روندر مهتاجا "من يهتم بالمسيح، بحبه ولطفه ووداعته؟ لما دائما هناك معوقات فى الطريق؟ الحب! الإحسان! ألا تحتضن تلك الكاتدرائية وراء جدرانها كم عظيم من الكراهية والكبرياء والغيرة؟ أليس جمالها هذا هو نوع من الاحتقار؟...الآن، أى حق لك أن تساعدنى للحصول على وظيفة قس بايبس؟"

ابتسم روندر:

"فى الحقيقة، أنت هو ما نحن فى حاجة إليه هنا، أنت سوف تهز بعض من راحتنا وتمدنا بدفق حياة جديدة"

شعر ويستون فجأة بالخجل، وتحدث كأنما هو يصحو من حلم:

"مع السلامة..مع السلامة. لا، لا تأت خلفى، أشكرك للغاية..مع السلامة"

لكن روندر أصر أن ينزل معه، تصافحا أمام الباب واختفى شكل هذا الرجل فى شمس ما بعد الظهر.

وقف روندر يحملق للحظات فى الأعشاب التى تلمع أمامه، كذلك ينظر البيوت الصغيرة ومطارق أبوابها تبرق، وفى الظل القرمزى للكاتدرائية.

هل هو حقا فعل الصواب؟ هل ويستون هو فعلا الرجل المناسب؟ ألن يكون أكثر خطورة من...؟ لا، لا، لقد فات الأوان الآن. يجب أن تبلغ المعركة مع براندون إلى حدودها النهائية. مسكين براندون! نعم، مسكين براندون!

أخذ يملى ناظريه بمنزل براندون، كما فعل فى أمسية أول يوم حضر فيها إلى هذه المدينة وعلى نفس العتب.

مسكين براندون! كان يتمنى أن يصنع خيرا مع هذا الرجل، أن يسدى إليه خيرا غير متوقع! أغلق الباب وراءه وبكل تؤدة صعد إلى الدور العلوى وهو يدندن ذلك اللحن المحبوب لديه.

* * *

## الفصل الثانى

# اثنان فى المنزل

ورد خطاب من فولك إلى جوان، فيه:

**عزيزتى جوان- كانت والدتى هنا، ولم أستطع أن أفهم منها شيئا. وعندى الآن شىء وحيد أقوله، هو أنه يجب أن تعود إلى والدى، لكن الشىء الذى أكدته لى مرارا وتكرارا هو أن هذا لن يحدث أبدا. إننى لم أرها من قبل بهذا الشكل، أبدا لم أعرفها هكذا، إنها لا تفكر فى أى إنسان سوى موريس، يبدو أنها تراه كل الوقت حتى وهى معى فى غرفة سكنى. إنها سوف ترحل مع موريس - الأسبوع القادم - إلى جنوب أمريكا، كما أظن. تبدو والدتى الآن كأنها لا تهتم بما يمكن أن يحدث لها، فقط هى مصممة أن لا تعود لوالدى.**

**لقد أخبرتنى بشىء غريب فى نهاية مقابلتنا - إنها الآن تستمع بأحلى أوقات حياتها وأنها غير مستعدة أن تعود لحياة التعاسة والوحدة كما فى السابق، وإنها سوف تحبه إلى النهاية (أعتقد أنها تقصد موريس)، وأنه هو أيضا مغرم بها.**

**هذا "الظربان" موريس! لكن أنا مع ذلك لا أعلم، ألم أكن أنا أيضا ظربانا؟ لكننى أنا لا أشعر بمشاعر الظربان، لكن لو أحسست أن والدى قد عادت إليه سعادته وهناؤه، إذن لكانت كل الأحوال أمامى موفقة بل وأفضل مما كانت عليه. انك لا تدرين كم أن زوجتى آنى هى إنسانة رقيقة وجميلة بسيطة وصادقة! لماذا نحن هكذا مختلفان؟ لماذا لا يقبل الإنسان ما هو صائب من وجهة نظره دون الإضرار بالآخرين؟ لكن أنا لن أنتظر أكثر من ذلك، وإذا لم تتحسن الأحوال عندكم**

فسوف أحضر، سواء أراد هو أن يقابلنى أم لا. يجب أن نعيد إليه الشعور بالسعادة، فنحن الآن كل ما لديه. ما أن ينتهى موضوع بايبس هذا، حينئذ سوف أحضر إليكم. أكتبى لى، أخبرينى بكل شىء، أنت الآن السند الأعظم يا جوان. لماذا مرت بنا كل هذه السنوات الطوال ولم نتعرف على بعض كما يجب؟

أخوك المحب فولك

وكان خطاب جوان إليه كالآتى:

عزيزى فولك - لأننى أرد على خطابك عاجلا لأننى اشعر بخوف مقيم. وإذا قمت بإرسال برقية إليك فعليك أن تحضر فورا. أخت زوجة موريس تخبر الجميع أن موريس ذهب إلى لندن لإنجاز عمل معين، لكننى اعتقد أنها لن تبقى هنا طويلا. لم اعد أفكر طويلا فى أمى، ما يهمنى الآن هو أبى. أوه يا فولك، لكن الموقف كان مريعا خلال الثلاثة أيام الماضية، ولا أعلم ما الذى سوف يحدث لاحقا. سوف أحاول أن أخبرك كيف كانت الأحوال. لقد مر علينا شهران منذ أن غادرتنا والدتى. تلك الليلة التى فيها غادرتنا كانت مريعة. كان هو يزرع غرفة مكتبه جيئة وذهابا طوال الليل. وهو ما يفعله الآن كل ليلة منذ أن رحلت عنا. لكن مع ذلك، لا أظن أنها هى التى تشغل فكره الآن، بل وأظن أنه لم يعد يفكر فيها إطلاقا.

إنه يركز كل فكره الآن على موضوع بايبس ويتحدث دائما مع نفسه (من هذا تفهم مقدار التحول الذى أصابه)، إنه الآن يجرى هنا وهناك سائلا الناس ومستدعيا إياهم ليحضروا إلى المنزل، وتصرفاته دائما ما تكون غريبة معهم، ينظر نحوهم فجأة وقد ساوره شك بالغ، كما لو يظن إنهم يضحكون عليه. هناك دائما شىء ما يدور فى خلفية فكره، ليست والدتى، وهذا أنا متأكدة منه. شىء ما قد حدث معه فى آخر يوم من احتفالات اليوبيل، دائما يتحدث عن أحدهم ضربه،

ثم تجده يحسس بيده على جرح قديم فى جبهته. أخبرنى ذلك اليوم أنه اصطدم بشىء فى الأرض فوقع، لكننى متأكدة الآن أنها نتيجة عراك مع شخص آخر.

هو دائما ما يتحدث الآن عن مؤامرة تحاك ضده - ليس فقط أن قائدها هو القس روندر، لكنها ذات شكل أعم وأوسع. هو عزيزى المسكين، لقد أصبح غريبا فى تصرفاته بشكل غريب. أنت بالطبع تعلم كم كان مباشرا فى حديثه، دائما ما يعبر عن نفسه بشكل مستقيم ولا يخاف أو يخشى أحدا، أما الآن فهو الإنسان المتردد، انه يتردد قبلما يخرج من المنزل، قبل أن يصعد السلم، قبل أن يحضر إلى غرفتى. يبدو الأمر أمامه كأنه يتوقع ظهور أحدهم خلف الباب ممسكا بمطرقة ليضربه بها. شىء غريب أن مشاعرى قد تغيرت نحوه، كنت دائما أظنه ذلك الإنسان القوى القادر على هزيمة أى إنسان أمامه، لكنى أعتقد الآن أنه فى حاجة إلى رعاية مستمرة، وإنه فى الواقع لم يكن بهذا القدر من القوة أبدا، لكن هى عبارة عن مظاهر خارجية. مع ذلك، أقرر هنا أنه إنسان شجاع، يعلم يقينا أن كل المدينة تتحدث عنه، لكنى اعتقد أنه قادر أن يواجه كل أهالى بولشستر، فقط إذا استطاع أن يهزم القس روندر فى مسألة التعيين بموقع بايبس. إذا لم يتم تعيين فورسايث فى هذا المكان، فأعتقد أنه سوف ينهار كلية. منذ عام سابق، لم يكن هناك أى شك فيمن سوف يحصل على هذا المركز، فهو حينذاك كان قادرا على فرض مشيئته.

لكن ما يخيفنى بالأكثر يا فولك هو ما يحدث فى منزلنا، فالشك يمسك بتلابيبه وهذا يجعلنى أنا أيضا شكاكة. إنه لم يعد ذلك المنزل الذى نعرفه، لكن يبدو كأن هناك من يختبئ داخله، وفى الليل يصبح موقفنا مرعبا وأظل طوال الليل مستيقظة أتسمع، أستطيع أن أميز صوت أقدام أبى وهو يروح ويجئ فى غرفته المجاورة، كما تعلم. ثم عندما أنصت أكثر، أستطيع أن أميز صوت أقدام أخرى تسير فى المنزل، وأنت تعرف بالطبع كيف يكون الموقف فى منتصف الليل، ودائما هناك أصوات أقدام تصعد السلالم. ربما يبدو لك الأمر سخيفا وأنت

فى لندن، لكنى أؤكد لك أنه ليس سخيفا هنا، كل الخدم يشعرون بذلك، لذا سوف تغادرنا جلاديس نهاية هذا الشهر.

أوه يا فولك، اننى أشعر بمزيد الأسف من أجله! شىء بغيض أن تتغير أحواله بهذا الشكل. اننى أشعر بمدى حيرته. منذ عام مضى، كان يبدو قويا آمنا كما لو أنه سوف يستمر هكذا إلى الأبد، وليس هناك عدو واحد له، إذن كيف يحدث هذا؟ وهو الذى كان يحرص أن لا يسبب ضررا لأى إنسان. إن رحيلك إلى لندن، يمكن لى أن أتفهم أسبابه، لكن هروب والدتى، أشعر أننى لن أتمكن من مخاطبتها مرة أخرى فى حياتى، من أن تكون بهذه الدرجة من القسوة وتترك له خطابا بغيضا (بالطبع أنا لم أقرأ هذا الخطاب، لكن تأثيره على والدى فيه الكفاية).

إنه يشعر بالوحدة الآن، هو بالكاد يتأكد من وجودى نصف الوقت، أنت بالطبع تعلم أنه لم يفكر فى أبدا من قبل، لذا فمن الصعوبة عليه أن يبدأ الآن، وتعلم أيضا أنه ينقصنى الكثير من خبرات الحياة، ومن الصعوبة بمكان أن أدير شئون المنزل بمفردى، علىَّ أن أعثر على خادمة أخرى بدلا عن جلاديس، وأعتقد أن الخادمة الأخرى تفكر أن تغادرنا، لكن هذا يهون بالمقارنة بتوقع حدوث شىء ما كل لحظة، ثم مراقبة والدى فى كل آن. يا فولك، يجب أن نعيد إليه مشاعل السعادة، أنت على حق فى ذلك، وهذا أهم الأمور، وكل شىء آخر هو أقل أهمية، ويا سلام لو انتهى موضوع بايبس! هذا القس روندر يتمتع الآن بقوة خارقة، وأنا أشعر بالخوف منه. اننى أكرهه! يبدو لى أن الكاتدرائية والمدينة تغيرتا منذ حلوله هنا. منذ عام سابق، كانت كل الأمور ثابتة وفى مكانها الصحيح مماثلة لوالدى، أما الآن فالكل يتحدث عن أناس جدد، عن التخلف الحضارى، ضرورة تغيير النغمات التى نسمعها فى الكاتدرائية وكل شىء! لكن كل هذا لا يهم بالمقارنة بما يحدث لوالدى.

**لقد كتبت لك خطابا طويلا، لكن هذا مفيد لى. كثيرا ما أشعر برغبة قوية أن أرسل لك برقية، أنا متأكدة أن والدى سوف يسر عندما يشاهدك، فأنت المحبوب الأول بالنسبة له. لكن على أية حال، أعتقد انه يجب أن ننتظر قليلا : وإذا ساءت الأمور عن ذلك، سوف أرسل لك برقية فى الحال.**

**إننى سعيدة لأنك أنت موفق فى عملك وبصحة جيدة. لم تذكر لى شيئا فى خطابك عن احتفالات اليوبيل فى لندن، هل كانت جميلة؟ هل رأيت الملكة؟ هل بدت سعيدة؟ هل كانت الجماهير التى تراصت فى الشوارع غفيرة؟**

**خالص حبى من أختك المحبة جوان**

جوان وهى منتظرة فى حضن ظلال غرفة الاستقبال فى انتظار جونى سانت ليث، تعجبت ما إذا كان والدها قد حضر أم لا.

لم يعد مهما إذا كان قد حضر، فإنه لن يخطو نحو غرفة الاستقبال، سوف يذهب مباشرة إلى غرفة مكتبه. هى تعلم بالضبط ما سوف يفعله. سوف يغلق بابه، ثم بعد دقيقة واحدة يفتحه، يتطلع على الصالة ويتنصت، ثم يغلق بابه بكل حرص. هو دائما ما يفعل ذلك الآن. على أية حال، إذا حضر إلى غرفة الاستقبال ورأى جونى، فهذا لا يهم، فعقله مشغول بالكامل بمسالة بايبس، وجونى ليست له أى صلة بهذا الموضوع، لكن إذا ظهرت والدة جونى، بشعرها الأبيض الكثيف، هنا يمكن أن تحدث مشكلة، لكن على أية حال، هى لن تظهر هنا مطلقا، فهى تفضل أن تجلس بكل رصانتها وعظمتها داخل قلعتها الحصينة.

كانت جوان عصبية، وقفت هكذا فى الظل الرمادى تفرد يديها وتقبضهما. كانت عصبية؛ لأنها سوف تودع جونى، ربما إلى الأبد. لكن هى غير متأكدة أنها تحوز هذا القدر من الشجاعة لتفعل ذلك.

فجأة حل هو داخل الغرفة، ضخم وكله مرح، غير واع أنه بعد تلك المقابلة لن يرى جوان مرة أخرى.

حاول أن يقبلها، لكن هى منعته "لا، اجلس هناك. نحن لا يجب أن نتبادل القبل لسنوات عديدة مقبلة"

كان على وعى الآن أنه يقف أمام جوان جديدة. لقد كان واعيا أيضا على جوان متجددة كل يوم خلال الأسابيع الماضية. عندما عرفها للمرة الأولى، كانت هى مجرد طفلة، وقد أحبها بسبب طفولتها هذه. الآن عليه أن يتعامل مع المرأة والطفلة فى آن واحد. بشكل غريزى كان فى نفسه يشعر بالجدية فى معاملته لها:

"أعتقد أنه فى إمكاننا أن نتحدث أفضل إذا جلسنا متجاورين"

"لا، فى هذه الحالة لن استطيع أن أتحدث معك كما يجب. يجب أن لا نتقابل بمفردنا بعد اليوم، أو حتى نكتب لبعض؛ أو حتى نعتبر أنفسنا مخطوبين.

"لماذا، من فضلك؟"

"ألا ترى أن موضوعنا مستحيل؟ لقد حاولنا ذلك منذ عدة أسابيع، وكل يوم يتضح لنا أن موضوعنا أصعب وأصعب. بالتأكيد أمك سوف تعارض...والآن فى منزلنا.....والدتى...."

توقفت. لا يجب أن يتركها هكذا، لذا قفز من مكانه ووضع يديه حولها وقبلها. هى لم تقاومه أو تتحرك مبتعدة، لكن عندما تحدثت بعد ذلك، كانت أكثر حماسا وإصرارا:

"لا يا جونى، أعنى كل كلمة قلتها. كل ما يهمنى الآن هو والدى. طالما هو على قيد الحياة، يجب أن أقف بجواره. إنه وحيد، ليس لديه أحد ولا أستطيع أن أفكر فيك وهو بهذه الحالة، هو فى قمة التعاسة والصحة المتدهورة. ليس الأمر هو أننى إنسانة شاطرة أو ناضجة أو أى شىء آخر، مؤخرا فقط الذى سمح لى فيها أن أفعل شيئا له قيمة، لم يكن لدى أية معلومات تختص بإدارة المنزل، أما الآن فكل الحمل على كتفى. لكنى إذا انشغلت بالتفكير فيك، أريد أن أراك، أتسلم منك

رسائل، حينئذ لن أستطيع القيام بوجباتى المفروضة على، لن استطيع حتى التفكير فى....."

"هل مازلت تحبيننى؟ وهل تظنين أننى أنا أيضا أحبك؟"

"نعم"

"هل تظنين أنه فى إمكانى أن أتغير؟"

"ربما يحدث، لكنى لا أود أن أفكر فى ذلك"

"حسنا، إذن، المسألة الرئيسية قد حسمت بالفعل، فلا يهم الزمن الذى يمكن أن ننتظره"

"لكن هذا أمر مهم. ربما يستغرق ذلك أعوامًا وأعوامًا. يجب أن تتزوج، لا يمكن أن تظل غير متزوج، لأنه هناك احتمال أن ترتبط بى يوما"

"ألا استطيع؟ انتظرى وسوف ترين"

"لكن هذا لا يجوز يا جونى، فكر فى عائلتك. فكر فى أمك. أنت الابن الوحيد"

"أتمنى من أمى أن تفكر فى ولو لمرة واحدة فى حياتها، هذا سوف يمثل تغييرا كبيرا فى عاداتها، وقطعا سوف تستفيد منه. لقد أخبرتها عمن أريد أن أتزوج، ويجب أن تعتاد على تلك الفكرة. لقد اعترفت لى أنه ليس لديها أى شىء ضد شخصك، فقط هو أنك صغيرة السن، سألتها بعد ذلك، هل سوف تسعد لو تزوجت أرملة فى الستين من عمرها"

ابتعدت عنه جوان قليلا، اتجهت حتى النافذة وأخذت تتطلع على الضباب الرمادى وهو يتحرك كأنما هو جيش من المرسلين الأشباح، يتحرك عبر المنطقة الخضراء أمام الكاتدرائية، ثم التفتت نحوه "لا يا جونى، هذه المرة ليس مستساغا أن أستمع لنكتة. إننى اقصد تماما ما قلته سابقا. ليس علينا أن نتقابل فيما بعد

أو نكتب لبعض- إلا عندما يكون والدى ليس فى حاجة لى. إننى لا أستطيع أن أفكر، بل ولا يجب أن أفكر، سوى فى والدى فقط. لا يستطيع أى شىء تقوله أنت أو غيرك أن يغير فكرى الآن...أرجو الآن أن ترحل لأن الأمر سوف يكون صعبا على وأنت هنا. علينا أن نفعل ما هو صواب، وأنا لن أتغير أبدا، لكن أنت لك كامل حريتك، افعل ما يليق بك فعله، عليك أن تعثر على الإنسانة التى ترضيك تماما"

لكن يبدو أن جونى لم يستمع لهذه الكلمات الأخرى. كان ينظر حوله، على الجدران، النوافذ والسقف – كأنما هو كلب صغير يتشمم مكانا يزوره للمرة الأولى:

"جوان، أخبرينى، هل تشعرين بالأمان وأنت هنا؟ لا يجب أن تكونى هنا بمفردك، فقط أنت ووالدك فقط. هل من الممكن أن تجلبى أحدا ليعيش معكما؟"

أجابت بكل شجاعة "لا، بالطبع نحن نشعر بالأمان هنا. معنا الخادمة جلاديس التى قضت سنوات فى خدمتنا"

قال وهو ما زال يستجلى المكان "هناك شىء غريب يغمر هذا المكان، يبدو عجيبا فى نظرى، خال تماما من البهجة والمرح"

"لا تهتم بذلك"، قالت هذا وهى تنتقل سريعا نحو الباب، كما لو أنها سمعت وقع خطوات "يجب أن ترحل يا جونى، قبلنى مرة واحدة للمرة الأخيرة، ثم لا ترسل لى أية رسائل، لا شىء حتى- حتى يعود الهناء لوالدى مرة أخرى."

ارتاحت بين ذراعيه، شعرت بالهدوء والراحة يغمرها مرة أخرى، أحاطت رقبته بذراعيها وقبلته فى عينيه وتشبثا ببعضهما، عبارة عن طفلين متعانقين، كل منهما يثق فى الآخر بإيمان غير مزعزع.

شعرا بيد على مقبض الباب، انفصلا عن بعضهما. دخل عليهما الأرشدياكون، لاحظ أن

الغرفة تغرق فى الظلال.

"جوان، هل أنت هنا؟"

تقدمت نحوه "نعم يا والدى، أنا هنا، وهذا هو اللورد سانت ليث"

قال جونى "كيف حالك يا سيدى؟"

"كيف حالك، أرجو أن تكون والدتك بصحة جيدة"

"هى بخير، أشكرك"

"هذا حسن. لدى بعض الأمور أود أن أناقشهما معها، هو موضوع هام للغاية، ربما احضر وأقابلها فورا بعد الظهر إذا لم تكن مشغولة. هل من فضلك تخبرها بذلك؟"

"بكل سرور يا سيدى"

"أشكرك..عظيم الشكر. هذه الغرفة معتمة نوعا، لماذا ليس هناك إضاءة كافية فيها؟ جوان، يجب أن تنيرى الغرفة، ليس هناك أحد آخر هنا، أليس كذلك؟"

"لا يا والدى"

سمع جونى أصواتهما وهى تتردد فى الصالة الخالية وهو يغادر المنزل.

أغلق براندون عليه غرفة مكتبه وأخذ يجول بناظريه حوله. كانت اللمبة التى فوق مكتبه مضاءة والغرفة دافئة والهواء يسرى فيها مستريحا، بينما الكتب تلمع وهى مرصوصة فوق رفوفها، والنار فى المدفأة تطقطق (فالأمر يحتاج للتدفئة فى أمسيات هذا الصيف المتأخر). مع ذلك، بالرغم من أن الغرفة بدت مريحة، لكن لم يدخلها على الفور. وقف فترة بجوار الباب، كأنما هو فى انتظار شىء ما وأخذ يتسمع. المنزل كله كان يسبح فى هدوء تام. فتح الباب وأخذ ينظر عبر

الممر. لم يكن هناك أحد. كان الغاز يصدر فحيحا كأنما هو همس إنسان لحوح. عاد إلى غرفته وأغلق بابه بكل حرص، ثم تحرك بخفة حتى وصل إلى مكتبه، جلس وأمسك بقلمه. كانت عيناه مثبتتين على الباب، فجأة، استدار وهو جالس على مقعده كما لو كان متوقعا أن يضبط شخصا يقف خلفه.

ثم بدأت المعركة التى دائما ما تنشب عندما يجلس إلى مكتبه، وهو أن يسوق أفكاره كما لو كانت قطيع من الماشية لكى تدلف إلى الحظيرة الوحيدة التى يجب أن تشغلها. يجب أن يفكر فى شيء وحيد؛ هناك بالطبع الكثير- صور،آراء، ذكريات، مخاوف بل وحتى رعب- تتزاحم جميعا وتحلق بالقرب منه، لكن- لكن بعد بايبس سوف ينتبه إليها، ما يهم الآن هو أمر وحيد 'نعم أيها المغفلون الحمقى، افعلوا أحقر ما عندكم، القوا بى أرضا، تعالوا زاحفين على أرجلكم الأربعة كالجبناء، اضربونى على ظهرى، اسلبونى زوجتى، خربوا بيتى، وسوف انتبه لكم عما قليل، لكن أولا- بايبس'.

كانت شفتاه تتحركان أثناء تقليبه الأوراق التى أمامه. هل يوجد شخص آخر معه فى الغرفة؟ كان رأسه يؤلمه بفظاعة، لذا وجد صعوبة بالغة فى أن يفكر. ثم هناك موضوع قلبه المستجد! إنه يعمل الآن بغرابة شديدة! خمس دقات، ثم وقفة سريعة يتبعها قفزة، ثم يشعر كأن قلبه قد توقف تماما عن الدق.

شيء آخر جعله يعانى صعوبة فى استئناف عمله فى تلك الغرفة، هو أنه يشعر بان الكاتدرائية قريبة للغاية إليه. هى فى الواقع لم تكن بهذا القدر من القرب، بالرغم أنه فى إمكانك أن تستمع لصوت الأرغن، لكن كان ينشب فى فكرة خيالا يؤكد له أنها قد زحفت نحوه خلال الأسابيع الماضية، وهى الآن تتسمع إليه كما لو كانت بشرا! شيء عجيب أن براندون يفكر فى الكاتدرائية كأنما هى شخص، فهى فى الحقيقة تتكون من طوب وأحجار وملاط، مع ذلك، بدت مؤخرا كأنها تتحرك وقد كونت لنفسها شخصية مستقلة.

خيالات، خيالات، ثم خيالات. فى الحقيقة، يجب أن يهتم براندون بعمله، موضوع بايبس وفورسايث، الذى يجب أن ينتهى تماما فى ظرف أسبوع من الآن. كان يحدث نفسه أثناء تقليبه للأوراق. هو قد تحدث بالفعل مع الأسقف، كذلك مع رايل (وهو مقتنع إلى حد ما)، ومع بنتك ميجور (وهو ذلك الحصان الأسود الذى لا يمكن الوثوق به إطلاقا)، ثم فوستر وروجرز...فوستر؟ هل قابل فوستر؟ لماذا عندما يرد ذكر هذا الشخص يتراءى له منظر معين يجب أن لا يتذكره؟ عبوره القنطرة، صعوده التل، دفع الشلن...لا، لا، أبعد من ذلك. بنتك ميجور! هذا الرجل ضحك واستهزأ به! كيف تجرأ؟ بينما منذ عام سابق، ربما انحنى لكى ينفض الغبار من حذائه!

هذا الرجل! الدودة! الحقير المنافق...بدأ الغضب يتملكه. يجب أن لا يسمح لنفسه أن يغضب، هذا ما أكده الدكتور باديفوت، وهو الشىء الوحيد الذى نطق به هذا الطبيب العجوز وكان صادقا. يجب أن لا يغضب، حتى عندما يرد على باله ذكر- روندر

عند ورود هذا الاسم على مخيلته، بدأ شىء ما يتحرك فى الغرفة، هناك شخص ما قريب منه. بدأ قلب براندون يقفز محموما، كأنما هو فرس يجرى فى حلبة السباق. شىء سيئ. يجب أن يلتزم الهدوء، لا يجب إطلاقا أن يتعصب. للحظات بدأت أفكاره فى عملية تجوال حرة، تدور وتلف حول ميدان كله نوع من الحيرة المألوفة. لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

ماذا حدث، كل هذا منذ عام مضى، وماذا حدث بعد ذلك؟ هو لم يتسبب فى إيذاء أحد وخدم الله بكل أخلاص وأمانة. لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

فليعد مرة أخرى إلى بايبس، هذا ليس بعمل. أمامه الكثير المطلوب انجازه وليس لديه وقت يضيعه، فعدوه يعمل بكل جد واجتهاد، هو متأكد من ذلك! فقط أسبوع!

هل هناك من يتحرك فى الغرفة؟ هل هناك من يتسلل من خلفه؟ كما حدث مرة عندما...؟ التفت بحدة إلى الخلف وهو يرفع جسده قليلا عن مقعده، لم يكن هناك أحد. قام من مكانه وأخذ يزرع الغرفة بشكل متلصص. أسوأ ما فى الموضوع هو أنه مهما كنت بارعا فى خطوك، فإنك لن تكون أبدا متأكدا ما إذا كان هو يسير خلفك أم لا، إنه شخص بارع، يقيس خطواته طبقا لخطواتك، لن تكون أبدا متأكدا. كم هو صامت بيتنا هذا! وقف بجوار الباب، بعد لحظة، فتح الباب بقوة ونظر. لا أحد هناك، فقط هو الغاز الذى يهمس.

ما الذى يفعله وهو يحملق فى الصالة؟ يجب أن ينهمك فى عمله، وأن يكون واثقا من دقته. ذهب مرة أخرى إلى مكتبه، ثم بسرعة بالغة انهمك فى تدبيج خطاب:

**عزيزى فوستر- لا أخفى مشاعرى من أننى لم أكن واثقا من أننى كنت فى منتهى الوضوح عندما كنت أحدثك بالأمس فى موضوع أحقية فورسايث فى الحصول على موقع قس بايبس، وإنه هو أفضل المرشحين. وعندما أقول أفضل المرشحين فهذا يعنى أكثرهم مناسبة لشغل هذا المنصب...**

عندما كتب "أفضل"، هل هذا يعنى "أكثرهم مناسبة"؟

ربما لا تكون "أكثرهم مناسبة" هى الكلمة الصحيحة التى تليق بفورسايث، الأمر يتطلب عبارة أقوى من "أكثرهم مناسبة". هى موضوع يختص باستبعاد ما هو "سيئ" وجلب ما هو "حسن". عبارة "أكثرهم مناسبة" ليست هى الكلمة التى أراد استخدامها. لكن ما الذى يريده حقا؟ أخذت الكلمات والعبارات تقفز فوق الورق، ثم فجأة، فى منتصف المكتب، تراءى له شكل مس ملتون، نعم، أنا أراها بالفعل بملابسها المتغضنة وقبعتها القميئة تتلمظ...حرك يديه فوقها فتلاشت على الفور، ثم

قفز واقفا. هذه علامات غير مطمئنة، يجب أن لا يدع الخيالات تتلاعب به وتسيطر عليه. خرج بعد ذلك إلى الصالة.

أخذ ينادى بصوت عال تردد صداه فى كل المنزل "جوان، جوان". تقريبا فى الحال كانت بجواره، شعر فورا براحة عميقة تشمله! لكن لم يظهر ذلك. يجب أن لا تلاحظ أى شىء غير عادى.

جلست بجواره أثناء تناولهما وجبة العشاء، وتحدثت معه بكل ما ورد على ذهنها الغض. أحيانا كان يتمنى أن لا تسرف فى الحديث؛ إنها لم تكن تتحدث كثيرا فى أيامنا السابقة، أليس كذلك؟ لكنه لم يستطع أن يتذكر ماذا كان هو سلوكها بالضبط فى الأيام الخوالى.

إنه الآن يدقق فى مسألة الطعام المقدم إليه. دائما ما كان يأكل ما يقدم إليه بتقدير بالغ، الآن يبدو أن شهيته للأكل قد انخفضت إلى حدها الأدنى. لكن هو الآن يشكو باستمرار من نوعية الطعام. البطاطس كانت قاسية، اللحم غير مستوى جيدا، الفطائر ثقيلة. أحيانا كان ينسى تماما الطعام، يجلس هكذا محملقا أمامه وقد نسى تماما الطعام الموضوع أمامه.

لم يكن الأمر سهلا على جوان، ليس سهلا أن تختار موضوعات ليست فيها نوع من الخطورة. كثيرا ما لم يكن منصتا لها، ولعلها لم ترث له وتشفق عليه مثل هذه الأيام، حيث تجده الآن وقد حملق أمامه. عيناه حائرتان، مترددتان، حزينتان، كأنما هو حيوان وقع فى المصيدة. كل مخاوفها السابقة غادرتها، لكن حل بدلا منها مخاوف من نوع آخر. أحيانا بنفس أسلوبه السابق، ينطق بعبارات فجائية "كلام فارغ...رغى والسلام...كما لو كان يدرى بما يقول..". أحيانا يشمل كل المكان بما فيه الكاتدرائية والمدينة برعايته وحدبه، مثل قوله "أستطيع أن أدير أى شىء،

وما الذى يمكن أن يفعلونه بدون...". لكن هذه التحديات سرعان ما تتبدد وتختفى تحت ظلال من الحيرة والسكون.

إنه الآن يشكو كثيرا من متاعب دماغه، حيث يضع يديه حول رأسه متألما كطفل صغير "يا له من صداع!"، لكن هو يرفض أن يزوره باديفوت، لقد زاره الطبيب مرة فاشتبك معه فى معركة متهما إياه بأنه عجوز أخرق، لا يعلم شيئا عن أى شىء، بينما كان الدكتور قد حضر تحدوه أنبل المقاصد، راغبا أن يسرى عن الرجل ويشجعه.

بعد العشاء، ذهب هو وجوان إلى غرفة المكتب. دائما بعد العشاء، كان يختفى داخل غرفته هذه بحجة "العمل" - لكنه هذه الليلة هو يشعر بالتعب بسبب الجهد الفائق الذى بذله فى موضوع بايبس. لكن ما الذى جرى للمدينة، منذ عام مضى، كان مثل هذا الموضوع ينتهى فى لحظات... وبمنتهى الوضوح.

جلس على مقعده القديم الذى من فوقه كانت تصدر قراراته وأحكامه الباتة، لكن ليس هناك قرارات باتة هذه الليلة! إنه يشعر بالتعب، لذا أسند رأسه على ظهر المقعد، عيناه مغلقتان، يداه تنقبضان قليلا على ركبتيه.

جلست جوان بجواره، تحاول جاهدة أن تتغلب على مخاوفها. شعرت أنها لو استطاعت أن تقبض على تلك المخاوف بيديها بكل قوة، حينئذ سوف تظهر تلك ضئيلة أمام عينيها وليست بذات أهمية، لكن هى لا تستطيع أن تقبض على هذه المخاوف، تلك التى قوامها الصمت والكآبة، منطقة الملحقات والكاتدرائية، الأشجار الهامسة وخطوات على السلالم، من والدها وشىء غريب يسكن داخله كأنما هو ضيف ثقيل حل فى المنزل واستقر فيه، من شعورها بالوحدة واشتياقها للعثور على صديق يمكن أن تتحدث معه، من احتياجها لابتسامة جونى المعزية المغرقة فى الحب، لكن الأكثر أهمية، وبشكل عجيب، هو حبها لأبيها، كذلك رغبتها الجامحة أن تعود إليه السعادة والفرح. هى بالكاد تفتقد والدتها الآن، بل ولا تتمنى أن تعود

إليهم مرة أخرى، لكنها اشتاقت من صميم قلبها أن تعود النضارة إلى خدى والدها، والنبرة الحازمة فى صوته، والحركة الواثقة المرحة فى خطواته.

هذه الليلة، هى غير واثقة ما إذا كان النوم قد زاره أم لا، لذا أخذت ترقبه، وبدا كأن العالم كله قد حبس أنفاسه. فجأة طافت بوجدانها خيالات سخيفة، أخذت تناضل ضدها لفترة وهو جالسة هناك فيما يداها مقبوضتان بقوة. فجأة تغلبت عليها هذه الخيالات، هناك من يتسمع عليها خارج النافذة، لذا نهضت بخفة، وبكل تؤدة أزاحت الساتر ونظرت. كان الجو مظلما ولم تر شيئا، فقط هى الكاتدرائية كأنما هى شبكة رمادية وخلفها سماء فى لون الحبر الأسود. بدت الكاتدرائية كأنها قريبة للغاية من منزلهم.

ضمت الستائر، ثم سمعت صوت والدها ينادى:

"جوان! جوان! أين أنت؟"

عادت وجلست على مقعدها "كنت انظر من النافذة لأرى نوعية هذه الليلة يا والدى العزيز"

فجأة ابتسم "يبدو أننى نعست قليلا، أشعر بتحسن فى دماغى. اجلسى بجوارى، نحن بمفردنا الآن، أنا وأنت، يجب أن نهتم ببعضنا"

دائما ما كان قليل الاهتمام بها، لدرجة أنها أدركت فجأة أن الوحدة التى عهدتها خلال الأسابيع الماضية كانت أصعب من أن تتحملها، لذا اقتربت منه وقبضت على يده. قال هو:

"نعم، نعم. هذا فيه كل الحق. لا أعلم كيف أمكن لى أن أتصرف خلال الأسابيع الماضية. لقد كنت رائعة مع أبيك العجوز الغبى!"

غمغمت شيئا، لذا اندفع قائلا "أوه، نعم، هذا ما يقولونه! أعلم ماذا يقولون، هم يرغبون فى التخلص منى، بعد ذلك يحق لهم أن يغيروا كل معالم المكان،

ويعينون غير المؤمنين والملحدين. لكنهم لن يتمكنوا من تحقيق مآربهم طالما هناك نفس يتردد فى جسدى..."، ثم استمر فى حديثة متلطفا "فكرى يا عزيزتى، هم فى الواقع يودون إحضار هذا الرجل الملحد ويستون، وعندما وقفت أمامهم ممانعا، نعتونى بأننى مجنون. أوه، نعم! هذا ما يقولونه! لقد سمعتهم. مجنون، موضة قديمة. لقد ضحكوا على- منذ - منذ...هذا الفيل، كما تعلمين يا عزيزتى...هذه كانت البداية..السيرك..."

انحنت نحوه:

"أبى العزيز، لا يجب أن تهتم لما يرجفون به، أنت تتخيل أمورا كثيرة لأن صحتك ليست على ما يرام وتشعر دائما بالصداع...و...بسبب أمور أخرى. أنت تتخيل أمورا ليست حقيقية، كثيرون هنا يحبونك ويجلونك"

"يحبوننى!"، اندفع بشكل فجائى وهو يحملق فى مقعده "عندما يهجم على خمسة منهم ويتناوبون ضربى! هناك وسط عامة الناس والأضواء والأغانى". أمسك بيديه أوضمهما إليه "هناك مؤامرة يا جوان. أعلم ذلك. كنت أدرك ذلك منذ زمن. أعلم من بدأ هذه المؤامرة ومن دفع لإتمامها. كل مكان أذهب إليه، كانوا هم يتتبعوننى. هذه السيدة العجوز تتبعتنى واقتحمت منزلى. نعم، هى فعلت ذلك، قالت، سوف أقرأ عليك نص رسالة، هذا ما قالته، ثم أضافت "أنا أكرهك وسوف أجعلك تبكى دما". كلهم متجمعون فى هذه المؤامرة، وهو ينظمهم ويدفع لهم. لكنى سوف أحاربه، حتى ابنى الوحيد...."، ظهر التأثر فى صوته.

ركعت جوان بقرب قدميه، تنظر إلى وجهه "والدى، فولك يريد أن يحضر ليراك! لقد وصلنى خطاب منه، يريد أن يحضر لينال سماحك...انه يحبك كثيرا"

قام من مقعده، كاد أن يدفعها عنه "فولك، فولك! لا أعرف أحدا بهذا الاسم، ليس لدى ابن...."

التفت ونظر نحوها، فجأة أحاطها بذراعيه وقبلها وضمها بقوة إليه "أنت فتاة طيبة يا عزيزتى جوان، أنا سعيد لأنك لم تهجرينى. إننى أحبك يا جوان. أنا لم أحسن معاملتك أبدا. كثير من الأشياء الخاطئة التى فعلتها، لكن الوقت قد فات... نعم، الوقت قد فات..."

قبلها مرة أخرى وهو يربت على شعرها، ثم قال إنه يشعر بتعب قاتل وأنه سوف ينعس هذه الليلة. ببطء شديد صعد السلم.

خلع ملابسه سريعا، تخلص منها كأنما هى تؤلمه، كما لو أن شخصا آخر قد اقتحم عليه غرفته. وجد نفسه واقفا أمام المرآة الطويلة عاريا إلا من ملابسه الداخلية. أخذ يتطلع على نفسه، ثم أغرق فى الضحك. كم كان شكله مضحكا وهو واقف هكذا! وكم يكون مضحكا أن يسير فى الشارع الرئيسى هكذا! سوف يقولون أنه قد جن. مع ذلك، هو ليس مجنونا. انه كما هو الآن. رفع فانلته فوق رأسه واستمر فى الحملقة فى المرآة، كان يبدو عليه كأنه ينظر إلى جسد شخص آخر. أصابع القدمين طويلة، السيقان القوية، الصدر الواسع الخالى من الشعر، الرقبة الكثيفة الحمراء، ثم هذه العيون! أخذ يمرر أصابع يديه على جنبه شاعرا بذلك الرخام البارد القوى لجسده. فجأة، شعر بالبرد فأسرع بارتداء قميص نومه.

جلس على سريره. شىء فى أعماق كيانه كان يناضل لكى يظهر ويتبدى، فكر معين.. بعض المشاعر.. اسم معين. فولك! بدا الأمر وكأنما هناك جرس يرن من مسافة بعيدة فى تلك المدينة النائمة- لكن تدق من أجله هو. فولك! الألم، الألم العنيف بدأ الاقتراب منه. فولك! قام من سريره وأسرع نحو الباب وفتحه بعنف، أخذ ينظر ويحملق فى منزلة المظلم الصامت. تقدم خطوات، بكل حرص ونعومة، تعثر قليلا فى السلم وأخذ يتحسس طريقه نحو غرفة مكتبه.

جلس على مقعده الأثير. فولك! نعم فولك! آه يا ابنى، عد مرة أخرى. عد! أريدك. أريد أن تكون معى، أن أراك، ألمسك، أسمع صوتك! أريد أن أحبك:

الحب!...الحب! اننى لم أهف من قبل لهذا الحب، لكن الآن، أنا أريده، أرغبه، بكل يأس أريد أن يحبنى أحد، أن أعثر على من أعبر له عن حبى. فولك، يا ابنى أشعر بوحدة قاتلة، الجو حولى كله يسبح فى الظلام، لم أعد أنظر للأشياء حولى كما اعتدت، القتام تزداد وطأته على.

"احضر يا فولك...ساعدنى يا ابنى!"

* * *

## الفصل الثالث

# مقدمات المعركة

فى تلك الليلة نام جيدا وباستغراق، لذا قام صباحا هادئا منتعشا. بدا الأمر وكأن حياته قد سلكت منعطفا جديدا. وبينما هو راقد هناك يراقب أشعة الشمس وهى تتسلل خلال الشراعات كما لو كانت خيوط من الحرير لونها خافت، شعر انه قد عبر أسوا مراحل حياته. لقد صنع ما لم يجرؤ أن يفعله منذ أيام عديدة، فقد سمح الآن لأفكاره الخاصة بزوجته أن تزوره وتبقى ملازمة له.

استعرض فى ذهنه السنوات الطوال التى قضاها معها وأخذ يهز رأسه، مقررا أنه فى كثير من الأحيان يقع عليه اللوم. ثم عندما ورد إلى ذهنه أسوأ ما فعلته معه، من ارتكابها لجريمة الزنا، كذلك خطابها الأخير، هبت عليه هذه كأنما هى مياه سوداء غطته بالكامل وأغرقت عقله...لا أكثر من ذلك، لا أكثر. نعم، كان واجبا أن يصنع ما فعل، عليه الآن أن يفكر فقط فى موضوع بايبس ويحارب من أجل هذا وينتصر، ثم بعد ذلك ينتبه للأمور الأخرى، لكن أشعة الشمس كفت عن أن تتراقص من أجله. أغلق عينيه وأدار جنبه وأخذ يصلى لله معبرا عن حيرته وارتباكه.

ما إن انتهى الإفطار، حتى بدأ العمل، فهناك طارئ قوى يدفعه للأمام، حيث أن اجتماع المجلس لبحث موضوع تعيين قس بايبس سوف يحل بعد ثلاثة أيام، علما بأن كل الإجراءات المختصة بهذا الموضوع قد اكتملت- لكن هذا ليس مبررا لأن يظل هكذا خاملا. هناك عدد من أعضاء المجلس رآهم عدد من المرات خلال الشهور الماضية، كان بلا توقف، يعرض عليهم أحقية ركس فورسايث فى نوال

هذا المنصب، لكن أيضا أصبح هذا الموضوع رمزا بالنسبة له- رمزا لصراعه مع روندر، من أجل معركته، فى سبيل نصرة الكاتدرائية، من أجل إظهار بطولته، من أجل الكنيسة على وجه العموم.

بدا له الأمر أنه قد خسر بالفعل قضيته، هذا يعنى أن الله قد قرر أن يتخلى عنه. كان مجرد ورود فكرة الهزيمة على باله سببا لأن يقفز قلبه فى صدره، بينما أعلام الرصيف تكر كرا أمام عينيه. لكن هذا غير ممكن. لقد تعرض لتجارب قاسية، كما حدث لأيوب الصديق، وتعرض للبلايا التى سوف تثبت فى النهاية أنه إنسان صالح، لكن معركته الأخيرة تلك، أعلنت للعالم كله أن قواه قد قاربت على النفاذ، وأن الكاتدرائية التى طالما أحبها لم تعد مكانا مناسبا له، ثم بعد ذلك...بعد ذلك...

عند قمة الشارع الرئيسى، تقابل مع المرتل رايل. كان هناك وقت عندما كان رايل يشاهد الأرشدياكون، كان هذا يدعوه لأن يحس بالرعشة تسيطر على جسده كله، وهذا النهج لم يكن زمنه بعيدا، لكن هذا وقت انقضى وانتهى. مع ذلك، بالرغم أن الأرشدياكون قد ظهر أمامه الآن عجوزا، مريضا وغير مهم، لكن لا تستطيع أن تقرر ما إذا كان سوف ينطق بكلام بغيض أم لا. شعار رايل الذى يؤمن به هو "علينا أن نلتزم بالأدب فى الحديث مهما كانت الأسباب"، وهو شعار آمن قطعا. أكثر من ذلك، فهو عندما يرتفع عن مجال ما قد يهدد أمان وظيفته الحالية، إذن تجده إنسانا كله رحمة وحنان، لذا كانت مشاعره حقيقية وهو يشاهد الأرشدياكون هكذا، متعبا يهرش فى خده فى المكان الذى لم يكتمل شفاؤه بعد معطيا إياه شكلا غريبا.

كيف يمكن للقس رايل أن يتخيل مثلا مسز رايل وقد هجرته؟ وما سوف تكون مشاعره عندما يقدم ابنه أنتونى (هو فى الخامسة من العمر الآن) على الهروب مع ابنة رجل من عامة الشعب، وفوق كل شىء، كيف يتحمل الموقف عندما يعلم أن كل المدينة تتحدث عنه قائلة "يا له من رجل مسكين هذا المرتل!"،

لكن لعل الأرشدياكون لا يعلم شيئا. شيء غريب عندما لا يعلم الفرد ما يقال عنه! شعر المرتل بالارتعاش يشمله بسبب ما يمكن أن ينطق به الناس فى حقه وهو لا يدرى شيئا عنها!

كل هذه الأفكار والمشاعر مرت سريعا على خاطر رايل، ثم شعر بالاختناق وهو يستمع لصوت براندون الهادئ الذى يحمل فى طياته : رد - على - يا - غبى - وإلا - ألقيتك - أرضا، سمعه يقول "ها! رايل! خرجت مبكرا هذا الصباح! أرجو أن لا يكون فى خطتك مشروعات موسيقية جديدة لتشنف بها آذاننا!"

أوه، حسنا، إذا كان الأرشدياكون ينتوى أن يسلك هذا السبيل معه، فإنه بالطبع لن يتحمل هذا الأسلوب! ولما إذن يتقبل هذا الوضع، اليوم يختلف الموقف تماما عما كان عليه الحال منذ ست شهور.

قال بخشونة "كل شيء يسير على ما يرام يا أرشدياكون، فأنا ومعى القس روندر نهتم بالتجديدات الموسيقية هذه الأيام. انه يمتلك حاسة موسيقية مدهشة كما تعلم، وكل إنسان هنا تجده راضيا بذلك". هذا بالطبع سوف يصدمه عندما يستمع لذكر اسم روندر. فى نفس الوقت، لم يشأ أن يعطى انطباعا أنه قد انضم بالكامل إلى جانب المعسكر الآخر، لذا استعد أن يقدح نوعا فى روندر، عندما لاحظ، لدهشته، أن براندون لم يكن منتبها إليه على الإطلاق! بعد ذلك، لاحظ رايل أن براندون قد شبك ذراعه مع ذراعه، وهما يسيران هكذا فى الشارع الرئيسى. قال براندون "بالنسبة لموضوع بايبس يا حضرة المرتل، هذا الموضوع سوف نصل فيه إلى قرار حاسم فى ظرف ثلاث أيام، أرجو أن يدرك الجميع جدية تلك المؤامرة التى تهدف إلى أن تضع فى هذا المركز ذلك الهرطوقى ويستون. أعتقد أنه يجب على الجميع أن يدركوا ذلك. بالطبع ليس هناك رأيين فى هذه المسألة، فى نفس الوقت..."

يا له من موقف محرج وغير مريح! كان هناك وقت وزمن مضى عندما كان الفخر يملأ أوداجه إذا قام الأرشدياكون بعناق ذراعه وهما يسيران هكذا فى الشارع الرئيسى، لكن هذا الزمن قد ولى، فالشارع الرئيسى الآن مزدحم بالناس، وأى فرد يمكن الآن أن يلحظهما، سوف يوقنون على الفور أن رايل فى صف مؤيدى الأرشدياكون عندما يشاهدونه فى هذا الوضع الغريب، بينما الرجل يعانى من مشاكل عائلية عويصة، وهو عن نفسه يتصرف تصرفات غريبة الشكل، انه، كما يدور همسا، أثناء وجوده فى سوق معرض اليوبيل اشتبك فى معركة فاضحة، وإنه قد وردت ألفاظ مثل "سكران" فى تلك الحادثة.

حاول المرتل بكل وسيلة ممكنة مهذبة أن يفك ذراعه عن ذراع الأرشدياكون، لكن يد هذا الأخير كانت قد قدت من الحديد.

كان الأرشدياكون مستمرا فى الحديث "يبدو لى أن هذا هو الوقت الفاصل فى تاريخ الكاتدرائية، وإذا لم نتكاتف سويا، حينئذ سوف....سوف..."

ارتخت يد الأرشدياكون، وتعلقت عيناه على شخص معين واقف على الجانب الآخر من الطريق. خلص رايل ذراعه، لقد أصبح هذا الرجل غريب الأطوار! رأى من على الجانب الآخر، نعم هو صامويل هوج! رفع هذا قبعته مبتسما، يا له من موقف محرج! شىء مؤسف أن يشتبك الإنسان فى موقف مثل هذا! تأكيدا سوف تغضب مسز رايل إذا عرفت تفاصيل ما يحدث الآن!

لكن خواطره انقطعت سريعا، كان واعيا الآن بوقوف براندون وهو فى كامل طوله، بينما عيناه، كما وصفهما فيما بعد أكثر من ألف مرة "تكاد أن تخرجا من محجريها"، ثم، قبل أن يعد اثنين، عبر الأرشدياكون الطريق مسرعا.

كان اليوم مشمسا والناس تتحرك فى كل اتجاه مبتسمين سعداء. فجأة، لاحظ رايل أن الأرشدياكون توقف أمام هوج، لذا دون أن يشعر عبر رايل الشارع أيضا، وشاهد وجه هوج المبتسم الساخر، ثم فوجئ بالأرشدياكون يرفع قبضته ويهوى بها

على وجه الرجل بضربتين قويتين، بعدها شاهد هوج وهو يتهاوى أرضا كما لو كان كومة من الملابس تقع من الشماعة، واستطاع أن يميز الأرشدياكون وهو يصيح "أنت أيها الجاسوس القذر! تهجم على من الخلف، استطعت أن تفعل ذلك؟ الآن تخشى مقابلتى وجها لوجه، أليس كذلك؟"، ثم زعق "نحن الآن فى ضياء النهار، نعم فى ضياء النهار! قف، واجهنى أيها الجبان!"

أما ما تلا ذلك، وما وعاه رايل المرتعب، لاحظ أن كل الناس توافدوا من كل صوب وحدب، بدا الأمر كأنهم ينبثقون من لا مكان، أيضا رأى هوج والدم ينهمر من وجهه، ما زال راقدا على ظهره، لا يحاول أن يتحرك من مكانه. البعض كان منحنيا عليه ممسكين برأسه، البعض الآخر يمسك ببراندون ويبعده عن المكان، وكان الأولاد السعاة يتسابقون هنا وهناك، وخرج الناس من المحال، وتصاعدت الأصوات من كل مكان- ثم ظهر رجل بوليس وعبر الشارع- بعدها ابتعد رايل.

خرجت جوان بعد الإفطار هذا الصباح وتوجهت إلى المحل الصغير الذى تملكه الآنسة ميليجان، فى الشارع الصغير الذى يقع خلف منطقة الملحقات، لترى ما إذا كان فى إمكانها أن تحصل على بعض الفواكه الطازجة، التى لا يمكن أن تعثر عليها إلا فى دكان مس ميليجان. وقضت وقتا هناك تتسامر مع البائعة، وبعد العاشرة صباحا، خرجت من المحل مسرعة فى اتجاه منزلها.

عند قنطرة أردن، تقابلت مع الين ستايلز، التى بادرتها منزعجة:

"أوه، يا لك من فتاة مسكينة! ألم تكونى فى المنزل؟ لقد أتيت مسرعة لأراك، مستعدة لأن أقدم أى نوع من المساعدة لكما"

"مساعدة؟"، أخذت جوان تحدق فى الريشتين اللتين كانتا تتلاعبان فوق قبعة الين ويدلان على أن هناك أخبارا مسيئة.

"ألم تسمعى إذن؟"، صاحت وهى تأسف من أعماق قلبها لما شاهدته مرتسما على وجه الفتاة من شحوب وعيون مرتعبة.

"لا، ماذا؟ أرجوك أخبرينى سريعا! ماذا حدث؟ شيء يختص بوالدى؟"

"لا أعلم بالضبط، لذا حضرت بسرعة لأعرف التفاصيل...والدك...علمت انه اشتبك فى خناقة كبرى مع المجرم هوج فى الشارع الرئيسى...لا، أنا لا أعرف...لكن انتظرى قليلا..."

اختفت جوان من وجهه وأخذت تجرى ناحية منطقة الملحقات وقد ضمت إلى صدرها كيس الفاكهة.

أسرعت وراءها الين ستايلز، عيناها غارقتان فى مزيد من مشاعر المواساة والعطف، فليس هناك الآن ما يمكن أن لا تصنعه فى مصلحة هذه الفتاة وأبيها المسكين! لقد وقع كلاهما أرضا، وحاليا أصبحت الين تمتدحهما فى كل مكان تحل فيه، ثم هوذا مصيبة جديدة تحل بهما، لعلها نتيجة للإسراف فى الشرب أو الجنون! أو كليهما! يا له من رجل مسكين! وهذه الفتاة، التى بالكاد خرجت من طور الحضانة، ومع كل هذه المتاعب الملقاة على عاتقها! الين مستعدة أن تفعل أى شيء لهما! قررت أن تذهب إليهما فى وقت متأخر من هذا اليوم لترى كيف يمكن أن تقدم لهما يد المساعدة.

لذا أدارت ظهرها عائدة إلى منزلها، انه روندر الذى ارتفع الآن... وعملية جذبه إلى أسفل قليلا لن تحدث له قدرا كبيرا من الضرر، هناك بعض الأمور تود أن تخبره بها، بعض الحقائق المنزلية. ثم وهى فى منتصف الطريق، تقابلت مع جوليا برستون، لكن أليس هناك الكثير الذى يمكن أن يتحدثا بشأنه!

فى نفس الوقت، فى لحظة، كانت جوان أمام باب المنزل، يا ترى ما الذى حدث؟ هل أعادوه إلى المنزل وهو ينزف دما؟ هل هذا الرجل الشنيع قد هجم عليه فى قلب الشارع الرئيسى، بينما الجميع ينظر؟ هل الطبيب متواجد الآن داخل

المنزل؟ لعله يستعد الآن لإجراء عملية جراحية! هذا سوف يقتل والدها، يا له من عار...دخلت المنزل مستخدمة مفتاحها. وقفت فى الصالة، كل شىء فى مكانه والساعة تدق. استطاعت أن تميز صوت الأرغن الخافت يأتى إليها مخترقا الجدران. نافذة غرفة الاستقبال كانت مفتوحة، من خلالها استطاعت أن تسمع زقزقة العصافير المنتشرة فى منطقة الملحقات. كل شىء كما هو. إنها لا تفهم شيئا. ظهرت جلاديس قادمة من المطبخ.

"أوه، جلاديس، هذه هى الفاكهة...هل حضر والدى؟"

"لا أعلم يا آنسة"

"ألم تسمعنه؟"

"لا يا آنسة، كنت فى الدور العلوى أعمل"

"أوه، أشكرك يا جلاديس"

غادرها الرعب- إذن كل شىء على ما يرام، الين ستايلز تبالغ كعادتها، على كل حال هى لم تشاهد شيئا بنفسها، هى سمعت إشاعة معينة. ترددت قليلا ثم توجهت إلى غرفة المكتب. أمامه ترددت نوعا ثم دلفت داخل الغرفة.

لدهشتها، وجدت والدها جالسا هناك كعادته، رفع رأسه، لا تبدو على وجهه أى علامة تدل على أنه قد صادف أى نوع من المتاعب. وجهه كان أبيضا، كبياض الحجر الجيرى، حملق فيها بعيون كلها حياة ولون وانتباه.

"حسنا جوان، ما شأنك؟"

ترددت "لا شىء يا والدى، أردت أن أرى...ما إذا كان..."

"نعم؟ هل هناك أحد يريد أن يقابلنى؟"

"لا... لكن هناك أحدهم أخبرنى... فكرت أن..."

"سمعت أننى قد لكمت مجرما. فعلا هذا ما حدث. انه يستحق ما فعلته به"

شعرت بهزة تشملها، أضاف:

"هل هذا ما تودين معرفته؟"

"هل هناك أى شيء يمكن أن أفعله من أجلك يا والدى؟"

"لا شيء... فقط أتركينى الآن. أنا مشغول، أريد أن أحرر بعض الخطابات"

خرجت، وقفت فى الصالة، يداها مشبوكتان فى بعضهما. ما الذى يمكن أن تفعله؟ أسوأ ما توقعته حدث بالفعل. لقد جن أبوها.

ذهبت إلى غرفة الاستقبال، حيث كانت الشمس تبرق كما لو أنها تشاء أن تحرق السجادة. ما الذى يمكن أن تفعله؟ ما هو ضرورى وواجب أن تصنعه؟ هل عليها أن تلجأ لرجل كبير فى السن تستشيره مثل باديفوت أو مسز كمبرمير؟ أوه، لا. هى لا ترغب فى حضور أحد إلى هنا لكى يرثى له. شعرت بوازع قوى ورغبة أكيدة أن تبقيه بعيدا عن العالم، فى ركن حصين تستطيع فيه أن ترعاه وتغمره بحبها وحدبها عليه، لا تدع أحدا يهينه أو يؤذيه. لكن الجنون!

بالنسبة إلى قلة خبراتها فى الحياة، فإن كل ما استمعت إليه هذا الصباح هو ضرب من الجنون. فى منتصف الشارع وأمام أنظار الجميع يفعل هذا! يا لها من فضيحة. لماذا، الآن، يجب أن لا يستمر بقائهما أكثر من ذلك فى بولشستر...

هذا أسوأ مما عهدته من قبل، وكم سوف يكون مقدار ابتهاج الجميع وهم يتحدثون، مثل القس روندر والآخرون، وكم سوف يبلغ مدى سرورهم بما حدث!

عند ورود هذا الفكر إلى ذهنها، قبضت يديها وأخذت تضرب الهواء، كأنما هى تنازل كل أهل بولشستر، ليس لهم أن يضحكوا منه! كيف يجرؤون على فعل ذلك!

لكن فى نفس الوقت، ما الذى يجب أن تفعله عاجلا؟ ليس آمنا أن تتركه هكذا بمفرده، لقد أقدم الآن على ضرب أحدهم فى الشارع الرئيسى. إذن ما الذى لا يمكن له أن يفعله؟ ما الذى سوف يحدث إذا تقابل مع القس روندر؟ أوه! لما حل به هذا؟ ما الذى فعلوه فى حياتهم ليستحقوا كل هذا؟

ما الذى فعله هو فى حياته وهو الرجل كلى الصلاح المحب لكل الناس؟

شعرت للحظة أنها مغيبة، لا تستطيع أن تفكر، أفكارها ترد إليها بلا وضوح. لذا انتظرت وهى تحدق فى أشعة الشمس والألوان. حل عليها نوع من الهدوء، لقد أصبحت حياته هى حياتها، ليس هناك أى شىء له قيمة فى نظرها سوى هذا. إذا اضطرا أن يغادرا بولشستر، إذن هى سوف ترافقه إلى أى مكان يشاء الرحيل إليه لتهتم به. لكن جونى! فى لحظة مرعبة، بدا واضحا أمامها شكله كأنه شعاع، خارجا فوق الأعشاب التى غمرتها الشمس بكل كرم.

خارجا! نعم، هو دائما فى الخارج، إلى أن لا يحتاجها والدها على الإطلاق. اشتاقت إلى جونى بقوة، لذا انحطت على مقعد قديم وانخرطت فى بكاء ونحيب مر، إنها ما زالت صغيرة والحياة ممتدة الأفاق بالنسبة لها. نعم، لقد بكت وقلبها يكاد أن ينفطر. بعد ذلك، صعدت إلى الدور العلوى حيث غسلت وجهها وانهمكت فى كتابة خطاب لفولك. هى لن ترسل له برقية إلا إذا شعرت أنها غير قادرة على التصرف.

هذا الصباح الرائع تحول فجأة إلى نوع من العواصف والرياح والأمطار. يا لها من عاصفة! أسفل فى غرفة البدروم، بالكاد استطاعت الطباخة أن تميز صوتها، وكما أخبرت جلاديس، فإن هذا الطقس المتقلب يعتبر متوقعا حيث أنهم يخطرون إلى فصل الخريف، وقبل أن تدركى، سوف يحل فصل الشتاء! وليس هناك أغرب من تبدل الفصول وهى تتعامل معك! لكن الطباخة لا تحب العواصف

وهى تمرح داخل هذا المنزل بالذات، فبيوت منطقة الملحقات القديمة هذه، هى دائما ما تسقط فوق أم رأسك دون أن تدري! هى من جانبها تعتبر أن هذه المنزل فيه قدر كبير من الغرابة، لذلك حدثت فيه كل هذه الأمور العجيبة. هنا حضر إليهما صبى البقال، أخبرهما أنهما بالطبع لم يستمعا بكل ما حدث هذا الصباح. ما الذى حدث؟ لماذا، لقد قام الأرشدياكون بضرب صامويل هوج فى الشارع الرئيسى! هذا حقا ما حدث. أنت فى إمكانك الآن أن تلقى بالطباخة أرضا، كما صرحت هى، بمجرد همسة! لقد شعرت بصدمة بالغة لدرجة أنها جلست وجهزت لنفسها كوبا من الشاى، واضطرت جلاديس أن تفعل مثلها. هناك جلستا وقد غادرهما صبى البقال، فى ذلك المطبخ المظلم نوعا وقد تقاربت رؤوسهما يحملقان فى قطرات المطر وهى تطش تباعا فوق الفحم المشتعل. كان المنزل معلقا فوقهما ثقيلا ومظلما. إنه الجنون وليس غيره، وهذا ما أصابه ويفسر كل تصرفاته خلال كل الشهور الماضية. إلا أنه هو إنسان مهذب، لكن أن يصل به الحال أن يضرب الناس فى الشارع! هو إنسان يعتز بالفعل بكرامته، لكنه أيضا يشغل وظيفة أرشدياكون فى الكنيسة، هل سمع أحد من قبل أن أرشدياكون فعل مثل هذا؟ حسنا، هذا فيه الكفاية بالنسبة للطباخة، لقد قضت من عمرها عشر سنوات فى هذا المنزل، لكنها بالتأكيد سوف تتركهم نهاية هذه الشهر. كيف يمكن لها أن تعيش فى منزل به رجل مجنون؟ والحديث الذى دار عن جريمة الزنا فيه الكفاية وأكثر، وهى ملزمة أن تحافظ على اسمها وسمعتها الطاهرة، فقط هى ضحت بالكثير من أجل تلك الفتاة الصغيرة، لكن أن يصل الأمر إلى الجنون!- لا، فهذا ليس زوجا آخر من الأحذية!

ظهرت جلاديس بمظهر غريب. إنها بالفعل قدمت إخطارا بأنها سوف تستقيل، لكنها فجأة قررت أن تبقى. يا لها من مسكينة الآنسة جوان! كلها براءة ولطف- وقد حبست نفسها مع أبيها المجنون. سوف تبقى معها جلاديس، لكن....

صاحت الطباخة "لماذا يا جلاديس، ماذا سوف يكون رد فعل الشاب الذى تصاحبينه عندما يعلم؟"

"إذا لم يعجبه حالى فليرحل. يا الله، كم يهتز هذا المنزل!"

كل فترة ما بعد الظهر، ظل براندون جالسا لا يغادر موقعه أمام طاولة الكتابة. كان يشعر بالانتعاش ومشاعر العار اختفت وزالت، استطاع مرة أخرى أن يتلامس مع مشاعر السعادة التى غمرته عندما لكم هذا الوجه، ثم شعر وهو ينصاع له، وشاهده وهو يتقلب فى التراب والخواء. هذا الوجه الذى استمر يطارده شهورا، أخيرا استطاع أن يقصيه عنه، ومعه اختفت كل الوجوه الوقحة التى طالما زاملته وضغطت على أعصابه. كانت الغرفة غارقة فى الظلام، ودائما فى الظلام كانت هذه الوجوه تقتحم مجلسه- هوج ومعه ذلك الرسام السكير كذلك تلك المرأة العجوز بملابسها القذرة.

لكن اليوم لم يظهروا له، وإذا حضروا فإنه سوف يعاملهم كما عامل هوج، فهذه هى الطريقة المناسبة للتعامل معهم!

كان قلبه فى أسوأ حالاته، يرفرف، يجفل، يدق بعنف ثم يتماوت، أخذ يسير فى الغرفة لعله ينسى حالة قلبه هذه، لكن هو لا يهتم الآن بقلبه! ما يهتم له بالأكثر هو أن يدمر أعدائه - من رجال ونساء نصبوا أنفسهم أعداء له وللمدينة والكاتدرائية أيضا.

فجأة فكر أن يخرج خارجا، لذا سحب قبعته ومعطفه وخرج فى المطر. عبر المنطقة الخضراء ودخل الكاتدرائية باستخدام باب القديسة مارجريت، كما كان يفعل دائما.

كانت الكاتدرائية غارقة فى الظلام، لذا كان يتعثر فى خطوه ويصطدم بالأعمدة والمقاعد. إنه يشعر بالغربة هنا، كما لو أنه لا يعرف المكان جيدا. وصل إلى منتصف الصحن لكنه لم يعرف أين هو. كان هناك ضوء أخضر خفيف يلمع على الجانب الشرقى. كانت هناك مقاعد فى طريقه، لذا وقف يتنصت.

لقد تاه. إنه لا يعرف طريقه بعد. هذه هى كاتدرائيته، مع ذلك تاه! كانت هناك أشكال تتحرك فى كل مكان، يتدافعون حوله ولا ينطقون. الهواء ثقيل بالكاد يستطيع أن يتنفس. هنا يوجد تابوت الأسقف الأسود، دعا أصابعه تتلمس الأعمال المعدنية فيه. كم هى باردة! لمست يده لحية الأسقف الباردة وظلت هكذا معلقة هناك، لا يستطيع أن ينتزعها، لقد التصقت أصابعه باللحية.

حاول أن يصيح، لكن لم يصدر من فيه صوتا. يد ثلجية بكف عريض استقرت عليه وأمسكت به. حاول أن يصرخ. لم يستطع.

صرخ. صوته كان عبارة عن همس. نزل على ركبتيه، أغمى عليه، انزلق على الأرض كأنما هو شخص متعب.

هناك، بعد نصف ساعة، عثر عليه لورانس.

* * *

## الفصل الرابع

# الجولة الأخيرة

في صبيحة يوم اجتماع المجلس، دخل روندر من الباب الغربي منتويا أن يعبر الصحن عن طريق الرواق، وبينما هو يغلق خلفه الباب الثقيل، قفز قريبا منه، كما لو أنه ظهر من لا مكان، هذا الرجل الفظيع دافرى. هو فظيع بالنسبة لروندر، لكن مظهره كان أكثر فظاعة بسبب الطريقة الهمجية التي كان يسلك في مسارها خلال الشهور القليلة الماضية. لقد كان إلى عهد قريب يرتسم على وجهه مظاهر الجد والنبالة، لكن هذا فات وانمحى. بدا عليه هذا الصباح كأنما هو قد قضى ليلته نائما في العراء، وجهه أصفر شاحب، عيناه في حمرة الدم، شعره منكوش، بعض الأعشاب ملتصقة بقميصه الرمادي الحائل.

"صباح الخير يا قس روندر"

أجاب روندر بقسوة "صباح الخير"، ثم حاول أن يعبر متجاوزا هذا الدخيل، لكن دافرى وقف في طريقه "لن أستبقيك طويلا، أعرف تماما نوعية عملك هذا الصباح، أعرف ما سوف تفعله. أنت سوف تعمل على التخلص من هذا الملعون الأرشدياكون. تخلص عليه نهائيا، تعبر فوق رأسه بحيث لا يستطيع بعد ذلك أن يرفع هامته عاليا. أنا أعرف كل هذا. إنه عمل رائع ذاك الذي انشغلت به منذ قدومك إلى هنا يا قس روندر، لكن لست أنت الذي يفعل كل هذا، إنها من صنع الكاتدرائية ذاتها"

"أرجوك دعني أمر، ليس لدي وقت أضيعه"

"أوه، إذن فهذا الحديث يخدش كبرياءك. أنت ترغب أن تحتفظ بالفضل لنفسك. حسنا، أخبرك أن الفضل لا يعود إليك، إنها الكاتدرائية، فالكاتدرائية تشعر بالغيرة كما تعلم- لا تحب أن ينسب واحد من خدامها الفضل لنفسه، هذه الكبرياء هى مسلك خطر بالنسبة لك يا قس روندر. فى ظرف عام أو اثنين، وأنت جالس مطمئنا راضيا عن نفسك، أنظر خلفا إلى تاريخ الأرشدياكون وخذ لنفسك عبرة. انه درس بليغ يقدم لك. صباح الخير يا قس روندر، سعيد بمقابلتك"

ذهب هذا الكائن البائس وعبر منطقة الهيكل وهو يضحك ضحكا مكتوما. يا له من إنسان شقى يسرف فى الشرب حتى خلال الساعات الأولى من الصباح! هز روندر كتفيه كما لو أنه أراد أن ينزع منهما شيئا بغيضا لصق بهما. إنه لم يكن فى مزاج حسن هذا الصباح. هو واثق من النصر- ليس هناك ذرة شك فى ذلك - وعندما تنتهى تلك المسألة، فإنه سوف يشعر بالهدوء يستغرقه مرة أخرى، لكنه منذ أن تحاور مع ويستون، أصبح غير متأكد من هذا الرجل. هل من الحكمة أن يسمح له بالحضور إلى هنا؟ لقد أصبح رضاه الكامل عنه محل شك بالغ، هل سوف يستمر الحال هكذا؟

ثم هذه المأساة التى حدثت فى الشارع الرئيسى منذ ثلاث أيام، يا له من أمر محزن! لقد فقد الأرشدياكون عقله، وهذا آخر شىء كان روندر يرغب فى حدوثه، كانت رؤيته الأساسية ترسم صورة جميلة للأرشدياكون وقد انسحب إلى كنيسة بعيدة تابعة للأبرشية، يقضى فيها بقية حياته، يمضى فيها سنوات عديدة – يمتلك هناك منزلا جميلا به حديقة غناء تتوسطها شجرة بلوط تتناغى فيها الحمائم مستمتعة بالهواء المشمس.

لكن هذا؟ أوه. لا! ليس هذا! روندر هو رجل عملى له منطق سديد، لكن بدا الأمر كأنما هو قد نمى داخله طوال تلك الشهور المنصرمة روحا قوامها الانتقام والثأر أكثر مما يعهده فى نفسه. هو لم يكن أبدا، منذ أن بدأت أولى خطواته حتى نهايتها، علم عن نفسه أنه يميل إلى الأخذ بالثأر أو يهدهد الضغينة ليصبها على

أحد، وواضعا يده على قلبه، يستطيع أن يقسم على ذلك. هذا الصباح، لم يجد نفسه معجبا بالكاتدرائية، تبدو فى نظره عدائية باردة وقبيحة أيضا. هذه الأعمدة الضخمة تبدو فى نظره حقيرة، وزجاج النافذة الشرقية الكبرى يبدو ميتا وقاتما، أيضا هناك ريح تهب وتدور قرب السقف بعيدا، لكنها مع ذلك تصل حتى رأسه.

أسرع الخطو ومعطفه الهائل يحتضنه يرفرف حوله، كل ما يستطيع قوله هو أنه لا يتمنى أن يكون براندون حاضرا فى هذا الاجتماع، فوجوده لن يغير شيئا، والتصويت سوف يسلك طريقا وحيدا. سوف يكون الأمر مؤلما إذا حضر، هذا بالطبع بعد هذا العرض المدهش الذى اشترك فيه فى الشارع الرئيسى. بالتأكيد هو لن يحضر.

شعر روندر بالراحة تشمله عندما دخل غرفة الاجتماعات ولم يجده ضمن الحاضرين. كانوا جميعا وقوفا حول الغرفة يتحدثون فى مجموعات صغيرة- بينما الكاتب بوند منتحيا جانبا كما تمليه عليه التقاليد الاجتماعية. عندما دخل روندر، كان هناك أمران واضحان بجلاء - الأول هو، كم كان مقدار أهميته التى نمت خلال الشهور الماضية بالنسبة لهم. ثانيا، كم كانوا جميعا يشعرون بالتوتر والعصبية، لذا كلهم التفوا حوله.

قال العميد "أوه، روندر, هذا حسن. كنت أخشى أن يعطلك شىء عن الحضور"

"لا، بالطبع لا - يا له من يوم بالغ الرطوبة! يبدو أن الخريف سوف يفد إلينا ثقيلا هذا العام"

أخذوا يتناقشون فى أحوال الطقس، وبين لحظة وأخرى ينظرون نحو الباب بقلق. تقدم بنتك - ميجور وسحب روندر جانبا:

"زوجتى وأنا نتمنى أن تحضر إلينا لحضور حفل عشاء يوم ٢٥ من هذا الشهر. سوف تكون حاضرة معنا بنت عم زوجتى، الليدى كارولين هولمزباى،

وسوف نكون فى منتهى السرور إذا حضرت أنت ومس روندر وشرفتمونا بالزيارة. بالطبع، سوف تكتب زوجتى لمس روندر تدعوها"

"حسب علمى، لست أنا أو عمتى مرتبطين بأية مواعيد، وسوف نكون فى منتهى السرور أن نلبى هذه الدعوة"

"شىء جميل! شىء رائع! لقد فكرنا أيضا أن نقضى تلك الليلة نقرأ بعض مسرحيات شكسبير، ما رأيك فى الملك لير؟"

ضحك روندر "آه، هذا شىء آخر، سوف أكون مسرورا عندما أستمع، لكن أن آخذ دورا..."

"لكن هذا يجب أن يحدث! يجب!"، قالها بنتك - ميجور وهو ممسك بزرار من معطف روندر، وهى عادة يمجها روندر ويكرهها "ما تحتاجه مدينتنا بالفعل هو مزيد من الثقافة والتثقيف - عديد منا كان يفكر هكذا. أعتقد أنه قد آن الأوان أن نبدأ بقراءة أعمال شكسبير فيما بيننا - تحديدا فيما بيننا بالطبع - المشكلة فى شكسبير أنه أحيانا ما يكون أكثر جرأة بالنسبة للقراءات المشتركة - هذا بالطبع يقف فى سبيلنا - مع ذلك، نحن نأمل...أنا واثق أنك سوف تنضم إلينا فى القراءة يا فس روندر"

"إننى لا أعد بشىء، وإذا علمت كم أنا سيئ فى موضوع القراءة، فإنك سوف تتردد فى طلب ذلك منى"

نظر العميد إلى ساعته "أعتقد أننا تجاوزنا موعدنا، كلنا هنا، ولم يتبق سوى براندون وويزرام. ويزرام فى مهمة بمدينة درايماوث وقد كتب لى. كم من الوقت علينا أن ننتظر..."

قال رايل وهو متعصب "بالكاد أصدق أن يحضر الأرشدياكون، إنه ليس بصحة جيدة. أظن أنكم تعلمون أن لورانس عثر عليه منذ ثلاثة أيام مغميا عليه داخل الكاتدرائية. أصبحت صحته متدهورة كما أخشى"

ظهر الاهتمام على وجوه كل الحاضرين. لقد استمعوا إلى هذه الأخبار سابقا..لكن أن يغمى عليه ؟ هنا فى الكاتدرائية؟ نعم، بجوار تابوت الأسقف الأسود. لقد كان فى حالة أفضل بالأمس، لكن لا أحد يظن أنه قادر أن يحضر اليوم.

قال العميد وهو فى قمة التأثر "يا له من رجل مسكين، لقد سمعت شيئا... وهذه هى نتيجة لتلك المشادة التى حدثت فى الشارع الرئيسى، هو بالتأكيد فى صحة غير مواتية إطلاقا"

الكل ردد "يا له من رجل مسكين"، لكن كان واضحا أن هناك حالة من الارتياح سائدة، ليس هناك توقع أن يحضر.

فتح الباب، ظهر هو. أتى مسرعا، بعض من الأوراق فى يده، على محياه نفس ملامح الجد والأهمية القديمة التى اعتاد على الظهور بها، لكن مع ذلك، كم هو قد تغير! بدلا من أن يتحرك ليشغل مقعده المعروف على المائدة الطويلة، تردد قليلا، ناظرا نحو بنتك - ميجور، ثم إلى فوستر وعلى الكاتب بوند، نصف محتار، كما لو أنه لم يشاهدهم من قبل،قال:

"أرجو قبول اعتذارى يا سادة للتأخير، يبدو أن ساعتى بها بعض التأخير"

أظهر سيادة العميد أريحيته التى يتصف بها دائما "من فضلك، اجلس هنا عن يمنى"، ثم بشكل حازم "لقد تأخرنا قليلا كما أخشى، لكن ولا يهم- نحن جميعا حاضرون، ما عدا الأرشدياكون ويزرام، الموجود حاليا فى درايماوث، وقد أرسل خطابا بذلك"

جلسوا جميعا فى أماكنهم. روندر مكانه فى مواجهة براندون، بينما استرخى فوستر على مقعده بنفس طريقته المعتادة التى توضح انه غائب الذهن. حاول رايل أن لا ينظر إلى براندون، لكن عيناه كانتا مسحورتين، تبدوان وهما تعومان فى مجاليها الدمعيين كما لو كانتا سمكة تنتظر الطعم.

تساءل العميد "هل نبدأ اجتماعنا بالصلاة، نسأل بركات الله فى عمل اليوم؟"

تلوا جميعا صلواتهم برؤوس مطأطئة، وقد ظلت رأس براندون مطأطئة فترة أطول عن الآخرين. وعندما رفع رأسه، أخذ يحدق فيهم محتارا.

قال العميد بصوته الناعم المتعجل، كما لو أنه يحثهم على أن يقدموا له أزهارا يضمها إلى مجموعته "كما تعلمون جميعا أن اجتماعنا اليوم له أهمية خاصة، وبموافقتكم سوف أؤجل الأعمال العامة إلى الاجتماع القادم، إذا لم يكن هناك اعتراض على ذلك؟"

لا أحد معترض.

"حسنا، كما تعلمون، فإن مهمتنا اليوم هى تعيين خلف للمسكين القس موريسون ليشغل وظيفة قس بايبس سان أنتونى. فى الأحوال العادية، مثل هذا الإجراء ليس له أهمية عظمى، لكن بالنسبة لبايبس الأمر مختلف، وإذا كان هذا تقليد صحيح أم خاطئ، فقد جرى العرف على أن يعين فى هذا المكان أناس متميزون. وكان من حظنا الحسن أن من شغلوا هذا المنصب كانوا جميعا متميزين، هم جميعا حصلوا على مراكز عليا فى الكنيسة فيما بعد. أيها السادة، أرجو أن تتذكروا ذلك وأنتم تقررون هذا الصباح، فى نفس الوقت أرجو أن تقدروا هذه التقاليد التى تحكم هذا الموضوع، وأن هذا المركز ظل خاليا مدة أطول من المعتاد."

توقف عن الحديث، ثم أمسك بقطعة ورق أمامه:

"لقد عقدت عدة جلسات بخصوص هذا الموضوع، وهناك عدد من الأسماء ذكرت أمامنا، واعتقد أننا اتفقنا الأسبوع الماضى على اسمين يجب أن نركز عليهما. إذا لم نتفق اليوم على تعيين أحدهما، إذن علينا أن نفكر فى ثالث، وهذا الإجراء الأخير أرجو أن لا نلجأ إليه. هذان الاسمان هما المحترم القس ركس فورسايث، وهو مساعد الأسقف كليمانس. والآخر هو المحترم القس أمبروز

ويستون الذى يعمل حاليا فى كنيسة سانت ادوارد،هوستون. بالنسبة للأول، فهو معروف لجميعنا شخصيا، أما الثانى فنحن نعرفه من خلال كتاباته. لذا أرى أن نبحث فى الموضوع الثانى أولا، وهو مستر ويستون. أنت يا قس فوستر، اعتقد أنك صديق له، لذا فأنت مؤهل لأن تخبرنا لماذا هو جدير بالحصول على هذا المركز.

قال فوستر وهو يعبس فى كل الوجوه، لكنه اختار أخيرا وجه بوند الصغير باعتباره هو العدو الخطير، وأخذ يزجره بعينيه "هذا يعتمد على ما تريده وترغبه، إذا أردت أن تجعل حياة التدين هنا، كما هى حاليا، ميتة وبلا معنى، إذن عليك أن تختار فورسايث، لكنى لا أود أن أكون خصما لأحد، فقد شبعت من الخصام خلال الشهور الماضية، وقد فاض بى واشعر بالخجل لأننى اشتبكت فيها، لن أقول أكثر من ذلك - إذا أردت هنا إنسانا أمينا، يخاف الله، فليس أمامك سوى ويستون. أعلم أن البعض منكم خائف من كتبه، لكن أبلغكم أنه سوف تظهر كتب أسوأ من كتبه وأنتم تتقدمون فى العمر. هذا ما أردت أن أخبركم به! لقد نبهت على نفسى قبل حضورى أننى لن أنبس بحرف واحد هذا الصباح، ولم يكن لازما أن أعبر عن آرائى هذه، لأننى أعلم أننى أخطأت أمام الله، بينما كنت أظن أننى أكافح من أجله. أؤمن يقينا أن ويستون هو أنسب شخص لتنمية الحياة الروحية لهذا المكان، أوقن أيضا أن لا أحد منكم سوف يندم إذا وافقتم على حضوره إلى هنا، ولن أستطيع أن أدلى بأكثر من ذلك"

ما الذى حدث لفوستر؟ توقعوا أن يستمعوا إلى حديث كله عراك، لذا أصبحت حالة عدم الارتياح والقلق التى سادت الاجتماع أكثر وطأة.

طلب العميد من روندر أن يدلى بدلوه.

اتكأ روندر قليلا إلى الأمام، دافعا نظارته إلى الخلف بأصابعه، لقد مال هكذا لكى لا يشاهد براندون. بالصدفة، هو لم يشاهد براندون منذ أكثر من أسبوعين، لذا

شعر بالخوف والذعر وهو يلاحظ التغييرات التى حدثت له، ذلك الوجه الرمادى الأبيض، تلك العيون الزائغة غير المستقرة، جميعا تنتمى لشخص آخر، أما الأصابع الطويلة البيضاء التى تتحرك باستمرار وتنقر فوق المائدة، فهى تختص فى الواقع لشخص غريب. يسكن فى عيون الجميع اتهام مضمر بأنه هو الذى تسبب فى حدوث كل هذا للرجل، لذا يا ترى، كم عين أخرى فى المدينة توجه إليه نفس الاتهام؟ يجوز لك قطعا أن تقرر أنه إذا كان براندون يتمتع بقدر وافر من القوة الروحية والخلقية، لما استطاع روندر أن يفعل به ذلك، لكن كيف يمكن لأى إنسان أن يتفهم ذاته قبلما يتعرض للتجربة؟ نلاحظ أيضا أن براندون قد تضافرت عليه مشاكل زوجته وابنه وصحته، ثم هذا الموضوع أيضا...لكن إذا لم يفد روندر أساسا لهذه المدينة، هل كان قد حدث لهذا الرجل كل ما حصل؟ ألم يكن بينهما نزاعا منذ أن وطأت أقدام روندر هذه المدينة؟ كذلك، ألم يتعاهد روندر مع نفسه أن يسير فى هذا الطريق حتى منتهاه؟ وما الذى أسر به لفولك وكذلك لتلك السيدة التى انتوت أن تخرب العلاقة الزوجية ما بين الرجل وزوجته؟

كل هذا عبر على خاطر رواندر فى ثوان، وربما لا تفارقه طالما هو على قيد الحياة، لقد كان فى هذا الصراع، الذى استمر طويلا، أكثر من هزيمة واحدة. كان يعلم أنهم جميعا فى انتظاره، لكن الأفكار أبت أن تساعده. ويستون؟ فورسايث؟... فورسايث؟ ويستون؟ من هؤلاء؟ ما شأنهم فيما يختص بعلاقته الشخصية بهذا الرجل الجالس مقابله؟

احمر وجهه، يجب عليه أن ينطق بشيء. بدأ فى الحديث، وبدأ عقله المرتب يفرز الكلمات فى نعومة وثبات واستطراد، لكن روحه كانت تراقب روح براندون.

"عزيزى وصديقى فوستر، يعرف جيدا مستر ويستون أكثر منى، لذا ليس لى أن أخبركم عن نوعية هذا الرجل، لكنى أنظر إليه كأنسب شخص يمكن أن يشغل هذا المكان، لأننى اعتقد أن كاتدرائيتنا، التى نحبها ونعتز بها، هى فى انتظار قدوم مثل هذا الرجل. بالنسبة لأخلاقه، لا أعتقد أن أحدا يمكن أن يوجه إليه

اتهاما، فهو معروف أمام العالم أجمع أنه إنسان يخاف الله. انه ليس شابا؛ وله خبرة عظيمة في كل المجالات؛ هو إنسان محبوب وله قابلية غير منكرة. المشكلة هي لا تختص بأخلاقياته أو سلوكياته بل في أفكاره، تلك التي انتقدها البعض. انه إنسان حضاري، له عقلية باحث، لا يرضى بقبول شيء أقل من الحقيقة. هل هذا يمكن أن يضرنا إذا حضر إلى هنا؟ أعتقد لا. أعتقد أن البعض منا، إذا جاز لي القول، يصيبهم الخوف سريعا من الروح الحديثة التي تهتم بالبحث والتدقيق. أعتقد أنه واجبا علينا نحن رجال الكنيسة أن نقبل التحدي الذي ربما يصدر من العلماء أو السيكولوجيين أو أي شخص آخر- أعتقد أنه لم يمر وقتا طويلا وسوف نضطر أن نفعل ذلك سواء أردنا أم أبينا، وأظن أن مستر ويستون هو الرجل المناسب ليساعدنا في مواجهة هذه الأزمة. ربما لا تكون آراؤه متطابقة تماما مع آراء البعض منا في هذه الأبرشية، وليس عندي أدنى شك أنه إذا حضر إلى هنا، فسوف تحدث بعض النزاعات من وقت لآخر، لكني أعتقد أن تلك النزاعات سوف تعمل جميعها في مصلحتنا. أن الله لم يقصد أن نجلس هكذا نطرقع في أصابعنا ولا نستخدم عقولنا أبدا. لقد منحنا الذكاء، وأعتقد أنه يقصد أن نستخدم هذه الميزة في كل حين.

بالنسبة لكل هذه الأمور، فإننا فعلا في حاجة لمستر ويستون. انه رجل جاب العالم كله، وله خبرة ممتازة في كل شيء ولا أحد ينكر عليه شخصيته الجذابة. أعتقد أننا سوف نكون محظوظين إذا حضر إلى هنا...."

توقف روندر. شعر كأنما هو يضرب الهواء الخفيف بيد عاجزة، بدا الأمر كأنه لا أحد يستمع إليه أو يفكر فيه، ولا حتى يفكرون في ويستون. كانت أذهانهم مشغولة بذلك الهيكل العريض الجالس وسطهم، لكنه ليس هو واحدًا منهم.

في الحقيقة، بدأ براندون في الحديث قبلما ينتهي روندر، لم يرفع رأسه، لكنه انشغل في التحديق في أصابعه الطويلة. كان حديثه أولا نوعا من الهمس، لذا لم تصلهم الكلمات الأولى:

"... بالرعب... بكل هدوء... هذه الحالة..."، ثم تدريجيا وضحت كلماته، بينما هو يحدق فى روندر: "اننى أشعر بالرعب لهذا القبول المتحمس لرجل يعتبر من الملحدين"، فجأة رفع رأسه بشكل التحدى القديم المعهود فيه، واستمر بصوت واضح لكنه ضعيف وأحيانا يبدو متلعثما:

"أيها السادة، ربما يكون هذا هو آخر ظهور لى فى اجتماعات المجلس، اننى لم أكن بصحة جيدة مؤخرا كما تعلمون، كنت أعانى من بعض المتاعب، لذا أرجو أن تسامحونى إذا لم أعبر عن مكنونات نفسى بكل وضوح كما اعتدت على ذلك. لكن أول شىء أود أن أقوله، هو أنكم عندما تقررون فى هذه المسالة يجب أن تجتهدوا أمام الله، أن تستبعدوا شخصى تماما من أذهانكم. لقد تعلمت الكثير وأنا تحت سلطان يد الله خلال بضعة الشهور الماضية، لقد أوضح لى ضعفتى وأخطائى، أعلم الآن أنه بسبب هذه الضعفات هناك البعض فى هذه المدينة سوف يعارضون أى شىء من الممكن أن أقترحه، ببساطة لأنهم يتمنون لى الهزيمة. أرجوكم فى هذا الصباح أن لا تفكروا فى على الإطلاق، لكن فكروا فيما هو حسن..جيد..ولائق" أخذ ينظر حوله وقد تملكته الحيرة، بينما يعبس بطريقة غريبة فى وجه روندر، ثم استأنف "حسن ولائق بالنسبة لله ونشاط كنيسته. اننى لست فى صحة جيدة الآن أيها السادة؛ وأفكارى لا ترد إلى بوضوح هذا الصباح، وهذا شىء محزن، لأننى كنت فى شوق لحضور هذا الاجتماع بالذات منذ عدة شهور ماضية، راغبا أن ابذل كل جهدى لأحارب فى سبيل مسألتى..."، تغيرت نبرة صوته "نعم، أحارب"، ثم صاح "إلا انه لا يجب أن يكون هناك نزال معين بخصوص هذه المسألة، لكن ما الذى جرى لنا طوال العام الماضى؟ منذ عام مضى، لم يكن هناك واحد منا يفكر فى تعيين مثل هذا الشخص هنا. هل قرأتم كتب هذا الرجل؟ هل قرأتم مقالاته فى الصحف المملوءة بالوقاحة والتعدى؟ إنه دائما ما يعارض حتى فى أساسيات الإيمان الراسخة..."

قاطعه فوستر "لا يا أرشدياكون، هذا غير حقيقى، وليس لديك دليل على ذلك". تملك براندون فى الحال نوع من الحيرة بسبب هذه المقاطعة، نظر نحو فوستر وفتح فاه كأنما سوف يسعى لاستئناف الحديث، ثم فجأة وضع يديه فوق رأسه:

"أرجوكم، أعطونى الوقت اللازم، سوف اثبت لكم كل شيء. أرجوكم"، ثم التفت فجأة ناحية العميد "أتوسل إليكم أن تؤجلوا البت فى هذا التعيين لمدة شهر واحد فقط، هى مسألة خطيرة ولا يجب البت فيها بهذه السرعة..."

قال العميد بكل وضوح "تقول بسرعة، لقد توفى موريسون منذ عدة شهور، لذا من الضرورى أن نعين غيره هذا الصباح"

صاح براندون وقد وقف نصف قومة من مقعده "إذن فكروا جيدا فيما تفعلونه، هذا الرجل يتلاعب بكل استهانة بمقدسات الكنيسة، لقد بدأ بالقليل لكى يستولى على الكثير. يجب أن نلتزم بأساسيات عقيدتنا. ربما يكون هذا الرجل صالحا ومخلصا. لكن إيمانه يختلف تماما عن إيماننا، وكنيستنا التى نحبها...نحبها"، توقف.

"أنتم جميعا ضدى، يد كل إنسان هى على الآن، بغض النظر عما إذا كان ما أنطق به صحيح أم خاطئ، لكن من أنا؟ ومن أنتم. وأى واحد منكم المجتمعين فى هذه الغرفة بجوار حقيقة الله؟ لقد رأيت الله، سرت معه، وسوف أسير معه مرة أخرى وسوف يخلصنى من كل متاعبى، وسوف يدعونى لأخطر فى مراع خضر...."

احمر وجهه "أستميحكم عذرا أيها السادة، اننى أستهلك وقتكم. يجب أن أقول شيئا فى حق مستر فورسايث، إنه شاب، يعرف هذا المكان جيدا ويحبه، هو يهتم به وسوف يحافظ على عوائده القديمة، إنه يهتم بكل ما نهتم به، لذا أرجو أن تهتموا به هو أيضا"

حدثت فترة صمت طويلة، كانت قطرات المطر تضرب زجاج النوافذ بقوة، والغرفة شبه مظلمة، لذا طلب العميد من بوند أن يشعل الغاز، وانتظروا جميعا أن يحدث هذا. أخيرا تحدث العميد :

"نحن جميعا ممنونون لك يا حضرة الأرشدياكون لمساعدتنا بحديثك هذا. أعتقد أيها السادة طالما أنه لا يوجد أسم ثالث، إذن يجب أن نجرى تصويتا على الاسمين فقط. هل يوجد اسم ثالث مقترح؟". لم ينطق احد.

"حسنا، إذن، وخلافا لعادتنا، أرجو أن يسجل كل واحد منا رأيه فى ورقة، ولدى هناك خطاب الأرشدياكون ويزرام وقد وضح فيه اختياره."

وضعت الأوراق والأقلام أمام كل واحد فيهم. تم التسجيل ووضعت الأوراق أمام العميد. أخذ يفتح الأوراق واحدة بعد الأخرى. أخيرا قال:

"صوت واحد لمصلحة مستر فورسايث، والباقى لمصلحة مستر ويستون، لذا سوف يعين مستر ويستون كقس لمنطقة بايبس سانت أنتونى"

وقف براندون على قدميه، جسده كله كان يرتعش كأنما هى شجرة تترنح، وبسط يديه:

"لا...لا...توقفوا للحظة، يجب عليكم...كلكم..يا سيادة العميد...أوه، يا الهى ساعدنى الآن! جميعكم تأثرتم بسبب مشاعركم نحوى. أرجوكم...انسونى، أبعدونى، انفونى من هذه المدينة. أى شىء، أى شىء...أتوسل إليكم، يجب أن تفكروا فقط فى مصلحة الكاتدرائية لا غير. إذا سمحتم بحضور هذا الرجل، إذن هى النهاية. اتقوا الله...فكروا فى المستقبل.. فى مسئولياتكم أمام المولودين حديثا الذين سوف يحضرون إليكم يوما يسألوكم قائلين "أين هو إيماننا؟ لماذا سلبتمونا إياه؟ أعيدوه إلينا! أوه، توقفوا للحظة. أجلوا هذا الموضوع لفترة بسيطة...لا تفعلوا ذلك أيها السادة!"

أدركوا بالفعل انه مريض. كان جسده يرتعد كما لو أنه قد فقد السيطرة عليه. يداه كانت ترتعشان، تلوحان، تتوسلان...

فجأة انهمرت الدموع غزيرة من عينيه.

صاح "لا أتحمل أبدا هذا العار! اقتلونى، لكن فقط أنقذوا الكاتدرائية!"

وقفوا جميعا، أتى نحوه كل من فوستر ورايل. قال فوستر:

"يا حضرة الأرشدياكون، اجلس من فضلك. أنت مريض. ارتح قليلا"، لكنه بكتفيه استطاع أن يزيحهما جانبا، ومقعد بجواره وقع على الأرض من جراء حركاته.

نظر نحو روندر:

همس "أنت!...عدوى. هل سررت الآن؟"، ثم مد يديه نحوه "خذ بيدى، لقد صنعت أسوأ ما لديك"

استدار كما لو كان راغبا أن يغادر الغرفة، تعثر، أمسك بكتفى فورستر محاولا إنقاذ نفسه من السقوط، مال نحوه وهو يحملق فى وجهه:

"مع ذلك..الله محبة..أنت تخونه مرة ومرات..لكن دائما ما يعود إليك"

قبض على كتفى فوستر بكل قوته:

"لا تفعل ذلك يا رجل، لا تفعل. روندر هزمنى، لكن ليس هذا مبررا أن تخون الله...اعطنى مقعدا أجلس عليه..أحس بالمرض يداهمنى..."

وقع على ركبتيه:

همس "إنه...الموت"، ثم وهو ينظر نحو فوستر مرة أخرى "قلبى، هو أيضا خاننى"

ثم وهو يحنى رأسه...مات.

**(تمت)**

## المؤلف فى سطور:

ولد سير **هيوج ولبول** فى نيوزيلندا عام ١٨٨٤ من أبوين بريطانيين. كان والده يعمل قسا هناك، ثم انتقلت العائلة أولا إلى أمريكا ثم إلى بريطانيا، حيث عمل الوالد أسقفا لمدينة أدنبرة منذ عام ١٩١٠. تعلم الابن فى مدارس أمريكا وانجلترا إلى أن تخرج من جامعة كمبردج عام ١٩٠٦. كانت رغبة والده أن يعمل ابنه فى المجال الكنسى، لكن الابن رفض ذلك واشتغل أولا بالتدريس ثم بالعمل الصحفى.

يقال إنه كتب أولى رواياته وهو فى الثانية عشر من عمره، لكن روايته الثالثة وهى "العزم والثبات"، هى التى جلبت له الشهرة والذيوع والثروة أيضا. هذا الروائى كان غزير الإنتاج، وقد ألف ٣٦ رواية بالإضافة إلى مئات القصص القصيرة ومسرحيتين وعدة كتب نقدية، وكان يتنقل ما بين انجلترا وأمريكا يلقى المحاضرات..وعندما زار هوليود عام ١٩٣٥، اشترك فى كتابة سيناريو روايتين هما "دافيد كوبرفيلد"و "لورد فونتلبروى الصغير" وظهر فى دور صغير فى كل من العملين.

عندما نشبت أوار الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، لم يقبل فى الجيش بسبب ضعف بصره، لذا التحق بالصليب الأحمر الروسى وخدم هناك ونال ميدالية قيمة لأنه استطاع أن ينقذ جريحا من خط النار. من هناك، شهد بدايات قيام الثورة الروسية عام ١٩١٧، وكتب روايتين وصف فيهما هذه المرحلة هما "الغابة المظلمة" (١٩١٦) و "المدينة السرية" (١٩١٩).

أشهر أعمال هذا الروائى كانت رباعية "عائلة هيريس" (روج هيريس، جوديث باريس، القلعة، فانيسا) حيث استمر سرد أحوال هذه العائلة على مدى ٢٠٠ سنة. وقد ألف هذا الكاتب عدد من الروايات المختصة بالأطفال، وفى أواخر أيامه اهتم بكتابه روايات الرعب والأشباح.

يصنف هذا الكاتب فى إنجلترا بأنه لا يقل منزلة عن أنتونى ترولوب، توماس هاردى وهنرى جيمس..ويقال إنه كان يكتب بدمائه، ويمتاز بقدراته التحليلية البارزة، سواء عندما يصف الأشخاص أو المناظر المحيطة، هذا وقد حصل على درجة فارس عام ١٩٣٧ على يد الملك جورج الخامس.

هذا الكاتب لم يتزوج، بل عاش ثريا محاطا بمجموعة من كلابه، وتوفى عام ١٩٤١ على أثر نوبة قلبية.

هذه الرواية التى بين أيدينا "الكاتدرائية"، كتبها عام ١٩٢٢، وحولها إلى مسرحية عام ١٩٣٧، وقد نشرت منذ ظهورها عشرات المرات وما زالت تنشر حتى الآن فى إنجلترا وأمريكا.

* * *

## المترجم فى سطور

## سمير محفوظ بشير

كتب للمسرح الكوميدى .. وتم تصوير مسرحيتين له فى أبو ظبى عام ١٩٨٠ باسم : بس فينك يا عريس، عش الغرام

ترجم عدد من الكتب لدار ميريت منها:

| | |
|---|---|
| - قصة جوجل | تأليف بيتر فايس |
| - عن الكتابة | ستيفن كنج |
| - احتفال | مؤلفة ذات أصل أمريكى أصلى (هنود حمر) |
| - ساعة عدل واحدة | دار الهلال |
| - أبى طويل الساقين | المركز القومى للترجمة |
| - شحات من مصر | المركز القومى للترجمة |
| - أصدقاء وكفار | المركز القومى للترجمة |

المراجعة اللغوية : مسعود حامد
الإشراف الفنى: حسن كامل